

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

كلية: أصول الدين

قسم: العقيدة ومقارنة الأديان

تخصص: عقيدة



جامعة الأمير عبد القادر

للعلوم الإسلامية قسنطينة

الرقم التسلسلي:

رقم التسجيل:

للإنسان وسنن التغيير

في فكر الأمير عبد القادر الجزائري

أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه ل م د

تخصص عقيدة

إشراف الأستاذة الدكتوراة:

الزهرة لالح

إعداد الطالبة:

أميرة زايدي

الصفة	الجامعة الأصلية	الرتبة	أعضاء المناقشة
رئيسا	جامعة الأمير عبد القادر - قسنطينة -	أستاذ	أد/ نور الدين سكحال
مشرفا ومقررا	جامعة الأمير عبد القادر - قسنطينة -	أستاذ	أ.د. الزهرة لالح
عضوا	جامعة الأمير عبد القادر - قسنطينة -	أستاذ	د/ ياسين بريك
عضوا	جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي	أستاذ	د/ جمال الأشرف
عضوا	جامعة بن يوسف خدة 1	أستاذ	د/ عبد الرحمان طيبي
عضوا	جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي	أستاذ	د/ زهير بن كتفي

السنة الجامعية : 1445 - 1446 هـ / 2024 - 2025 م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



شكر وتقدير

الحمد والشكر لله الذي هدانا إلى صراطه المستقيم، ويسر لنا طلب علمه الشريف

وخصنا عن عبادته بالذكر المجيد وإذا كنا شاكرين أحداً بعده:

أتقدم بشكري اخالص لأستاذتي الفاضلة الدكتورة "كلح الزهرة" التي تفضلت

وتكرمت عليّ بقبولها الإشراف على هذه الأطروحة، وما غمرتني به من كرم أخلاقها

وعلمها.

كما أشكر كل من مدّ لي يد العون من قريب أو بعيد





إهداء

نسأل الله أن يتقبل منا هذا العمل، وأهدي ثمناه إلى كل من:

روح أميرنا الطاهرة "عبد القادر الجزائري" العالم المجاهد.

إلى جامعتي الحبيبة "جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة" منارة العلم والعلماء وإلى كل
القائمين عليها والساهرين على تطويرها ونجاحها.

إلى كل أساتذتها وعملها وطلابها.

إلى كل من يبحث ويطوف حول الحقيقة والهداية من بني البشر.

إلى كل أفراد عائلتي كبيرهم وصغيرهم.

إلى روح أختي الغالية "أمينة" رحمها الله.



مقرّة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله الكريم.

أمّا بعد:

حاول الإنسان منذ القدم أن يعرف كنهه وكيانه، فبحث في هذا الوجود، وفي الطبيعة، وفيما وراءها، ليلبي فضوله المعرفي وتساؤلاته التي يثيرها حول أصله، ومادته، وقواه، وقدراته، وأهدافه وغاياته...، ولقد تعددت الدراسات التي تبحث في هذا المجال، وتعددت معها النظريات والأفكار فمنهم من جعل هذا الإنسان ذو قيمة إلهية، فبعد في أزمنة وأمكنة من دون الله، ومنهم من أرجعه إلى أسفل السافلين بعبادة شهواته ومادّيته، ومنهم من أدخل الإنسان في صراع دائم مع ذاته وغيره من بني جنسه والطبيعة التي تُحيط به، فكلّ منهم بنى فكرته ونظريته حول هذا الكائن تحت ضوء فلسفته ومعتقداته التي يدين بها.

وبالموازاة مع هذه النظريات الفلسفية والفكرية، نجد القرآن الكريم قد تطرّق إلى موضوع هذا الإنسان من ناحية الماهية والمصير والغاية والقدرات والتكريم، ولقد أنتج القرآن الكريم رؤية واضحة عن هذا الكائن البشريّ منذ أول وهلة للخلق، ورسم له معالم تفصل محطاته التي ينتقل فيها، من حياة وموت، وخلق وبعث، دنيا وبرزخ وآخرة، وأبرز للإنسان دوره وعمله وغايته في هذه الحياة الدنيوية، وبيّن له مصيره وجزاءه في الآخرة.

وبهذه النظرة الواضحة الشاملة أعاد القرآن الكريم للإنسان مكانته الحقيقية في هذا الكون، وسطرّ له المنهج الذي يسير عليه لتحقيق وظائفه، التي أنيطت به في هذه الحياة الدنيوية، وبهذا المنهج أخرج الله هذه الأمة لتقود البشرية نحو الصّلاح والفلاح، فقد فعّلت التلة الأولى من الصّحابة والتابعين ومن خلفهم مضامين ومبادئ الإسلام، بمنهج قرآني نبوي يجمع بين العلم والعمل، بين العبادة والعمارة، وبين الإيمان والأخلاق.

فغيّرت هذه الأمة من مجرى التاريخ، فبعد أن كانت أعرابا متناحرة متناثرة همّها الشّهوات والملذّات، والتّعالّي، والتّفاخر بالألقاب والأنساب، يأكل القوي فيهم الضّعيف، ويُسَلِّط الظالم على المظلوم ليهلكه، وأثقلت العرب بالنعرات والغزوات، فأخرجوا بهدى القرآن من الظّلمات إلى النّور، ومن التّناحر إلى الألفة، ومن التبعيّة إلى السيّادة، ومن الجهل إلى العلم، ومن الاستكانة إلى القيادة.

وما كان لهم ذلك لولا استيعابهم وفهمهم لفلسفة السنن الإلهية التي بثها الله في كتابه، وأبرزها النبي ﷺ في نهجه، ففعلوها بدورهم في الواقع الحضاري الاستخلافي، فنتج عن هذا الوعي السنني حضارة إسلامية دان لها كل العالم. وما إن ركنت هذه الأمة فهمها الصحيح اتجاه هذه السنن، وأبعدت نظرها عن كتاب ربها، وعطلت القراءة الصحيحة الجامعة التي أمرت بها، حتى أصابها الوهن والعجز والضعف وتكالت عليها الأمم من كل جانب، فوقعت تحت وطأة التبعية والاستعباد والاستعمار، وهذا ما أصاب الأمة مع آخر معاقل الخلافة الإسلامية، التي قسم أعداؤها أراضيها، ونهبوا خيراتها، وشنتوا أفرادها، وحاربوا دينها وعبادها.

وفي خضم هذا الوضع المزري الذي آلت إليه الأمة الإسلامية، تعالت الأصوات التي تنادي وتناشد التغيير، فبرزت حركات إصلاحية عديدة في كامل ربوع العالم الإسلامي، تحاول التغيير من الحالة المرضية التي أصيبت بها الأمة، فجاءت هذه الحركات تصوغ وتقعّد للتغيير كلّ حسب زاوية نظره ومتطلبات عصره ومجتمعه.

وعلى غرار هذا الوضع المتأزم الذي آلت إليه الأمة الإسلامية، فقد مسّ الجزائر وأهلها الاحتلال كغيرها من بقاع العالم الإسلامي بعدما كانت دولة تابعة للخلافة الإسلامية العثمانية، فحاول الاستعمار الفرنسي بكلّ قواه أن يلحق هذا البلد إليه دينا وشعبا وترابا، إلا أنه لم يفلح لما لقيه من مقاومات متفرقة عبر الزمن.

وفي هذه الحقبة المظلمة التي سقط فيها الشعب الجزائريّ تحت وطأة الاستعمار برزت عدّة حركات إصلاحية تغييرية تقود هذا الشعب نحو الاستقلال والسيادة، وكان أولها تجربة الأمير عبد القادر الجزائري الذي يُنسب له الفضل الأول في إرساء قواعد الدولة الحديثة، وذلك لما خلفته تجربته التغييرية من إيجابيات في هذا الشعب.

وقد عُرف الأمير بتشبعه الثقافي المتنوع الذي جمع فيه بين القرآن والحديث والفلسفة والفكر والتصوّف، وفي خضم هذا التنوع أسس نظريته حول الإنسان التي بثها في كتابه المواقف، فأبرز شخصية هذا الإنسان، وأعطاه درجة الكمال التي يمكنه اللحاق بها، إذا ما حقق شروطها، وجاءت هذه النظرة للأمير عن الإنسان على غرار ما عرفته الصراعات الفكرية والفلسفية التي خاضت في هذا الموضوع

سواء من قبل المسلمين وغيرهم؛ لأنّ موضوع الإنسان موضوع قديم حديث متجدّد عبر الزمن، لما تطرحه الفلسفات والرؤى في هذا الباب الذي لم يغلّق البحث فيه إلى حد اليوم، وهذا راجع لتشعب المعتقدات والآراء والأهواء.

وقد تمثّلت الكمالية الإنسانية عند الأمير، وتجسّدت في أرض الواقع؛ إذ جمع بين النظرية والتجربة والعلم والعمل، بين الجهاد والعمارة، بين الإيمان والأخلاق، بين العبودية والخلافة، وهذا ما تميّز به الأمير عبد القادر عن غيره من المصلحين في زمانه، فقد اتّبع في منهجه التّغيير محاكاة الواقع لا التنظير فحسب، بل باشر التّغيير من الواقع الذي يعيشه، ومن المعطيات التي توفرت لديه، فقد حاول في خضم تجربته التّغييرية أن يبني دولة ويقود إمارة تحاكي أعتى الدّول في زمانه، رغم الأوضاع والظّروف الصّعبة التي وُجد فيها، فقد استطاع أن يزدود عن عرين الإسلام والشّعب الجزائريّ الاحتلال الجائر مدّة سبعة عشر عاما، شيّد خلالها إمارة أراد بها أن توافق الخلافة الرّاشدة في الحكم والعدل والقضاء والعمارة والجهاد، فاعترف له بها عدوّه الذي كان يعقد معه الهدنة والاتّفاقيات، حين يجد نفسه غير قادر على مجابهة حنكة ومقاومة الأمير وجيشه. ولقد شيّد الأمير دولته على مبادئ الإسلام وتعاليمه، في زمن كانت تموج فيه الخلافة الإسلامية في الصّراعات والنّزاعات، والظّلم والفساد، فأحيا بتجربته التّغييرية روح الإسلام.

الإشكالية:

في خضم ما أسلفنا ذكره عن الأمير عبد القادر الجزائري وحركته التّغييرية التي حاكى بها الواقع والظّروف، وحوّل فيها الفكر إلى ممارسة، والمشكلة إلى علاج، وحول نظريته عن الإنسان الكامل ووظائفه المنوطة به فوق هذه المعمورة، وبيّن فهمه ووعيه للسنن الإلهية الحاكمة في حركة الكون والإنسان، وبين اتّباع الأمير لمنهج القرآن والسنة، وخوضه للتّجربة الصوفية، إرتأينا أن نزيل اللّثام عن جانب من جوانب الفكر لديه، فتطرّقنا إلى هذه المواضيع عند الأمير عبد القادر في أطروحتنا التي عنوانها "الإنسان وسُنن التّغيير في فكر الأمير عبد القادر الجزائري"، وقد تمثّلت إشكالية أطروحتنا في:

ما العلاقة التي تجمع بين الإنسان والسنن الإلهية في عملية التّغيير عند الأمير عبد القادر؟، وما هو دور الإنسان الكامل في الحياة؟ وما طبيعة ومستويات الفكر السنني التي تمخّضت عن تجربة التّغيير عند

الأمير عبد القادر الجزائري؟.

وتفرّعت عن هذه الإشكالية عدّة تساؤلات منها:

- ما ماهية الإنسان عند الأمير عبد القادر؟
- ما هي حقيقة الكمال عنده؟ وماهي الوظائف المتعلقة بهذا الإنسان الكامل؟
- ما المقصود بالسّنن الإلهية عند الأمير عبد القادر؟ وما مدى حضورها في حركته التغييرية؟
- ما هو المنهج المتّبع في التغيير عند الأمير عبد القادر الجزائري؟
- ما علاقة الكمال الإنسانيّ بهذا التغيير؟

أسباب اختيار الموضوع:

تفرّعت هذه الأسباب إلى أسباب ذاتية وأخرى موضوعية.

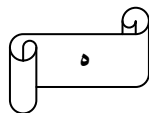
- الأسباب الذاتية:

- دراستي للتصوّف الإسلاميّ في مرحلة التدرّج وما بعد التدرّج، ممّا زاد اهتمامي بالجانب الصوّفي وحبّ معرفة الحقيقة عنه.
- اهتمامي بفكرة الكمال البشريّ، والبحث إن كان هناك إنساناً كاملاً في زماننا هذا، الذي رُدت فيه الإنسانية إلى أرذل مستوياتها.

- الأسباب الموضوعية:

- اختيار موضوع الإنسان لما له أهميّة كبيرة في ساحة الفكر، ويعد الإنسان هو العنصر الأوّل للانطلاقة الحضارية.
- اختياري لموضوع السنن الإلهية جاء استجابة لأهميتها، ودورها الكبير في قيام الحضارات وأفولها.

- أمّا بالنسبة لموضوع التغيير، فوقع اختياري عليه بسبب الواقع المعيش، والذي سادت فيه الفوضى الفكرية، وتراجعت فيه الأمة الإسلامية عن مكانتها الحقيقية التي أخرجت من أجلها، فتعالت



الحناجر التي تصيح وتناشد التغيير على اختلاف مذاهبها واعتقاداتها، فنحن بحاجة لتضافر الجهود من أجل إبراز ملامح التغيير من كلّ وجهات الفكر والنظر لبناء معالم واضحة لطريق التغيير.

- وقع اختياري على شخصية الأمير عبد القادر، باعتباره عالما من العلماء الجزائريين البارزين، ذاع صيته في التاريخ لما حققه من إنجازات على الصّعيد الواقعيّ، وتمّ دراسة هذه الشّخصيّة وتبيان مجال الشّعور والجهاد والسّيرة الدّاتية لها، دون التّطرّق إلى جوانب الفكر عندها إلّا في محطّات قليلة، ممّا يجعل هذا الجانب الفكريّ مساحة خصبة للدراسة والبحث.

- أهداف الموضوع:

الأهداف المرجوة والمنشودة من هذه الدراسة تمثّلت في:

- 1- طرق جانب من جوانب الفكر لدى شخصيّة الأمير عبد القادر التي حُجبت وراء سيرته الجهادية والسياسية، وقد أسهب المفكرون والباحثون في إبرازها، دون الغوص في جانبه الفكريّ الذي عُرِف بالتنوّع والثراء العلميّ، وبين النّظر والعمل.
- 2- إبراز ماهية الإنسان الكامل عند الأمير عبد القادر، وصدى هذه النّظرية في واقعه، وتبيان وظائف الإنسان الكامل عنده.
- 3- معرفة منهج الأمير عبد القادر الجزائريّ الذي انتهجه نحو التغيير، والاستفادة من تجربته في التّهوض بالأمّة الإسلامية لتحقيق سيادتها.
- 4- الكشف عن خلفية التغيير عند الأمير عبد القادر الجزائري، ومدى ارتباطها بالسّنن الإلهيّة ودور الإنسان الكامل في تفعيل هذه السّنن؛ للتغيير نحو الأصلح والأنفع.
- 5- طرح البديل عن الفلسفات والأفكار الماديّة التي سيّرت الإنسان نحو شهواته وملذّاته وأسقطته من عرش التّكريم إلى أسفل السّافلين، بإحياء الجانب الغريزي فيه.
- 6- محاولة إيجاد نافذة صغيرة في التّراث الإسلاميّ خاصّة الجزائريّ منه، الذي نُوقشت فيه قضايا الإنسان والتغيير للاستفادة منها على الصّعيد الخاصّ والعامّ.
- 7- محاولة العودة بالإنسان إلى أصله الشريف، خاصّة المسلم الذي له الحقّ في الخلافة على ما

استرعاه الله وكلفه بالأمانة التي أبت أن تحملها السماوات والأرض، والرجوع بالإنسان المسلم إلى دفتر التاريخ للتدوين بدلا من بقائنا على هامش التاريخ، ولا يتم هذا إلا بمعرفة ماهية الإنسان الحقيقية، وما يكتنزه من قوى.

- خطة البحث:

عالجنا موضوع هذه الأطروحة في خطة بحث مقسمة إلى أربعة فصول: الأول فصل تمهيدى تناولنا فيه ترجمة الأمير عبد القادر، وتفرّع إلى مبحثين رئيسيين، في الأول بيّنا ملامح العصر الذي ولد فيه الأمير، والثاني أبرزنا فيه لمحة عن حياة الأمير ونشأته.

وأما الفصل الأول، فقد عالجنا فيه الإنسان في فكر الأمير عبد القادر، وقسمناه إلى مبحثين، ضبطنا في الأول مفهوم الإنسان عند الأمير عبد القادر، وفي المبحث الثاني أبرزنا الكمال الإنساني عنده.

والفصل الثاني، أبرزنا فيه السنن في فكر الأمير عبد القادر الجزائري، وتفرّع بدوره إلى مبحثين عالجنا في المبحث الأول مفهوم السنن ووجوهها في القرآن الكريم، أما المبحث الثاني فبيّنا فيه أبعاد الفكر السنني عند الأمير عبد القادر.

أما الفصل الثالث، فخصّصناه لتوضيح منهج التغيير الإنساني عند الأمير عبد القادر، قسمناه إلى مبحثين، أبرزنا في المبحث الأول مفهوم التغيير وأساسه ومركزاته عند الأمير، وتطرّقنا في المبحث الثاني إلى محطّات التغيير في فكر الأمير عبد القادر الجزائري.

- منهج البحث:

بالنسبة إلى المنهج المتّبع في هذه الدراسة، فاعتمدنا على كلّ من المنهج الاستقرائي، والتاريخي والتحليلي، وذلك من خلال استقراء أهمّ النصوص والأفكار التي تخدم الموضوع عند شخصيتنا سواء التي نجدّها في كتب الأمير عبد القادر، أو ما دُوّن عنه في كتب أخرى، ثم قمّت بتحليلها وتركيبها واستخلاص النتائج والمعلومات منها.

– الدراسات السابقة:

يعدّ الأمير عبد القادر الجزائريّ من الشخصيات البارزة التي اهتمّ الكتاب بتبيان سيرته الذاتية التاريخية وجهاده وبطولاته، غير أنّنا وقفنا على قلة الدراسات والأبحاث التي عالجت جوانب الفكر عند هذه الشخصية، خاصّة تلك المتعلقة بتبيان آرائه وأفكاره حول القضايا العقدية والفلسفية الفكرية باعتبار أنّ الأمير قد خاض في هذه المجالات بالضبط في كتابه "المواقف"، الذي طرح فيه عدّة مواضيع: مثل قضية الذات الإلهيّة، ووحدة الوجود، وقضية الأسماء والصفات، وأفعال الإنسان، وغيرها التي لم يتمّ علاجها. وفي موضوع هذه الأطروحة "الإنسان وسنن التغيير في فكر الأمير عبد القادر الجزائري" لم أقف على حدّ علمي على أي كتاب، أو رسالة، أو أطروحة عالجت هذا الموضوع عند الأمير عبد القادر الجزائري، ومن بين أهمّ الدراسات السابقة التي عالجت بعض الآراء عند الأمير كتاب "الله والإنسان في فكر الأمير عبد القادر الجزائري" لأحمد محمود الجزار، وللأمانة العلمية فإنّه يوجد العديد من الكتب والرسائل والمقالات التي تناولت شخصية الأمير، وبحث في مواضيع تهمّ الجوانب السياسية والجهاديّة والثقافية الأدبية عنده، وعلى سبيل المثال لا الحصر رسالة في التاريخ بعنوان "الدولة في ظلّ الأمير عبد القادر" لفريدة قاسي، وكتاب "الأمير عبد القادر وثقافته وأثاره و أدبه" لمحمد الصالح، وكتاب "الأمير عبد القادر السياسي" لعشيراتي سليمان، وغيرها الكثير من الدراسات التي تصبّ في نفس القالب.

– المصادر والمراجع:

اعتمدنا في معالجة هذه الأطروحة على جملة من المصادر والمراجع:

كلّ كتب الأمير عبد القادر الجزائري هي مصادر هذه الدراسة، ومن بين أهمّ كتبه التي اعتمدت عليها بشكل كبير: كتابه "المواقف في بعض إشارات القرآن الكريم على الأسرار و المعارف"، وكتاب "ذكرى العاقل وتنبيه الغافل"، و"رسالة المقرض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام بالباطل والإلحاد".

كما اعتمدنا على جملة من المراجع منها:

– كتب التفاسير: مثل "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير، "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي، "في ظلال القرآن" لسيد قطب، "التحرير والتنوير" لطاهر بن عاشور.

— معاجم اللغة: مثل "أساس البلاغة" للكشاف، "لسان العرب" لابن منظور، "التعريفات" للجرجاني.

— كتب العقيدة والفكر: منها "مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين" لأبي الحسن الأشعري "المغني في أبواب التوحيد" للقاضي عبد الجبار، "أدب الدنيا والدين" للماوردي، "إحياء علوم الدين" لأبي حامد الغزالي، "الدين" لعبد الله دراز، "السّنن الإلهية في الأمم و الجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية" لعبد الكريم زيدان، "فقه السّنن الإلهية ودورها في بناء الحضاري" لعادل بن بوزيد عساوي "حتى يغيروا ما بأنفسهم" لجودت سعيد.

— كتب الفلسفة و التصوّف: مثل "تاريخ الفلسفة اليونانية" ليوسف كرم، "أسس الفلسفة" لتوفيق الطويل، "فلسفة التربية الإسلامية" لماجد عرسان الكلاي، "الإنسان الكامل في معرفة الأوائل والأواخر" لعبد الكريم الجيلبي، "الإنسان الكامل في الإسلام" لعبد الرحمن بدوي.

كتب التاريخ: منها "تاريخ الجزائر الثقافي" لأبي القاسم سعد الله، "تاريخ الجزائر في العهد العثماني" لنصر الدين سعيدوني، "تاريخ الجزائر في القديم و الحديث" لمبارك الميلي، "الأمير عبد القادر رائد الكفاح المسلح" ليحي بوعزيز.

— الصّعوبات:

من طبيعة أي بحث علمي أن يكون نقص ومشقة في إنجازه، ومن أهمّ الصّعوبات التي واجهتنا في إعداد أطروحتنا:

— قلة المادة العلميّة التي تبسّط وتحلّل الأفكار عند الأمير عبد القادر.

— أسباب متعلّقة بالحياة الأسريّة والاجتماعيّة والعملية، التي تلهي المرء في كثير من الأحيان عن أداء واجبه بالشكل الأمثل.

وفي الختام، اجتهدت في قراءة أهم الأفكار المتعلقة عن الإنسان وسنن التغيير في فكر الأمير عبد القادر الجزائري، وحاولت أن أبينها وأبرزها وأوضحها على الوجه الأمثل، مستعينة بالمصادر الأصلية عند الأمير عبد القادر، فما وضعت في هذه الأطروحة إلا ما استطعت فهمه واستيعابه، فأرجو من الله أن يتجاوز عني، فما كان من تقصير فمني ومن الشيطان، وما كان من جهد وتوفيق فمن الله وحده، والله من وراء القصد، وهو الهادي للسبيل.

الفصل التمهيدي:
ترجمة الأمير عبد القادر الجزائري.

تمهيد:

المبحث الأول: ملامح العصر الذي ولد فيه الأمير عبد القادر

المطلب الأول: الحياة السياسية

المطلب الثاني: الحياة الاجتماعية

المطلب الثالث: الحياة الثقافية

المبحث الثاني: حياة الأمير عبد القادر الجزائري

المطلب الأول: نسب الأمير عبد القادر وتربيته

المطلب الثاني: رحلات الأمير عبد القادر وجهاده

المطلب الثالث: آثار الأمير عبد القادر

تمهيد:

يعدّ "الأمير عبد القادر الجزائري" من أبرز الشخصيات وأهمّها في تاريخ الجزائر الحديث، فجلبت هذه الشخصية الأنظار والاهتمام من قبل العديد من الباحثين والكتاب الجزائريين والعرب وحتى الأجانب، فسال الخبر في تبيان سيرة هذا البطل المجاهد.

وستنطرق في هذا الفصل التمهيديّ لجانب من سيرة الأمير عبد القادر، محاولين إعطاء نبذة تاريخية عن حياته ببيان نسبه، مولده، تعليمه، وآثاره، مركزين الدراسة على ما يفيدنا في بحثنا هذا. ولا يمكن أن ندرس هذه الشخصية دون وضعها في إطارها ومجالها التاريخي الذي وُجدت فيه، لهذا يعدّ دراسة العصر الذي نشأ فيه الأمير عبد القادر ذا أهمية بمكان؛ لأنّ الإنسان ابن بيئته يتأثر بالأحداث التي تُحيط به، فبحثنا عن أهمّ ملامح العصر الذي ظهرت فيه شخصيتنا المدروسة، مقتصرين البحث في ما يفيد غرض هذه الدراسة.

المبحث الأول: ملامح العصر الذي ولد فيه الأمير عبد القادر الجزائري:

تعدّ البيئة الاجتماعية والثقافية والسياسية التي نشأ فيها الأمير عبد القادر الجزائري، وترعرع بين أحضانها، وانفعل بأحداثها، وتأثرت أخلاقه وسلوكه بمؤثراتها المختلفة عاملاً من عوامل تكوين شخصيته المتميّزة، ولقد ولد الأمير عبد القادر في مطلع القرن التاسع عشر، الذي خضعت فيه الجزائر إلى الحكم العثماني، وفي آخر عهد له قبيل الاحتلال الفرنسي على الجزائر، وسنحاول في هذا المبحث عرض لمحة عامّة عن هذا العصر، بُغية إبراز الملامح العامّة للأوضاع التي سادت في الجزائر خلاله، والهدف من هذه الدراسة، وضع شخصية الأمير داخل العصر الذي بزغ فيه، وكيف تأثر به، وأثر فيه.

المطلب الأول: الحياة السياسيّة:

العصر الذي ولد فيه الأمير عبد القادر كانت تخضع فيه الجزائر للحكم العثمانيّ، ولقد خضعت الجزائر للخلافة العثمانية بداية من القرن السادس عشر ميلادي، وبقيت تحت هذا الحكم والنظام إلى أن احتلت الجزائر من طرف الفرنسيين، وارتسمت وتعيّنت حدود الجزائر في ظلّ هذا الحكم العثماني⁽¹⁾، وفي

(1) لا كوست وآخرون، الجزائر بين الماضي والحاضر، ت رابح اسطنبولي، منصف عاشور، ديوان المطبوعات الجزائرية، (دط)، 1987م، ص 11.

مجال سيادتها استطاعت الجزائر بما امتلكته من قوة بحرية أن تفرض سيطرتها ونفوذها في منطقة حوض البحر المتوسط، كما استطاعت أن تحمي أراضيها وتصورها من الاعتداءات الخارجية المتكررة.⁽¹⁾

مرّ الحكم العثماني في الجزائر بعدّة مراحل؛ عرفت الفترات الأولى منه بالقوّة والازدهار السياسي، وأمّا أواخره خاصة المرحلة التي عرفت بحكم الدايات وضعا متأزماً ومحتدماً، وساءت فيه الحياة السياسية بشكل كبير⁽²⁾، وذلك على الصّعيدين الداخليّ والخارجيّ.

أولاً: الوضع السياسي الداخلي:

عرفت آخر حقبة من الحكم العثماني بالجزائر بنظام الدايات، وشهدت هذه الفترة عدّة اضطرابات سياسية فنجم عنها ثورات شعبية ضد هذا النظام الحاكم، و عرفت هذه الحقبة أيضاً يتوسّع كبير لنفوذ اليهود وتحكمهم وتدخلهم في نظام الحكم.

1- الاضطراب والفوضى وفساد نظام الحكم:

بتصفح كتب التاريخ نلاحظ أنّ المؤرّخين أجمعوا واتفقوا على أنّ أواخر حكم نظام الدايات التابع للخلافة العثمانية الإسلامية في الجزائر كان متعفنًا وفسادًا، وتميّز بالاستبداد التام والانغلاق على نفسه، فالسلطة تمارس إلا من طرف جماعات منحصرة دون الرجوع إلى الرعية، ممّا أثر سلباً على أوضاع البلاد و مستقبلها،⁽³⁾ حيث شهدت الفترة الأخيرة من حكم الدايات [1791-1830م] سلسلة اغتياالات واسعة مسّت ستّة دايات على التوالي من أصل تسعة، تم تنفيذها من قبل جماعات عسكرية نذكر منهم: مصطفى باشا (1798-1805م)، وأحمد باشا (1805-1808)، علي الغسال (1808م-1809م) حاج علي (1809، 1815)، محمد الخزناجي (1815م)، عمر باشا (1815م-1817م).⁽⁴⁾

توضّح هذه الاغتيالات المتتالية في الطبقة الحاكمة عن تعفن الوضع السياسي الذي آلت إليه

(1) _ عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، دار الثقافة، بيروت، ط6، 1983م، ج3، ص 466.

(2) _ صالح فركوس، المختصر في تاريخ الجزائر من عهد الفنيقيين إلى خروج الفرنسيين، دار العلوم، الجزائر، (دط)، (دت)، ص 104.

(3) _ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م، ج1، ص 138.

ينظر أيضاً: عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، مرجع سابق، ج3، ص 466، ومابعداها.

(4) _ حنيفي هلاي، بنية الجيش العثماني، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 2007م، ص 101.

الجزائر في مطلع القرن التاسع عشر، حيث أصبح منصب الداوي منبعا للزعيم والخطر، ولم يكن الأمر مقتصرًا على مدينة الجزائر مركز السلطة، فقد شهدت باقي المقاطعات تكرار لعملية العزل والإعدام، فلم تعد تتجاوز فترة الحكم إلا بضع شهور.⁽¹⁾

ويرجع المؤرخون السبب الأول لهذا الضعف والتدهور إلى تدخل الجند والعسكر، أو ما يصطلح عليه "بالجيش الانكشاري" في نظام الحكم والسياسية، بحيث أن منصب الداوي كان ينتخب في إطار ضيق، ودون أخذ استشارة و موافقة من عموم سكان البلاد، وتتميز هذا المنصب في هذه الحقبة بالطابع العسكري؛ لأن الطبقة التي كانت تحكم البلاد كلها من العسكر بدءًا من الداوي إلى وزرائه وبياته وأتسم نظام الحكم بالانغلاق لأنه لا يسمح إلا للانكشاريين بممارسة الحكم والسلطة، فترك الجيش أولوياته وواجباته وراح يسعى وراء الامتيازات والهدايا والمكافآت والزيادات في الأجور والترقية، فأصبح الجنود يدبرون المؤامرات ويحدثون الفوضى والاضطرابات بشكل دائم ومستمر، فانتهى إليهم الأمر بأن يتحكموا في عزل الحاكم أو إعدامه، ثم يقدمون من يخلفه ممن يرضون سيرته ويلبي لهم رغباتهم.⁽²⁾

وفي هذه الحقبة استقل نظام الحكم العثماني في الجزائر عن الحكم العثماني، ولم يعد يرجع إلى حكم السلطان والباب العالي، بحيث أصبحت العلاقة به لا تتجاوز تسليم فرمان التولية وإحضار المجندين مقابل تقديم الهدايا⁽³⁾.

بسبب الأوضاع السياسية المتعقنة للبلاد، وسوء تسيير الدايات لنظام الحكم شجع هذا الأمر على قيام ثورات شعبية كثيرة، وتمردات قبلية واسعة قادها رجال الطريقة والمتصوفة مستغلين من الشرق الجزائري وغربه، مما ساهم في تأزم و تدهور الأوضاع داخل البلاد.

2_ الثورات الشعبية:

عرفت الجزائر في أول القرن التاسع عشر موجة عاتية من الانتفاضات والثورات بقيادة شيوخ

(1) _ ناصر الدين سعيدوني، الشيخ المهدي البوعبدلي، الجزائر في التاريخ العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (دط)، (دت)، ص 40.

(2) _ ألتر عزيز سامح، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ت: محمود علي عامر، در النهضة العربية، بيروت، ط1، 1409هـ- 1989م، ص 406.

(3) _ ناصر الدين سعيدوني، تاريخ الجزائر العهد العثماني، البصائر الجديدة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013م، ص 82.

الزوايا والمرابطين، مما شكلت عاملاً يهدد وجود العثمانيين في الجزائر، ومن أهم هذه الثورات على سبيل المثال تلك التي اندلعت بمرجرة خلال أعوام [1804 و 1810 و 1823م]، وثورة ابن الأحرش في الشمال القسنطيني، وثورة درقاوة بالغرب الجزائري في سنتي [1805-1816م]، والثورة التيجانية بعين ماضي في 1816م، وثورة النمامشة بالأوراس بين عامي [1818 و 1823م]⁽¹⁾.

وكان السبب خلف قيام هذه الثورات إما العامل السياسي أو الاقتصادي، ولقد مرت علاقة العثمانيين بأصحاب الزوايا والطرق الصوفية في الجزائر بمرحلتين، أولهما تقرب السلطات العثمانية من أصحاب الطرق والزوايا والمرادين، وذلك لحاجتها الملحة لمن ينصرها وينصر وجودها، ويؤيد نفوذها بالجزائر، فوجدوا في الطرق الصوفية وأصحابها أحسن معين لهم لإقامة نظام حكمهم، حيث أعطوا لمشايخ الطرق الصوفية المكانة السياسية والاجتماعية المرموقة، وجعلوهم واسطة لهم ليتحكموا في القبائل الجزائرية المستعصية عليهم، وأعطوهم مزايا خاصة عن غيرهم، وقربوهم منهم، وأعفوه من الضرائب واستمر هذا الترابط والود حتى نهاية القرن الثامن عشر، أما المرحلة الثانية فقد تم فيها تهميش المرابطين واستغلالهم كباقي عامة الشعب، وذلك بسبب سوء الظروف السياسية والاقتصادية التي عصفت بالبلاد فنقض الحكام موافيقهم وعهودهم بالمرابطين، وسحبوا منهم امتيازاتهم، فلم يرض المرابطون بهذا الأمر وتمردوا على السلطة، وأخذوا يحرضون الأهالي ضدهم، فسبب هذا الوضع خسائر كبيرة للإدارة العثمانية⁽²⁾، ومن أبرز هذه الثورات:

- ثورة الشريف بن الأحرش:

تعدّ من أخطر الثورات التي شهدتها القطر الجزائري طيلة الوجود العثماني؛ لأنها شملت رقعة واسعة في منطقة بايلك الشرق، واستمرت ثلاث سنوات متعاقبة، وقتل في خضمها باي الإقليم الشرقي، كما اتهمت دول وأيادي أجنبية دعمت المتمردين⁽³⁾، حيث خطط لهذه الثورة ابن الأحرش حين قدم من رحلة الحج، الذي مرّ فيها بتونس ثم بقسنطينة، ثم استقرّ به المقام بجيجل بجامع سيدي الزيتوني، وأخذ

(1) - حنفي هلاي، أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار الهدى للطباعة والنشر، الجزائر، ط1، 2008م، ص 22.

(2) - فاطمة قشي سيدهم، مكانة التصوف في الحياة الاجتماعية والسياسية في العهد العثماني بالجزائر، المجلة المغاربية للدراسات التاريخية والاجتماعية، ع1، الجزائر، 2009م، ص 22.

(3) - العربي الزبيري، مقاومة الجزائر للتكفل الأوروبي قبيل الاحتلال، مجلة الأصالة، ع 12، 1983م، ص 28.

يستقطب إليه الناس ويروي لهم شجاعته ومواقفه وأعماله التي اشتهر بها في مصر حين مشاركته في الحرب ضد نابليون، وما إن رأى استمالة الناس وانجذابهم إليه أخذ يحرض الناس ضد الأتراك⁽¹⁾، ثم أخذ بن الأحرش ينظم للحرب ويطوف على القبائل لتحقيق مخططاته، فاستطاع أن ينال تأييد العديد من القبائل و جمع الكثير من الرجال من حوله، واتّسمت ثورته بالطابع الديني لما وجده من نصرة ودعم من الطّرق الصّوفية.⁽²⁾

قوبلت هذه الثّورة بالاضطهاد والمقاومة من قبل السّلاطات الحاكمة إلى أن نجحوا في القضاء عليها ومن أبرز ما خلّفته من نتائج على الصّعيد الداخلي: زيادة العزلة بين المدن والأرياف، وشجّعت على ظهور حركات تمرد واسعة التيطالت القبائل الجبلية التيامتعت عن دفع الضرائب، وحملت السلاح في وجه الحكام⁽³⁾، وهذا ما زاد في حدّة تأزم الأوضاع الاقتصادية والفلاحية للبلاد، وجلبت معها المجاعة التي عانى منها كلّ من سكان المدن والأرياف⁽⁴⁾، وساهمت في حدّة التنافس الإنجليزي الفرنسي على اكتساب مناطق نفوذ واسعة وامتيازات داخل الجزائر.⁽⁵⁾

ويمكن القول إنّ ثورة ابن الأحرش أدّت إلى نتائج خطيرة ساهمت في تهديد مستقبل الجزائر واستقرارها، كما سجّلت فيها خسائر جمة في الأموال والأرواح.⁽⁶⁾

– الثّورة الدرقاوية:

لم تكن ثورة ابن الأحرش الوحيدة في هذه الفترة الزمنية، فقد شهد المغرب الجزائري ثورة أخرى موازية لها، عرفت بالثورة الدرقاوية بقيادة عبد القادر بن الشّريف الساحلي الدرقاوي،⁽⁷⁾ وتعدّ الدرقاوية من أهمّ الطّرق الصّوفية المتواجدة في الجزائر ولها أتباع كثيرون بغرب البلاد، كما أنّ علاقتها وطيدة

(1) _ الحاج أحمد الشريف الزهار، مذكرات، ت أحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1972م، ص 85.

(2) _ صالح عباد، الجزائر خلال الحكم التركي (1514-1830)، دار هومة، الجزائر، 2007م، ص 198.

(3) _ ناصر الدين سعيدوني، ثورة ابن الأحرش بين التمرد المحلي والانتفاضة الشعبية، مجلة الثقافة الجزائرية، ع 78، 1983م، ص 218.

(4) _ العنزي، مجاعات قسنطينة، ت رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، دط، 1974م، ص 31.

(5) _ الشريف الزهار، مرجع سابق، ص 85.

(6) _ مبارك شوار، لمحة عن الأوضاع السياسية للجزائر في أواخر العهد العثماني، مجلة العلوم الإسلامية والحضارة، ع 4، 2016م، ص 232.

(7) _ صالح عباد، مرجع سابق، ص 205.

بسلاطين المغرب العلوي، ولقد أبدى الدرقاويون مقاومات عنيفة للسلطة العثمانية حتى أصبح تعبير عاصي مرادف لتعبير درقاوي⁽¹⁾.

اندلع هذا التمرد سنة 1804م، وشمل مناطق واسعة من البلاد هدّد بموجبها الوجود العثماني في الجزائر، فجند له العثمانيون قوّاتهم ودارت بين الطرفين معارك كثيرة،⁽²⁾ كبّدت هذه الثورة البلاد نتائج وخيمة على الصّعيد الداخلي، وانعكست سلبيتها على الحياة السّياسية والاقتصادية والاجتماعية، كما ساهمت بشكل كبير في زعزعة الأمن والاستقرار وضعف القوة العثمانية، وخلفت العداوة والصّراع بين العديد من قبائل الغرب الجزائري.

لم تكن الثّورات الشّعبية هي الوحيدة التي هدّدت نظام البلاد وحكمها من الداخل، بل واجهت نوعاً آخر من التّهديد كان له الفعالية في تهديد أمن الجزائر، وهو وجود العناصر اليهودية وتدخلهم في نظام الحكم.

3- اليهود وتدخلهم في السّلمة وتهديد الأمن والاستقرار:

أدّى اليهود دوراً أساساً في إضعاف الجزائر وانحيارها، ويظهر أنّه كان انخياراً مخطّطاً له، بدءاً من احتكارهم للتّجارة وانتهاء بالاحتلال.⁽³⁾ حيث استغلّ اليهود فرصة الاضطراب والفوضى الحاصلة في البلاد، فعملوا على بسط نفوذهم المالي والسّياسي داخل البلاد الجزائرية، بعد أن استعملوا كلّ الطّرق والوسائل لكسب ودّ حكامها، من تقديم الهدايا الثمينة والمساعدات المالية، التي كانت مغلفة بغطاء التجسّس في الداخل والخارج.⁽⁴⁾ وتذكر كتب التاريخ شخصيات بارزة من اليهود كان لهم الدور الكبير الكبير للنفوذ إلى السّلمة، وهما بكري الذي كان له الامتيازات في السّلمة التجارية وبوشناق الذي كان له النفوذ إلى السّلمة السّياسية، وهذا الأخير أصبح يؤثّر في تعيين كبار الموظفين في نظام الحكم، فالداي مصطفى قيل عنه أنّه كان يعمل كناساً ورفعته اليهود إلى منصب الداوي⁽⁵⁾، بل أصبحت هاتان

(1) حنفي هلال، مرجع سابق، ص 30.

(2) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ج 1، ص 220.

(3) جمال قنان، العلاقات الفرنسية الجزائرية 1790-1830، متحف المجاهد (بط)، (دت)، الجزائر، ص 105.

(4) أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط 3، 1982م، ص ص 14-15.

(5) جمال قنان، مرجع سابق، ص ص 105-106.

الشخصيتان من اليهود بكري وبوشناق لهما الدور الكبير في ربط المساعي السياسية والدبلوماسية للجزائر، وبعض الدول الأجنبية.⁽¹⁾

وأخطر قضية جرّت الجزائر إلى نفق مظلم بسبب هؤلاء اليهود، هو احتكارهم للتجارة والاستيراد والتصدير، بحيث أوقعوا الحكومة الجزائرية في قضية الديون التي أقرضتها لفرنسا عام 1796م لشراء الحبوب دون فوائد، بحيث وسطت فرنسا كل من بكري وبوشناق، اللذين كان لهما أهمّ امتياز في شراء وبيع الحبوب من الدولة الجزائرية الذي تحصّلا عليه سنة 1794م، فقدم هذان التاجران لفرنسا تسهيلات في الدفع،⁽²⁾ ثم تعقدت قضية الديون بين البلدين فانجرّ عنها بعد ذلك ما يعرف بحادثة المروحة، التي جاءت بعد مراسلات عديدة بين الجزائر وفرنسا لتسديد ما عليها من الديون، وبسبب هؤلاء اليهود واحتكارهم للتجارة وتصديرهم الواسع للحبوب من الجزائر إلى الخارج، أدّى هذا إلى الاضرار باحتياطي الجزائري مما ساهم في إغراق البلاد في القحط والمجاعة⁽³⁾، ومهدت هذه الظروف السياسية المتسمة بالفوضى والاضطرابات الطريق للأطماع الخارجية خاصة الأوروبية.

ثانيا: الوضع السياسي الخارجي:

عرفت البلاد الجزائرية طيلة حقباتها التاريخية العديد من التهديدات الخارجية، وعاشت الأمر نفسه في ظلّ الحكم العثماني للجزائر، وهذه التهديدات الخارجية سواء من المناطق المجاورة الجيران والأقارب أو من الدول الأوروبية، وسنركّز ببعض من التفصيل الموجز على هذه التحرّشات والتهديدات في نهاية القرن الثامن عشر بداية القرن التاسع عشر أي في عهد الدايات الذي حكم هذه الفترة في الجزائر.

1- التحرّشات من قبل تونس والمغرب:

عُرفت هاتان الجارتان بنزاعاتهما الدائمة مع الجزائر طيلة الحكم العثماني وبالأخصّ في عهد الدايات، حيث كانت تخضع تونس للحكم العثماني الجزائري، ولذلك يعود الصّراع بينهما في الأساس إلى التنافس بين حكام البلدين، فكان باي تونس تابعا لداي الجزائر، فحاولت السلطات التونسية

(1) _أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر، مرجع سابق، ص 160.

(2) _العائش بكار، الوضعية العامة للجزائر قبيل الاحتلال، مجلة حوليات التاريخ والجغرافيا، الجزائر، ع2، مج1، ص 16.

(3) _المرجع نفسه، ص 17.

الخروج من تلك التبعية بكلّ السبل⁽¹⁾، وفي سنة 1806م أعلن الباي التونسي الحرب على الجزائر وذلك بعد أن أعدّ للحرب في صمت وسرية، وشنت حملات عسكرية متبادلة من كلا الطرفين، وتمكّن الجيش التونسي من التوغّل إلى الأراضي الجزائرية (بايلك الشرق القسنطيني)، ورغم فشل الجيش التونسي في احتلال بايلك الشرق، إلا أنّ هذه الحرب كبّدت كل من الفريقين خسائر فادحة وكبيرة في العتاد والأرواح⁽²⁾.

أمّا بالنسبة للتحرّشات المغربية لم يكن التنافس هو المحرّك الوحيد للصراع، بل إنّ أطماع المملكة المغربية في منطقة الغرب الجزائري منذ الحكم السعدي و العلوي للمغرب، وأسباب التحرّشات كان هدفها أيضا إبعاد حكم الأتراك عن بلادهم⁽³⁾، وأبرزت كتب التاريخ دور المملكة المغربية في نشوب العديد من الثورات والانتفاضات في الجزائر⁽⁴⁾.

2- التحرّشات الأجنبية بالجزائر:

عرفت الجزائر عدّة تحرّشات أجنبية على مرّ الأزمنة التاريخية، وذلك بدافع التنافس على مناطق النفوذ داخل الجزائر خاصة من طرف بريطانيا وفرنسا، ولم تكن هذه التحرّشات والحملات وليدة الجدة أو متعلقة بفترة حكم العثمانيين بالجزائر، فكان ردع هذه الحملات هو السبب الأوّل في دخول الأتراك إلى البلاد الجزائرية، فعرفت المنطقة بالتلاحم والصراعات من سنة إلى أخرى، وشكّلت الجزائر في فترة الحكم العثماني قوّة عسكرية بحريّة مهابة، فكانت سفنها تتوغّل إلى السواحل الأوروبية، وتهدّد أمنها وتقوم بعمليات القرصنة، وفي عهد الدايات عرفت البحرية الجزائرية ضعفا كبيرا في أسطولها وقوّته مما سارع في تكالّب الدّول الأوروبية عليها، ولسنا هنا بصدد جرد هذه الحملات بتفاصيلها وأحداثها التاريخية، بل الغرض فقط معرفة أنّ الجزائر كانت تحت إطار التّهديد الدّائم والمستمرّ، ولم تشهد فترة استقرار تامّ في تاريخها من هذه الحملات التي غرضها الاستغلال والنّهب من خيراتها، وهذا موجز بأهمّ هذه الحملات الأجنبية نهاية القرن الثامن عشر بداية القرن التاسع عشر:

(1) _ الشريف مُحمّد الهادي، تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال، تح: مُحمّد الشاوش ومُحمّد عجينة، سراج النشر، تونس، ط2، 1985م، ص 90.

(2) _ سعيدوني والبوعبدلي، الجزائر في التاريخ، المرجع سابق، ص 72.

(3) _ المرجع نفسه، ص 73.

(4) _ ألتر عزيز، مرجع سابق، ص ص 504-507.

- الحملات الإسبانية على الجزائر: حملت الكونت أوريلي 1775م، حملة دون أنطونيو الأولى 1783م، و حملة دون أنطونيو الثانية 1784م⁽¹⁾.

- الحملة الأمريكية على الجزائر سنة 1815م التي شنتها الو م أ بعد رفضها لدفع الضرائب إلى الأسطول الجزائري، و نجم عن هذه الحملة خسائر كبيرة في السفن الجزائرية مما جعلها ترم معاهدة صلح مع الو م أ.⁽²⁾

- الحملات الإنجليزية بعد عقد مؤتمر فينا 1815م، الذي جاء في مضمونه تشجيع الدول الأوروبية على محاربة و مجابهة الأسطول الجزائري، فشنت إنجلترا حملتها 1816م⁽³⁾، بتعاون الأسطول الهولندي، ولقد انتجت هذه الحملة خسائر كبيرة في الأسطول الجزائري، وعملت إنجلترا على شن حملة أخرى سنة 1824م⁽⁴⁾.

وكانت آخر هذه الحملات التي أدخلت البلاد الجزائرية من عرج الاحتلال، الحملة التي شنتها فرنسا على الأراضي الجزائرية إثر حادثة المروحة التاريخية، واتخذت منها ذريعة لضرب حصار بحريا على الجزائر ما بين 1827م 1830م⁽⁵⁾.

وفي الأخير يمكن القول إنّ الوضع السياسي في الجزائر في نهاية عهد الدايات وُسِم بالتأزم الشديد، وكثر في خضمه التنافس على السلطة والحكم، وهذا ما أدّى إلى انشقاقات وضعف داخلي كبير، رجع صده على الشعب الذي أثقل كاهله بالضرائب، وهذا ما ساهم في اندلاع ثورات شعبية متفرقة ضدّ السلطة والنظام، الذي بدوره عمل على تجاهل الشعب ومنعه من ممارسة حقّه في الحكم والسيادة على البلاد، وما زاد الأوضاع سوء قرب طبقة اليهود من الحكام الذين ساهموا في تأزم الحياة السياسية الخارجية للجزائر، التي كانت تحت الأطماع المتجدّدة من قبل الاجانب، كلّ هذه الأسباب جعلت من البلاد الجزائرية في حالة قابلة للاستعمار.

(1) - بن موفقي أحمد، الصراع الأوروبي الجزائري أواخر العهد العثماني، مجلة حقائق للدراسات النفسية و الاجتماعية، ع10، ص 83.
(2) - وليام شالر، مذكرات قنصل أمريكا في الجزائر (1816-1824م)، تع: اسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982م، ص 45.

(3) - مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، 1964، ج3، ص 263.

(4) - المرجع نفسه، ص 263.

(5) - صالح فركوس، مرجع سابق، ص 143.

المطلب الثاني: الحياة الاجتماعية:

إنّ الأوضاع الاجتماعية تكون دائما تابعة إلى الحالة السياسية والاقتصادية للبلاد، وبما أن الجزائر في عهد الدايات عرفت فيه فوضى سياسية، فكذلك تبعته الحالة الاجتماعية، ولقد تمثّل المحيط الاجتماعي للجزائر في تركيبة متباينة الفئات مختلفة بين المدن والأرياف،⁽¹⁾، فساكن الأرياف الذين يمثلون الجزء الكبير من أهل البلاد قد انقسموا إلى قسمين، قسم متحالف مع السلطات مقابل الحصول على فوائد وامتيازات مادية، وقسم عرف بعداوته واستقلاله عن السلطة العثمانية وهم الذين يقطنون المناطق الجبلية و في الجنوب الجزائري، وتنقسم القبائل الريفية إلى مجموعات قبلية ترأسها عائلات تفرض نفوذها وسيطرتها بالقوة الروحية، بينما تعتمد قبائل أخرى على الممارسات الحربية، وهذا ما أدى إلى تعدد مناطق نفوذ الأسر المربطة، كما اشتهر الغرب الجزائري بالأسر الدينية التابعة إلى الطرق الصوفية وأما العلاقة التي تربط بين الريف والمدينة فكانت في إطار محدود خاصة المعادية للحكم والسلطة العثمانية،⁽²⁾، ومثلت القبيلة في الريف الجزائري الإطار السياسي والاجتماعي الذي يضم أغلبية السكان، فكانت تعمل على تنظيم وتسيير شؤون الأهالي، وتضمن لهم الأمن وعدالة، وأخضعتهم إلى ضرورة أخلاقية ودينية،⁽³⁾ ولقد قُسم المجتمع في عهد الدايات إلى نظام اجتماعي طبقي، وهو كالتالي:

أولاً: تركيبة المجتمع الجزائري في عهد الدايات:

1- الطبقة التركية الحاكمة (الاستقرائية):

وهي طبقة الأتراك الذين يُمارسون السلطة في الجزائر، وقد قدر عددهم سنة 1830م بحوالي 20 ألف نسمة، ورغم عددهم الضئيل إلا أنّهم تميّزوا بنفوذ واسع وتقلدهم لمناصب حكومية مرموقة وعالية وكان مصدر عيشهم مرتباتهم التي يتحصّلون عليها من خزانة الدولة، وعائدات المحلات والبساتين التي

(1) _أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر، مرجع سابق، ص 12.

(2) _أجروت شارل روبر، تاريخ الجزائر 1830-1976م، ت عيسى عصفور، منشورات عويدات، بيروت، (دط)، 1983م، ص 18-19.

(3) _ عدى الهواري، الاستعمار الفرنسي في الجزائر، ت جوزيف عبد الله، دار الحدّثة، بيروت، 1983، ص 18.

يملكونها، وعرفت هذه الطبقة بالأعمال العسكرية، وتميّزت باتباعها التقاليد التركية، منطوين على أنفسهم، منعزلين عن السّكان الأصليين للبلاد⁽¹⁾.

2- جماعة الكراغلة: الكراغلة هم فئة السّكان الذين كانوا نتاج تزاوج الجيش الانكشاري بالنساء الجزائريات، وكرغلي كلمة في اللغة التركية تعني ابن العبد، فالانكشاري مصطلح يقصد به عبد السلطان العثماني وخادمه، وقد قدر عددهم بحوالي 6 آلاف نسمة نهاية القرن 18م بالجزائر⁽²⁾، ولقد حرمت هذه الطبقة من ممارسة السلطة والحكم بالرغم من أصولهم تركية، وفي العهد الأخير من حكم الأتراك تمّ استبعادهم وطردهم من المناصب العسكرية والإدارية، و ذلك بعد الانقلابات التي قام بها الكراغلة ضدّ نظام الحكم، مما زاد من تخوّف الطبقة الحاكمة منهم فعملت على عزلهم ونبذهم⁽³⁾ وعمل الكراغلة في استثمار المزارع، غير مبالين بخدمة الأرض والأعمال اليدويّة⁽⁴⁾.

3- المهاجرون الأندلسيون:

هم الفئة التي دخلت إلى الجزائر في فترة خير الدّين بعد طردهم من قبل الإسبان من موطنهم، ولقد حققوا مكانة كبيرة في الجانب الاقتصادي والعمراني، ولم يكن لهم أي حقّ في أن يلتحقوا بالجيش أو الوظائف السّامية في البلاد، ممّا دفعهم هذا إلى ممارسة عدد من الصّناعات المحليّة المختلفة مثل: صناعة البارود، والخزف⁽⁵⁾.

4- السّكان الأصليون:

الذين وُجدوا في الإيالة والمدن الكبرى الجزائرية، فكان معظمهم من الطبقة البسيطة أصحاب الحرف والفلاحين، فكانوا يعملون في الأعمال الشاقة، كحفر الآبار وتنظيف القنوات، والحمال، وخدمة البساتين، كما عملوا في البيوت عند الطبقة الحاكمة.

(1) _عمار بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر من البداية إلى غاية الاستقلال 1962، دار البصائر، الجزائر، ط3، 2008م، ص 73

(2) _عمار بوحوش، مرجع سابق، ص 74.

(3) _أرزقي شيوتام، دور الكراغلة في الجزائر أثناء الفترة العثمانية (1519م-1830م)، مجلة أفكار وأفاق، مج3، ع4، 2013، ص 180-182.

(4) _عمار بوحوش، مرجع سابق، ص 74.

(5) _المرجع نفسه، ص 74.

5- اليهود:

ازدادت نسبة هذه الفئة في العهد الأخير للحكم العثماني، وارتفع شأنهم عند الطبقة الحاكمة، واشتهروا بالسّمسرة والنفود التجاري، فكانوا يبيعون ويشترّون الغنائم المتحصّل عليها من الجيش، فاستطاعوا أن يتحصّلوا على ثروة هائلة على حساب الخزينة العمومية للدولة، ولهذا الأسباب ساءت العلاقة بين السكان واليهود، وهم يعدّون الأيادي الخفية للعديد من الأزمات السياسية الجزائرية مع الدّول الأوروبية.⁽¹⁾

6- جماعة الزّنوج أو العبيد:

هم طبقة العبيد الذين أُحضروا من النيجر والسودان عن طريق التجار الذين يتقايضون بهم مقابل البضائع التي يبيعونها، ليتمّ استغلالهم في الأعمال المنزلية، وتمثّل هذه الفئة الأقليات بالجزائر.⁽²⁾

7- القبائل والأعراش في المجتمع الرّيفي في الجزائر:

تمثّل القبائل والأعرش السكان الأصليون للبلاد، كانوا يقطنون المناطق الريفية بعيدين عن حياة المدن، ولقد اختلفت هذه القبائل في علاقتها بالحكم العثماني، فمن القبائل من انضمت تحت اللواء العثماني فعرفت بقبائل المخزن، ومنها من أخضعت بالقوة من طرف السلطة الحاكمة، و قبائل و أعراش أخرى رفضت الانضمام لحكم الأتراك وبقيت مستقلة لها إطارها الديني وسلطتها الخاصة⁽³⁾، ولقد تمّ إحصاء هذه القبائل حسب انتماءها وتمركزها في المناطق، فقد بلغ عدد قبائل المخزن التابعة للسلطة العثمانية 126 قبيلة، والقبائل التي أخضعت بالقوة بلغ مجموعها 104 والقبائل النصف مستقلة بلغت 86 قبيلة، وأمّا القبائل الراضية للانتماء، والتي بقيت مستقلة تحت لواء قادتها بلغ مجموعها 200 قبيلة.⁽⁴⁾

(1) _ عمار بحوش، مرجع سابق، ص 75.

(2) _ سلوان رشيد رمضان، أوضاع الجزائر خلال الحكم العثماني 1518م-1830م، مجلة الدراسات التاريخية والحضارية، مج5، ع16، 2013م، ص 427.

(3) _ المرجع نفسه، ص 428./وللمزيد من المعلومات انظر إلى: بلبروات بن عتو، المدينة والريف بالجزائر أواخر العهد العثماني، رسالة دكتوراه "منشورة"، 2007-2008، ص ص 247-289.

(4) _ ارجع إلى: سلوان رشيد رمضان، أوضاع الجزائر، مرجع سابق، ص 428.

ثانيًا- تعداد السّكان و أوضاعهم الاجتماعيّة:

لم تكن هناك إحصائيات رسميّة عن عدد السّكان في الجزائر خلال العهد العثماني، وقد أشارت بعض الدّراسات إلى أنّ عدد السّكان كان يتراوح بين 3 إلى 3,5 مليون نسمة في نهاية العهد العثمانيّ فوجد 5% منهم في المدن وأما 95% كلهم يعيشون في الرّيف، وكان عددهم في تناقص تدريجيّ بسبب الأوبئة والمجاعات⁽¹⁾، والكوارث الطّبيّة والثورات... الخ، كما أنّ السّلطات الحاكمة لم تلقَ اهتماما للشّؤون الصّحية، فلم تشيد مستشفيات، فكان يعتمد السكان على التّداوي بالأعشاب المعروفة بين الناس، وكانت الزوايا هي التي تأوي العجزة والمرضى، فلم تزاوّل مهنة الطّب، والذين يقوم بعلاج المرضى في غالب الأحيان ما يلجؤون للشّعوذة وليس العلم، وتكفل الحلاقون بأعمال الجراحة عن طريق الكي والحجامة، فلم تكن للسّلطة الحاكمة أي علاقة أو تدخّل بمهنة الطّب، ما عدا تعيين طبيب خاصّ — جراح باشي — من القوة الانكشارية للعناية بالجيش، وأما الطبقة الحاكمة فكانت تستعين بالأسرى الأجنب وخبرتهم بالمجال الطّبي⁽²⁾.

ولقد قسّم العثمانيون البلاد إلى أربع مقاطعات إدارية، وذلك قصد التحكّم في التراب الجزائري بمدنه وأريافه، واختلف كل مقاطعة عن الأخرى في المساحة والكثافة السّكانية والقدرات الاقتصادية والموقع الجيوسياسي، وهذه المقاطعات تمثّلت في دار السلطان، وبايليك الشرق، وبايليك التيطري وبايليك الغرب، وكلّ "بايليك" يتكون من مدن وأرياف⁽³⁾.

وفي مجال القضاء فكان لجميع سكان الجزائريين الحقّ في التّقاضي طلبا للعدل، ولقد عرفت الجزائر تعايش مذهبين فقهيّين المذهب الحنفي والمالكي، فحظي المذهب الحنفي برتبة الامتياز؛ لأنّه مذهب الطبقة الحاكمة والمالكي كان مذهب أغلبية العرب والبربر بالمدن والأرياف، واستجابة لهذا التنوّع انشأت محكمتان لكل مذهب، تميّزت كل واحدة بمفيتها وقاضيه⁽⁴⁾.

عرف المجتمع الجزائري بتضامن أفراده رغم التنوّع العرقي الذي يتكوّن منه، ومن جوانب هذا

(1) — عمار بوحوش، مرجع سابق، ص 73.

(2) — سلوان رشيد رمضان، مرجع سابق، ص 433.

(3) — بلبروات بن عتو، مرجع سابق، ص ص 10-11.

(4) — المرجع نفسه، ص 12.

التضامن مؤسسة الأوقاف التي كانت خادمة للدين الإسلامي وتعاليمه، وهي تمثل عنوان التضامن الاجتماعي بين أفراد المجتمع، في العهد العثماني، ووضعت لهذه المؤسسة أسس و قواعد من الشرع يلتزم بها كل من صاحب الواقف والمستفيد، ولكن لم تحترم تلك الأسس بشكل دائم، فقد يسيء التصرف في الوقف من قبل الوكيل، فتتدخل الدولة لتحول فوائد الوقف إليها، لذلك كانت الأوقاف محل شكوى من المسلمين، ولا سيما علماء الدين بسبب إهمالها، أو لسوء إدارتها⁽¹⁾.

بعد استقراءنا جانباً من جوانب الحياة الاجتماعية للجزائر في نهاية الحكم العثماني يتضح لنا مايلي:

كان المجتمع الجزائري مقسّم إلى طبقات متباينة ومتفاوتة موزعين بين المدن والأرياف، وكانت هناك قطيعة بين الطبقة الحاكمة والرعية، كما اتّصف المجتمع الجزائري بنوع من العزلة فيما بينه سواء في المدينة التي كانت تحتوي على وعاء متنوع من الطبقات، أو في الريف الذي عرف بنظامه القبلي أو ما يطلق عليه بالعشائر، وقد قسّم هو كذلك حسب انتمائه إلى نظام الحكم العثماني، وشهدت الجزائر في الفترة الأخيرة من الحكم العثماني عدّة أزمات مثل الزلازل، والطّاعون، والمجاعات التي حلّت بالسكان جراء السياسات السيئة، ولا مبالية للحكام وخاصة تلك التي تتعلّق بالضرائب، إلى جانب نقص كبير في التهيئة و المرافق التي تحوي السكان مثل المستشفيات، فيوضّح لنا الوضع الاجتماعي للجزائر، الذي عرف بالتمزّق والفرقة بين طبقاته على حالة من الانهيار التي تهدّد وتنبؤ بالاحتلال.

المطلب الثالث: الحياة الثقافية:

اهتمّ الأتراك بالشؤون السياسية والعسكرية أكثر من الشؤون الثقافية⁽²⁾ للبلاد، فلم يلق الجانب الثقافي عامة والتعليم خاصة عناية كافية، وذلك راجع لطبيعة العصر الذي كان يعتمد في الأساس على القوة العسكرية، خاصّة أن الجزائر كانت تحت ووطاة التهديدات المستمرة من قبل العدو الأجنبي، وهذا الأمر أثر على الجانب الثقافي، وأضعف من اهتمام العثمانيين وتشجيعهم للعلوم⁽³⁾.

فعرف التعليم باستقلالية تامة عن السّلطة الحاكمة خاصة في مناطق الأرياف، التي اعتمدت

(1) _ سلوان رشيد رمضان، مرجع سابق، ص 431-433.

(2) _ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ج 1، ص 188.

(3) _ المرجع نفسه، ج 1، ص 281.

على ذاتها في هذا المجال الذي تأثر بالطرق الصوفية بشكل كبير، فكان أهالي القرى يقومون بتنظيم التعليم بطرقهم ووسائلهم الخاصة، فانتشر فيهم تعليم القرآن والحديث ومختلف العلوم العربية الإسلامية فكانت الزوايا تمثل معاهدا لتعليم الأبناء وتكوين العامة، وبرغم من قلة اهتمام الأتراك بالجانب الثقافي إلا أنّ العصر شهد حركة تعليمية مزدهرة، فقد قدّرت عدد المدارس القرآنية في الجزائر بثلاثة آلاف مدرسة قرآنية⁽¹⁾.

أولاً: مراكز التعليم في الجزائر:

1- كتاتيب القرآن: الكتاب أو "المسيد" وتعني باللهجة الجزائرية مسجد، وهي أول مكان يتعلم فيه الولد الحروف الهجائية باستعمال اللوح المصلصل والقلم الخشبي، ويمثل الكتاب مرحلة التعليم الأولي، التي خصّصت لحفظ القرآن وتعليم مبادئ القراءة والكتابة والحساب، وكانت الكتاتيب منتشرة في كامل ربوع البلاد⁽²⁾.

2- الزوايا: تحتلّ الصدارة بين مراكز الثقافة والتعليم، وكان تتركزها في الغالب في المناطق الريفية، ولقد مثّلت الزاوية المسجد والمدرسة في آن واحد⁽³⁾.

3- المساجد: تعدّ محور نشاط الحياة العلمية والاجتماعية، وهو المهد الأول للتعليم ولتحفيظ القرآن الكريم، وتدرّس العلوم الشرعية والإنسانية، وكان يمثل روح الحي في المدينة، ويرجع إليه في حلّ مشاكل الناس، وكانت تلتف من حوله السكّانات والأسواق والكتاتيب⁽⁴⁾.

4- المدارس: عُرِفَت المدن الرّئيسة بالجزائر في الفترة العثمانية بكثرة مدارسها⁽⁵⁾، فقد قدر الاحتلال الفرنسي نسبة هذه المدارس حين دخوله للجزائر، فأحصت في مدينة تلمسان خمسين مدرسة ابتدائية ومدرستين خصّصتا للتعليم الثانوي والعالي، وبلغ عددها في مدينة قسنطينة حوالي تسعين

(1) _ مُجَدِّ المختار اسكندر، المدينة بين القديم والحديث، المطبعة الشعبية للجيش، 2007م، ص 43.

(2) _ رشيد مريخي، ملامح من الحياة الثقافية في الجزائر أواخر العهد العثماني، مجلة الحكمة للدراسات التاريخية، مج 5، ع 12، ديسمبر 2017، ص 234.

(3) _ المرجع نفسه، ص 234.

(4) _ المرجع نفسه، ص 236.

(5) _ رابح تركي، التعليم القوي والشخصية الجزائرية، الشركة الوطنية، الجزائر، ط 2، 1981م، ص 29.

مدرسة، وقدر عددها في الجزائر بمئة مدرسة ابتدائية وغير ابتدائية⁽¹⁾، والمواد التي كانت تلقن للصغار في المرحلة الأولى القراءة والكتابة والقرآن، وعند دخولهم إلى المعاهد الكبرى يدرسون علوم الشريعة كالفقه والتفسير، والحديث، والأخلاق، بالإضافة إلى علم الحساب⁽²⁾.

ثانيًا: نوعية العلوم السائدة وأشهر العلماء في أواخر العصر العثماني بالجزائر:

1_ نوعية العلوم السائدة في أواخر العصر العثماني:

إنّ طابع المؤسسات التعليمية المنتشرة آنذاك يبيّن ويوضح نوعية العلوم التي كانت سائدة فمعظم المراكز كان أساس تعليمها الأوّل هو العلوم الشرعية من تحفيظ وتعليم القرآن، والحديث إلى التفقه في مختلف العلوم المنطوية تحتها، فكان الإنتاج الجزائري تحت هذه العلوم الشرعية والأدبية والصوفية، ويرجع هذا إلى اهتمام الجزائريين بشكل كبير بالقرآن والحديث فهما يعدّان المنبع الرئيس الذي يستقي منه الجزائريون أفكارهم⁽³⁾، وما تميّزت به تلك الحقبة الزمنية التقليد والتكرار، فلم يكن هناك اجتهاد أو استقلال في الآراء، بل كان الفقهاء يقلّدون سابقهم تقليدًا أعمى⁽⁴⁾.

وعرفت العلوم العقلية _ العلمية _ إنتاجًا ضئيلاً مقارنة بالعلوم الشرعية، وذلك راجع لاهتمام الجزائريين في هذا العهد بالعلوم الشرعية مهملين العلوم العقلية، فعلى سبيل المثال لا الحصر في مجال الحساب رغم أنّ هذا العلم يعتمد على الموهبة والذكاء ويضمّ مبادئ جوهرية، ويستند إلى فرضيات قابلة للتغيير والتبديل عند الوصول إلى نتائج جديدة، إلا أنّ هذا العلم لم يحظي باهتمام الطلاب وكاد يختفي من الساحة الفكرية لولا وجود بعض الأعمال "كالدرة البيضاء" لعبد الرحمن الأخضر^(*)، ويعدّ "ابن حمادوش"^(*) من الذين اهتموا بعلم الحساب غير أنه لم يخصّه بتأليف⁽⁵⁾، وبالنسبة إلى علم الهندسة فلم

(1) _ عبد المنعم قاسمي حسني، دور الزوايا والطرق الدينية في محاربة الاحتلال الفرنسي في الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 2007، ص 20.

(2) _ أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر، مرجع سابق، ص ص 163 - 166.

(3) _ للمزيد من التوسع أنظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ص 87.

(4) _ للمزيد من الإطلاع ارجع إلى: وسيلة خلفي: نظرية الاستقرار في الفقه الإسلامي، دار ابن الخزم، بيروت، ط 2015، ج 1، ص 40.

(*) _ الأخضر: هو العلامة الجزائري أبو يزيد عبد الرحمن بن محمد الصغيرين محمد بن عامر الشهير بالأخضري، مالكي المذهب أشعري العقيدة، يعد من العلماء البارزين وعلماء من أعلام الجزائر في ق 10 هـ، أنظر عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، ط 2، 1980م، ص 14.

(*) _ ابن حمادوش. عبد الرزاق ابن محمد بن حمادوش، الجزائري، عالم ورحالة جزائري اشتهر في ق 18، انظر عادل نويهض، مرجع سابق، ص 365.

(5) _ ذهبية بوشيبية، العلم والعلماء في الجزائر خلال العهد العثماني، مجلة الحوار المتوسطي، مج 3، ع 1، ص 130.

يهتمّ به الجزائريون إلا ما ورد في رحلة "ابن حمادوش" عندما أشار إلى تأليف له في المساحة والهندسة بعنوان "فتح المجيب في علم التكعيب"، وأمّا بالنسبة إلى علم الفلك فهو من العلوم الرائجة التي خصّها العلماء بالدراسة والتأليف خلال العهد العثماني، ومن بين الذين اهتمّوا بهذا النوع من العلم "عبد الرحمن الأخضرى" الذي خصّه بنظم سّمّاه "السراج في علم الفلك"⁽¹⁾.

وأما في مجال الطب فلم يلقَ العناية اللائقة في العهد العثماني لاهتمام العلماء بالعلوم النقلية مهملين هذا المجال، وذلك لأنّ التداوي الشائع بين الأهالي كان بالأعشاب الطّبية في ذلك الزّمان ومن الذين ألّفوا في هذا العلم "عبد الرزاق بن حمادوش" بكتاب عنوانه "المجوهر المكنون من بحر القانون"⁽²⁾، وهذه بعض العلوم التي وقفنا عليها من أجل بيان أنّ حركة العلوم العقلية لم تكن محط اهتمام كبير في ذلك الزمن غير أنه لا يمكن النفي بالكلية عن وجود بعض الحركات العلمية التي اشتهرت في تلك الحقبة.

— أشهر أعلام العصر ومؤلفاتهم:

— من أعلام مدينة معسكر:

ساهم علماء معسكر في إنعاش الثقافية وحركة التأليف، وكان لهم الدور الرائد في النهضة الفكرية واشتهروا بالتدريس والإفتاء والقضاء، والوعظ، والإرشاد الديني، نذكر منهم على سبيل المثال: أحمد بن سحنون الراشدي (ت 1796م) الذي اشتهر بكتابه "الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني"، والشيخ مصطفى بن عبد الله بن عبد الرحمن المعروف بابن زرفة الدحاوي من أشهر كتبه "الرحلة القمرية في السيرة النبوية"، والشيخ أبوراس بن أحمد بن عبد القادر بن مُحمّد بن أحمد بن ناصر الجليلي المعسكري (ت 1823)، من أشهر مؤلفاته "درء الشقاوة في حروب درقاوة" و"عجائب الأسفاء ولطائف الأختيار"⁽³⁾.

(1) — ذهبية بوشيبة، مرجع سابق، ص 131.

(2) — المرجع نفسه، ص 132.

(3) — رشيد مريخي، مرجع سابق، ص 238.

- من أعلام مدينة وهران والغرب الجزائري:

عرفت وهران العديد من العلماء نذكر منهم على سبيل المثال، مسلم بن عبد القادر الوهراني (ت 1832)، ومن مؤلفاته "نظم الجواهر في سلك أهل البصائر"، والشيخ محمد بن علي أبو طالب المازوني من مصنفاته "شرح القصيدة الصغرى للشيخ السنوسي التلمساني"⁽¹⁾.

- من أعلام مدينة قسنطينة والشرق الجزائري:

وُجد في الشرق الجزائري العديد من العلماء نذكر منهم: الشيخ مصطفى العجمي (ت 1824م) من كبار فقهاء المذهب المالكي له "تكملة شرح الشنهوري"، ومحمد الحفصي القسنطيني (ت 1811م) له حاشية على السلم في المنطق، والشيخ عبد الرحمن باش تارزي (ت 1807م)، من مصنفاته "غنية المريد في شرح منظومة مسائل التوحيد"

- من أعلام مدينة الجزائر:

علي بن عبد القادر بن الأمين (ت 1821)، من مؤلفاته "إتحاف ذوي الألباب بفضل الخطاب"، حمدان بن عثمان خوجة (ت 1845)، من أشهر مؤلفاته "المرآة"⁽²⁾.

- من أعلام الجنوب الجزائري:

يوسف بن عدون (ت 1808م) من مصنفاته "حاشية على البيضاوي"، والعالم إبراهيم بن بيحمان (ت 1817) من كتبه "مختصر المناسك" و"الجواهر الثمينة"⁽³⁾.

من خلال ما تمّ عرضه أردنا أن نبرز في هذا المطلب جانبا من جوانب الثقافة والعلم في الجزائر أواخر العهد العثماني، العصر الذي وُلد فيه الأمير عبد القادر، فوقفنا على النقاط التالية:

اهتمّ الجزائريون بالتحصيل العلميّ، سواء في المدن أو الأرياف، وكانت المؤسسات التعليمية الشائعة آنذاك من (مساجد، زوايا، كتاتيب، مدارس) هي التي تحرص وتتكفل بنشر العلم، وكانت تمول

(1) - رشيد مريخي، مرجع سابق، ص 238.

(2) - حول أعلام مدينة الجزائر و قسنطينة إرجع إلى: ذهبية بوشيبة، العلم والعلماء في الجزائر خلال العهد العثماني، مرجع سابق، ص 123 وما بعدها/ وانظر إلى: رشيد مريخي، مرجع سابق، ص 239 _ 240.

(3) - رشيد مريخي، مرجع سابق، ص 239، وما بعدها.

من قبل أموال الأوقاف، ولم تهتم السلطة الحاكمة بالمجال العلمي، ونوعية العلوم التي كانت سائدة هي العلوم النقلية من قرآن وحديث، وما يلج تحتها من علوم، وبالنسبة للعلوم العقلية لم يكن لها الحظ الوافر من الاهتمام، بالقدر الذي اهتمت فيه الدول الغربية الأوروبية بهذه العلوم التي أبدعت في اكتسابها، وصنعت بها حركة نقلية من العصور الوسطى إلى عصر التنوير وحركة الفكر.

كما عرفت الجزائر بعلمائها في مختلف المجالات خاصة العلوم النقلية منها، موزعين على ربوع الوطن، فحاولنا ذكر بعضهم على سبيل المثال لا الحصر؛ لأنّ بحثنا هذا ليس الغرض منه إبراز هذا الجانب وإنما أردنا الإحاطة فقط بما هو متداول في ذلك العصر؛ من أجل وضع شخصيتنا المتناولة بالبحث تحت الظروف الموجودة في ذلك الزمن.

في ملخص هذا المبحث يمكن أن نقيم وضعية العصر الذي ولد الأمير عبد القادر وعاش فيه وتأثر به في النقاط التالية:

- تميّز التاريخ السياسي للجزائر في أواخر العهد العثماني بداية القرن 19 بالفوضى العارمة والاضطراب الذي أدى إلى انهيار وتمزّق الجزائر من الداخل، وذلك من خلال فشل السياسات الحاكمة في تسيير الأوضاع، وتمييز النظام الحاكم في أغلبه بالسيطرة والاستبداد، واستبعاد أهل البلاد من المشاركة في الحكم، بحيث لا يمكن أن يتولّى السلطة غير الأتراك، وشهد نظام الحكم قطيعة وعزل تام بين السلطة والطبقة المحكومة التي تضررت جرّاء الضرائب التي تفرض باستمرار دون مراعاة أحوال الشعب وظروفه.

- ساهمت القطيعة بين السلطة والطبقة المحكومة الناقمة من السلطات، في قيام ثورات شعبية ضدّ النظام الحاكم بقيادة أصحاب الطرق الصوفية التي لم تكن منطوية تحت اللواء العثماني مثل قبائل المخزن، التي تقربت إلى السلطة؛ من أجل تحقيق امتيازاتها.

- ظهرت في الحقبة الأخيرة من العهد العثماني طبقة من اليهود الذين تقربوا بشكل كبير من الدّايات للحصول على امتيازات، خاصة في الجانب التجاري الذي احتكرته لصالحها، وعملت على تأزّم الوضع السياسي للبلاد من خلال تدخلها في العلاقات التي ربطت بين الجزائر والدول الأوروبية خاصة الفرنسية والبريطانية منها.

- لقد عرفت هذه المرحلة بضعف اجتماعي واقتصادي كبير صاحب الوضع السياسي للبلاد؛ إذ شهدت الجزائر في هذا العصر تراجعاً كبيراً في الموارد المالية، كما شاهدت أيضاً العديد من الأزمات التي كبّدتها خسائر بشرية في أرواح العباد، وعرف المجتمع الجزائري بتشتته وانقسامه إلى عدة طبقات مختلفة ومتنوعة بين المدن والأرياف، وكانت هناك قطيعة بين السلطة وباقي طبقات المجتمع، ما أدى إلى نفور وعداوة بينهما، وهذا ما ساعد على زيادة حدة تأزم الأوضاع الداخلية للبلاد.

- وفي المجال الثقافي يمكن الحكم على المجتمع الجزائري بأنه مثقف؛ لأنّ أغلبية السّكان في المدن أو الأرياف كان لهم الحقّ في التعلّم بسبب كثرة المؤسسات الموجودة في ذلك العصر، والتي ساهمت في إنعاش التعليم، والعلوم المتداولة في تلك الفترة هي العلوم النقليّة بجميع جوانبها، أما العلوم العقلية الحديثة فقد عرفت عزوفاً كبيراً عند المتعلّمين، ما كون فجوة عميقة بين الجانبين.

وفي خضم هذه الأوضاع الداخليّة للبلاد المتشتتة والمتأزّمة، راح الاتحاد الأوروبيّ يعزف على أوتار هذا الضّعف واستغله لإضعاف القوة الجزائرية التي كان يحسب لها ألف حساب، فشهدت البلاد الجزائرية في هذا الحقبة شتّى حملات عسكرية أوروبية متتالية أضعفت الأسطول البحري للجزائر، ما نتج عنه التشتت الداخلي والضعف الخارجي، فشكّلت هذه الأوضاع مناخاً ملائماً لوقوع الجزائر فريسة سهلة تحت الاحتلال.

المبحث الثاني: حياة الأمير عبد القادر:

سالت الأعلام في تبيان سيرة الأمير عبد القادر الذاتية من قبل العديد من الكتاب الأجانب والعرب والجزائريين، وذلك راجع إلى أهميّة هذه الشخصية في تاريخ الجزائر الحديث، ولقد حاولنا في هذا المبحث أن نتطرّق إلى شخصية الأمير عبد القادر من حيث النّسب والنشأة، ورحلاته العلمية وجهاده وآثاره، واقفين على أهمّ المحطّات، ملخّصين فيها في نقاط دون إسهاب، وإلا فقد غنتنا كتب التاريخ والسيرة في عرض هذه الشخصية من كل جوانبها، فغرضنا في هذا المبحث معرفة أهمّ المعلومات عن الأمير التي تفيدنا في هذه الدّراسة.

المطلب الأوّل: نسب الأمير وتربيته:

أولاً: اسمه ونسبه وكنيته، أصل أسرته:

__ اسمه ونسبه:

هو الأمير عبد القادر، بن محي الدين، بن مصطفى، بن مُحمَّد، بن المختار، بن عبد القادر، بن أحمد (المشهور بابن خدة)، بن مُحمَّد، بن عبد القوي، بن علي، بن أحمد، بن عبد القوي، بن خالد، بن يوسف، بن أحمد، بن بشار، بن مُحمَّد، بن مسعود، بن طاووس، بن يعقوب، بن عبد القوي، بن أحمد، بن مُحمَّد، بن إدريس الأصغر، بن إدريس الأكبر، بن عبد الله المحض، بن الحسين المثنى، بن الحسن السبط، بن علي بن أبي طالب، أم الحسن فاطمة الزهراء بنت النبي ﷺ⁽¹⁾.

__ كنيته:

كنيته أبو مُحمَّد أما ألقاب الأمير عبد القادر فهي متعددة أطلقت عليه في مناسبات متعددة بعضها لازمت طيلة حياته، والأخرى انتهى بانتهاؤها الفترة الزمنية التي كان يرمز إليها اللقب مثل: أمير المؤمنين، ناصر الدين و الذي أطلقه عليه والده عند بيعته الأولى⁽²⁾، وأما "الأمير" فهو أشهر لقب عرف به ولازمه طيلة حياته وبعد وفاته.

__ أصل أسرته:

تنتمي أسرة الأمير عبد القادر إلى الأدارسة الذين كان لهم ملك عظيم في بلاد المغرب، وأول من نزع من أسلافهم من المغرب، عبد القوي الأول الذي حلّ بقلعة بني حماد بعد اشتداد الفتن في المغرب الأقصى⁽³⁾، وعرف والد الأمير عبد القادر بلقب الشريف لانتهاء نسبه إلى الرسول مُحمَّد صلوات الله عليه، وكان والده أحد حماة الشريعة، وكبار مشايخها وأوليائها المختارين، نشأ (محيي الدين) والد الأمير في كنف والده وتعلم منه، ثم رحل إلى مدينة مستغانم أين أخذ العلم من علماءها، واعتكف في آخر حياته على نشر العلم، وألف كتاب "إرشاد المريدين" في التصوّف⁽⁴⁾، كما انشأ زاوية لطلبة العلم

(1) __ الأمير عبد القادر، المذكرات، ت مُحمَّد الصغير بناقي، دار الأمة الجزائرية، دط، 1994م، ص 544.

(2) __ مُحمَّد بن عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر، ت محمود حقي، منشورات مؤسسة الأمير عبد القادر، دط، 2007م، ج1، ص 174.

(3) __ فؤاد صالح السيد، الأمير عبد القادر الجزائري متصوفاً وشاعراً، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، 1985م، ص 27.

(4) __ فؤاد صالح السيد، مرجع سابق، ص 28.

والقرآن، وعرف بمكانته العالية في قومه لما امتلكه من العلم والحكمة والكرم والشرف، فكان يرجع إليه في حل المشكلات، وتزوج محي الدين والد الأمير بأربعة من النساء، وأنجب ستة أولاد، و أم الأمير هي السيّدة زهراء ابنة السيد محمد بن دوحة الحسنية⁽¹⁾.

– مولد الأمير عبد القادر:

ولد الأمير بقرية القيطنة غرب مدينة معسكر التابعة إلى إيالة وهران، في الثالث والعشرين من رجب، في أحد أو اثنين وعشرين ومائتين وألف الموافق لشهر ماي ألف وثمانمائة وسبعة ميلادي⁽²⁾.

ثانيا: تربية الأمير:

نال الأمير تربية خاصة وحُظي بمكانة وعناية عالية من قبل والده محي الدين، وفي الرابعة من عمره التحق بمدرسة والده في القيطنة، وظهرت عليه ملكات تدلّ على نبوغه، فقد كان يقرأ ويكتب في الخامسة من العمر⁽³⁾، ولما أنس والده محي الدين فيه الذكاء والفتنة والتفوق بذل قصارى جهده في تثقيفه وتعليمه، فتمكّن الصبي من اكتساب جانب كبير من العلم وحفظ القرآن في فترة وجيزة⁽⁴⁾، وفي الثانية عشر من عمره درس الفقه، فكان دؤوبا على دروس الحديث وأصول الشريعة وحفظ القرآن وحصل على رتبة الحفاظ في الرابعة عشر من عمره⁽⁵⁾.

المطلب الثاني: رحلات الأمير وجهاده.

أولا: رحلاته:

1_ رحلته العلمية إلى وهران:

عندما اشتدّ عوده في الرابعة عشرة من عمره أرسل إلى وهران من طرف والده، ليكمل تعليمه فتطلّع في العلوم العربية والدينية كالفقه وأصول الحديث وأصول الشريعة على يد أحمد بن طاهر البطيوي

(1) _ المرجع نفسه، ص 29.

(2) _ الأمير عبد القادر، المذكرات، مرجع سابق، ص 48.

(3) _ هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ت ابو القاسم سعد الله، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، دط، دت، ص 61.

(4) _ مصطفى طلاس، فارس الجزائر الأمير عبد القادر، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، دط، دت، ص 19.

(5) _ هنري تشرشل، مرجع سابق، ص 39.

قاضي أرزيو، فجد في تحصيلها، كما طالع كتب الفلسفة واجتهد في تحصيل علوم الرياضيات والجغرافية والتاريخ، وبعد رحلته هذه عاد إلى القيطنة، أين أخذ يلقي فيها الدروس في جامع الأسرة⁽¹⁾.

وبالإضافة إلى علم الأمير عرف بشدة قوته البدنية وبسالته النادرة، فبرع في الفروسية براعة فاقت أقرانه الفرسان، فكان ماهرا بركوب الخيل واللعب على ظهرها، وظهرت قوة رجولته رغم صغر سنه، واجتمع له من الخصال والأخلاق الحميدة، والملكات العقلية والاستعدادات النفسية، والقوة البدنية، مما جعله يتفوق على كل أقرانه⁽²⁾.

- إقامة الأمير في وهران:

بسبب المكانة والمنزلة العلمية والدينية الرفيعة التي كان يتمتع بها والد الأمير - محي الدين - أوغرت أحقاد في صدر بعض معاصريه الذين وشوا به إلى حاكم وهران، فأرسل هذا الأخير إلى محي الدين وأمره بالإقامة في وهران، فحلّ بوهـران تحت الإقامة الجبرية مدة سنتين، وأخذ معه ابنه الأمير لخدمته، فاستفاد الابن وولده من العزلة المفروضة عليهما، فخصّصا وقتهما في الدراسة والتعلم⁽³⁾، ثم أدنت لهم بعد ذلك السلطات التركية بالذهاب إلى البقاع المقدسة بعد إطلاق سراحهما.

2_رحلته إلى أداء فريضة الحج وأخذه عن علماء المشرق:

أدى الأمير ووالده فريضة الحج في سنة 1241هـ-1825م، وبعد فراغهما من الفريضة زارا مدينة رسول الله، ثم ذهبوا إلى دمشق فمكثا بها عدة شهور معتكفين على الدرس والتتقيب، والتقىا بكبار العلماء والصّـلحاء بها، وقضيا معظم وقتهما في تحصيل العلوم الدينية بالجامع الكبير⁽⁴⁾، ملتزمين بحضور حلقات الدروس العلمية خاصة التي كانت تقام في الجامع الأموي⁽⁵⁾.

وأخذ الأمير الطريقة النقشبندية عن الشيخ خالد النقشبندي السهروردي حين كان مقيما

(1) _ ارجع إلى: مُجد علي الصلابي، كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، مرجع سابق، ص ص 352-353.

(2) _ مصطفى طلاس، مرجع سابق، ص ص 20-21.

(3) _ يحي بوعزيز، الأمير عبد القادر رائد الكفاح المسلح، دار البصائر، الجزائر، دط، 2009م، ص 18.

(4) _ هنري تشرشل، مرجع سابق، ص 69.

(5) _ يحي بوعزيز، مرجع سابق، ص 20.

بدمشق⁽¹⁾، وأخذ عنه علوم كثيرة في التوحيد والتصوف، ثم ارتحلا إلى بغداد وزارا قبر وضريح الشيخ الرباني عبد القادر الجيلالي، فلبس عبد القادر الأمير الحرقا وأخذ الطريقة على يد الشيخ محمود عبد القادر الكيلاني، خليفة الشيخ عبد القادر الجيلالي، وبعد مكوثهم ببغداد مدة ثلاثة أشهر عادا إلى البقاع المقدسة فأديا فريضة الحج للمرة الثانية، و في طريق العودة مرا بكل من القاهرة ودمشق ثم إلى القيطنة سنة 1243هـ-1823م بعد غياب سنتين عن الديار.⁽²⁾

سمحت هذه الرحلة للأمير بأن يطلع على أوضاع البلاد العربية، وأخذ فكرة عن نمط حياتها وازداد الأمير بعدها شغفا بالعلم، فلازم العزلة والخلو في بلدته لتحصيل العلم، فكان لا يفارق كتبه إلا لتناول الطعام أو الصلاة، فتنوعت الكتب التي قرأها بين التصوف والفلسفة،⁽³⁾ ووقرا كتب ابن عربي وكتبا في الخلافة العربية والتاريخ والجغرافية، وكتبا في علم الفلك وعلم الكلام وحتى كتب الطب، فقد استطاع هذا الشاب أن يظهر براعة لا نظير لها في أقرانه فبرزت آثارها في كتاباته⁽⁴⁾.

ثانيا: جهاده، أسره، وفاته:

1- الأمير عبد القادر مجاهدا: بعد فشل كل المحاولات من طرف أهالي الجزائر في ردّ العدوان الجائر، ويأسهم من الدولة العثمانية لنجدتهم، فاجتمع كبار الأعيان وعقدوا المشاورات المطولة لدراسة الحالة التي آلا إليها، وبعد اتّفاقهم لجئوا إلى محي الدين، وعرضوا عليه بيعتهم له على الإمارة والجهاد فرفض محي الدين الإمارة وقبل تولّي الجهاد،⁽⁵⁾ وبعد إصرارهم عليه اقترح عليهم اسم ولده عبد القادر.

قبل الأمير عرض والده والأعيان، وتمّت البيعة الأولى سنة (1248هـ-1832م) تحت شجرة الدردارة، وأعلن الأمير عقب بيعته أنّه سيّخذ من القرآن الكريم دستورا لإمارته، ومن خالف هذا الدستور فقد حلّ دمه ولو كان شقيقه، و لما سمعت القبائل بالبيعة الأولى للأمير عبد القادر، توافدت العشائر و القبائل لتلتحق بالبيعة، ثم عقد العلماء والرؤساء والأشراف مجلسا عاما حضره جمهور غفير

(1) _ مُجَد بن عبد القادر، مرجع سابق، ص 932.

(2) _ هنري تشرشل، مرجع سابق، ص 69.

(3) _ يحيى بوعزيز، مرجع سابق، ص 8.

(4) _ هنري تشرشل، مرجع سابق، ص ص 71-72.

(5) _ مُجَد بن الأمير عبد القادر، مرجع سابق، ج 1، ص 186.

من كلّ القبائل، تم فيه عقد البيعة الثانية سنة 1248هـ-1833م⁽¹⁾.

واتخذ الأمير من مدينة معسكر عاصمة لدولته ومنها بدأ جهاده، وحقّق انتصارات باهرة على العدو، فلجأ هذا الأخير إلى عقد اتفاقيات مع الأمير عرفت الأولى بمعاهدة ذي ميشال، واستغلّ الأمير هذه المدة لتأسيس وبناء دولته، فوضع نظامها الخاصّ الذي استقاه من الخلافة الراشدة، وتفرّغ لإصلاح البلاد، وعمل على تنظيم جيشه وهياكل وأركان دولته.

لم يطل الزمن كثيرا حتى نقدت المعاهدة الأولى من قبل الفرنسيين، ودارت معارك طاحنة كانت الغلبة فيها للأمير وجيشه فأبرمت معاهدة جديدة بين الطرفين عرفت بالتافنا، وفي هذه الفترة عمل الأمير بكلّ جهده وسبله على توحيد الشعب الجزائريين، وكان طموحه لمّ شمل وحدة المغرب العربي الكبير ليتضامنوا في يد واحدة لإعلاء كلمة الحق، وإخراج العدو الواحد منه، وكان الأمير على يقين تامّ أنّه لا يستطيع تحقيق أهدافه إلّا إذا كان الشعب موحدا⁽²⁾.

وبعد عدة محاولات من طرف الأمير للوحدة المغربية، وجد نفسه أمام نارين نار العدو الفرنسي وأحقاد وطمع ملك المغرب، فآثر الأمير في النهاية للاستسلام لفرنسا سنة (1264هـ-1847م) وبهذا انتهت رحلة الأمير الجهادية وبدأ رحلته وتجربته العلمية⁽³⁾.

2- حياة الأمير في الأسر:

اتّفق الأمير بعد الاستسلام لفرنسا أن يتركوه يذهب إلى الإسكندرية أو مكة، وكعادة فرنسا قامت بخداعة وأخذته إلى فرنسا في سجن لامبواز، وعرضت عليه الإقامة الدائمة فرفض الأمير ذلك، ولم يجد عزاءه إلا في طلب العلم والعبادة، فقد داوم على التدريس وإفادة الطلبة من جماعته، فقرأ الصغرى لسنوسي في علم الكلام، ورسالة مُحمّد بن أبي زيد القيرواني في الفقه على مذهب مالك وغيرها من المصنّفات، وعكف على الكتابة والتأليف مثل المقرض الحاد، وبعد زيارة لويس نبلون الأمير في سجنه أذن له بإطلاق سراحه مقابل ألا يعود إلى الجزائر أبدا، وأهداه لويس سيفاً وقال له أنا على يقين بأنك

(1) - مُحمّد بن الأمير عبد القادر، مرجع سابق، ج 1، ص 186، ص 193.

(2) - المرجع نفسه، ج 1، ص ص 199، 227، 277.

(3) - عبد الرحمان الجيلالي، مرجع سابق، ص ص 220، 223.

لن ترفعه على فرنسا، فردّ عليه الأمير بأنّه الآن يستعمل القلم ولا يستعمل السيّف وغادر إلى الشرق⁽¹⁾، وبعد خروج الأمير من الأسر توجّه إلى بورصة حيث وصل إلى صقلية واجتمع بالسّلاطنة العثماني عبد المجيد الأوّل، ثمّ توجّه إلى بورصة وقضى أيّامه فيها على قراءة القرآن والمطالعة، وما كتبه هناك ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، وبعد عدّة أزمات واجهتهم توجّه الأمير إلى دمشق أين لقي اهتمام العلماء والفقهاء، وهنا ازدهرت حياته العلمية وتبلورت ملامحه الصوفية والعلمية الأخرى⁽²⁾.

3- مرضه ووفاته:

توفي الأمير سنة 1883 في قصره بقرية دمر بدمشق عقب مرض أصيب به في الكلى والمثانة وبرغم من الأوجاع والآلام التي عانى منها الأمير، إلّا أنّه لم يظهر التذمّر والضجر، وكان راضيا بقضاء الله محتسبا به⁽³⁾.

المطلب الثالث: آثاره:

عرف الأمير بكتابة الشّع والنثر، والملاحظ أنّ كتاباته لم تكن كثيرة ولا غزيرة من ناحية الإنتاج العلمي، وذلك راجع إلى انشغاله بالجهاد والأمور السياسية للبلاد وتكوين وتأسيس أركان دولته التي أراد تشييدها، ومن أهم إنتاجاته العلمية التي تُنسب إليه كتابه الذي ألفه في التّصوّف المعروف "بالمواقف"، ولقد تطرّقنا في هذا المطلب إلى جرد آثار الأمير عبد القادر، ثمّ عرّجنا إلى التّعريف بكتاب المواقف لأهميته في بحثنا هذا؛ لأنّ نظرية الإنسان عند الأمير عبد القادر تتمحور في هذا الكتاب.

أولا: آثاره:

1- آثاره الشعريّة:

"الديوان" كانت فرنسا السّابقة في جمع شعر الأمير وإخراجه في كتاب أشعار الأمير، وأُخرج مرّة ثانية من طرف ابنه (مُحمّد ابن الأمير) في كتاب نزّهة الخاطر في قريض الأمير عبد القادر⁽⁴⁾، ثمّ جمعت

(1) _ مُحمّد بن عبد القادر، مرجع سابق، ج2، ص 26.

(2) _ المرجع نفسه، ج2، ص 77، وما بعدها.

(3) _ المرجع نفسه، ج2، ص 397، وما بعدها.

(4) _ صالح فؤاد السيد، مرجع سابق، دط، 1985م، ص 89.

قصائد الأمير في الديوان الذي ضبطه وشرحه الأستاذ ممدوح حقي الذي طبع في دار اليقظة العربية بدمشق، وتم إصدار الكتاب في عدة طبعات أخرى⁽¹⁾.

2- الآثار النثرية:

- وشاح الكتائب وزينة الجيش المحمدي الغالب: رسالة كتبها الأمير في فنون الحرب تلخص الأنظمة والقوانين والقواعد العسكرية⁽²⁾، التي سبّر بها جيشه و نظم بها دولته.
- المقرض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام من أهل الباطل والإلحاد: كتبت هذه الرسالة من قبل الأمير للرد على الطاعنين في الدين الإسلام⁽³⁾، دوّنّها حين كان سجيناً بفرنسا.
- ذكرى العاقل وتنبية الغافل: رسالة مطولة تطرّق فيها إلى العديد من المواضيع المختلفة في الفلسفة، والتاريخ، والأخلاق، والدين⁽⁴⁾، كتبها حين أطلق صراحه وتمّ نفيه خارج البلاد.
- تعليقات دوّنّها على حاشية جده في علم الكلام⁽⁵⁾.
- الصافنات الجياد، كتاب له ذكر فيه محاسن الخيل وصفتها⁽⁶⁾.
- رسائل متنوعة، كتبها الأمير إلى أصدقائه ومعارفه، لو تم جمعها لبلغت عدة مجلّدات وهذه الرسائل متنوعة في محتواها بين أسئلة موجهة إلى كبار العلماء و الفقهاء، وبين إجابات تردّ على قضايا علماء ومفكري المغرب⁽⁷⁾.

ثانياً: التعريف بكتابه المواقف:

العنوان الصحيح للكتاب: أطلق الأمير على كتابه في البداية المواقف، ولما وصل إلى الموقف 360 زاد في تسمية الكتاب "المواقف في بعض إشارات القرآن إلى الأسرار والمعارف" وذلك لخاطرة

(1) _ صالح فؤاد السيد، مرجع سابق، ص 89.

(2) _ مُحمّد بن عبد القادر، مرجع سابق، ج2، ص 228، وما بعدها.

(3) _ المرجع نفسه، ج2، ص 41.

(4) _ صالح فؤاد السيد، مرجع سابق، ص 97.

(5) _ المرجع نفسه، ص 100.

(6) _ المرجع نفسه، ص 102.

(7) _ مُحمّد بن الأمير عبد القادر، مرجع سابق، ج2، ص 247، وما بعدها.

والهام ورد عليه⁽¹⁾.

جاء ذكر الكتاب من قبل ابنه محمد في كتابه تحفة الزائر الذي امتدحه قائلا "برع الأمير في علم الشريعة والحقيقة، وله كتب وتآليف عدة، وحسبك منها ما دونه في علم الحقيقة كتابه المواقف الذي لعقد تأليفه واسطة النظم، ولمطلع مجده بيت القصد وحسن الختام ومن أمعن النظر في خطبته أدرك منها فضله وأقر بعلو مرتبته⁽²⁾.

- السبب الذي دفع الأمير لتأليف الكتاب:

حبّ الأمير وولعه بالتصوّف، وتجربته التي مارسها جعله يخوض مضمار الكتابة فيها، كما عرف الأمير بميله الكبير للمشرب العرفاني للشيخ محي الدين بن عربي، و قد عبّر في العديد من مواقفه في كتابه عن عميق إجلاله للشيخ⁽³⁾.

- البنية الكلية للمواقف:

يتألف كتاب المواقف للأمير من مقدّمة جاءت على شكل مقامة دوّنت في خضمها مجموعة من الأبيات الشعرية والقصائد الصّوفية، تليها مواقف بلغ عددها 372 موقفا، وقد اختلفت نسخ وطبعات هذا الكتاب، فيها ما أخرج في ثلاثة مجلدات وأخرى في مجلدين، وبالنسبة إلى المواقف التي دوّنت ضمن الكتاب فقد تنوعت بين القصيرة والمطوّلة، ويمكن تصنيفها إلى ستة أنواع:

1- مواقف أفتتحت بآيات، تم شرحها إشاريا على الطّريقة الصّوفية، ويتخلّل الشرح آيات أخرى وأحاديث نبوية ، وأحيانا ما تتكرر هذه الآيات في مواقف أخرى ويصل عددها إلى مائة وبضع وستون.

2- مواقف مفتتحة بأحاديث نبوية، وهي الاخرى لها شروح إشارية، وبلغت نحو خمس وأربعون موقفا.

3- مواقف سجل فيها أجوبة متعلقة بكتاب الفتوحات المكية لابن عربي وهي ثلاثة عشر موقفا.

4- مواقف شرح فيها أبواب من كتاب فصوص الحکم وهي تمثل خمسة مواقف.

(1) _ الأمير عبد القادر الحسيني، المواقف في بعض إرشادات القرآن إلى الأسرار والمعارف، ت عبد الباقي مفتاح، دار الهدى الجزائر، ط1، 1426هـ-2005م، ج2، ص 482.

(2) _ محمد بن الأمير عبد القادر، مرجع سابق، ج2، ص 304.

(3) _ الأمير عبد القادر، المواقف، مرجع سابق، ج1، ص 26.

5- مواقف يصف فيها أحواله الروحانية العرفانية وهي نحو عشرة مواقف.

6- مواقف شرح فيها أقوال وحكم وأبيات في الشعر الصوفي تصل إلى تسعة مواقف⁽¹⁾.

- أهم مواضيع المواقف:

تحدثت مواضيع الكتاب حول حقيقة وحدة الوجود، وأحادية الذات الإلهية والأسماء والصفات ومكانة الإنسان الكامل، الذي صوّر في أحسن تقويم ونال شرف الخلافة، كما ورد فيه ذكر المقامات والأحوال العرفانية، وشدد الأمير في ثنيائه على ضرورة الالتزام الظاهري والباطني بالشرعية المحمدية، كما أورد فيه آراءه حول العديد من مواضيع علم الكلام و الفلسفة⁽²⁾.

و الكتاب مقيد وموجه لطلبة العلم العرفاني فتفصيل المواقف صعبة جدًا، وتبّه الأمير إلى هذا الأمر في مطلع مقدمته بأنّ هذه المواقف هي نفثات روحية قيّدتها لإخواننا الذين يؤمنون بآياتنا.... وما قيّدتها لمن يقول هذا إفك قديم ويحتجّ على الله تعالى، من علماء الرّسم...⁽³⁾.

انتشرت مخطوطات كتاب المواقف في الأوساط الصّوفية بعد وفاة الأمير ، وكان لها الأثر الكبير في إحياء ونشر المشرب الأكبري⁽⁴⁾.

أما عن الطّبعات التي وقفت عليها في دراستي هذه:

- طبعة دار اليقظة العربية، الطبعة الثّانية 1966م متكوّنة من ثلاثة مجلّدات.

- طبعة دار الهدى الجزائر، الطبعة الأولى 1426هـ-2005م، متكوّنة في مجلدين.

- طبعة دار الهدى الجزائر، الطبعة الثّانية 1428هـ-2007م، متكوّنة في ثلاثة مجلّدات، وقد

حقّق الطّبعتين الأخيرتين المحقّق عبد الباقي مفتاح.

وفي آخر هذا الفصل نخصي أهمّ النتائج المتمثلة فيما يلي:

- اهتمّ الأمير منذ صغره بالعلم، الذي أخذ مبادئه عن والده، وتشرب منه جانبا من تصوّف، إلى

⁽¹⁾ _ الأمير عبد القادر، المواقف، مرجع سابق ، ج 1، ص 26، وما بعدها.

⁽²⁾ _ المرجع نفسه ، ج 1، ص 32، وما بعدها.

⁽³⁾ _ المرجع نفسه، ج 1، ص 89.

⁽⁴⁾ _ المرجع نفسه ، ج 1، ص 36.

جانب نُبوغته في العديد من العلوم الأخرى.

- جاء الأمير في عصر شابه الاضطراب والفوضى العارمة التي مسّت جميع مجالات الحياة مما سمح لبلاده الجزائر بالانخيار تحت الاحتلال الفرنسي.

- حمل الأمير الشاب راية الجهاد ضد المستدمر الجائر، بعد بيعته من قبل الأهالي، فسعى بكلّ جهده لإخراج العدو من الأراضي الجزائرية، وحاول بناء دولة جديدة، قائمة على مبادئ الدين الإسلامي، إلا أنّ مُحاولاته باءت بالفشل، وفي نهاية المطاف استسلم للعدو.

- تفرّغ الأمير للعبادة والعلم والعمل التطوعيّ بعد نفيه خارج البلاد، ولقد تنوّعت آثاره بين الشّعير والنّثر، وأبرزها كتابه المواقف الذي تبلورت فيه تجربته الصّوفية.

وستتطرق في الفصل الموالي إلى جانب من جوانب الفكر لشخصيّة "الأمير عبد القادر" التي أخذت حيّزا مميّزا في التاريخ.

الفصل الأول:

الإنسان في فكر الأمير عبد القادر الجزائري

تمهيد

المبحث الأول: مفهوم الإنسان عند الأمير عبد القادر

المطلب الأول: الاشتقاقات اللغوية للفظه للإنسان

المطلب الثاني: التعريفات الاصطلاحية للإنسان

المطلب الثالث: تعريف الإنسان عند الأمير عبد القادر

المبحث الثاني: الكمال الإنساني في فكر الأمير عبد القادر

المطلب الأول: حقيقة الإنسان الكامل عند الأمير

المطلب الثاني: وظائف الإنسان الكامل عند الأمير

المطلب الثالث: الحقيقة المحمدية في فكر الأمير

تمهيد:

خاض العلماء منذ القدم في مسألة الإنسان، محاولين فكّ شفرات هذا المخلوق بدءاً من تكوينه إلى قدراته، وما يمتلكه من ملكات وصفات، وكلّ أدلى بدّله في هذا الموضوع حسب تخصّصه وميدانه ويعدّ الأمير عبد القادر من بين هؤلاء المفكرين؛ إذ سعى إلى إبراز جانب من جوانب هذا المخلوق الذي انطوت فيه دلائل وعجائب قدرة الله، وبالتمعّن في كتاب المواقف للأمير عبد القادر نجد أنّ من أبرز القضايا التي تناولها بالدراسة هي قضية الإنسان، فبيّن ماهية هذا المخلوق وما ينطوي عليه من صفات وملكات تحوّله للوصول إلى درجة الكمال الإنساني، ولقد خصّه بوظائف معيّنة تليق بشرفه ومكانته، ووضع لهذا الكمال نموذجاً يُحتذى به. وسلّطنا الضّوء في هذا الفصل على هذه القضية في فكر الأمير عبد القادر لتحديد ماهية الإنسان عنده، ومعرفة فحوى الكمال الإنسانيّ ودوره في الحياة.

المبحث الأول: مفهوم الإنسان عند الأمير عبد القادر:

بالتعمّن في كتاب المواقف للأمير عبد القادر، نجد أهمّ المواضيع التي تطرّق إليها وهي موضوع الإنسان، حيث أبرز وجهة نظره في هذا المخلوق الذي حباه الله بصفات خاصّة، فسعيناه جاهدتين إلى إبراز وجهة نظر الأمير عبد القادر في هذه المسألة، مبينين تعريفاته لهذا الإنسان، فقرأنا أفكار الأمير وأخذنا منها ما يخدم هذا المبحث، وحاولنا أن نستنبط منها مفهوم خاصّ للإنسان عند الأمير عبد القادر، معرّجين قبل ذلك على ضبط التعريفات اللغوية والاصطلاحية للفظّة الإنسان، لما لها من أهمية تخدم هذا المبحث من حيث تطابق وجهات نظر الأمير مع من سبقه في هذا المجال.

المطلب الأول: الاشتقاقات اللغوية للفظّة للإنسان:

نتناول في هذا المطلب الاشتقاقات اللغوية للفظّة الإنسان، وذلك بالتحري في معاجم اللغة العربية وقواميسها، مجيبين عن الأسئلة التالية:

- ماهي اشتقاقات لفظّة الإنسان في معاجم اللغة العربية؟

- إلى ماذا ترمي هذه الاشتقاقات والمعاني؟

وتكمن أهمية هذا الدراسة اللغوية في معرفة مدى توافق تعريفات الأمير عبد القادر للإنسان للغة العربية واشتقاقات اللفظة، وهل كانت مقارنة لها أو بعيدة لا تصبّ في القلب اللغوي للفظّة، ولقد وقفنا على عدة معاجم لغوية لإبراز معنى كلمة الإنسان، فدلّنا البحث فيها على مايلي:

اشتقاقات كلمة الإنسان مأخوذة من مادة أنس وهي تدور حول ثلاثة معاني الأُنْسُ والنسيانُ والتّواسُ⁽¹⁾

أولاً: الأُنْسُ:

جاء في أساس البلاغة أنْسْتُ به و إليه أي استأنستُ إليه، ولي به أنْسٌ وأنْسَةٌ، وإذا حل الليل استأنس كل وحشي واستوحش كلّ إنسي، و يقال جارية أنْسَةٌ وهي التي تكون طيبة النفس المحبوب قربها وحديثها، و يقال فلان جليسي وأنيسي وهو مَنْ يؤنسُ به⁽²⁾.

(1) عبد الوهاب فرحات، نظرية الإنسان عند محي الدين بن عربي، رسالة دكتوراه، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 2004.

(2) الزمخشري، أساس البلاغة، ت محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1981م، ج1، ص 36.

والأنس ضد التوحش هو ظهور الشيء، و الإنسان خلاف الجنة وسموا بذلك لظهورهم، كما يقال أنست الشيء إذ رأيته، قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّ أَنْسَمَ مِنْهُمْ رُشْدًا﴾ [النساء: 6]، وأنس الإنسان بالشيء أي أنه لم يستوحش منه⁽¹⁾، وأنس مصدر وهو ضد التوحش، والإيناس خلاف الإيحاء، وعرف يوم الخميس عند العرب بالمؤنس،⁽²⁾ لأنهم كانوا يميلون فيه إلى الملاذ⁽³⁾، وأنسه إيناساً أي لطفه وترفق به وألفه وسلاؤه فهو مؤنس، والإنس البشر أو غير الجنّ والملائكة، والإنسان آدم وذريته، والإنسانية ما أختص به الإنسان من الخصال و المحامد نحو الجود والكرم⁽⁴⁾.

ويقال أنست بفلان بمعنى فرحت به، وأنست فزعاً إذا أحسسته ووجدته في نفسك⁽⁵⁾، وقيل أن الإنسان سمي بذلك لأنه خلق خلقه لاقوام له إلا بأنس بعضهم ببعض، ولهذا السبب يعد الإنسان مدني⁽⁶⁾ بالطبع، وقيل سمي بذلك لأنه يأنس بكل ما يألفه⁽⁶⁾.

— يستنبط مما تقدم أنّ لفظة الإنسان يدور معناها الأول في اللغة العربية حول الأنس والمؤانسة وهو ضدّ التوحش، بحيث لا قيام للإنسان إلا على مؤانسة بعضهم لبعض، فلا يستطيع على جميع أعماله وأسبابه إلا بمؤانسة غيره في ذلك، ولا يمكن أن نطلق لفظة المدينة أو القرية إلا إذا كان بها اجتماع للأناسي.

ثانياً: النسيانُ:

الأصل في الإنسان إنسيان فهو إفعلاً من النسيان⁽⁷⁾، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنّه قال: إنّما سمّي الإنسان إنساناً لأنّه عهد إليه فنسى⁽⁸⁾، وقيل أصل كلمة الناس: الناسي إشارة إلى أصله آدم حيث قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ﴾ [طه: 115]، وأنشد في الأشعار،

(1) — ابن فارس، مقياس اللغة، ت عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، (دب)، (دط)، 1979م، ج1، ص 145.

(2) — محمد بن أبي بكر الرازي، مختار الصحاح، دائرة المعاجم، مكتبة لبنان، ط1986، ص 11.

(3) — ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، (دت)، (دط)، ج1، ص 149.

(4) — أحمد أبو حاق، معجم النفائس الوسيط، دار النفائس، بيروت، ط2، 2011م، ص 50.

(5) — ابن منظور، مرجع سابق، ص 150.

(6) — الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ت محمد سيد كلاي، دار المعرفة، بيروت، (دط)، (دت)، ص 28.

(7) — المرجع نفسه، ص 28.

(8) — ابن منظور، مرجع سابق، ص 147.

فاغفر فأوّل ناس أوّ النَّاس، قيل عجباً للإنسان كيف يفلح بين النسيان والنّسوان⁽¹⁾.

— الملاحظ هنا أنّ من اشتقاقات لفظة الإنسان النسيان على وزن إفعال وردوها إلى أصله آدم عليه السّلام حين عهد له الله فنسي عهده.

ثالثاً: النّوّاس:

وقيل اشتقاقات الإنسان من النّوّاس بمعنى التحرك، سمي بذلك لتحركه في الأمور العظام، وتصرفه في الأحوال المختلفة وأنواع المصالح، وقيل إنّ اشتقاقات الإنسان من الإيناس وهو الإبصار والعلم والاحساس لوقوفه على الأشياء بطريق العلم، ووصوله إليها بوسطة الرؤية، وإدراكه لها بواسطة الحواس⁽²⁾.

دلّت اللفظة هنا على حركة الإنسان فوق الأرض وتصرفه في مختلف شؤونه وأحواله. بعد تقصّينا للفظّة الإنسان في معاجم اللّغة العربيّة دلّنا البحث على أنّ اللفظة عبّرت على ثلاثة أبعادٍ للإنسان:

- بُعدٌ سلوكي اجتماعي دلّت عليه لفظة الأنس، من حيث أنّ الإنسان يانس ويستأنس بغيره، ولا تقوم مصالحه إلا باجتماع النّاس ببعضهم لتكوين جماعات التي تتأسس بوجودها الحضارات وأمم، وإلاّ أصاب الإنسان التوحّش إذ انفصل عن الجماعة، ولا يمكن أن يقيم حضارة ولا أمة بمفرده.
- بُعدٌ معرفي نستشفه من لفظة النّسيان، وذلك حين نسي سيدنا آدم عليه السلام عهده الذي قطعه لله، ولا يكون النسيان إلاّ بعد تعلم سبقه، والمعلوم أن الله بعد خلقه لآدم علّمه الأسماء كلها.
- بُعدٌ وجودي دلّت عليه لفظة النّوّاس من خلال تحرك الإنسان وقيامه على الأمور وتصرفه في الأحوال، ويقرن هذا التحرك بالإيناس، وهو الإبصار والعلم والإحساس، والوقوف على الأشياء عن طريق العلم.

المطلب الثاني: التعريفات الاصطلاحية للإنسان:

(1) — الفيروز أبادي، بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز، ت مُجّد على النجار، (دد)، القاهرة، ط3، 1996م، ص 22.

(2) — الفيروز أبادي، بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز، ص 32.

بعد إبراز الجانب اللغوي لكلمة الإنسان، ومعرفة أهم اشتقاقات هذه الكلمة، سنقف في هذا المطلب على المعنى الاصطلاحي لها، مبرزين بعض الآراء والأفكار دون إسهاب، مجيبين عن الأسئلة التالية:

- كيف عرّف الفلاسفة الإنسان؟

- ماهي أهم التعريفات الكلامية للإنسان؟

- كيف كانت رؤية الأديان للإنسان؟

- كيف عرّف القرآن الكريم الإنسان؟

والغرض من هذه الدراسة تبيان وضبط التعريف الاصطلاحي لكلمة الإنسان من مختلف وجهات الفكر؛ إذ من المعروف أنّ العديد من المفكرين عبر حركة التاريخ حاولوا إبراز مفهوم معين للإنسان كلّ حسب نظريته واعتقاده، والهدف من هذا المطلب الإجابة عن السؤالين الآتين: هل الأمير عبد القدر عندما أبرز تعريفه للإنسان كان موافقاً لمن سبقه أم مخالفاً؟ أم كانت له نظرة جديدة لتعريف الإنسان؟

أولاً: تعريف الإنسان في الفلسفة اليونانية:

نبدأ أولاً بتعريف الإنسان في الفلسفة اليونانية باعتباره بلورة الفكر الإنساني، ونختار تعاريف كلّ من أفلاطون وأرسطو وأفلوطين، لما لهم من أثر كبير في حركة التاريخ الفكري.

- **أفلاطون:** يعدّ الإنسان هو المشكلة الرئيسة التي دفعت أفلاطون إلى البحث في شتى المجالات لبيّن طريق السعادة، والإنسان عنده "كائن ثنائي الطبيعة، فبالنفس ينتمي إلى العالم العقلي الإلهي الخالد، وبالجسد ينتمي إلى العالم الحسي الفاني"⁽¹⁾، وعرّف أفلاطون الإنسان بما يمتلكه من نفس وجسد، فالتنفس عنده تنتمي إلى عالم المعقولات، والجسد إلى عالم المحسوسات، وفي تعريفه هذا يركّز على الجانب الأوّل الذي يستند إليه في اثبات نظرية السعادة لديه، فالتنفس عنده فكر خالص، وهي تمثل

(1) - أميرة حلمي مطر، الفلسفة اليونانية تاريخها ومشكلاتها، دار قباء، القاهرة، دط، 1998م، ص 192.

مبدأ للحياة⁽¹⁾.

والنفس حقيقة الإنسان وجوهره، وطبيعتها _ النفس _ إلهية خالدة، وأصل هذه النفس عند أفلاطون تعيش مع الآلهة في العالم العقلي منذ الأزل، ترقب المثل الخالدة للجمال والخير في ذاته⁽²⁾.

وبهذا يكون الإنسان عند أفلاطون ذي طبيعة ثنائية، الأولى النفس والثانية الجسد، وكل واحد منهما يفرق عن الثاني، والجسد يعدّ آلة للنفس عنده، فهو يشغلها عن فعلها الحقيقي (الفكر) فيسقطها الجسد في الهمّ والآلام، فتعمل النفس على قهره والتخلّص منه⁽³⁾، فالجسد عند أفلاطون يعدّ مقبرة للنفس، لذا وجب عليها التخلّص منه وذلك عن طريق التأمل العقلي⁽⁴⁾.

- **أرسطو:** يرى هذا الفيلسوف بأنّ الإنسان كائن وسط بين جميع الكائنات، فهو لا ينحدر إلى درك الحيوانية ولا يصل إلى درجة الألوهة، بل له منزلة وسط بين المملكتين، وهو كائن مركّب من جسم ونفس، فهو يشترك مع النبات والحيوان في الوظائف الجسمانية، وفي الوقت نفسه يتميز عنهم بنفس ناطقة⁽⁵⁾، فميزته التي اختصّ بها عن غيره هي العقل، ولا يرى أرسطو أنّ الإنسان ذو جوهرين مختلفين (النفس والجسد) بل لا يعتبرهما جوهرين، إنّما هما عنصران لا يفترقان، وأصلهما من جوهر واحد، وما النفس عنده إلّا صورة للجسد⁽⁶⁾.

- **أفلوطين:** عرّف الإنسان من خلال النفس وهي عنده من العالم الإلهي، فهي روحانية خالدة وليست بمادة، كما أنّها ليست صورة للبدن، وهي غير مخلوقة ولا يسري عليها العدم، فهي جوهر روحيّ خالد، وبهذا المعنى عنده تعدّ المستوى الأعلى والجوهر الأوّل في الإنسان، ومن خلالها يمكن الاتّصال بالعقل الكلي والاتّحاد به، ولكنّها سقطت في البدن الذي تأخذ من خلاله مبدأ الحياة الطّبيعية، وهو المعبر عنه بالقوى غير العاقلة في الإنسان، وهو المستوى الثاني والأدنى فيه بعد النفس⁽⁷⁾.

(1) _ يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، دار القلم، بيروت، ط3، دت، ص 89.

(2) _ أميرة حلمي مطر، مرجع سابق، ص 192.

(3) _ يوسف كرم، مرجع سابق، ص 89.

(4) _ مُجد مرجبا، مع الفلسفة اليونانية، منشورات عويدات، بيروت، 1999م، ص 135.

(5) _ أميرة حلمي مطر، مرجع سابق، ص 199.

(6) _ حنا الفخوري، خليل الجر، تاريخ الفلسفة العربية، دار الجيل، بيروت، لبنان، دط، دت، ج1، ص 88.

(7) _ أميرة حلمي، مرجع سابق، ص 419.

يتّضح لنا من هؤلاء الفلاسفة أنّ الإنسان ذو طبيعتين، الأولى معقولة خالدة والثانية محسوسة فانية، وأرقى سمة لهذه النفس هو التفكير الذي يجعلها تنفكّ عن الجسد الفاني، رغم مخالفة أرسطو لأفلاطون وأفلوطين الذان ذهبا إلى أنّ النفس والبدن مغايران على عكس قوله بأنهما شيء واحد، أي "النفس" صورة للجسد.

ثانياً: تعريف الإنسان في الفكر الإسلامي:

- تعريف الإنسان عند الفلاسفة المسلمين : عرّفه الكندي بأنّه الحيّ الناطق الميّت، يكون بهذا قد أعطى للإنسان بعدين جسميّ (الحيّ)، وبعد عقليّ (الناطق)، فهو يجمع بذلك بين قوتين عظيمتين متباعدتين، الحسيّة والعقلية، والنفس توسّط بين الحسّ والعقل، وكلّ هذه القوى تجتمع في الإنسان الذي هو الجرم الحيّ النامي⁽¹⁾.

وذهب الفارابي إلى أنّ الإنسان هو من الموجودات التي لم تعط كما لها من أول وهلة، بل هو من الذين أعطي لهم أنقص كمالاتها، وأعطي له مع ذلك مبادئ يسعى بها، إمّا بالإرادة أو الطبع أو الاختيار نحو الكمال⁽²⁾.

فالإنسان عند الفارابي له القوّة على بلوغ الكمال الذي هو مكتنز في ذاته، ويمكنه تحقيق ذلك إذا سعى في المبادئ العقلية التي توصل إلى الكمال⁽³⁾.

وترى إخوان الصّفا بثنائية تكوين الإنسان، فهو مجموع النفس والجسد، وبهذين الجزئين يتكوّن الإنسان فهو مجموعهما، والنفس عندهم أشرف من الجسد وهو كاللبّ وهي الرّوحانية العالمة المدركة بطريق العقل، والجزء الآخر الذي هو الجسد كالقشرة، وهو الجسمانيّ الطّويل العريض العميق المدرك بطريق الحواس⁽⁴⁾.

نستنتج ممّا أوردناه أنّ الإنسان عند الفلاسفة المسلمين هو ذلك المخلوق المركّب من جوهرين ماديّ وروحيّ، مع انتصارهم للجانب العقليّ الروحانيّ، وهم بذلك تماشوا مع آراء الفلسفة اليونانيّة

(1) - جيزار جهامي، موسوعة مصطلحات الفلسفة عند العرب، مكتبة لبنان، بيروت، دط، 1998م، ص 123.

(2) - المرجع نفسه، ص 124.

(3) - المرجع نفسه، ص 124.

(4) - المرجع نفسه، ص 126.

خاصّة أرسطو وأفلاطون.

– الإنسان عند المتكلمين المسلمين:

المعتزلة: اتّفقت المعتزلة على أنّ الإنسان هو ذلك الكائن المخلوق المكلف بالدرجة الأولى، إلا أنّهم اختلفوا بينهم حول تغليب أحد الجانبين على الآخر⁽¹⁾، ومن بين أهمّ الآراء عندهم:

أبو الهذيل العلاف الذي يرى بأنّ الإنسان هو الشخص الظاهر المرئي ويتكون من يَدان ورجلان⁽²⁾، فيكون بهذا قد غلب الجانب المادي المحسوس على الجانب الرّوحي المعنويّ، وذهب النظام إلى أنّ الإنسان هو الرّوح وهو الجسم اللطيف المتداخل مع الجسم الكثيف، مع رؤيته بأنّ الرّوح هي الحياة التي تتشابه مع هذا الجسد⁽³⁾، ويكون بهذه الرؤية قد غلب الجانب الروحانيّ للإنسان على الجانب الماديّ المحسوس.

وكان قول بشر ابن المعتز بأنّ الإنسان هو الذي جمع بين الجانبين، إذ أنّ الإنسان عنده جسد وروح هما جميعا إنسان، والذي يقوم بالفعل هو الإنسان الذي هو جسد وروح⁽⁴⁾.

الأشاعرة: زاوجت الأشاعرة في آراءها بين الجانبين، فالإنسان عندهم جمع بين البدن والروح وسنقتصر على رأيين عندهم:

يرى الغزالي أنّ "الإنسان مركب من جسم ونفس، وهما من علّة واحدة، وليس يمكن وجود أحدهما من دون الآخر⁽⁵⁾، وذهب بأنّ طبيعة الإنسان مجموعة من بدن وقلب، ويعني بالقلب الحقيقة الرّوحية التي هي محلّ معرفة الله، وهو لا يقصد بذلك اللحم والدّم الذي بهما يتكون البدن ويشارك بهما

(1) _ القاضي عبد الجبار، المغني في أبواب التوحيد، ت مصطفى السقا، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، دط، 1385هـ-1965م، ج11، ص 388، ص 567.

(2) _ أبي الحسن الأشعري، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، ت مُحمّد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، دط، 1411هـ-1990م، ج2، ص 25.

(3) _ المرجع نفسه، ج2، ص 25.

(4) _ المرجع نفسه، ج2، ص 25.

(5) _ أبي حامد مُحمّد الغزالي، تحف الفلاسفة، ت جيزار جهامي، دار الفكر، بيروت لبنان، ط1، 1993م، ص 87.

الميت والبهيمة في الخصائص، وأنّ في صحة البدن سعادة وفي مرضه هلاك له⁽¹⁾، وبعد هذا قرّر الغزالي أنّ الإنسان أعلى رتبة بين البهائم والملائكة، فالإنسان من حيث يتغذى وينسل فنبات، ومن حيث يحسّ ويتحرّك بالاختيار فحيوان، ومن حيث صورته وقامته، فالصورة المنقوشة على الحائط، وإنما خاصيته معرفة حقائق الأشياء⁽²⁾، ونجد الجرجاني في التعريفات قد مزج بين الآراء الفلسفية والصّوفية في تعريفه للإنسان، وذلك من خلال التمييز بين مفهومين للإنسان، فالأول يطلق عليه الإنسان وهو الحيوان الناطق، والثاني والإنسان الكامل وهو الجامع لجميع العوالم الإلهية والكونية الجزئية، وهو كتاب جامع للكتب الإلهية والكونية⁽³⁾. ويتّضح لنا أنّ تعريفات الإنسان عند المتكلمين كانت نابعة من التصرّو الإسلاميّ بأنّه مخلوق مكلف جامع في طبّاته العنصر الماديّ والروحيّ.

ـ الإنسان عند الصوفية:

تري الصّوفية في نظرة جامعة بينهم أنّ الإنسان هو النّسخة الجامعة للظاهر والباطن، وإذا وقفنا على رأي بن عربي كونه من كبار الصّوفية الذين بحثوا في قضية الإنسان، فتجده ذهب إلى أنّ الإنسان ذو حقيقتين، فحقيقته الباطنية أنّه مخلوق على الصّورة الإلهية، وجامع لحقائق الأسماء الإلهية، ومن حيث حقيقته الجسميّة الطبيعيّة فهو مخلوق على صورة الكون وجامع لحقائقه⁽⁴⁾، فالإنسان عنده لا تتحقّق إنسانيته إلا إذا كان على صورة الحقّ، وإذا لم يحرز رتبة الكمال فهو مثل الحيوان تشبه صورته الظاهرة صورة الإنسان، ويرى بأنّ الإنسان خلق على صورة الرحمان، فيكون بذلك النسخة الكاملة والمدينة الفاضلة⁽⁵⁾، فباطن الإنسان جامع للأسماء، وبهذه المرتبة يعدّ خليفة الله، ومن جانب الظاهر فهو جامع لحقائق الكون كلّ، وبهذه المرتبة مخالف لله وضدّ له وإنسان حيوان⁽⁶⁾.

أعطى ابن عربي بهذه الفلسفة التصوريّة عن الإنسان مكانة عالية فهو مخلوق على الصّورة الإلهية

(1) _ أبي حامد مُجّد الغزالي، المنقذ من الضلال، ت جميل صليبا، دار الأندلس، بيروت، دط، ص 30، 135.

(2) _ أبي حامد مُجّد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج3، ص 17.

(3) _ مُجّد الجرجاني، التعريفات، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1411هـ، 1991م، ص 37.

(4) _ نصر حامد أبو زيد، فلسفة التأويل دراسة في تأويل القرآن عند محي الدين بن عربي، المركز لثقافي العربي، الدار البيضاء، ط4، 1998م، ج1، ص 153.

(5) _ محي الدين بن عربي، الفتوحات المكية، دار الفكر، دب، دط، دت، ج4، ص 398.

(6) _ نصر حامد أبو زيد، مرجع سابق، ص 153.

واعتبره مخلوقا كاملا لا فاسدا، والكمال يعدّ جوهر في الإنسان، والفساد عارض وطارئ عليه، والإنسان عنده مستودع لسرّ الذات الإلهية، ومرجع ذلك عنده لتعليم الله الإنسان الأسماء الحسنى التي لا يبلغها إحصاء، وأمّا ظاهره فهو يعبر عن صورة الإنسان الخارجيّة الناسوت، أي أن الإنسان إذا وقفنا على صورته الخارجيّة سميناه ناسوتا، وإذا ما وقفنا على باطنه سميناه لا هوتا⁽¹⁾.

ثالثا: الإنسان في الكتب المقدّسة:

التوراة (العهد القديم):

تحدّث العهد القديم عن أصل الإنسان ومصيره، فنجد في خضمه أنّ الإنسان كائن خلق على صورة الإله في الأرض، فقد أشارت بعض فقرات التوراة إلى خلق الله للإنسان على صورته⁽²⁾.

وبالتدقيق في التوراة نجد نصوصه تقرّ أنّ الإنسان ذو طبيعة شريرة، ولا يحمل أي مجال للخير وتصور الفقرات بأنّ الرب رأى شر الإنسان الذي كثر فوق الأرض، وأنّ كلّ ما يصنعه راجع إلى أفكار قلبه الشريرة⁽³⁾، وهذا ما يجعلنا نقف على تناقض كبير في نصوص التوراة، فالإنسان من جهة هو مخلوق على صورة الإله، وفي نفس الوقت نزع منه كلّ صفة للخير فهو يمثّل الشرّ المحض.

الإنجيل (العهد الجديد): الإنسان في النظرة المسيحية مخلوق وقع عليه الهلاك الأبديّ، فنصوص الإنجيل تصوره على أنه بالإثم ولد وفي الخطيئة حملت به أمّه⁽⁴⁾، فهو كائن مخلوق مشبّع بالخطايا ولا يستطيع التخلّص منها إلا بفكرة الخلاص، وبهذه النظرة تكون قد أجمعت نصوص التوراة والإنجيل على أنّ الإنسان حيوان شرير مخطئ.

القرآن الكريم:

نجد في القرآن الكريم يرسم تصوّرا كاملا وشاملا عن الإنسان في ماهيته ومكانته، والغاية التي من أجلها خلق، وكيف يكون المصير، فمن حيث ماهيته بين القرآن أنّ الإنسان جامع لجانبي المادّة والروح

(1) _أحمد خواجة، مرجع سابق، ص 192.

(2) _ إرجع إلى: سفر التكوين، الاصحاح 1 الفقرة 27، 26، ص 2.

(3) _ أنظر: سفر التكوين، الاصحاح 6، الفقرة 5، 12، ص 8.

(4) _ غسان سليم، محاور الالتقاء ومحاور الافتراق بين المسيحية والإسلام، دار الطليعة، بيروت، ط1، 2003م، ص ص 104-105.

في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلِيقُ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ، سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ [سورة ص: 71-72].

فقد وضح القرآن أن الإنسان يتكوّن من جزأين، بدن وروح (محسوس ومعقولة)، فالجانب المحسوس هو البدن من حيث شكله وقوامه الخارجي، والجانب الثاني المعقول الروحاني فهو يمثل العقل والفكر والنطق⁽¹⁾، وبهذه الخلقة يكون الإنسان قد حصل على انتمائين مختلفين، ينتمي إلى عالم النور وعالم الطين، وهو يتقلّب ويتأرجح فيهما، فإذا ارتفع وتسامى فهو في الملاء الأعلى، وإذا نزل وانحطّ فهو في الوحل والطين، وبين هاتين المنزلتين منازل كثيرة يتقلّب فيها الناس بين علوّ وسفاه وبين صعود وانحدار، وهذه المنازل لا يحصرها العدّ⁽²⁾.

وبالنسبة إلى غايته فوق هذه الأرض، فقد بيّنها وحدّدها القرآن منذ الإعلام الأول لخلق الإنسان في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [سورة البقرة: 30]، فالإنسانية في حقيقتها لا تعني مجرّد الانتماء إلى الإنس، وممارسة الحركات والغرائز من أكل الطّعام والمشي، والتكاثر، وإنّما حقيقة الإنسانية هي الارتقاء إلى المرتبة والدرجة التي تؤهّل الإنسان للخلافة على الأرض، وبما كلّفه الله وحمله الأمانة قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [سورة الأحزاب: 72]⁽³⁾.

فالقرآن بيّن للإنسان وعرفه بأصله ومكانته وخصائصه، ووضّح مدى أهميته في الكون الذي يعيش فيه، وأنّه جزء لا يتجزّء منه، وأنّه من أهمّ عناصر الحضارة وأخطرها، و هو مكلف بتسيير شؤونه وشؤون ما يحيط به نحو هدف عظيم⁽⁴⁾، ولا تتمّ هذه الغاية ولا تتحقّق من قبل الإنسان إلا تحت إطار العبودية لله، فلا تقوم إنسانيّة إلا بها⁽⁵⁾.

(1) _ الراغب الأصفهاني، تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين، ت أسعد السمرائي، دار النفائس، بيروت، 1988م، ص 87.

(2) _ عبد الكريم الخطيب، الله والإنسان، دار الفكر، دب، دط، دت، ص 15.

(3) _ عائشة عبد الرحمان، القرآن وقضايا الإنسان، دار العلم للملايين، بيروت، ط5، 1982م، ص 19.

(4) _ مُجَدّ سعيد رمضان البوطي، منهج الحضارة في القرآن، دار الفكر، دمشق، ط1، 1982م، ص 46.

(5) _ سعيد حوى، الإسلام، دار الكتاب العلمية، بيروت، ط1، 1389هـ-1869م، ج2، ص 112.

أما عن مكانته الإنسان في القرآن فهو مكرم على كل المخلوقات قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ ﴿٧٠﴾ [سورة الإسراء: 70]، فالله خلقه بيديه مباشرة وفضله على كافة خلقه⁽¹⁾، وجعله سيّدا على الأرض ومستخلف فيها⁽²⁾.

ثم بين القرآن مصير الإنسان وحدده بقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿٨٨﴾ [سورة القصص: 88]، فكل شيء زائل في هذا الكون بما فيه الإنسان، وضرب له يوم للميعاد وبهذا تتضح وجهة الإنسان في الدنيا والآخرة⁽³⁾.

في آخر هذا المطلب الاصطلاحي يتبين لنا أنّ الفلاسفة والمفكرين أجمعوا على أنّ الإنسان هو ذلك المخلوق الذي جمع بين جانبين، الجانب الظاهري (البدن أو الجسم)، والجانب الباطني (النفس أو الروح)، واختلفوا أيّهما جوهر وعرض بين الفلاسفة والمتكلمين، إلا أنّهم يتفقون على أنّ أهم ما يميّز به هذا الكائن هو التفكير والتأمل للترقي إلى العالم الروحاني الذي تنتمي إليه الروح، بينما نجد الديانة اليهودية والنصرانية جرّدت الإنسان من كل معانيه الجيدة، وجعلته يتخبط في الخطيئة أو الشر المحض، وجاءت نظرة القرآن لتوضيح المعنى الصحيح لهذا المخلوق بدءاً من خلقه مكانته وغايته إلى مصيره.

المطلب الثالث: تعريف الإنسان عند الأمير عبد القادر:

بعد ضبطنا للتعريفات اللغوية والاصطلاحية لكلمة الإنسان في المطلبين السابقين، سنهدف في هذا المطلب إلى إبراز وضبط تعريف الإنسان الأمير عبد القادر، مجيبين عن الأسئلة التالية:

- كيف عرّف الأمير عبد القادر الإنسان؟ وبماذا عرفه؟

- ماهي أبعاد هذه التعريفات عنده؟

- هل كان موافقا أو مخالفا للتعريفات اللغوية والاصطلاحية؟

(1) _ أحمد خواجه، مرجع سابق، ص 20.

(2) _ السيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، ط15، 1408هـ-1988م، ج1، ص 60.

(3) _ السيد قطب، في ظلال القرآن، ج5، ص 116.

ولقد جندنا في هذه الدراسة كلّ الأفكار المتعلّقة بالإنسان عند الأمير وضبطناها بما يؤدّي المعنى المراد، ثم قمنا بتحليلها واستنباط الأفكار الرئيسة منها، واعتمدنا في هذه الدراسة على كتاب المواقف للأمير عبد القادر لما ورد فيه من ذكر لقضية الإنسان، والغرض المرجو من هذه الدراسة تحديد معنى ومفهوم للإنسان عند الأمير عبد القادر، وإبراز وجهة نظره في هذه القضية.

بالتقصّي في كتاب المواقف للأمير عبد القادر الذي أدرج فيه جزءا كبيرا عن قضية الإنسان، نجد فيه أنّ الأمير قد عرف الإنسان على ثلاثة أوجه، مرّة يعرفه بما له من ملكات (الروح، العقل، النفس)، ومرّة يعرفه بجمعه (للظاهر والباطن)، وتارة يعرفه بما له من وظائف (المعرفية والاستخلافية)، وفي مايلي تفصيل كلّ هذا:

أولا: تعريف الأمير للإنسان بالروح والعقل والنفس:

يرى الأمير بأنّ الإنسان هو مجموع من (الروح، والعقل، والنفس)، وقد فرق في عمل كلّ واحدة في هذه المملكة الإنسانية، ثمّ جمع بين كلّ هذه الملكات، وأنّ مردّها كلّها إلى الأمر الإلهي، فالروح عنده واحدة متعدّدة بتعدّد الأعضاء _ قصد بأنّها سارية في كلّ عضو من أعضاء الإنسان _ والروح تدير الإنسان ولكن عن طريق العقل، الذي هو بمثابة النور للروح، فهو الذي له التصرف والتدبير في الإنسان ولكن بأمر من الروح، ولا يتمّ تسير هذه المملكة الإنسانية عنده إلى عن طريق النفس، التي هي كالخادم المطيع للعقل، ولهذا إذا كمل العقل كملت معه النفس والعقل صحيح⁽¹⁾.

فرّق الأمير في بادئ الأمر بين الروح والنفس والعقل، ثم رجع وجمع بينهم جميعا بأنّهم كلّهم من عالم الأمر الإلهي، وجاء تفصيله بأنّه:

الروح هي أبأونا العلويات والنفوس الجسمانيّة هي أمّهاتنا السفليات، فكلّ روح أب، وكلّ جسم أم⁽²⁾، وقصد الأمير بهذا أنّ الأرواح تنتمي إلى العالم العلويّ، والنفس عندما ارتبطت بالجسم أصبحت تشبهه فأخذت صفة الجسم، مع أنّها جزء من الروح وتنتمي إلى العالم العلوي، ولكن لها صفة السفلية بتعلّقها بالجسم، وتفصيل هذا عندما شرح الأمير قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ [سورة

(1) _ الأمير عبد القادر، الموافق، مرجع سابق، ج 1، ص 236.

(2) _ المرجع نفسه، ج 1، ص 387.

الشمس6]، ولقد يَبِّين فيه بأنّ هذه النَّفس هي مخلوقة من النور الإلهي، ولهذا فقد حوت الكمال بهذه الخلقة، التي لم تكن إلا لهذا الكائن، فجمعت بداخلها جميع صفات هذا الخالق مع الفرق بينهما، كما أنّها حوت النقائص لطبيعتها الجسمانية، وتكون بهذه الخلقة جمعت بين صفات الحقّ والخلق، فحقيقة النَّفس الرُّوح وحقيقة الرُّوح الحقّ تعالى.(1)

ولقد ذهب الأمير إلى أنّ الرُّوح والنَّفس هما شيء واحد، غير أنّه حسب تعلّق النَّفس وارتباطها نطلق عليها التسمية، فإذا ما تعلّقت هذه النَّفس بالعالم العلوي نسمّيها روحا، وإذا ما تعلّقت بالعالم السفلي (الجسد) نسمّيها نفسا، فالنَّفس من حيث ماهيتها عند الأمير عبد القادر لا خبت فيها فهي طاهرة قدسيّة، والنَّفس الغافلة بيت الشيطان، وإنّما هي منفذة للخبث بالعبد، ويحصل هذا للنَّفس عندما تركز إلى الجانب الماديّ الذي هو جزء من خلقها، وكلّما تعلّقت به ابتعدت عن الجانب العلويّ الروحانيّ، ولهذا شرّع الله الشرائع، وأنزل الكتب وأرسل الرسل لتطهر هذه النَّفس من خبائثها وتزكيتها من رذالتها، لتعود روحا كما كانت، ولا يتمّ لها هذا إلا باتباع الرسل قولاً وفعلاً وحالاً.(2)

ونجد الأمير يولي الاهتمام بهذه النَّفس التي كلّما تركت وتطهّرت رجعت إلى أصلها الرُّوح، وكلّما نزلت وهوت أصبحت نفسا إنسانية شهوانيّة، ويحث الأمير كلّ سالك على تزكية هذه النفس وتطهيرها. وطريق السّالك ليس طريقا محسوسا، وإنّما هو طريق معنوي يجاهد فيه هذه النَّفس، والميادين التي يقطعها السّالك، هي عبارة عن السّير المعنوي الذي يحصل فيه تردّد بين صعود وهبوط في صفات هذه النَّفس والسّير في خضمها يكون بقطع وصلتها والتّبديل من صفاتها، من الصّفات البهيمية إلى الصّفات الإلهية والنفس عند الأمير واحدة، ولكن تعدّدت باعتبار تعدّد صفاتها وتباين حالها، فيقال عنها أمانة لومة ملهمة مطمئنة...، فالسائر إلى الله عند الأمير يسير في ميادين النّفوس.(3)

وبهذه النَّفس المطهّرة نال الإنسان الشّرف على باقي المخلوقات، فيقول الأمير "الإنسان ما حصل له الشّرف على جميع المخلوقات بحسن شكله وصورته... ولا بكون جسمه... فما كان له الشّرف إلّا بإنسانيته، وهي قلبه؛ لأنّها هي الإنسان الحقيقي وهي محلّ تجليّ الإلهي، وهي وسعته بالعلم والمعرفة

(1) _ الأمير عبد القادر، المواقف، مرجع سابق، ج1، ص 234، 235.

(2) _ الأمير عبد القادر، المواقف، ج1، ص 235.

(3) _ المرجع نفسه، ج1، ص 144.

والظهور بالأسماء والصفات، فالقلب هو علم الحق تعالى⁽¹⁾، ومقصد الأمير من هذا أنّ الجانب الروحي للإنسان الذي هو من أمر الله، هو الذي يعلو به ويسمو إلى العالم العلويّ، فهو حقيقة الإنسان، والتجلي هنا هو كناية عن القرب والمعية، التي تحصل للإنسان إذا ما ارتقى بالنفس إلى الكمالية.

ولا يتحقّق للإنسان إنسانيته عند الأمير إلّا إذا تفتّن إلّا العلم والمعرفة، التي هي مركوزة فيه، والمعرفة التي يتحدّث عنها الأمير هي التي أهلت الإنسان لكي ينال درجة الشرف؛ لأنّ الله هو الذي تكفل بتعليم آدم عليه السلام بنفسه، وهذه حقيقة في البشر جميعا، فإذا ما تفتّن لها الإنسان التحق بالكمال البشريّ.⁽²⁾

صوّر الأمير عبد القادر الإنسان على أساس مملكة (مدينة إنسانية) لعظم شأن هذا المخلوق وجعل القلب الإنسانيّ فيها محلّ ومستودع للعلوم، ولهذا زوّد الإنسان بهذه الملكات (الروح، العقل، النفس) لتدبير شؤون هذه المملكة الإنسانية، و عدّ الأمير بأنّ العقل هو الوزير والمدير في المملكة الإنسانية والروح تكون بمقام الخليفة فيها،⁽³⁾، وأمّا النفس تعدّ الخادم المطيع للعقل تفعل كل ما يمليه عليها من أوامر، لذلك إن كمل العقل كملت وإن فسد فسدت،⁽⁴⁾، والغاية من هذه الملكات التي تُمثّل جوهر الإنسان هو تحقيق مقام العبوديّة، ويرى الأمير بأنّه لا يجب تغليب جانب على آخر في هذه المملكة وإلّا فإنّ شأنها سيفسد، ولهذا يدعو الأمير إلى تحقيق الاعتدال والتوازن بين هذه الجوانب جميعها، فإذا ما غلبت الروح على باقي الجوانب في هذه المملكة الإنسانية، بحت الإنسان وتراه لا يعقل شيئا ولا يدرك، وإذا ما غلب جانب العقل فيها رأى الكمال في نفسه فيفسد معه عبوديته الذي هو مطالب بتحقيقها، ومتى لم يغلب على الإنسان أي جانب، وكان بين الروح والعقل معتدلا يؤدّي حقّ كلّ منهما، والتزم بمقام العبودية، فيؤدّي معها حقّ كلّ من الخالق والخلق⁽⁵⁾.

هذا هو التعريف الأوّل للإنسان الذي نجده في كتاب المواقف عند الأمير، بحيث يحدّد فيه ملامح هذا الكائن من خلال ملكاته (الروح، العقل، النفس) التي خلق عليها وأرجعها جميعا إلى الأمر الإلهي

(1) _ المرجع نفسه، ج 1، ص 237.

(2) _ المرجع نفسه، ج 1، ص 283.

(3) _ الأمير عبد القادر، المواقف، ج 1، ص 389/ ج 2، ص 327.

(4) _ المرجع نفسه، ج 2، ص 327.

(5) _ المرجع نفسه، ج 1، ص 725.

فيكون الأمير بتعريفه هذا قد غلب الجانب المعقول الروحاني على الجانب المحسوس عند هذا الكائن.

ثانيا: تعريف الأمير للإنسان بالجمع بين الظاهر والباطن:

الإنسان عند الأمير له جانبان كثيف ولطيف، فالكثيف هو المتعلق بالجانب المادي الكوني واللطيف هو الجانب المعنوي الجامع للحقائق الإلهية، فالإنسان خلق على صورة وهيئة ما خلق عليها أحد من المخلوقات، فالصورة الإنسانية أكمل صورة وأفضلها، فهو الكائن الوحيد الجامع بين الاسم الظاهر والباطن، فبالجمعة الشرف فهو أشرف المخلوقات، فالإنسان هو الكون الجامع لحقائق الإلهية والكونية⁽¹⁾.

وبالتالي الإنسان له نسبتان، نسبة إلى العالم العلوي ونسبة إلى العالم السفلي، وهذا ظاهر في قول الأمير: "فالإنسان نسيبتان نسبة يدخل بها إلى الحضرة الإلهية، ونسبة يدخل بها إلى العالم...، وما سوى الإنسان يقبل ذلك...⁽²⁾، وبهذا يعد الإنسان هو الكتاب الجامع بين الحقيقتين الإلهية والكونية؛ فالإنسان كتاب جامع لكل شيء من الأشياء الإلهية والكونية، فهو الكلمة الكلية والحضرة الجامعة⁽³⁾.

وهذه الحقيقة الإنسانية التي جمعت في تكوين الإنسان، تؤهله أن يكون برزخ بين الموجودات المادية وبين عالم الحقائق الروحية والأسماء الإلهية، وهذا ما يوضحه الأمير "كُشف لأدم عليه السلام عن إنسانيته التي هي حقيقته فوجدها مجموع الأسماء الإلهية والكونية في مقام الفرق وإلا فالجميع أسماء إلهية، فما الكون جميعه إلا أسماءه الإلهية، وإنما كانت حقيقة آدم بهذه المنزلة لكونه برزخا جامعاً بين الوجود والإمكان فهو البرزخ الجامع بين الطرفين المتقابلين⁽⁴⁾.

يمثل الإنسان عند الأمير برزخ بين المعقولات والمحسوسات، فهو مرتبة بين مرتبة الألوهية والمخلوقات، فالإنسان يتأرجح بين معقول ومحسوس⁽⁵⁾.

(1) _ الأمير عبد القادر، المواقف، مرجع سابق، ج1، ص 575، ص 725.

(2) _ الأمير عبد القادر، المواقف، ج1، ص 546.

(3) _ المرجع نفسه، ج2، ص 215.

(4) _ المرجع نفسه، ج1، ص 368.

(5) _ الأمير عبد القادر، المواقف، مرجع سابق، ج1، ص 538.

وبسبب هذه الخلقة الجامعة حقّ للإنسان أن يلتحق برتبة الكمال، فإن لم يصل إليها ما أدرك هذا الكائن حقيقته الجامعة لكلّ الحقائق العلوية والسفلية، وإن تخلف الإنسان عن هذه الرتبة، ماحقّ أن يكون إنسان بل هو في مرتبة تنزله إلى شبيه الحيوان. (1)

ولم يفت على الأمير أن ينبّهنا أنّ الإنسان نال الشرف والكرم لما خلقه الله تعالى بيديه (2)، وفسّر الأمير اليدين على أهما الأسماء الجلالية والجمالية المتقابلة فيصح لإنسان دون غيره من المخلوقات، أن يتخلق ويتحقق بجميع الأسماء الإلهية... (3)، والأسماء الإلهية عند الأمير هي تعبّر عن خلقة الإنسان الباطنة "الروح".

وهذا هو التعريف الثاني الذي نقف عليه عند الأمير عبد القادر عندما يتحدّث عن الإنسان في كتابه المواقف، فإنّه يرجعه إلى الخلقة الجامعة بين الظاهر والباطن، فظاهره المحسوس خلق وبه ينتمي إلى هذا العالم الذي هو جزء منه، وباطنه المعنوي حقّ الروح، وبها ينتمي إلى العالم المملوكويّ الروحانيّ.

ثالثاً: تعريف الأمير للإنسان بالوظيفة:

نجد الأمير عندما يتحدّث عن الإنسان في كتابه المواقف كثيراً ما يعدد له جملة من المهام والوظائف التي خص بها وحده دون غيره من المخلوقات، و حاز هذه الوظائف للخلقة التي خلق عليها والملكات التي حازها دون غيره من المخلوقات.

فنجد الأمير في كثير من المواقف يربط كلمة الإنسان بالخليفة ويصفه بها، ثمّ نجده يعلّل سبب نيّله لدرجة الخلافة، فيوضّح أنّ الحكمة تقتضي أن يكون الخليفة من الجنس البشري، لأنّه الكون الجامع للحقائق الإلهية والكونية... فأدم وبنوه الخلفاء؛ لأنّ خلقتهم اقتضت تعلّق الأسماء كلها، فخلقة الإنسان جامعة للصورة الإلهية من حيث الباطن والصورة الكونية من حيث الظاهر، فلم تكن هذه الخلقة للملائكة لتكون الخلافة فيهم، فحاز الإنسان الخلافة لما له من الحقائق الخلقية، فلهذا كان الخليفة الأوّل آدم عليه السلام ومن ورث الخلافة من بنية يظهر بجميع الأسماء الكونية والإلهية (4)، ولا

(1) _ المرجع نفسه، ج 2، 322 / ج 2، ص 560 / ج 1، ص 718.

(2) _ المرجع نفسه، ج 1، ص 717.

(3) _ المرجع نفسه، ج 1، ص 124.

(4) _ الأمير عبد القادر، المواقف، مرجع سابق، ج 1، ص 495.

يكون الإنسان خليفة إلا إذا ما تحقق وتخلق بأسماء وصفاته تعالى، ويكون هذا لمن كانت المعرفة صفته. ويفهم من كلام الأمير أن الخلافة هي الوظيفة الأولى التي خصّ بها الإنسان بسبب هذه الحلقة إلا أنه لا يمكنه مزاولتها على أكمل وجه إلا إذا حقق شروطها من معرفة وتخلق وتحقيق، وهما من الوظائف التي أنيطت به لأصل نشأته، فالعارف خليفة الله، والإنسان خليفة لآبده عليه أن يظهر بصورة مستخلفه، متخلق بأخلاقه، ولا يكون التحقق والتخلق إلا كان الإنسان عارفا بالله، وإذا نقص الإنسان شيء من هذه الصفات فقد نقصه من الخلافة بقدرها....⁽¹⁾.

وكّلما حقق الإنسان هذه الوظائف كان أقرب إلى تحقيق إنسانيته على أكمل وجه، وعين الوظائف كلّها عند الأمير تصبّ في تحقيق العبودية.

وهذا هو التعريف الثالث الذي نقف عليه لدى الأمير عن الإنسان؛ إذ أنه يحدّد للإنسان مهام ووظائف خاصّة به لا بغيره، وأهمّ الوظائف التي يحددها الأمير ويركّز عليها من أجل أن يحقق الإنسان إنسانيته الحقّة عليه أن يحقق وظائفه؛ الخلافة والمعرفة والتخلق بالصفّات؛ والجامعة لهذه الوظائف وأجلّها؛ وهي العبودية لله، وسنوضّح في المبحث القادم هذه الوظائف⁽²⁾.

بعدما أوردنا تعريفات الأمير عبد القادر للإنسان قمنا بجمعها وترتيبها على أساس ما جاء فيها من ذكر المعلومات التي بثّها الأمير في كتابه المواقف في شرح قضية الإنسان التي قسّمناها إلى ثلاث تعريفات رئيسة، الأولى ورد فيها تعريف الأمير عبد القادر للإنسان من خلال ما يمتلكه من ملكات (روح، عقل، نفس)، والثانية عرّفه من خلال جمعه (بين الظاهر والباطن)، وأما الثالث فقد عرّفه بوظائفه التي وجب القيام بها.

ويمكننا أن نحلّل ونستخلص أهمّ الملاحظات والنتائج التي عايناهما في هذا المطلب الذي تناول تعريفات الأمير للإنسان، فوقفنا على مايلي:

بالتدقيق في هذه التعريفات نجد أنها تحمل ثلاثة أبعاد، بعد وجودي، وبعد معرفي، وبعد سلوكي عملي.

(1) _ المرجع نفسه، ج 1، ص 131.

(2) _ للمزيد من التعمق إرجع إلي كتاب الأمير عبد القادر، المواقف، ج 1، ص 316، ص ص 429 - 430 - 433.

- البعد الوجودي:

نستشفه من خلال تعريف الأمير للإنسان من حيث ما هو عليه في ظاهره وباطنه (ظاهرة بارز إلى الخلق، وباطنه بارز إلى الحق)، أي أنه ذلك المخلوق الذي انطوى على نسبتين، نسبة تؤهله للعيش في هذا الكون الذي ينتسب إليه من حيث خلقته الظاهرة، ونسبة تؤهله للتواصل مع عالم الحق والالتقاء بالعالم الروحاني، وذلك مما يمتلكه من خلق داخلي باطني روحاني.

وبهذا يكون الإنسان هو أكمل صورة في جميع المخلوقات التي خلقها الله تعالى، حيث وضع فيه جانبين (جانب روحاني رباني، وجانب مادي كوني محسوس)، وبهذا البعد الوجودي استحق الإنسان أن يوصف بأحسن صورة وأكملها بين جميع المخلوقات التي خلقها الله تعالى، لما له من نسبتان نسبة كونية يدخل بها إلى هذا العالم الكوني المحسوس، ويتعايش معه بما يمتلكه من مقومات تشبه عالمه، ونسبة إلهية يصل بها إلى العالم الروحاني الإلهي، الذي يستمد منه المدد، ويتطلع بشوق إليه لتكامل به إنسانيته.

ولهذا فالإنسان كلما تعلّق بالجانب الروحاني وطهر نفسه وزكّاها كلما نال الشرف والكمال وزادت محاسنها، وكلما تعلّق بالجانب المادي المحسوس كلما زادت النفس في خبثها وشهواتها، ونزلت بذلك إلى المرتبة الحيوانية التي تشبهها في صفاتها الخارجية من أكل وشرب وغزيرة...

- البعد المعرفي:

ما نستنتجه من خلال ذهاب الأمير عبد القادر في وصف هذا الإنسان بما يمتلكه من ملكات (الروح، العقل، والنفس)، التي أعطى لكل واحدة منها مهامها، وذهب إلى أنّ الروح والنفس شيء واحد إلا أنّها كلما تعلّقت النفس بالجانب العلوي، وتخلّت عن جانبها الحسي الشهواني التحقت بالروح واتّصفت بها، وكلّما تعلّقت بالجانب الشهواني الجسماني الذي هي لها نسبة فيه كلما نزلت هذه الروح وسميت نفساً، وأمّا العقل فهو المدبّر لهذه المملكة الإنسانية ويتلقى الأمر من الروح، ويستعمل العقل النفس (الذي أعدّه خادمه المطيع) لتنفيذ الأوامر، لذا كلما كُمل العقل كملت النفس وبالعكس، وأنّ شرف هذا الإنسان ليس بما ناله من هذه الملكات وإنّما شرفه إذا تفتّن إلى المعرفة والعلم الذي امتلك كلّ المقومات لحيازته، ورأى الأمير أنّ هذه المعرفة فطرية متجدّدة، وأنّ العلوم كلّها مركوزة في حقيقته تظهر آنّا بعد آن بإرادة هذا الإنسان إذا ما سعى لها وأراد إخراجها من محلّها المركوزة فيه ألا وهو

القلب، وهو محلّ الروح الإنسانية.

– البعد الثالث: بعد سلوكي عملي:

نلمس هذا البعد من خلال تعريف الإنسان بوظيفته الكبرى التي لخصّها في العبودية والخلافة، وما نال هذه الوظيفة إلّا لما امتلكه من صفات مؤهّلة لها، التي جمعت بين البعدين الوجودي والمعرفي؛ أي أنّه حاز على شرف العمل بهذه الوظيفة دون سائر المخلوقات لما أعطيت له من صفات، وأنّ قيمة شرف هذا الإنسان في هذه الدار هو ذلك الدؤوب على القيام بوظائفه التي أسندت إليه، وكلّما زاد هذا الإنسان في كماله كلما أدّى هذه الوظائف على أكمل وجه، وكلما نقص من هذا الإنسان من هذا الكمال كلما نزل إلى فئة الحيوانات ونقصت معه صفاته المؤهّلة لهذه الوظيفة. والملاحظ أنّ الأمير جعل لهذا الإنسان حركة سلوكية عملية يسعى لها فوق هذه الأرض من خلال المقومات الإنسانية التي أُعطيت لهذا المخلوق.

ومن النتائج الملاحظة أنّ أبعاد تعريفات الأمير عبد القادر للإنسان التي وقفنا عليها، وأبعاد اشتقاق كلمة الإنسان في اللغة العربيّة تصبّ في قالب واحد. كما أنّه تماشى في تعريفاته مع ما عرفته الفلسفة اليونانية في تعريف الإنسان بالعقل والنفس، وأخذ جانباً كبيراً منها مع بعض الاختلافات في التفاصيل، كتقسيم الروح إلى عدّة أنفس مع جعلها شيء واحد في النهاية، وأنّ النفس كلّما تعلّقت بالعالم العلويّ أصبحت روحاً، وكلّما تعلّقت بالجانب الماديّ أصبحت نفساً، وهذا ما نجده أيضاً عند بعض الفلاسفة المسلمين.

ونلاحظ أنّ الأمير عبد القادر في تعريف الإنسان مال إلى الجانب الصوّفي في تراثنا الإسلامي وكان موافقاً له بالكلية خاصّة بالنسبة إلى تعريف الإنسان بما يمتلكه من جانب ظاهريّ وباطني، ودخول الإنسان إلى الحضرتين (الحضرة الكونية والحضرة الإلهية)، وهذا راجع لنشأة الأمير الصّوفية وتأثره بها.

المبحث الثاني: الكمال الإنساني في فكر الأمير عبد القادر الجزائري.

تُعَدّ نظرية الكمال الإنساني من أهمّ القضايا التي نتجت عن الفكر الصّوفي الإسلامي، والتي دار حولها النقاش بالسلب أو الإيجاب، وذلك راجع إلى نظرة الصّوفية الذين رَوّوا الكمال في بعض الأشخاص من البشر، ومع تعدّد هذه النظريات التي تريد الوصول بالإنسان إلى الكمال، وعلى غرار

هذا نجد الأمير عبد القادر الجزائري قد طرح هذه الكمالية في كتابه المواقف، وبيّن حقيقة هذا الكمال وقدّم شروط لظهورها، وسعى إلى إبراز حقيقة هذا الكمال وما ينطوي عليه من مكونات، وجعل هذا الكمال إنسان رسالي، له رسالة هو مؤديها، وخصّه بوظائف محدّدة به لا بغيره، كما ضرب لهذه النظرية نموذجاً للكمال "الحقيقة المحمدية".

- ونسعى في هذا المبحث إلى فكّ بعض شفرات هذه النظرية، مجيبين عن بعض الأسئلة التالية:
- ما حقيقة وماهية هذا الكمال الإنساني عند الأمير عبد القادر؟ وعلى من يطلق هذا المصطلح؟
 - ماهي الوظائف الخاصة بهذا الإنسان الكامل لدى الأمير عبد القادر؟
 - ما هو المقصود بالحقيقة المحمدية لدى الأمير عبد القادر الجزائري؟
- واتّبعنا في هذه الدّراسة منهجية تقصّي النصوص واستقراءها ثم تحليلها، واستخلاص النتائج المتعلقة بنظرية الكمال الإنساني عند الأمير، والهدف المرجو من هذه الدّراسة تحديد ملامح الكمال الإنساني عند الأمير عبد القادر، ودور هذا الكمال في انبعاث هذه الحياة، وما للإنسان الكامل من استعدادات في التّغيير بما يحيط به، وما لهذا المبحث من أهميّة وصلة بالمباحث القادمة في هذه الأطروحة.

المطلب الأوّل: حقيقة الإنسان الكامل عند الأمير عبد القادر:

- تحديد المفاهيم وضبطها من الأولويات الأساسيّة التي تتحكّم في البناء الفكري السليم، فهي عملية منهجية هامّة للتأسيس لنظرية ما، أو لوضع لبنة في سبيل العلم، ولهذا سنضبط مفهوم الكمال الإنساني في اللّغة، ثم نخرج إلى الضبط الاصطلاحي للكمال الإنساني، مركّزين على الفكر الصّوّفيّ مقتصرين على بعض الأعلام، ثم نبرز الكمال الإنسانيّ عند الأمير عبد القادر.

أولاً: معنى الكمال الإنساني في اللّغة والاصطلاح:

1- الكمال في الاستعمال اللّغوي:

الكَمال مشتق من مادة "كَمَل" وهو التّمام، وكَمالاً، وكَمولاً فهو كَاملٌ وكَميلٌ وأَكَمَلَهُ واستَكَمَلَهُ وكَمَلَهُ: أَمَمَهُ وَجَمَلَهُ⁽¹⁾، كَمَلَ كَمولاً: تَمَّتْ أَجْزاءُهُ أو صِفَاتُهُ ومحاسنه، وتَبَتَّتْ فيه صفات الكمال⁽¹⁾،

(1) - الفيروز آبادي، مرجع سابق، ص 1434.

وَكَمَالُ الشَّيْءِ حُصُولُ مَا فِيهِ الْغَرَضُ مِنْهُ، فَإِذَا قِيلَ كَمُلَ ذَلِكَ فَمَعْنَاهُ حَصَلَ مَا هُوَ الْغَرَضُ مِنْهُ⁽²⁾.
ولقد ورد في معجم الفروق اللغوية في تبيان الفرق بين الكمال والتّمام، أنّ الكَمالَ اسم لاجتماع
أبعض الموصوف به، والتّمام اسم للجزء والبعض الذي يتم به الموصوف بأنه تام⁽³⁾.
بينت كتب اللغة أنّ الكمال هو حصول الغرض المطلوب من الشّيء، كما أنّ لفظه الكمال دالّة
على التّمام؛ إلّا أنه يطلق التّمام على جزء أو البعض من صفات ذلك الشّيء، أما الكمال فهو اجتماع
كلّ الأجزاء أو الصّفات لذلك الشّيء الذي وصف بالكمال.

2- الكمال الإنساني اصطلاحاً:

إذا ما أردنا أن نرجع إلى أصل نشأة نظرية الإنسان الكامل في السياقات التاريخية فسيرد الأمر إلى
الفكر الصّوفي، وترى سعاد الحكيم في معجمها الصّوفي أنّ ابن عربي هو أوّل من استخدم واستعمل
مصطلح الإنسان الكامل من الناحية اللفظية، أما المضمون فقد استفاه من ينابيع متعدّدة لم تأثر في
ابتكاره وفرديته⁽⁴⁾، ثمّ أتى من بعده عبد الكريم الجيلي الذي واصل عمل أستاذه ابن عربي، كما أنّ كثير
من الدّراسات تشير إلى أسبقية أمم غير عربية ولا إسلامية في ابتداء نظرية الإنسان الكامل، وهي عبارة
عن تأثر معرفي مشترك بين العرب وغيرهم⁽⁵⁾.

ويعدّ الحقل الصوفي أكثر الحقول توظيف لهذا المصطلح "الإنسان الكامل"، ومن بين التعريفات
الواردة عند العرفاء لهذا المصطلح:

-"الإنسان الكامل الذي أقامه الحقّ برزخاً بين حقيقتين (الحقّ والعالم)، فيظهر بالأسماء الإلهية
ليكون حقاً، ويظهر بحقيقة الإمكان ليكون خلقاً"⁽⁶⁾.

(1) _ أحمد أبو حاقّة، مرجع سابق، ص 1086.

(2) _ الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، مرجع سابق، ص 441.

(3) _ أبي هلال العسكري، الفروق اللغوية، ت مُجّد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة، القاهرة، ط1، ص 441.

(4) _ انظر سعاد الحكيم، المعجم الصوفي، دندرة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1401هـ-1981م، ص 160.

(5) _ ينظر: عبد الرحمن بدوي، الإنسان الكامل في الإسلام، وكالة المطبوعات، الكويت، ط2، 1979م، ص ص21-34، حيث
ذكر مقالاً لهانز هينرش شيدر بعنوان: "نظرية الإنسان الكامل عند المسلمين مصدرها وتصورها الشعري" ذكر فيه صاحبه بأن جذور
هذه النظرية يعود إلى الغنوص الإيراني القديم.

(6) _ ابن عربي، مرجع سابق، ج2، ص 391. (بتصرف)

- "الإنسان الكامل هو الجامع لحقائق العالم وهو صورة الحق" (1).

- "الإنسان الكامل هو ذلك الذي له المقابل لجميع الحقائق الوجودية بنفسه، فيكون مقابلاً للحقائق العلوية بلطافته، ومقابلاً للحقائق السفلية بكثافته" (2).

- "الإنسان الكامل مرآة للحق فالحق تعالى أوجب على نفسه أن ألا ترى أسمائه وصفاته، إلا عن طريق الإنسان الكامل" (3).

- اقتصرنا على ذكر بعض التعريفات التي جاءت عند ابن عربي وعبد الكريم الجبلي، لما لهما من أثر كبير في كتاب المواقف للأمير عبد القادر.

وتجدر الإشارة إلى أن فكرة الكمال الإنساني لم تكن وليدة التصوّف الإسلامي بل كانت موجودة في الفلسفة اليونانية، والثقافة الإيرانية والهندية، كما تأثرت بها اليهودية والنصرانية، فهذه النظرية نتاج لما تمخّض عنه الفكر الإنساني وبجته في قضايا الوجود، وكيفية خلق العالم، ونشأة الإنسان وماهيته وقدراته وغاياته. (4)

ويعدّ ابن عربي من المفكرين المتصوّفة الذين قعدوا لهذه النظرية، فكل كتبه تدور حول الكمال الإنساني بطريقة أو بأخرى، ومن جاء بعده للتّنظير في هذه النظرية يعدّون عالة على فكره (5).

ثانياً: الكمال الإنساني عند الأمير عبد القادر:

قد لا يعدو الصوّاب إذ قلنا أن نظرية الكمال الإنساني عند الأمير عبد القادر الجزائري تعدّ الأساس في كتابه المواقف، ومن أبرز القضايا التي ناقشها الأمير وبيّن صفات الكمال الإنساني وما ينطوي عليه من مدلولات، بل ولها علاقة وطيدة بين وجود العالم والوجود الإنساني، ولها علاقة بالذات

(1) _ المرجع نفسه، ج3، ص 447.

(2) _ عبد الكريم الجبلي، الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل، دار الكتب العربية الكبرى، مصدر، دط، دت، ج2، ص 134

(3) _ المرجع نفسه، ج2، ص 135. (بتصرف)

(4) _ للمزيد من التفاصيل عن تطور هذه النظرية وتمخضها في الفكر الإنساني عبر محطات الفكر ارجع إل كتاب الإنسان الكامل في الفكر الصوفي عرض ونقد، لدكتور لطف الله بن عبد العظيم خوجة، دار الهدى النبوي، مصر، ط1، 1430-2009م، ص 409 وما بعدها. / وأنظر أيضاً: كتاب الإنسان الكامل في الإسلام، عبد الرحمن بدوي، مرجع سابق، ص 20، وما بعدها.

(5) _ ارجع إلى: لطف الله بن عبد العظيم، الإنسان الكامل في الفكر الصوفي عرض ونقد، ص 131، وما بعدها وأنظر أيضاً: سعاد الحكيم المعجم الصوفي، ص 160.

الإلهية من حيث تصوره للوجود، وبما أنّ أميرنا له مشرب صوفيّ فقد جاءت تعريفاته للكمال موافقة لما عند سابقه من العرفانيين الصّوفيين، غير أنّه وضّح فكرة الكمال بمنظوره الخاص، وسنحاول فيما يلي فكّ بعض الشّفرات المتعلّقة بالكمال الإنساني ومدلولاته عند الأمير عبد القادر، مجيبين عن الأسئلة التالية:

- ما حقيقة الإنسان الكامل عند الأمير عبد القادر؟
 - ما دلالة الكمال الإنساني عند الأمير عبد القادر؟
 - ماهي أبعاد هذا الكمال الإنساني عند الأمير عبد القادر؟
- وبالتقصّي في كتاب المواقف للأمير عبد القادر نجده يرمي بالكمال الإنسانيّ في جانبين هما:

1_ الكمال هو الجمع بين الحقيقتين:

حقيقة الكمال عند الأمير مردّها ما حوته خلقته، من جمع بين الحقيقتين، فهو الكتاب الجامع لكلّ شيء من الأشياء، (الإلهية والكونية) ⁽¹⁾.

وهذه الكمالية الإنسانية (الخصرة الجامعة) يصفها الأمير بأنّها مجموع الأسماء الإلهية، وهي الحقيقة التي خلق عليها آدم عليه السلام، وهي الحقيقة الإنسانية، فيقول: "كُشف لآدم عن إنسانيته التي هي حقيقته، فوجدها مجموع الأسماء الإلهية والكونية في مقام الفرق، وإلاّ فالجميع أسماء إلهية، فما الكون جميعاً إلاّ أسماؤه تعالى، (...) فهو البرزخ الجامع بين الطرفين المتقابلين" ⁽²⁾.

وهذا البرزخ عند الأمير هو حاجز يفصل بين طرفين، ويحمل قوة كليهما، فله إلى كل طرف جانب، يقول "كلّ شيئين متقابلين، فلا بدّ أن يكون بينهما حيث لا يختلط أحدهما بالآخر، ويسمّى برزخاً لا يكون عندهما ولا غيرهما، فهو قوّتهما معاً؛ بمعنى أنّه يكون عين كل واحد من المتقابلين من كلتي وجهتيه، بل له وجه إلى هذا ووجه إلى هذا (...)، كالخطّ المعقول الفاصل بين الظلّ والشمس، وقد يكون بين معقول ومحسوس (...)، والإنسان الكامل برزخ بين مرتبة الألوهة والمخلوقات، فهو برزخ بين

(1) _ الأمير عبد القادر، المواقف، مرجع سابق، ج2، ص 215.

(2) _ المرجع نفسه، ج1، ص 368.

معقول ومحسوس، وبرزخ البرازخ كلها وأجمعها الحقيقة المحمدية⁽¹⁾.

وبالتالي فالإنسان الكامل عند الأمير هو الذي يكون جامعاً بين الظاهر والباطن، فله بهذا الخلق نسبتان، نسبة إلهية ونسبة كونية، ويرى الأمير بأنّ "الإنسان بين جميع العوالم، هو وحده الجامع بين الاسمين (الظاهر والباطن)، فهو بهذه الخلقة أشرف المخلوقات وأكملها، فالإنسان الكامل مظهر جامع لجميع الحقائق الإسمية (...)"، فهو بهذه النشأة يدخل إلى نسبتين، نسبة يدخل بها إلى الحضرة الإلهية، ونسبة يدخل بها إلى العالم"⁽²⁾.

ولم ينل الإنسان هذا الكمال إلاّ بهذه الجمعية التي هي أصله وإنسانيته، فهو حضرة الجمع والوجود "حضرة الجمع والوجود لكونه جامعاً لحقائق الوجود (...)"، فليس لهذه الحضرة إلا الصّورة الإنسانية (...)"، ولما كان الإنسان حضرة الجمع والوجود المحدثّة من ذات الحقّ، المخلوقة على الصّورة الإلهية، كان موصوفاً بالأسماء والصفات الإلهية ...، ومن ثم قال ﷺ حاكياً عن الله أنّه عين العيد المتقرب إليه، فهو سمعه الذي يسمع به إلى غير ذلك من أعضائه وقواه، وكلّ ذلك إشارة إلى حقيقته، وما هو عليه الإنسان من الصّفات الإلهية (...)"، وتعرف أنك العين المقصودة من الوجود كله أعلاه وأسفله، إنّك أنت الموصوف بصفات الحقّ ...⁽³⁾.

بالتأمل في أقوال الأمير نلاحظ أنّه أرجع الكمال الإنساني إلى أصل خلقته التي جمعت بين النسبتين الإلهية والكونية، فهو الوسط بين المعقول والمحسوس، هو البرزخ بين الطرفين، فهو حامل لصفات الجانبين، وبهذا استحقّ الكمال الوجودي، ويكون الأمير أعطى بهذا الكمال الإنسانيّ بعداً "أنطولوجياً" وجودياً ميتافيزيقياً، وذلك راجع لأصل النشأة التي تكون منها هذا الإنسان.

ويركّز الأمير على أنّ هذا الكمال الإنسانيّ، هو في الأصل مجموع الأسماء الإلهية من "جلال وجمال"، فيقول "خلق تعالى الصورة الآدمية بيديه وسواها وعدلها، فاختصّت بذلك ما اختصّت به من علم الأسماء...⁽⁴⁾"، ولقد فسّر الأمير اليدين على أنّهما الأسماء الجلالية والجمالية في قوله: "والمراد باليدين

(1) _ الأمير عبد القادر، المواقف، مرجع سابق، ج1، ص 538.

(2) _ المرجع نفسه، ج1، ص 575.

(3) _ الأمير عبد القادر، المواقف، ج2، ص ص 579، 580.

(4) - المرجع نفسه، ص 717.

هنا الأسماء الجلالية والجمالية المتقابلة، فلهذا صحّ الإنسان دون سائر المخلوقات أن يتحقّق بجميع الأسماء الإلهية...⁽¹⁾.

وبالتعمّق أكثر في مقولات الأمير نجد أن الكمال الإنسانيّ مرده إلى الصّورة الإلهية فصحّ له الكمال من هذه المرتبة الوجودية، فيقول "إنك أنت الموصوف بصفات الحق، (...)، فالتحقّق بدرجة الكمال، فتظهر ما أنت عليه من الجلال والجمال، واعلم أنّ الحقيقة الإنسانية الذات الإلهية"⁽²⁾.

ومن الصّوري هنا أن نوضّح حقيقة مفهوم خلق الإنسان على الصّورة الإلهية (الذات الإلهية)، لكي لا يتعلق أي معنى من المعاني الموهمة من تشبيهه، أو تجسمه، أو حلوله، أو اتّحاده.

فأول ما نبدأ به لإبراز معنى الصورة الإلهية عند الأمير هو معرفة مراتب الذات الإلهية عند الأمير عبد القادر.

بتصفّحنا لكتابه المواقف نجد أنّ الأمير فرّق بين مرتبة الذات المطلقة والذات الإلهية؛ إذا أنّ الذات المطلقة غيب مطلق وممنوع البحث فيها، أمّا بالنسبة إلى الذات الألوهية "الإلهية" فهي مرتبة من مراتب الذات وماهي إلا ظهور للأسماء والصفات، لذا المقصود بالألوهة "الأسماء والصفات"، فالذات المطلقة لا تدرك لا حساً ولا عقلاً ولا كشفاً، بخلاف مرتبة الألوهة "الأسماء والصفات" التي تدرك حساً وعقلاً وكشفاً؛ لأنّ هذه المرتبة لها الظهور والتجلّي في المسمّى خلقاً.

وما الظهور كلّهُ إلا لهذه المرتبة، التي تمثّل الأثر الموصل إلى المؤثر وهي مرتبة الألوهة والأسماء والصفات، فمرتبة الألوهة من حيث أنّها آثار فإنّها تعلم ولا تشهد على حقيقتها، على عكس الذات المطلقة فإنّها تشهد من حيث آثارها (المتجلية في الأسماء والصفات) "مرتبة الألوهة"، ولا تعلم من حيث أنّ الذات المطلقة لا يمكن الاحاطة بها⁽³⁾، لذا فالصّورة الإلهية للإنسان الكامل ليس المقصود بها الذات العلوية؛ لأنّه لا صورة لها في مفهوم الأمير عبد القادر، وإنّما المقصود بالصّورة مشاركة الإنسان للحق تعالى في الأسماء الإلهية من حيثية أنّه مخلوق، وهذه الصّفة قد جاءت للإنسان خاصّة دون غيره

⁽¹⁾ _ المرجع نفسه، ج 1، ص 718.

⁽²⁾ _ المرجع نفسه، ص 579، 580.

⁽³⁾ _ الأمير عبد القادر، المواقف، ج 1، ص 123، ص 152.

على سبيل التشريف والتكريم⁽¹⁾.

ومن جهة أخرى يستند الأمير في إثبات نظرية الكمال الإنسانيّ إلى الأثر الوارد في الحديث الذي يخبر فيه النبي ﷺ "إنّ الله خلق آدم على صورته"⁽²⁾، وقد فسّر الأمير هذه الصّورة على أنّها الأسماء والصفات الإلهية، التي تبرز وتظهر في الإنسان إذا ما تم له الاتصاف والتحلي والتحقق بها (أي بالأسماء والصفات)، وقد نفى الأمير أن تكون لله تعالى صورة محدّدة مصوّرة عن الله تعالى، وما المقصود بالصّورة إلّا أسماءه تعالى، فيقول: "فالعارف الكامل هو الذي تظهر فيه صورة الحقّ تعالى على الكمال؛ لأنّه مرآة الحق يرى فيه الحق أسماءه وصفاته وأوصافه، فالعارف صورة الحق، أعني صورة العارف الباطنة، فظاهر العارف خلق وباطنه حق؛ فصورة باطنه هي صورة الحقّ تعالى؛ لأنّه متخلّق بأخلاقه، متحقّق بأسمائه فكلّ من رأيناه تظهر منه أخلاق الحقّ، وأوصافه، وأسماءه، عرفنا بأنّه عارف بالله تعالى، (...). وليس المراد من نسبة الصّورة إلى الحقّ تعالى إلّا أسماءه، لا أنّ له شكلا مصوّرًا محدودًا، تعالى الله عن ذلك"⁽³⁾.

والملاحظ عند الأمير عبد القادر إرجاعه الكمال الإنسانيّ إلى أصل خلقه الإنسان، التي جمعت في طيّاتها بين الجانبين الماديّ والروحيّ، فهو بهذا كان جامعًا لصفتي الجانبين، ممّا خوله أن يكون كاملاً في خلقته، وبالتالي فالكمال الإنسانيّ عند الأمير له بعد أنطولوجيّ وجوديّ، أي أنّ الكمال أصل في الإنسان، لما له من خلقه نشأ بها، والتي بها نال الكمال الوجوديّ على سائر المخلوقات، فهو ذلك الكتاب الجامع بين الحقيقتين الإلهية والكونية، غير أنّ الأمير يركّز على الجانب الباطني، الذي أعده محلّ الصّورة الإلهية التي هي الأسماء والصفات الإلهية، التي يمكن للإنسان أن يتحلّى ويتّصف بها لكي يصل إلى الكمال المقصود والمرجو.

وبالتالي، فالكمال المقصود عند أميرنا هو كمال وجوديّ خلقيّ في أصل الإنسان، لما له الجمع بين العالم العلويّ والسفليّ، الجانب الماديّ والمعنويّ- الجمع بين الرّوح والجسد، وبهذا يكون الإنسان

(1) _ أحمد محمود الجزار، الله والإنسان عند الأمير عبد القادر الجزائري، در الوفاء، الإسكندرية، ط1، 2015م، ص 64.

(2) _ مسلم بن الحجاج، صحيحه، ت مجّد فؤاد عبد الباقي، دار احياء التراث العربي، بيروت، (دط)، (دت)، ج4، ص 2017. رقم الحديث 2612، باب النهي عن ضرب الوجهي.

(3) _ الأمير عبد القادر، المواقف، مرجع سابق، ج1، ص 123-124.

أكمل مظاهر خلق الله تعالى، فهو حضرة الجمع والوجود، فيقول الأمير: "وبهذا اعتبر الإنسان الكتاب الجامع بين الحقيقتين الإلهية والكونية، فالإنسان الكامل كتاب جامع لكل شيء من الأشياء الإلهية والكونية فهو الكلمة الكلية والحضرة الجامعة"⁽¹⁾، غير أنّ الأمير ضرب صورة بشرية للإنسان الكامل المتمثلة في شخص الرسول، ورأى أنّها تتجسّد فيها الكمالية الكبرى، فقال "أكمل مظاهر هذه الحضرة "الجمع والوجود" الحقيقة الحمديّة، فهي وإن كانت لها مظاهر كثيرة، فإنّها بعينها بهذا الاسم، يكون مُحمّد ﷺ أكمل مظاهرها، على أنه ما من الجنس الإنساني أحد إلّا وهو مظهر لهذه الحقيقة، (...)، واختصّ مُحمّد ﷺ بالأكملية الكبرى"⁽²⁾.

يمكن أن نستخلص ممّا سبق أنّ الكمال الإنسانيّ عند الأمير هو أصل "وجوديّ مع خلق الإنسان؛ إذ مردّ الكمال عنده إلى أنّه ذلك الكائن الذي جمع بين الروح (العالم العلويّ) والجسد (العالم السفليّ)، فهو برزخ بين الطرفين، وله عين كلّ واحد منهما".

2: الإنسان التام والكامل:

الكمال عند الأمير من الناحية الوجوديّة هو الذي جمع بين الحضرتين الإلهية والكونية، وقد فرّق الأمير بين الإنسان الذي تظهر فيه (أسماء الله وصفاته)، وبين الإنسان الذي لا تظهر فيه، فكلّ إنسان عنده مخلوق على التّمام، أي من ناحية التّسوية والتّعديل والقبول، ولكن ليس كلّ الناس كاملين؛ لأنّ الكمال رتبة للإنسان الذي تخلّق بمجموع الأسماء والصفّات الإلهية، فالكمال عند أميرنا مركّز في الجميع، ولكن لا يظهر إلّا بما يحقّقه استعداد كلّ فرد للكمال، فالإنسان الكامل هو وحده الذي فاز بالتّسوية والتّعديل على الكمال والتّمام⁽³⁾، فإنّ الحقيقة الإنسانية موجودة في الجميع، وكلّهم قابلون لرتبة الكمال، ولكن متفاوتون في ظهور آثار الإنسانيّة⁽⁴⁾.

"فكلّ إنسان مخلوق على الصورة (...)، وإن لم يكن إنساناً كاملاً بالفعل فهو إنسان بالصّورة

(1) _ الأمير عبد القادر، المواقف، مرجع سابق، ج6، ص 215.

(2) _ المرجع نفسه، ج2، ص 579.

(3) _ الأمير عبد القادر، المواقف، ج2، ص 551.

(4) _ المرجع نفسه، ج1، ص 283.

والقوة والصّلاحية؛ صالح لأن يكون كاملاً بالفعل، متهيّئاً لذلك إذا حفته العناية الإلهية" (1).

الكمال عند الأمير موجود عند الجميع لكونه مخلوق على الصّورة الإلهية، فهو كامل بأصله معدل ومسوى للكمال، غير أنّ هذا الكمال لا يظهر ولا يبرز في النوع الإنسانيّ كلّهُ إلّا للذي كان له الاستعداد ليظهر ويبلغ مرتبة الكمال، فيقول الأمير "واعلم أنّ كلّ فرد من أفراد النوع الإنسانيّ عنده قابلية الكمال الإلهي، ولكن ما كل أحد مستعدّ لذلك، فالقابلية أصيلة في كلّ شخص؛ لأنّه مخلوق من الدّات الإلهية (...)"، لكن الاستعداد هو الذي يبلغك مرتبة الكمال" (2).

والإنسان عند الأمير لا يكون كاملاً إلّا إذا تحقّق بما له من الصّفات وعرف ما هو عليه من ناحية الدّات، ومن لم يحقّق هذا فهو غير كامل بل هو من جنس الإنسان الحيوان، فيقول "فتظهر ما أنت عليه من الجلال والجمال، واعلم أنّ الحقيقة الإنسانية هي الدّات الإلهية، ولها من صفات الكمال ما تعرف الله به على عباده، وما استأثر به ممّا لم يتعرّف به إلى خلقه، فجُمع ذلك لهذه الحقيقة الإنسانية، فاطلبها منك فيك بالاسم الله حتى تجد المسمّى، فيسقط الاسم فتعرف ذاتك، ثم تجد ما عرفت ثم تتصرّف بما وجدت، وإذا صحت معرفة ذاتك، ثم وجدت ما عرفت ثم تصرّف بما وجدت فيما أردت، فأعلم أنك أنت الإنسان الكامل، وقطب الأوائل والأواخر، وإذا لم يصح لك ذلك، فاعلم أنك إنسان مطلق منحطّ عن رتبة الكمال بقدر ما فاتك من ذلك" (3).

ولقد ميّز الأمير بين من تظهر فيه إنسانيته التي هي مجموع الأسماء والصّفات الإلهية وبين من لا تظهر فيه، إذ أنّ الإنسان تامّ في خلقته، وهي لكل فرد من بني البشر، والجميع له هذه الإنسانية التي أكسبته صفة الكمالية من الناحية الوجودية، غير أنه لا تظهر في الجميع الكمالية، إلّا للذي تحقّق وتخلّق بهذه الإنسانية، التي هي معبر عنها بالصّورة الإلهية، أي الذي يحمل هذه الصّفات يجب أن يتحقّق ويتّصف بها لكي يصل إلى مرتبة الكمال المنشود.

ومن هنا نجد الأمير يفرّق بين الإنسان التامّ والإنسان الكامل، فالتّمام للجميع راجع للخلقة الوجودية لبني النّوع الإنسانيّ، غير أنّ الكمال لا يظهر ولا يبرز ولا يتجلّى في الواقع إلّا للذي كان

(1) _ الأمير عبد القادر، المواقف، مرجع سابق، ج2، ص 580.

(2) _ المرجع نفسه، ج2، ص 581.

(3) _ الأمير عبد القادر، المواقف، ج2، ص 580.

وصفه وحُلُقُهُ الصَّوْرَة التي خُلِقَ عليها، وهي الصَّوْرَة الإلهية- الأسماء والصفات-، أي يتحلَّى ويتخلَّق وتظهر عليه آثارها، فيفصل الأمير هذا في قوله: "كلَّ إنسان مخلوق على الصورة حالة حجابيه وكشفه، وإن لم يكن إنساناً كاملاً بالفعل؛ فهو إنسان بالصَّوْرَة والقوَّة والصَّلاحية؛ صالح لأن يكون كاملاً بالفعل متهيئاً لذلك إذا حفته العناية الربَّانية"⁽¹⁾، "وإذا لم يحرز الإنسان رتبة الكمال فهو يعدّ حيواناً يشبه الإنسان الصَّوْرَة"⁽²⁾، ويزيدنا الأمير إيضاحاً لهذه الصَّوْرَة في قوله "....وقربهم منه تعالى على قدر تحقُّقهم وتحقُّقهم بأسمائه تعالى، والكمال المكمل هو الذي له الظَّهور بجميع الأسماء الإلهية ما عدا الوجوب بالذَّات، وذلك هو مجموع الصَّوْرَة الإلهية التي خُلِقَ آدم عليها، كما ورد أنّ الله خلق آدم على صورته، والمتحقِّق بهذه المرتبة هو الذي يسمَّى الإنسان الكامل"⁽³⁾.

والملاحظ أنّ الكمال الإنسانيّ عند الأمير عبد القادر ظهر في بعدين، بعد سلوكيّ أخلاقيّ، وبعد معرفيّ، فالأوّل يتجسد عندما يكون هذا الكامل متحقِّق متخلِّق بالأسماء والصفات التي هي مركوزة فيه، والبعد الثَّاني يُرى عند الأمير من خلال أن الكامل وجب أن يكون عارفاً بالله والمعرفة هي صفته ودأبه، ولا يكون الإنسان الكامل بأصله الوجودي له أحقية الكمال، إلا إذا كان له هذا الأثر السلوكي المعرفي في الواقع، فيقرر الأمير بأن الكمال هو "الذي تظهر فيه صورة الحق تعالى على الكمال، لأنه مرآة الحق، يرى الحق فيه أسمائه وأوصافه، فالعارف صورة الحق، أعنى صورة العارف الباطنة، فظاهر العارف خلق وباطنه حق، فصورة باطنة هي صورة الحق تعالى لأنه متخلِّق بأخلاقه متحقِّق بأسمائه، فكل من رأيناه تظهر منه أخلاق الحق تعالى وأوصافه وأسمائه عرفنا أنه عارف بالله"⁽⁴⁾.

ونستشف من كلام الأمير أن الكمال من هذه الجهة أرجعه إلى الجانب المعرفي "البعد الأبستمولوجي"، الذي من خلاله يظهر للإنسان كماله، ذلك بمعرفته للحقائق التي انطوى عليها، فاتصافه بالمعرفة يتحقِّق له الكمال، وأجل المعرفة التي حث عليها، هي معرفة الذات الإنسانية التي تقود إلى معرفة الذات الإلهية.

(1) _ الأمير عبد القادر، المواقف، مرجع سابق، ج2، ص 32.

(2) _ المرجع نفسه، ج1، ص 718.

(3) _ المرجع نفسه، ج2، ص 111.

(4) _ المرجع نفسه، ج2، ص 131.

كما أنه أردف هذا الجانب بجانب لصيق ووطيد به، وهو الجانب السلوكي الأخلاقي "البعد الأكسيولوجي الأخلاقي"، الذي يتم فيه الإنسان الكامل بالاتصاف والتحلي والتخلق بما له من باطن خلقتة الوجودية (الصورة الإلهية).

وهذان البعدان مترابطان متلازمان مع بعضهما، فلا ينفك أن يذكر أحدهما إلا ويأتي ذكر الثاني، فلا كامل بلا معرفة ولا عارف بلا أخلاق، فكل واحد منهما يؤدي إلى الأخير في نظرية الكمالية لدى الأمير عبد القادر، على أن هذه الكمالية موجودة في الجميع "البعد الوجودي" إلا أنها لا تبرز ولا تظهر إلا بالبعدين الثاني والثالث "المعرفة والأخلاق (السلوك)".

وأعلى مراتب الكمال التي ظهرت في الوجود على التمام والكمال هو النبي ﷺ الحقيقة المحمدية فيقول الأمير "كان الإنسان الكامل بالأصالة وهو مُجَدِّ صلوات الله عليه (...)", فهو الإنسان الكامل الذي لا أكمل منه، ثم النازلين من الكمل (...) وما بقي من الصورة الإنسانية من غير الكمل في الشكل فهو من جملة الحيوان"⁽¹⁾، وكان النبي أكمل الكمل لأنه وحده الذي اتصف بجميع ما اتصف به الوجود الحق المطلق⁽²⁾، لأنه كان متخلقا بأخلاق ربه متحققا بها⁽³⁾.

ومن أهم ما نخلص به كنتيجة في مطلبنا هذا الذي حاولنا فيه تبيان الحقيقة الكمالية للإنسان عند الأمير عبد القادر.

الكمال لا يكون إلا للذي تحقق بماله من الصفات التي خلقه الله عليها، إذ أن الله خلق النوع البشري بكمال جمع فيه بين الظاهر والباطن، وهي عند أميرنا مجموع الأسماء والصفات الإلهية-الصورة الإلهية- التي هي مركوزة في باطنه، وهذا ما أطلق عليه الأمير (بالتمام)، أي أنه تام الخلقه لا يوجد فيه نقص وهي متساوية لدى كل البشر.

وبهذا يكون الإنسان قد نال الكمال الوجودي بخلقتة التي سواه الله عليها وهي الصورة الإلهية، فالبشر جميعا مشتركون في هذا البعد الكمال الوجودي، لا فرق فيه بين امرأة أو رجل، أو مسلم أو كافر، فهو بهذا البعد يكون إنسان تام كامل الخلقة كونه خُلق على الصورة الإلهية -الأسماء والصفات-

(1) _ الأمير عبد القادر، مرجع سابق، ج 2، ص 560.

(2) _ المرجع نفسه، ج 2، ص 550.

(3) _ المرجع نفسه، ج 1، ص 276.

غير أن الكمال الحقيقي والفعلي عند الأمير عبد القادر فهو كمال استعدادي فعلي يظهر بظهور التخلق والاتصاف بما لك من الصفات الإلهية التي هي الصورة التي خلُق عليها.

ولا يكون هذا الكمال إلا إذا كانت المعرفة وصف لهذا الإنسان التام الذي كان عارفا بنفسه وحقيقته وصورته، وبالتالي عارف بربه، فلا يتجسد الكمال عند الأمير إلا إذا تحقق الإنسان التام بالبعدين المعرفي والسلوكي الأخلاقي.

ويصور الأمير صورة حقيقية للكمال التي تجسدت في أرض الواقع وهي الحقيقة المحمدية شخص الرسول ﷺ الذي وحده اتصف بجميع الأسماء والصفات الإلهية كونه عارف بربه فنال بهذا الأكملية الكبرى.

المطلب الثاني: وظائف الإنسان الكامل عند الأمير عبد القادر:

عرفنا من المبحث السابق ماهية الكمال عند الأمير عبد القادر، فهو الذي أرجعه إلى بعده الوجودي الخلق، من ناحية جمعه على الظاهر والباطن، وأن هذه الحقيقة أصل في الجميع، غير أنها تتخلف في البعض أن لم يدركوا حقيقة ذواتهم، ولقد أنيط بهذا الكامل عند الأمير وظائف وجب القيام بها، ولقد أحصيناها عنده فانتهدت إلى ثلاثة وظائف كبرى.

أولاً: الوظيفة الوجودية:

إن هذه الوظيفة مرتبطة بإعلان الله عن خلق الكائن البشري لأول مرة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ﴾ [البقرة: 30]، وعبر عنها بأنها هي الأمانة التي أبت أن تحملها السماوات والأرض والجبال وحملها هذا الكائن، إذ قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا﴾ [الأحزاب: 72].

ويذهب الأمير عبد القادر في تفسير الأمانة الواردة في الآية بأن المقصود منها الخلافة في قوله "الأمانة هي الخلافة، ومعناها التحقق بجميع الأسماء الإلهية، فهو إله في الصورة الآدمية، من غير حلول ولا اتحاد ولا امتزاج، فأنا برئ من ذلك كله، وعرضها على السماوات والأرض والجبال ليس لحملها

بالفعل لأنها لا استعداد لها لحمل الخلافة، والحمل بغير استعداد محال، وتعالى الحكيم العليم عن ذلك، ولكن يظهر فضل الإنسان وشرفه، حيث أبت السماوات والأرض وأشفت منها لعلمها أن حاملها لا بد من أن يظهر بالأضداد، يوصف بالأنداد، ويشارك الحق تعالى في المملكة، إذ الخليفة ملك صغير، فيكون حامل الأمانة بمعنى الخلافة ربا صغيراً⁽¹⁾.

ولقد نال الإنسان هذه الوظيفة الوجودية -الخلافة- كونه جامع للحقائق كلها وهي صورته ونشأته التي خُلق عليها إذ يرى الأمير "بأن الحكمة الإلهية اقتضت أن تكون الخليفة في الجنس البشري، لأنه جمع في خلقه الحقائق الإلهية والكونية، ولم تكن هذه الخلقة إلا لهذا النوع من الكائنات التي خلقها الله، فالإنسان هو المختص بالصورة الرحمانية، فأدم وبنوه، هم الخلفاء لأن نشأتهم تعلقت بها الأسماء كله، فكان هو الكائن الذي له الميل للجانبين، فجانبه الأول يميل به إلى الصورة الإلهية من حيث الباطن، وجانبه الثاني يميل به إلى الصورة الكونية من حيث الظاهر، ولهذا السبب كان الخليفة الأول آدم ومن ورث الخلافة من أبنائه، يظهر بجميع الأسماء الكونية والإلهية"⁽²⁾.

فيفهم من كلام الأمير أن الخليفة لم يكن له هذا المنصب إلا لما امتلكه من مرتكزات استحق بها هذه الوظيفة التي شرف الإنسان بها، لشرف ما خُلق عليه وهي الصورة الإلهية، التي هي حقيقة الجمع بين الجانبين الظاهر والباطن، أي كانت الخلافة لبني الجنس الإنساني لكونه مخلوق على التمام والكمال - الوجودي- الذي لم يكن لمخلوقات غيره، وبهذا خص دون غيره من المخلوقات بهذه الوظيفة.

غير أن هذه الوظيفة عند الأمير عبد القادر لا تتحقق في بني البشر جميعاً، مع أنهم جميعاً وبدون استثناء مستعدون لها، ومرتبون بها، لكونهم جميعاً خلقوا على التمام والتسوية، والأصل في الجميع خلفاء الله فوق هذه الأرض لما لهم من نشأة تكسبهم إياها، ولكن الخليفة الحقيقي عند الأمير هو الذي تبرز فيه هذه الوظيفة بشكل الصحيح ويؤدي مهامها على أكمل وجه.

وتكون للذي كان متصفا ومتخلقا بالأسماء والصفات الإلهية-مجموع الصورة الآدمية-، ولا يكون الاتصاف بها إلا إذا كانت المعرفة نهجه ودربه، التي بها يكشف عن مكنوناته وحقيقته-الصورة

(1) _ الأمير عبد القادر، الموافق، مرجع سابق، ج1، ص 427.

(2) _ المرجع نفسه، ج1، ص 495.

الإلهية- فيعرف بها ربه فتتحقق بها وظيفته الخلافية، وهذا ما نستشف من كلام الأمير عبد القادر في قوله "الإنسان الكامل الخليفة له الاستعداد للظهور بجميع الأسماء الإلهية على التمام، ذاتية وصفاته، لأنه مخلوق على الصورة"⁽¹⁾، "فالعارف خليفة الله، والخليفة لبد أن يكون ظاهراً بصورة مستخلفه هي أسماؤه وصفاته، فإذا نقص شيء من الصفات، فقد نقص من الخلافة بقدرها...، والظاهر بالصفات والأسماء على الكمال هو الخليفة الكامل"⁽²⁾.

وبالتالي لا يكون الإنسان الكامل خليفة إلا إذا كان ظاهره وباطنه متعلق بالله خاضعاً له متذللاً، ولا يمكن أن تتحقق هذه الوظيفة الخلافية عند الأمير لهذا الإنسان الكامل؛ إلا إذا كان عابداً خاضعاً لربه معلناً له الذل والعجز التام فيقول: "وهذا الغوث الجامع الخليفة الذي جعل الله له التصرف في العوالم كلها أرضية وسماوية، يرى نفسه مثل الشيء الملقى في الحقارة والذلة والعجز"⁽³⁾، "أنت رب للعالم الذي أنت فيه عبد الله"⁽⁴⁾، "والعابد المطلق هو الإنسان الكامل"⁽⁵⁾.

ويذهب الأمير أبعد من هذا بحيث اعتبر الإنسان الكامل الخليفة هو مقصد من مقاصد وجود هذا العالم كله، فالخلافة هي جوهر الإنسان في هذه الدنيا ولا تتحقق له إلا إذا كان عابداً لله، والعبادة فهي المقصد الأساسي الذي يقوم عليه الوجود كله ونلمس هذا في قول الأمير "وما من خلق إلا وتعلق منه وجود الإنسان الذي هو الخليفة في العالم، وأما المقصد الأول فمعرفة الله وعبادته التي خلق لها العالم ففهم"⁽⁶⁾.

- فبالبعد الوجودي للإنسان الكامل استحق وظيفة الخلافة على هذا العالم، فالخلافة استحق حملها من طرف الإنسان لما هو من خلقة هو منشأ عليها، وبما أن الاستعداد للكمال كلي في الجميع فكذلك الخلافة فهي حق وواجب في الجميع، بيد أن كلما نقص الإنسان من استعداداته بالظهور بالأسماء والصفات التي خلق عليها ينقص معها أداء هذه الوظيفة الخلافية على أكمل وجه، وليس

(1) _ الأمير عبد القادر، المواقف، مرجع سابق، ج 1، ص 569.

(2) _ المرجع نفسه، ج 1، ص 133.

(3) _ المرجع نفسه، ج 1، ص 433.

(4) _ المرجع نفسه، ج 1، ص 385.

(5) _ المرجع نفسه، ج 1، ص 136.

(6) _ المرجع نفسه، ج 1، ص 553.

المقصود بالخلافة هنا تولي شؤون الناس والقيام على مصالحهم أو تولي الحكم والسيادة والسيطرة وقيادة الناس، بل هي أبعد من ذلك فهي تصرفات الإنسان وسلوكياته وحركاته بصفة عامة، وهذا ما تم استنتاجه واستخلاصه عندما استقصينا تعريف الإنسان عند الأمير عبد القادر، ووضحناه في المبحث الأول، عندما عرف الأمير الإنسان بوظيفته، فيفهم من أقوال الأمير بأن الخلافة للجميع "...آدم وبنوه الخلفاء فنشأتهم تقتضي تعلق الأسماء كلها..."، فلهذا كان الخليفة الأول آدم ومن ورث الخلافة من بنيه يظهر بجميع الأسماء الإلهية والكونية"⁽¹⁾، والملاحظ أن آدم عليه السلام لما استخلف الأرض لم يكن عليها أحد قبله من بني جنسه، فهذا يدل على أن الخلافة عند أميرنا المقصود بما هو البعد السلوكي الاجتماعي لهذا الكائن من خلال حركاته وتصرفاته وتسير شؤونه، وشؤون من حوله، وتسخير هذا الكون لصالحه ولخدمته، وأعمار هذه الأرض من خلال أداء هذه الوظيفة، وتدل أقوال الأمير بأن الخلافة وظيفة لم يخص بها جماعة أو شخص واحد، بل هي حق وواجب لبني آدم جميعا "آدم وبنوه الخلفاء"، غير أن هذه الوظيفة سيكون أدائها بالشكل الصحيح من طرف الإنسان الكامل الذي برز منه الاستعداد الكلي للظهور بالأسماء والصفات "فالإنسان الكامل الخليفة له الاستعداد لظهور بجميع الأسماء الإلهية..."⁽²⁾.

ويمكن أن نستنتج في الأخير أن وظيفة الخلافة عند الأمير عبد القادر لهذا الإنسان الكامل، هي في الأصل ذو بعد وجودي نال شرفها بخلقته ومكنوناته التي انطوى عليها، كما أن هذه الوظيفة الخلافة للإنسان الكامل لها أثر سلوكي اجتماعي يبرز من خلالها حركات هذا الكامل الخليفة وصنعه في هذه الأرض مع بنيه.

ثانيا: الوظيفة المعرفية:

الكمال الإنساني عند الأمير عبد القادر مرتبط بالعلم والمعرفة، فلا كامل إلا إذا كان عارفا، فكلما نقصت هذه الخاصية المعرفية في الإنسان نقص بقدرها الكمال، إذ لا يمكن للإنسان أن يدرك حقيقته ولا حقيقة وظائفه إلا إذا قام بالوظيفة المعرفية التي تميزه عن سائر المخلوقات، فيها نال التمييز والشرف والكمال.

⁽¹⁾ _ الأمير عبد القادر، المواقف، مرجع سابق، ج1، ص 495.

⁽²⁾ _ المرجع نفسه، ج1، ص 569.

فيقول الأمير "وإنما شرف الإنسان وخاصية التي يتميز بها عن جميع الموجودات هي العلم، وبها كماله، إذ كمال الشيء إنما يكون بظهور خاصيته التي امتاز بها عن غيره، ونقصانه هو خفاء تلك الخاصية، فبقدر ظهور تلك الخاصية يطلق عليه اسم الكامل، وبحسب سترها فيه يخص باسم الناقص"⁽¹⁾.

فهذه الحركة المعرفية يمكن للإنسان أن يدرك حقائق الأشياء، فالكمال عند الأمير يتحقق بهذه الخاصة المعرفية التي إن تركت من قبل الإنسان قبح وعُري من فضيلته، ونلمسها في قول الأمير "وخاصية الإنسان معرفة الحقائق على الوجه الذي هي عليه، بحيث يرتفع عن بصيرته حجاب الشك، ويتيقن حقائقها منكشفة له، وبكمال هذه الخاصية ونقصانها، يفضل بعض أفراد الإنسان بعضا إلى أن يعد واحد بالألف، ولا شيء أقبح من الإنسان، مع ما فضله الله به من القدرة على تحصيل الكمال بالعلم، أن يهمل نفسه، ويعريها من هذه الفضيلة"⁽²⁾.

فالكامل عند الأمير هو ذلك الذي أبرز هذه الخاصية التي هي في الأصل خلقته التي خلقه الله عليها، ووهبه الله الملكات التي تؤهله لبلوغها، فشرف الإنسان عند أميرنا ليس مرتبط بالجسم ولا بشكل ولا بجمال الصورة، وإنما هو مرتبط بالعلم فيقول الأمير عبد القادر "إذ الإنسان ما حصل له الشرف على جميع المخلوقات، بحسن شكله وصورته، فإن الصورة في الحائط أو الروق مثله، ولا بكبر جسمه، فإن الفيل أكبر منه، ولا بشجاعته فإن الأسد أشجع منه، ولا بكثرة نكاحه فإن أخس العصافير أكثر فصاذاً منه، فما كان له الشرف إلا بإنسانيته وهي قلبه:

عليك بالنفس فاستكمل فضائلها فأنْتَ بالقلب لا بالجسم إنسان

ولذا قال عليه السلام "وإنما ينظر لقلوبكم" لأنها هي محل الإنسان الحقيقي، وهي محل تجلي الحق تعالى وهي التي وسعته بالعلم والمعرفة والظهور بالأسماء والصفات⁽³⁾، وبالتالي لا يتحقق للإنسان كماله الذي هو مركز فيه، إلا إذا تفتن إلى العلم والمعرفة التي أعطي له مفاتيح حيازتها.

وبالتمعن في أقوال الأمير نجد قدم المعرفة على الظهور بالأسماء، إذ أن الإنسان الكامل عند الأمير هو ذلك الذي تحقق وتخلق بالأسماء والصفات التي هي أصل الصورة الإنسانية التي حُلق عليها،

(1) _ الأمير عبد القادر، ذكرى العاقل وتنبية الغافل، ت. عمار طالبي، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2005م، ص 19.

(2) _ الأمير عبد القادر، المواقف، مرجع سابق، ص 20.

(3) _ المرجع نفسه، ج 1، ص 218.

وكلما ظهر فيه هذا التحقق يسمى إنساناً كاملاً، غير أننا نجد الأمير عبد القادر في مقولاته يقدم المعرفة على الظهور بالأسماء، أي أنه لا يمكن للإنسان أن يتصف بهذه الصفات إلا إذا علم حقيقة الأمور، وأحاط بمعرفة (النفس والحق والعالم)، لكي يتمكن الإنسان من التخلق والتحقق بهذه الأسماء، ومن كان الجهل وصفه فهل يتصف بشيء يجمله؟

وعند أميرنا كل إنسان قابل لهذه الحركة المعرفية بدون استثناء أو تمييز، فيمكن لهذا الإنسان أن يكتشف كل ما يدور بداخله وخارجه، إذ أن المعرفة مركوزة ومفطورة في هذا المخلوق البشري ونلمس هذا في قول الأمير "العلوم كلها مركوزة في حقيقته تظهر أنا بعد أن بإرادته تعالى، لأن الحقيقة الإنسانية موجودة في الجميع" (1).

والمأمل في مقولات الأمير يجد بأن هذه الوظيفة المعرفية لصيقة بالوظيفة الوجودية، التي قرر فيها الأمير عبد القادر بأنها هي الوظيفة الأولى للإنسان ألا وهي الخلافة، إذ أننا نجد الأمير يربط في كثير من مواقفه بين المعرفة والخلافة، (بين الخليفة والعارف)، إذ لا خليفة إلا إذا كان عارفاً، والعارف هو الخليفة، ويذهب الأمير بأن الصورة الإنسانية التي خلقت عليها البشرية لا تتجسد في الحقيقة، إلا للعارف بالله تعالى فيقول في هذا الصدد "إن الله خلق آدم على صورته(*)"، "فالعارف خليفة الله، والخليفة لبد أن يكون ظاهراً بصورة مستخلفه، هي أسماؤه وصفاته، وإذا نقصه شيء من الصفات فقد نقصه من الخلافة بقدرها والعارفون متفاوتون في هذا" (2).

فهذه الوظيفة المعرفية تبرز الصورة الحقيقية التي خلق عليها الإنسان، "فالعارف الكامل هو الذي تظهر فيه صورة الحق تعالى على الكمال، لأنه مرآة الحق، يرى الحق فيه أسماء وصفاته، فالعارف صورة الحق، أعني صورة العارف الباطنة، فظاهر العارف خلق وباطنه حق، فصورة باطنه هي صورة الحق تعالى، لأنه متخلق بأخلاقه متحقق بأسمائه، فكل من رأيناه تظهر منه أخلاق الحق تعالى، وأوصافه وأسمائه، عرفنا أنه عارف بالله، وأن المعرفة وصفه" (3).

(1) _ الأمير عبد القادر، المواقف، مرجع سابق، ج 1، ص 237.

(*) - حديث "إن الله خلق آدم على صورته" ثم تخريجه سابقاً.

(2) _ المرجع نفسه، ج 1، ص 124.

(3) _ المرجع نفسه، ج 1، ص 123.

فالصورة التي خلق عليها الإنسان عند الأمير تقتضي من هذا الكائن المخلوق إبراز الوظيفة الأولى الوجودية الخلافية، التي نال شرفها لشرف الصورة المخلوق عليها، ولا تظهر هذه الصورة ولا تبرز في الواقع بالشكل الصحيح إلا بالوظيفة المعرفية التي ينال بها الكمال الإنساني، فيتحقق بها التمثل بالصورة والتحقق بالأسماء والصفات، فيحقق أن يطلق عليه العارف الخليفة.

ولا يستوى عند أميرنا بين من يعلم ومن لا يعلم، ولا شيء يستزاد فيه ولا يطلب فيه الزيادة إلا في العلم "اعلم أن الرسول ﷺ ملكه الله تعالى كل فضيلة وزينة بكل خصيلة جميلة، وما أمره بطلب الزيادة في شيء إلا في العلم لعظم شرفه"⁽¹⁾، فلا نور إلى العلم بالله تعالى ولا حياة إلا به، ولا موت ولا ظلمة إلا الجهل بالله تعالى، وبالتالي العلم عند الأمير هو ذلك الذي يزيد الإنسان معرفة واتصالا بالحق، فالعلم الحقيقي هو العلم بالله فهو من أجل النعم على الإنسان⁽²⁾.

ويمكن أن نستخلص في الأخير بأن الكمال الإنساني عند الأمير مرتبط بالوظيفة المعرفية، فلا كمال ولا وظائف تؤدي وتنجز إلا بها، ومنه يمكن أن نقول بأن هذه الوظيفة المعرفية ذو بعد وجودي مرتبط بحركة العلم والمعرفة، فبهذه الحركة يبرز وجود الإنسان الحقيقي-الكامل المخلوق على الصورة- فتظهر منه حركته الوجودية الأولى الاستخلافية في الواقع وتتجسد بالفعل، فبقدر ظهور الوظيفة المعرفية من الإنسان تظهر فيه بقية الوظائف وعلى رأسها الوظيفة الوجودية.

وللوظيفة المعرفية أثر سلوكي أخلاقي شمل في التحقق والتخلف بالأسماء والصفات، فبقدر بروز المعرفة من هذا الكامل يبرز فيه التحقق والتخلق وهي الوظيفة الثالثة المعبر عنها بالوظيفة الأخلاقية السلوكية.

ثالثا: الوظيفة الأخلاقية السلوكية:

تعد قضية الأخلاق من أهم المباحث التي يعالجها التصوف، بل وعالجتها الفلسفة قديماً وحديثاً، بل ويمكن الجزم بأن الأخلاق عند الصوفية هي نقطة الانطلاق ونقطة الوصول، بحيث منها ينطلق المرید القاصد السير في الطريق، فيتحلى ويتبع ويسلك الأخلاق ويتحقق بها ويتخلق، ليرفع بها الحجب

(1) _ الأمير عبد القادر، المواقف، مرجع سابق، ج 1، ص 297.

(2) _ المرجع نفسه، ج 1، ص 129.

ويُقذف له النور فتكشف له المعرفة، التي بها يكون سلوكه، فيتحقق ويتخلق بالأسماء والصفات، وهذا ما نلمحه عند متصوفنا الأمير عبد القادر الجزائري.

فالكمال عنده مرتبط بالتحقق والتخلق بمجموع الأسماء والصفات الإلهية، التي هي باطن الإنسان، وهي مجموع الصورة الآدمية، أي أصل الخلقة، فهي تمثل جانبا من جوانب الخلقة لدى الإنسان، فالكمال عند أميرنا مرتبط بهذا الجانب الأخلاقي السلوكي، فلا كمال عنده إلا إذا برز من هذا الإنسان الوظيفة السلوكية الأخلاقية، فنجد كلها ذكر الكمال ذكر معه التحقق والتخلق بالأسماء والصفات كقوله "فالعارف خليفة الله، والخليفة لابد أن يكون ظاهراً بصورة مستخلفه، هي أسماءه وصفاته، وإذا نقصه شيء من الصفات، فقد نقصه من الخلافة بقدرها، والعارفون متفاوتون في هذا، والظاهر بالأسماء والصفات على الكمال هو الخليفة الكامل"⁽¹⁾.

فيربط الأمير الكمال دائما بالتحقق والتخلق، فلا خليفة إلا إذا كان متحققا، ولا عارف إلا إذا كان متخلقا، ولا كامل إلا بهذه الوظيفة، إذا الأخلاق والسلوك طريق يوصل إلى الكمال الإنساني.

ويبرز الأمير في غير موطن بأن هذا التحقق والتخلق، إنما هو الأصل إبراز للصورة الإنسانية، التي خلق عليها وهي باطنه "فالعارف الكامل هو الذي تظهر فيه صورة الحق تعالى على الكمال، لأنه مرآة الحق، يرى الحق فيه أسماءه وأوصافه، فالعارف صورة الحق، أعني صورة العارف الباطنة، فظاهر العارف خلف وبطنه حق، فصورة باطنه هي صورة الحق، لأنه متخلق بأخلاقه متحقق بأسمائه، فكل من رأيناه تظهر منه أخلاق الحق وأوصافه وأسمائه، عرفنا بأنه عارف بالله..."⁽²⁾.

فالوظيفة الأخلاقية السلوكية عند الأمير مدارها إبراز للصورة الآدمية، التي خلق عليها هذا الكائن، فيها يجسد الإنسان أعلى مراتب الحقيقة الإنسانية التي يلحق بها إلى الكمال البشري.

فبهذه الوظيفة الأخلاقية السلوكية يسعى الإنسان لبلوغ أعلى دورة من الأخلاق الإلهية، التي بها يحقق الكمال الذي به تتم بقية الوظائف، ويقطع بها السالك مسافات للوصول إلى الله، ويكون الانطلاق في هذه الوظيفة عند أميرنا بالتطهر من كل ذميمة والتحلي بكل فضيلة، وهذا ما نلمسه عندما يتحدث

⁽¹⁾ _ الأمير عبد القادر، المواقف، مرجع سابق، ج 1، ص 124.

⁽²⁾ _ المرجع نفسه، ج 1، ص 123.

عن الجهاد الأكبر ألا وهو جهاد النفس "الجهاد الأكبر هو جهاد النفس بالتزكية والتخلية والتحلية....، وتبديل أحوال ذميمة بأخلاق جميلة، وجهاد النفس وتركيتها فلاحها ومعرفة ربها....، والعبادة فرع من المعرفة" (1).

فالتزكية "هي تصفية النفس حتى يزول شرها وجموحها من الصفات الذميمة، والأخلاق اللثيمة، وهو المسمى بالمجاهدة والرياضة، فالمجاهدة بالأفعال الظاهرة، والرياضة بالأمور الباطنة، أي ارتياض النفس، وتركها لصفات البهيمة المردولة شرعاً وطبعاً، وهي التي سماها صاحب إحياء علوم الدين بالمهلكات....، وليس المراد إعدام هذه الصفات بالكلية بحيث لا يبقى لها أثر فإنه محال، إذ حقيقة الإنسان معجونة من هذه الصفات....، وإنما المراد تحلية النفس وتزيتها وتبيضها بمكارم الأخلاق" (2).

وسير الإنسان في هذه الوظيفة الأخلاقية السلوكية، إنما هو سير معنوي في معارج النفوس "لأنه ليس هناك شيء محسوس يسير فيه السالك حتى يقطعه، إنما هو سير معنوي في مجالات معنوية، وهي النفوس التيكون سير السالك فيها، وقطعها كناية عن تبديل صفاتها البهيمة بالصفات الإلهية" (3).

ولهذا إن هدف الوظيفة الأخلاقية السلوكية عند أميرنا، إنما هو من أجل معرفة الله وادخال النفس تحت الأوامر الإلهية، وكمال هذه الوظيفة يكون بالاتباع والالتزام بالشرع (4).

ويمكن أن نستنتج بأن هذه الوظيفة الأخلاقية السلوكية البارزة من هذا الإنسان الكامل، هي الأخرى ذو بعد وجودي عند الأمير، فمرد الأخلاق إلى الصورة الأدمية، فالإنسان هو الذي جمع بين الظاهر والباطن، بين الحق والخلق، فبهذه الوظيفة يبرز الإنسان الجانب الباطني الذي هو من مكنوناته فيقول الأمير "... بالرياضة النفسانية والمجاهدات الجسمانية، وهذه هي التزكية والطهارة، حيث الإنسان مجموع من خير وشر، صفات بهيمة، وصفات ملكية قدسية، فإذا غلبت صفات الجسم الطبيعي لحق بالبهايم بل وبالشياطين، وإذا غلبت صفات الروح لحق بالملائكة الأعلى عالم القدس والطهارة، بل الإنسان الكامل له اللحاق بخالقه تعالى فإنه مخلوق على الصورة الإلهية، وهي باطنة فيه، فله التخلق والتحقيق

(1) _ الأمير عبد القادر، المواقف، مرجع سابق، ج1، ص 209-2011.

(2) _ المرجع نفسه، ج، ص 259-261.

(3) _ المرجع نفسه، ج1، ص 135.

(4) _ المرجع نفسه، ج1، ص 191.

بالأسماء الإلهية كلها" (1).

ولهذه الوظيفة الأخلاقية أثر سلوكي واقعي، يتمثل ويلمس من خلال تلك الحركة الاستخلاقية الناجمة عن الإنسان الكامل، ونستشفها من قول الأمير: "والظاهر بالأسماء والصفات على الكمال هو الخليفة الكامل" (2)، كما أنه يلمس هذا الأثر السلوكي أيضا من خلال الحركة المعرفية وهذا ما يفهم من قول الأمير "فكل من رأيناه تظهر منه أخلاق الحق وأوصافه وأسماءه، عرفنا بأنه عارف بالله...". (3).

وفي آخر هذا المطلب يمكن أن نقف على أهم النتائج التالية:

الإنسان الكامل عند الأمير عبد القادر، إنما هو ذلك الإنسان المؤدي لوظائفه الدؤوب على العبادة وشرفه بها، فمنها المنطلق وبها الوصول، ومدار هذه الوظائف على ثلاثة: وظيفة وجودية، وظيفة معرفية ووظيفة أخلاقية.

وظائف الكامل عند أميرنا منبعها وجودي محض، مرتبط بخلقه الإنسان فبعد هذه الوظائف أنطولوجي لصيق بأصل النشأة الأولى، إذ الوظيفة الخلافية نال شرفها لأصل الخلق والصورة الآدمية التي هي مجموع الأسماء والصفات الإلهية، وأما الوظيفة المعرفية فحزها بماله من مكونات بثت في هذا الكائن، والوظيفة الأخلاقية إنما هي أيضا إبراز لجانب من جوانب الحلقة الإنسانية.

تتكامل هذه الوظائف عند الأمير كي تشكل في الأخير كمالية إنسانية، يبرز أثارها في الواقع السلوكي للإنسان، إذ كلما نقص من هذا الإنسان أحد من هذه الوظائف، إلا ونقصت بالضرورة معها الوظائف الأخرى، وهكذا في سلسلة مترابطة تشد الواحدة الأخرى لكي تكون حلقة أصيلة يلمح معها جوهر الإنسان الحقيقي، فبظهور الوظيفة المعرفية التبيها يعرف الإنسان نفسه وربّه وعالمه فيعطي لكل ذي حق حقه، ولا تبرز هذه الأخيرة إلا إذا ارتقى في سلم التحقق والتخلق بأصل الصورة الآدمية من خلال إبراز الوظيفة الأخلاقية السلوكية، فإذا ما ظهر من الإنسان هاتين الوظيفتين، إلا وحق عليه أن يؤدي الوظيفة الوجودية الإستخلاقية على أكمل وجه، فلا كمال إلا بظهور هذه الوظائف فإذا ما نقصت نقص بقدرها الكمال، فالكامل هو العارف الخليفة المتحقق بالأسماء والصفات.

(1) _ الأمير عبد القادر، المواقف، مرجع سابق، ج2، ص 931.

(2) _ المرجع نفسه، ج1، ص 124.

(3) _ المرجع نفسه، ج1، ص 123.

المطلب الثالث: الحقيقة الحمديدية عند الأمير عبد القادر:

عندما نتكلم عن الكمال الإنساني عند الصوفية فإنه يبرز لك مصطلح الحقيقة الحمديدية، إذ ترى الصوفية بأنه أكمل الكمل، ولا أكمل غير الحقيقة الحمديدية من بني البشر، وإذا ما تعمقنا في المصطلح، فإننا نجد أن الحقيقة الحمديدية عند الصوفية أجمع بأنها مرتبة من مراتب الخلق الإلهي التي فاض منها الخلق كله، ومن المعلوم أن مصطلح الإنسان الكامل والحقيقة الحمديدية تبلور كنظرية قائمة بذاتها عند الصوفية كانت مع لشيخ الأكبر محي الدين ابن عربي (وهذا ما تم تبينه في المطلب الأول من هذا الفصل)، ومن جاء بعده من الصوفية عبارة عن عالة على فكره ونظريته، ولم تكن الإضافة إلا شروطاً أو زيادة في إيضاح المعنى ومن ذلك كتاب عبد الكريم الجيلي الإنسان "الكامل في معرفة الأواخر والأوائل"، وهذا ما نجده أيضاً عند صوفينا الأمير عبد القادر الجزائري الذي تأثر بالمشرب الصوفي للشيخ الأكبر محي الدين ابن عربي، فسنحاول في هذا المطلب إبراز وجهة نظر الأمير عبد القادر للحقيقة الحمديدية معتمدين في ذلك على أقواله التي بثها في كتابه المواقف.

أول ما نقف عنده في تبين الحقيقة الحمديدية عند الأمير، فإننا نقسم أقواله في الحقيقة الحمديدية إلى قسمين، فنجد الأمير في القسم الأول يضرب بالحقيقة الحمديدية ويرمي بها إلى التعيين الأول الذي فاض منه الخلق كله.

أما القسم الثاني فيضرب به الأمير ويرمي به على الإنسان الكامل ذلك الذي تمتل في شخص الرسول صلى الله عليه وسلم الذي تمثلت فيه الأكملية الكبرى من جهة الخلق البشري.

أولاً: الحقيقة الحمديدية في المخيال الصوفي عند الأمير عبد القادر:

فإذا ما وقفنا وألقينا لمحة عن القسم الأول من الحقيقة الحمديدية لدى الأمير، فإننا نستشف من أقواله بأنها مرتبة من مراتب الخلق التي فاض عنها الخلق كله فيقول الأمير "...هو أمر ربي الصادر بلا واسطة مادة (...)", اعلم أن الله تعالى لما توجه لخلق العالم، خلق روحاً سماه حضرة الجمع والوجود، لكونه جامعاً لحقائق الوجود وسماه بالحقيقة الحمديدية (...), وما زال الحق تعالى يخلق الموجودات من الحقيقة الحمديدية علوية وسفلية، لطيفة وكثيفة، بسيطة ومركبة، وكلما خلق صورة قبضها إلى صورتها الأولى حتى انتهى الأمر إلى الإنسان فخلقه منها ولم يقبها"⁽¹⁾.

(1) _ الأمير عبد القادر، المواقف، مرجع سابق، ج3، ص 1100 / للزيادة في التعمق في هذه النقطة ارجع إلى الموقف 248، فقد شرح فيه الأمير كل ما يتعلق بنظرية وحدة الوجود والحقيقة الحمديدية ومراتب الخلق.

ويضرب الأمير عبد القادر مثالا عن هذه المرتبة التي فاض منها الخلق بالمرآة، التي تجلى فيها الحق بمجموع أسمائه وصفاته، فهي مجموع صفاته لا عين ذاته فانطبعت تلك الصورة الإلهية في ذلك النور كانطباع الصورة في المرآة⁽¹⁾.

فيفهم من كلام الأمير أن الله لما أراد أن يخلق العالم جعل صورة كلية له جمع فيها أسمائه وصفاته، وكان هذا في علمه الإلهي وقبل الخلق، ولا ينفي الأمير أن يكون خلق هذه الصورة أو انبثاقها عن طريق كن فيكون وهذه الصورة هي أمره الذي هو صورة علمه، الذي يحتوي على جميع المعلومات إجمالا وتفصيلا من عالم الأرواح، وعالم المثال، وعالم الأجسام، ودنيا وبرزخا، وجوهرا وأعراض⁽²⁾.

فكانت الصورة المسماة بحضرة الجمع والوجود، أو التي يطلق عليها الحقيقة الحمديدية التي شملت على كل الأسماء والصفات الإلهية، والتي كان منها الخلق كله وأثار من أسمائها وصفاتها جميع المخلوقات، على أنه كلما اتجه لشيء لخلقه على هذه الصورة إلى وكان له في هذا المخلوق اسما ظاهرا فيها دون جميع الأسماء والصفات، حتى ما وصل إلى الإنسان فقد خلقه على هذه الصورة والحقيقة (الجمع والوجود) التي جمعت بين طياتها جميع هذه الأسماء والصفات التي وجدت في التعيين الأول لهذه الحقيقة الحمديدية⁽³⁾.

ونجد الأمير عبد القادر يخصصي للحقيقة الحمديدية أكثر من أربعين اسما من وجوده تسمياتها، ولقد أعطى تفسيراً لكل اسم متى يطلق وعلى ماذا يطلق وما المقصود منه ومن تلك التسميات: التعيين الأول، القلم الأعلى، أمر الله، العقل الأول، سدرة المنتهى، الحد الفاصل، مرتبة صورة الحق، القلب، أم الكتاب، الكتاب المسطور، روح القدس، الروح الأعظم، حقيقة الحقائق، مرآة الحق،⁽⁴⁾.

وفي هذا القسم من الحقيقة الحمديدية نرى أن أميرنا كانت نظرتة فيها موافقة لمشربه الصوفي الأكبري، ومتابعة لشيخه محي الدين ابن عربي، الذي قعد لهذه النظرية، في كتبه، وتقول سعاد الحكيم في معجمها الصوفي: "أن للحقيقة الحمديدية التي هي أو التعينات عدة وظائف ينسبها إليها الشيخ الأكبر، فمن ناحية صلتها بالعالم: الحقيقة الحمديدية هي مبدأ خلق العالم وأصله من حيث أنها النور الذي

(1) _ الأمير عبد القادر، المواقف، مرجع سابق، ج1، ص 250.

(2) _ المرجع نفسه، ج1، ص 169، ص 211، ص 359.

(3) _ المرجع نفسه، ج3، ص 1100.

(4) _ المرجع نفسه، ج1، ص 1101-1102.

خلقه الله قبل كل شيء وخلق منه كل شيء، وهي أول مرحلة من مراحل التنزل الإلهي في صورة الوجود وهي من هذه الناحية صورة حقيقة الحقائق⁽¹⁾.

وهذه النظرة إلى الحقيقة المحمدية نجدها في المخيال الصوفي عند العرفاء حتى قبل ابن عربي، الذين نظروا إلى الحقيقة المحمدية على هذا المرمى⁽²⁾، سواء أكانوا متقدمين أو متأخرين عنه، غير أن هذا الأخير يعتبر هو الذي قعد ونظر لها في كتبه بشكل واضح وصريح وأطلق عليها مصطلحات ومراتب⁽³⁾.

والمأمل في كتاب المواقف للأمير عبد القادر الجزائري يجد هذه النظرة واضحة وبارزة في مقولاته التي سار فيها مسيرة شيخه الروحي ابن عربي، بحيث نجده يشرح ويفسر كثيراً من أقوال ابن عربي في وحدة الوجود، ومع هذا فإننا نلمس بعض الجدة والتغيير عند الأمير عبد القادر في هذه النظرية، خاصة في ضرب الأمثال التي يُسّط بها الفهم والايضاح، لكي يصور حقيقة مقصده ثم تجد الأمير يذكر أنه بعيد عن الاتحاد أو الحلول الذي ارتبط بهذه المفاهيم سواء الحقيقة المحمدية أو وحدة الوجود أو غيرها من المفاهيم الصوفية.

وهكذا كان استطلاعنا في الحقيقة المحمدية بإيجاز من ناحية القسم الأول عند الأمير الذي قصد بها مرتبة من مراتب الوجود، غير أننا نجد الأمير في كثير من مواقفه التي بثها في كتابه، يرمز بها إلى الإنسان الكامل الذي تجلت فيه الأكملية الكبرى من ناحية الاتصاف بالأسماء والصفات الإلهية من الخلقة البشرية، وهذا هو القسم الثاني الذي نلمسه من أقوال الأمير عن الحقيقة المحمدية التي يرمي بها إلى شخص الرسول الذي نال بها أعلى مراتب الكمال البشري لصفات تحقق فيه، وهذا هو مقصد بحثنا في هذا المطلب.

(1) _سعاد الحكيم، مرجع سابق، ص 348/ أنظر: الفتوحات المكية لابن عربي، ج 1، ص ص 118-119.

(2) _لطف الله بن عبد العظيم خوجة، مرجع سابق، ص 173 وما بعدها

(3) _للتعمق أنظر الفتوحات الملكية ابن عربي الباب 198 من الفصل 11 إلى غاية الفصل 38 وكذلك الأبواب 167/65/62/63/64/60/59/15/14/10/12/11/13/9/8/7/6/4.

ثانياً- الحقيقة المحمدية هي أكمل مظاهر الإنسان الكامل عند الأمير عبد القادر (الاقتداء، الاهتداء) (بالحقيقة المحمدية).

الحقيقة المحمدية عند الأمير لها اعتباران- تصور مخيالي صوفي وتجسد حقيقي-أو قل إن شئت- قلب وصورة، فاعتبارها الأول هي تصور مخيالي صوفي على أنها مرتبة من مراتب الخلق التي أوجدها الله، ومنها خلق الوجود كله علوية وسلفية، فهي كالقلب الذي جمع في طياته صياغة العالم كله، ثم خلق هذا العالم على أساس هذا القلب، فكل شيء في الوجود إنما هو شكل أو صورة لما في هذا القلب من صياغة، دون ظهور صورة كاملة لذلك القلب بكل محتواه وصغته، ولما خلق الله الإنسان خلقه على صورة هذا القلب بكل صياغته التي احتواها، فظهر القلب في الصورة الإنسانية التي خلق عليها آدم وبنوه (الخلقة البشرية)، وهذا هو الاعتبار الثاني التجسد الحقيقي لهذا القلب في الصورة البشرية فكان أكمل خلق لهذا القلب هو الإنسان لما جمع في خلقته بين (الأسماء والصفات) الإلهية والكونية التي تفرقت في العالم فجُمعت في هذا الكائن.

فالحقيقة المحمدية في المخيال الصوفي عند الأمير هي مرتبة حضره جمع الوجود (حقيقة الحقائق)، ومن ناحية التجسد الحقيقي لهذه الصورة ظهرت في الحقيقة المحمدية شخص الرسول ﷺ الذي به الاقتداء والاهتداء، ومن هنا تبدأ مرحلة الكمال الإنسانية، التي أعطيت وأهل لها الإنسان لما له من استعدادات للظهور بها لأنه خلق على الصورة الإلهية (التي هي مجموع الأسماء والصفات)، التي وجدت في القلب الأول للخلق مع فارق بين الخالق والمخلوق، لأن الخالق في حد الأمير لا صورة له ليتجسد أو يظهر فيها، لأن ما جمع في الإنسان من هذه الأسماء والصفات من ناحية الخلق لا من الناحية الإلهية لأن الله في نظر الأمير لا مثل له ولا نظير ولا شبه ولا اتحاد ولا حلول⁽¹⁾.

والاعتبار الثاني للحقيقة المحمدية عند الأمير عبد القادر الذي قرر فيها بأنها أكمل صورة ظهرت فيها الأسماء والصفات على الكمال، هو شخص الرسول ﷺ بحيث يرى الأمير بعد تفصيله لمراتب الخلق بأن الإنسان هو المرتبة الأخيرة في الخلق التي برزت فيها صورة القلب على الكمال على أنه لا أكمل غير الحقيقة المحمدية فيقول "مرتبة الإنسان الكامل آدم عليه السلام، ومن ورث مرتبته من أولاده لكونه عليه

(1) _ للتعقق في هذا الصدد ارجع إلى الأمير عبد القادر، المواقف، مرجع سابق، ج2، ص ص 640 - 641، ص ص 515-511/ ج3، ص ص 1150 - 1151 - 1157.

السلام أول موجود من هذا الجنس، وإلا فالإنسان الكامل هو مُحَمَّد ﷺ⁽¹⁾، ويرجع ذلك كون النبي جمع الكل (الأسماء الإلهية) على غاية التمام والكمال والاعتدال فهو الإنسان الكامل على الحقيقة⁽²⁾.

ويذهب الأمير بأن هذه الحقيقة هي أكمل من ظهرت فيها حضرة الجمع والوجود على أنه كل إنسان قابل لبروز الكمال فيه فيقول: "... وسماه بالحقيقة المحمدية، لكونه أكمل مظاهر حضرة الجمع والوجود وهو الهيكل المحمدي، فهي وإن كانت لها مظاهر كثيرة فإنها بعينها بهذا الاسم، لكون مُحَمَّد أكمل مظاهرها، على أنه ما في الجنس الإنساني أحد إلا وهو مظهر لهذه الحقيقة، فكل إنسان يكون فيه ظهورها وبطونها على قدر كماله ونقصانه، ولا بد من ظهورها في كل إنسان كامل، واختص مُحَمَّد صلوات الله عليه بالأكمالية الكبرى التي ليس لأحد إليها سبيل⁽³⁾.

وكمال النبي عند الأمير لأنه متخلق بأخلاق خالقه، عارف لحقيقته وعارف بربه، فكماله من كمال عبوديته وقيامه بوظيفته "فكماله عليه السلام بالعلم الذي ما ناله مخلوق غيره، أحب أن يعطي لكل موطن حقه، ويتظاهر فيه مما يقتضيه، فالكمال والشرف في هذه الدار إنما هو الدؤوب على القيام بوظائف العبودية"⁽⁴⁾.

وتستطيع أن تفهم من خلال هذا الاستقراء أنّ الحقيقة المحمدية بهذا الاعتبار عند الأمير تتمثل في صورة إنسان بشر مخلوق كسائر المخلوقات والذي فرق عنهم كماله ﷺ، كمال اتّصافه، وتمايم قيامه بعبوديته لخالقه، فهو عند الأمير أعلى من تحققت فيه مراتب الاتّصاف بالأسماء والصفات، فنال بها البرزخية الكبرى، أي أنه أعطى لكل ذي حق حقه من الأسماء الإلهية التي هو عليها، فكان المثل الأعلى والأكمل للاعتدال بين الجانبين (الحضرة الإلهية والحضرة الكونية) (الحق والخلق) (الروح والجسد)، فأدى وظائف الحق والخلق دون إفراط ولا تفريط.

ورمى الأمير إلى هذه الحقيقة - الكمالية المحمدية - من أول موقف استفتح به كتابه المواقف الذي شرح فيه الآية قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ

(1) _ الأمير عبد القادر، المواقف، مرجع سابق، ج3، ص 1146.

(2) _ المرجع نفسه، ج3، ص 1146.

(3) _ المرجع نفسه، ج3، ص 1171 / ج2، ص 519، ج3، ص 1159.

(4) _ الأمير عبد القادر، المواقف، ج1، ص 298.

كثيراً ﴿١١﴾ [الأحزاب: 21] حيث دعى فيه إلى أن تكون هذه الآية قبلةً ومسلكاً لكل عارف وسالك وباحث، ولقد لخص هذه القدوة في أربعة أبعاد، كان متحققاً بها النبي عليه الصلاة والسلام، وهي تلخص كل حركات الإنسان؛ لتحقيق سعادته في الدنيا والآخرة.

فجاء في البعد الأول لهذه القدوة عند الأمير، من حيث النظر إلى معاملة الحق تعالى لرسوله الكريم، فيخاطبه الله بقول: ﴿إِنَّ الَّذِي يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: 10]، وقال: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: 31]، وخاطبه في أخرى فقال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: 56]، وقال له: ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾ [النمل: 81]، فمرة ينزله منزلة نفسه العلوية، وتارة منزلة العبد الحقير، فمن هذا البعد يدخل العلم بالله عز وجل وصفاته وغناه عن مخلوقاته، وافتقارهم واحتياجهم إليه، والعلم بالرسول وخصالهم، وحكمة الله في مخلوقاته، وما يتعلّق بترتيب الآخرة على الدنيا مالا يحصى من العلوم.

والبعد الثاني لهذه القدوة بالنظر إلى معاملة النبي لربه، من تحقيق مقام العبودية، والقيام بجميع حقوق الربوبية والافتقار إليه، والتوكّل عليه في كل أحواله وأموره... فيندرج تحت هذا البعد، العلوم الشرعية عبادات، وعادات، ومنجيات، ومهلكات⁽¹⁾.

وأما البعد الثالث للقدوة من ناحية معاملة الخلق للنبي ﷺ، فإنهم بين مصدق ومكذّب، صديق وعدوّ، محبّ ومبغض.... فيدخل تحت هذا البعد أخباره وسيرته ﷺ، وأخبار الأنبياء وأحوالهم والعارفين...

والبعد الرابع، فينظر إلى معاملته ﷺ لجميع خلقه تعالى من محبتهم، وإرادة الخير لهم، والصبر عليهم... وتخلقه بالأخلاق الإلهية، وتحقق الأسماء الرحمانية، فيعرف بهذا البعد مكارم الأخلاق، وعلوم سياسية الدين والدنيا التي بها نظام العالم وعمارته⁽²⁾.

وبالتعمّق في هذه الأبعاد الأربعة التي أحصاها الأمير عن شخص الرسول ﷺ، وحثّ على

(1) _ الأمير عبد القادر، المواقف، مرجع سابق، ج 1، ص 102-103.

(2) _ المرجع نفسه، ج 1، ص 103-104.

الاهتداء والاقتداء بشخصيته راجع لكماله الإنسانيّ، في كلّ موقف من مواقفه، سواء أكان موقفه روحانيّاً رباتيّاً في تعامله مع ربّه، أو موقفه البشريّ الكونيّ الذي يتعايش ويتخاطب فيه مع عالمه وبني جنسه.

ويمكن أن نفهم من هذه الأبعاد الأربعة إلى ما ترمز إليه من خلال التعمّق فيها وتحليلها، فالبعد الأوّل الذي أحصاه الأمير عن شخص الرّسول هو بعد عقديّ إيمانيّ، فهو أوّل ما وجب على العبد المؤمن معرفته، وأحسن طريق موصل إلى هذا البعد يتمثّل في الأنبياء وخاتمهم سيدنا محمّد عليه الصلاة والسلام، فهو الطّريق المستقيم الذي يهتدي به كل من أراد الحقيقة في هذا الباب.

أمّا البعد الثّاني فهو بعد شرعيّ إلزاميّ بالشّريعة المحمديّة التي فيها النّجاة من كلّ مهلكة وصلاح لكل أمة، فهذا هو الباب الذي يتقيّد فيه كلّ إنسان مؤمن، يبحث عن النّجاة في الدّارين.

أمّا البعد الثّالث فهو بعد سلوكيّ أخلاقيّ يتمثّل في الاتّصاف، والتحليّ بكلّ فضيلة، والتخلّي عن كلّ رذيلة، ولن تجد أفضل من مدرسة النبوّة التي تمثّلت فيها أعلى مراتب التخلّق، والتحليّ بمكارم الأخلاق، وغيره من إخوانه الأنبياء فهم شركاء في نفس المشكاة.

وأما البعد الرّابع، فقد أشار فيه الأمير إلى مختلف العلوم التي تنفع لتسيير وعمارة الأرض، والتي نصّ عليها في الكتاب والسّنة، وغيرها التي يمكن أن نستفيد منها من خلال خلافته على هذه الأرض ولقد حتّ الأمير على أن تكون هذه الآية قبلة كل عارف ومريد فقال "فيجب على كل مريد بل والعارف أن يجعل هذه الآية قبلته في كل مكان ومشهده في كل زمان، فإن أحواله لا تخرج عن هذه الأربع حالات، ولعلها هي الصراط المستقيم"⁽¹⁾، فالتأمّل في الحقيقة المحمدية من هذا القسم عند الأمير يجد بأنّه يرمي بها إلى شخص الرّسول صلوات الله عليه، الذي في كلّ حالاته حقّق أعلى مرتبة للكمال البشريّ، سواء من الجانب الروحيّ المعنويّ، أو من الجانب الجسمانيّ الماديّ الذي كان بينهما النبيّ ﷺ وسط ومعتدل، وأعطى لكلّ جانب حقّه، فلا إفراط ولا تفريط، وبهذا نال الكماليّة الكبرى.

ومن النتائج التي تُستخلص من هذا المبحث:

الكمال الإنسانيّ عند الأمير مرتبط بأصل الخلقة؛ إذ أنّ الإنسان خُلِقَ على الصّورة التي جُمع فيها

(1) _ الأمير عبد القادر، المواقف، مرجع سابق، ج1، ص 104.

الأسماء والصفات مع الفرق بين الخالق والمخلوق، وأنّ هذا الكمال تامّ في الجميع وما من أحد من الجنس البشريّ إلّا وفيه هذه الحقيقة الكمالية، غير أنّها لا تظهر في الجميع، إلّا لمن كان له الاستعداد والظهور بها، والمقصود بالكمال الأصليّ إنّما هو كمال الصّورة المخلوق عليها، أي أنّه جامع للحقيقتين (الإلهية والكونية) (العلوية والسفلية)، فالإنسان بشقيّه (الروحيّ والجسمي) نال أحقية الكمال، غير أنّه لا يبرز هذا الكمال إلّا للذي تحقّق وتخلّق بالأسماء والصفات التي هي مجموع الصّورة، وأعطى لكلّ جانب حقّه.

ولكي يصل الإنسان إلى الكمال المنشود عند الأمير وجب أن تُبرز منه ثلاثة وظائف يدور عليها مدار الكمال الإنسانيّ، أوّلها الوظيفة الوجودية الخلاقية التي بها حدّد مسار الإنسان فوق الأرض وثانيها الوظيفة المعرفية التي بها تتمّ حركة الإنسان الصحيحة في هذه المعمورة، وأمّا الثالثة فتتعلّق بالوظيفة الأخلاقية السلوكية التي بها يكون الارتقاء في عالم الكمال الإنساني، فكلما كان الاتّصاف والتخلّق كلما زاد معه الكمال الذي يؤدّي به إلى تحقيق الوظائف بالشكل الصحيح، وأعلى مراتب الكمال التي ظهرت في البشرية أكملية النبي ﷺ، الذي تحقّق بالأسماء والصفات التي هي مجموع الصّورة الإنسانية.

الفصل الثاني:

السّنن في فكر الأمير عبد القادر الجزائريّ

تمهيد

المبحث الأوّل: مفهوم السّنن ووجوها في القرآن الكريم

المطلب الأوّل: التعريفات اللّغوية والاصطلاحية للسّنن

المطلب الثّاني: السّنن في ضوء القرآن الكريم والسّيرة النّبويّة

المطلب الثّالث: أوجه السّنن الإلهيّة وخصائصها وأهمّيّتها

المبحث الثّاني: أبعاد الفكر السنني عند الأمير عبد القادر

المطلب الأوّل: الوعي بالقانون السنني ومدلوله في فكر الأمير عبد القادر

المطلب الثّاني: وجوه القانون السنني في فكر الأمير عبد القادر

المطلب الثّالث: البعد الواقعي لحضور السّنن لدى الأمير عبد القادر

تمهيد:

يقول الله عز وجل في محكم كتابه العزيز ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [آل عمران: 137] ويقول أيضا: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: 62]

نبه الله في خطابه القرآني على أهمية درس السنن في حياة الأفراد والمجتمعات والأمم، وأن قيام الحضارة وأفولها مرتبط بهذه السنن، وأن عز الإنسان وشرفه بالالتزام بما أمر به ونهى عنه الله في شرائعه وأن حكمته ارتبطت بهذه القوانين الربانية التي بثها في خلقه، ونظم بها سير العالم كله بما فيه حركة هذا المخلوق البشري.

وقد هب فجر الإسلام نسيمه على حبيبنا المصطفى ﷺ، الذي حمل معه لواقع بروز هذه الأمة الإسلامية، فعمل على إبراز هذا الدرس السنني، بمنهج النبوي العملي الواقعي، فنهل منه الصحابة والأوائل الذين استوعبوا هذا القانون السنني الإلهي، فبنوا منه حضارة يدين لها القاصي والداني، ويعترف بها العدو قبل الصديق، غير أن هذه الأمة عندما تركت هذا القانون الإلهي وولجت تبحث عن البديل في الفلسفات والنظريات الوضعية، ضلّت وأضلت، وتشثت وتفرقت، فضعفت ووهنت، وتكالب عليها الأعداء من كلّ حذب وصوب، ولا سبيل للأمة للنهوض إلا بفهم هذا الدرس السنني الإلهي.

برزت حركات في العصر الحديث، أرادت العمل على قيام هذه الأمة، ومن بين هذه الشخصيات أميرنا عبد القادر الجزائري الذي يعدّ مؤسس الدولة الحديثة في الجزائر، وما لهذه الشخصية من حضور في صفحات التاريخ الوطني أو العربي أو حتى الأجنبي، وما عرفته سيرته بشقيها العلمي والعملية الذي حرّك به جانبا من هذا الدرس السنني.

فحاولنا في هذا الفصل أن نسقط الضوء على القانون الإلهي السنني، ونبرز مضمونه ومفهومه وأنواعه، وكيفية عرضه في القرآن الكريم والسنة النبوية، وهذا ما تناولناه في المبحث الأول من هذا الفصل. ثمّ عرجنا إلى فكر الأمير عبد القادر، وأردنا أن نعرف مدى حضور السنن عنده، وماهي أبعادها الواقعية؟ مركّزين على ما وجد في كتبه، وهذا ما عالجنه في المبحث الثاني من هذا الفصل.

المبحث الأول: مفهوم السنن ووجوها في القرآن الكريم:

يعدّ موضوع السنن الإلهية من المواضيع التي تطرقت إليها الأقلام حديثا، فهو من المواضيع التي لم

يدوّن فيها السّابِقون، فما زال هذا الدرس السّني قيد الدّراسة ولم يكتمل بعد، فالَّذي يبحر في زخر المكتبة الإسلاميّة وما حوته من المواضيع، فإنّه يقف على العديد من العلوم الإسلاميّة التي نتجت عن الاجتهاد في الكتاب والسّنة، غير أنّنا لا نجد الشّيء نفسه بالنسبة إلى علم السّنن الإلهيّة، إلّا ما هو مبثوث في بطون أمّهات الكتب وتمّ الإشارة إليه، ناهيك عن أصله في الكتاب والسّنة، غير أنّه ظهرت وبرزت دراسات جديدة ومعاصرة اعتنت بهذا الدّرس السّني. وإلى يومنا هذا لم تتضافر جهود العلماء لإخراج هذا العلم والتنظير له بالجدّيّة التي تستوعب أهمّيّته وفوائده، وتستفيد منه الأمّة عمليّاً.

ولقد تناولنا في هذا المبحث جانباً من هذا الدّرس السّني، محاولين الإجابة على الأسئلة التالية:

- ماهي دلالة لفظة السّنن في اللّغة العربيّة؟

- إلى ما ترمي لفظة السّنن في القرآن الكريم؟

- كيف كان حضور الدّرس السّني في السيّرة النّبويّة؟

- كم يوجد نوع من السّنن؟

- فيم تكمن أهميّة السّنن؟ وما هي خصائصها؟

وجاء هذا البحث في ثلاثة مطالب رئيسة:

المطلب الأوّل تناول الجانب التّعريفي للسّنن في اللّغة والاصطلاح، أمّا المطلب الثّاني فقد تناولنا فيه توظيف لفظة السّنن في القرآن الكريم وحضورها في السّنة النّبويّة.، أمّا المطلب الثّالث فقد عالجت فيه وجوه السّنن الإلهيّة (أنواعها) وأبرزنا أهميّة السّنن وخصائصها. والغرض من هذا البحث تبيان المعنى الحقيقيّ للسّنن الإلهيّة ومعرفة مقصودها في الخطاب القرآني ومدى حضورها في المنهج النّبوي، مما يساعدنا في إبراز نظرة الأمير عبد القادر إلى هذه السّنن وكيف كان حضور الدرس السّني في فكر الأمير عبد القادر، وهل منهجه في السّنن موافق للمنهج النّبوي الشريف.

المطلب الأوّل: التّعريفات اللّغويّة والاصطلاحية للسّنن:

يعدّ المطلب اللّغوي والاصطلاح لقرأة المفاهيم، مطلباً مهماً يتبيّن من خلاله إدراك المعنى والمقصد المنشود من الكلمة، فيزيد القارئ والباحث فهماً ووعيّاً وإدراكاً لمضمون الكلمة وما توحى إليه فالحقل اللّغوي الدّال على الألفاظ ركيزة أساسية لبناء تصوّر ومعنى واضح للمصطلح، وستطرّق في هذا

المطلب إلى تبيان معنى السنن في اللغة، وما حوت عليه بطون المعاجم من دلالات عليها، لكي يتسنى لنا وضع مصطلح واضح لهذه اللفظة وما جادت به قارحة العلماء لتبianaها؟

أولاً: الاشتقاق اللغوي ومدلوله للفظه السنن:

لفظة السنن مشتقة من الجدر اللغوي (س - ن - ن)، جاء في معجم مقياس اللغة "السنن والنون أصل واحد مطرد، وهو جريان الشيء واطراده في سهولة، والأصل قولهم سَنَنْتُ الماء على وجهي أسننته إذ أرسلته إرسالاً.. وإِذَا سَمِيتَ بذلك لَأَنَّهُ تَجْرِي جَرِيًّا، ومن ذلك قولهم: امضِ على سَنَنِكَ، وسُنَنِكَ، أي وجهك وجاءت الريح سَنَائِنُ، إذ جاءت طريقة واحدة" (1).

والسنة تعني السيرة، حسنة كانت أو قبيحة كما جاء في لسان العرب لابن منظور (2).

والسنة هي الطريقة والسيرة، في حديث الجوس "سنا بهم سنة أهل الكتاب أي خذوهم على طريقتهم وأجروهم في قبول الجزية منهم مجراها" (3).

وسنة الله: أحكامه وأوامره ونواهيته، وسنّها الله للناس: بينها، وسنّ الله سنة أي بين طريقاً قويمًا... وسننّها سنا... سرّها، وسننتُ لكم سنة فاتبعوها، وفي الحديث "مَنْ سَنَّ سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها ومن سَنَّ سنة سيئة" يراد من عمل ليقتردي به فيها، وكل من ابتدأ أمراً عمل به قوم بعده قيل: هو الذي سنّه (...). والأصل فيه الطريقة والسيرة (4)، وسنة النبي طريقته التي كان يتحراها (5).

والسنن القصد: "فيقال وامض على سننك أي وجهك وقصدك، وللطريق سنن أيضاً، وسنن الطريق وسننه وسننه سننه نهجه، والسنة أيضاً الوجه (...). وسنن الطريق وسننه وسننه أي جهته (...). والسنة في الأصل سنة الطريق، وهو طريق سنا أوائل الناس فصار مسلكاً لمن بعدهم...، ويقال امض على سننك وسننك أي على وجهك" (6).

(1) -ابن فارس، مرجع سابق، ج3، ص ص 60-61.

(2) -ابن منظور، مرجع سابق، ج13، ص 225.

(3) -ابن الأثير، مرجع سابق، ج2، ص 409.

(4) -ابن منظور، مرجع سابق، ج3، ص 225.

(5) -الفيروز أبادي، مرجع سابق، ج3، ص ص 267-268.

(6) -ابن منظور، مرجع سابق، ج13، ص 226.

من خلال ما أوردناه من اشتقاقات لغوية لفظة السنن يمكن أن نقف على النقاط التالية:

مدار اشتقاقات لفظة السنن في اللغة العربية على: الطريقة والسيرة الحسنة كانت أو القبيحة، العادة المطردة، الشريعة والوجهة والمقصد وأكثر استعمالات العرب لهذه اللفظة يدور حول الطريقة والعادة المطردة والوجهة والمقصد، وفيما يلي تبيان هذه الوجوه في الاستعمال اللغوي للعرب.

1- استعمالها بمعنى الطريقة وهو الأكثر وروداً في كلام العرب، وهو بمعنى طريقة في الحياة متعارف عليها بين قوم أو قبيلة، يكون بحسبها السلوك والفعل ونمط العيش، ويندرج تحت مسمى الطريقة استعمالات شتى منها: السيرة، العادة وهي معاني متقاربة في الحقل الدلالي للطريقة، ولذلك فسر الزجاج قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [آل عمران: 137]؛ أي أنهم كانوا أهل سنن في الخير والشر، أي طرائق وعادات ومسالك⁽¹⁾.

والسنة في كلام العرب تطلق ويراد بها الطريقة مرضية كانت أو غير مرضية⁽²⁾، إلا أن استعمالها بمعنى المرضي هو الأصل والأغلب على كلام العرب.

2- كما تستعمل لفظة السنن بمعنى الاطراد والتتابع والدوام: فالعرب تطلق كلمة السنة والسنن بمعنى الاطراد والدوام والتتابع وهما ما فهم من قول ابن فارس في معجم مقياس اللغة الذي ذكرناه سابقاً سنن الماء بمعنى جريان الشيء واطراده في سهولة، والعرب تقول جاءت الرياح سنائن بمعنى جاءت على طريقة واحدة⁽³⁾، وهذا هو معنى الجريان والاطراد، والتتابع، ومنه قوله "اطردت العادة" أي جرت على وفق طريق واحد لا تختلف⁽⁴⁾.

3- أما الاستعمال الثالث: للسنن فيأتي بمعنى الوجهة والمقصد: وهذا ما يلاحظ من استعمالها في كلام العرب "وامض على سننك، أي وجهك وقصدك"⁽⁵⁾ ويقال "ترك فلان سنن الطريق أي جهته"⁽⁶⁾

(1) -عادل بن بوزيد عيساوي، فقه السنة الإلهية ودورها في البناء الحضاري، الدوحة دار الكتب القطرية، ط20/2، ص 25.

(2) -الجزائري، التعريفات، ت إبراهيم الأبياري، بيروت، دار الكتاب العربي، ط1، 1405هـ، ج2، ص 161.

(3) -ابن فارس، مرجع سابق، ج3، ص ص 60 - 61.

(4) -عادل عيساوي، مرجع سابق، ص 31.

(5) -ابن منظور، مرجع سابق، ج13، ص ص 225 - 226.

جهته" (1) فاستعمال السنن بهذا المعنى يوحي بوجود غايات وقصود، كما يوحي بجريان السنن والطريقة على وجهه مقصودة (2) .

تستعمل العرب لفظة السنن بهذه الأبعاد الثلاثة، بحيث تشترك معناها في الجهات الثلاث التي ذكرناها آنفا فهي إما أن تكون أوصافا أو خصائصا لها، إذ لا يطلق على الطريقة هذه الأوصاف إلا إذا كانت على حالة الاطراد والتتابع وعدم التغيير وديمومتها مما يجعلها تكون وصفا لسنة مسلوكة، وهذا التتابع يجعلها تجري وفق مقاصد معلومة يتوخاها الواضع لها وسالكها (3).

وبهذا يمكن أن نقف على مدلول السنة بشكل عام في اللغة فيراد بها السير وفق طريقة ثابتة ومطرودة لا تتغير بتغير الأحوال، ولها وجهة ومقصد من قيامها.

وفيما يلي سنحاول أن نقف على معنى السنن في الاصطلاح بعد أن أوضحنا معناها اللغوي.

ثانيا: ضبط مفهوم السنن في الاصطلاح:

اختلف تعريف السنة اصطلاحا بحسب العلم الذي تناوله، فلسنة في كل من علوم الحديث والفقه وأصول الفقه تعريف خاص بها دال على العلم ومقصده.

- فالسنة في اصطلاح المحدثين "هي أقوال النبي ﷺ وأفعاله وتقاريره وصفاته الخلقية والخلفية، وسائر أخباره" (4). أما السنة في اصطلاح الأصوليين: "هي أقوال النبي ﷺ وأفعاله وتقاريره التي يستند ويستدل بها على الأحكام الشرعية" (5) فالأصوليين يبحثون عن السنة من حيث أنها مصدر للتشريع.

وأما السنة في مصطلح الفقهاء "هي ما ثبت طلبه بدليل شرعي، من غير افتراض ولا وجوب مثل تقديم اليمنى على اليسرى في الطهارة، ومثل الركعتين قبل الظهر" (6) .

فهو عند الفقهاء بمعنى حكم المندوب والمستحب فهي تدل عندهم على أحد الأحكام الشرعية الخمسة.

(1) - الزبيدي، مرجع سابق، ج 35، ص 232.

(2) - عادل عيساوي، مرجع سابق، ص 33.

(3) - للمزيد من التفصيل ارجع إلى عادل عيساوي، فقه السنة الإلهية، مرجع سابق، ص 34.

(4) - محمد ناصر الدين الألباني، الحديث حجة بنفسه في العقائد والأحكام، مكتبة المعارف، الرياض، ط 1، 2005، ص 13.

(5) - الشوكاني، إرشاد الفحول، ت محمد صبحي بن حسن حلاق، دار ابن كثير، دمشق، ط 4، 1432هـ-2011م، ص 146.

(6) - المرجع نفسه، ص 146.

والسنة عند علماء الوعظ والإرشاد تقابل البدعة، فيقال عندهم: فلان على سنة، إذ عمل بما يوافق الشرع، وفلان على بدعة، إذ عمل على خلاف ذلك⁽¹⁾.

في علم العقيدة يطلق مصطلح السنة مرادفا للآراء الاعتقادية (أهل السنة والجماعة، فالسنة هنا تطلق مقابل البدعة العقدية كما يراها أهل السنة والجماعة، ولقد صُنِّت في هذا المجال كتب عديدة، زخرت بها كتب التراث الإسلامي. وأما بالنسبة إلى السنة أو السنن كمرّكّب إضافي "سنة الله" أو "سنن الله" كما يصطلح عليها أيضا "بالسنن الإلهية" أو "السنن الربانية"، وهي مجال بحثنا هذا، وسنعرض بعض التعريفات التي وردت في بيان هذا المصطلح قديما وحديثا.

جاء ذكرها عند الإمام الرازي في تفسيره على أنّها هي "الطريقة المستقيمة والمثال المتبع"⁽²⁾.
و أورد أبو بكر الجصاص في تفسيره بأنّ السنة هي "الطريقة المأمور بلزومها واتباعها"⁽³⁾.
وذكر القرطبي في تفسيره بأنّ سنة الله "يعني بها طريقة الله وعادته"⁽⁴⁾.
وقال ابن كثير في تفسيره بأنّ سنة الله هي "عادته في خلقه"⁽⁵⁾.

وعرفها شيخ الإسلام بن تيمية "هي العادة التي تضمن أن يفعل في الثاني مثل ما فعل بنظيره الأول"⁽⁶⁾.

وقال بن الجوزية "سنة الله عادته المعلومة"⁽⁷⁾، كما أنّنا نقف على تعريفات أخرى منها:
سنة الله هي "طريقته السالفة في نصر رسله وأوليائه على أعدائه"⁽⁸⁾.
وقيل هي "الطريقة المرعية في أفعال الله عز وجل وهي طريق العدل والرحمة"⁽¹⁾.

(1) - الطبري، جامع البيان في تأويل أي القرآن، ت عصام فارس الحرساني، بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1415هـ-1994م/ مج3/ ص 371.

(2) - فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، دار الفكر، لبنان، بيروت، ط1، 1401هـ-1981م، مج9، ص 11.

(3) - الجصاص، أحكام القرآن، ت مُجّد صادق القمحاي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د ط، 1405هـ، مج3، ص 487.

(4) - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ت أحمد البدروني، إبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط2، 1384هـ-1964م، مج16، ص 280.

(5) - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ت سامي مُجّد سلامة، دار طيبة، (دب)، ط2، 1420هـ-1999م، مج7، ص 341.

(6) - ابن تيمية، مجموع الفتاوى، مرجع سابق، ص مج1، ص 55.

(7) - ابن القيم الجوزية، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، دار المعرفة، بيروت، (دط)، 1938هـ-1978م، ص 408.

(8) - العز عبد السلام، تفسير القرآن، ت عبد الله بن مُجّد إبراهيم الوهي، دار بن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 1416هـ-1996م، ج3، ص 207.

الملاحظ على التعريفات التي أوردناها آنفاً وبحسنا عنها في كتب التراث الإسلامي أنّها جاءت في إطار التفسير للآيات القرآنية الواردة فيها لفظة السنن، وكلّها تصبّ في معنى واحد وهي "طريقة الله وعادته المتبعة في خلقه التي اقتترنت معها العقاب والجزاء".

إنّ هذه التعريفات لم تأتِ للتأصيل لعلم السنن الإلهي، كعلم من العلوم الإسلامية الأخرى، مما يدلّ على أنه لم يتخصّص السابقون في هذا النوع من العلم، ولم يبدلوا فيه مجهودات لإبرازه وتبيان معالمه كما فعلوا مع باقي العلوم الإسلامية، كالفقه وأصول الفقه، وعلم التّخريج... وأنّ جلّ الكتابات عن السنن كانت في خضم التفسير لآيات القرآن الكريم، أمّا ككتب مستقلة منفردة في هذا العلم فلم تبرز إلّا مع العصر الحديث والمعاصر، غير أنّ سلفنا الصالح من الصحابة والتابعين ومن بعدهم كانوا واعين ومتفقهين لدرس السنن وآخذين به في منهج الحياة، فكانت أعمالهم توافق منهج السنن الإلهية فلم يحتاجوا إلى تدوين هذا العلم، ومن أبرز الكتابات الحديثة التي نادى بالتأصيل في هذا العلم هي كتابات الشيخ محمد عبده وتلميذه رشيد رضا⁽²⁾.

وفيما يلي سنطرح بعض هذه المحاولات الحديثة في تبيان مصطلح السنن:

جاء في تعريف الشيخ محمد عبده رحمه الله للسنن هي "الطرائق الثابتة التي تجري عليها الشؤون وعلى حسبها تكون الآثار، وهي التي تسمّى شرائع أو نواميس ويعبر عنها القوم بالقوانين"⁽³⁾.

وذكر في تفسير المنار أنّ السنّة هي "العلم بسنن الله تعالى في قوة الأمم والشعوب وضعفها وعزها وذلها وغناها، وفقرها وبادوتها وحضارتها..."⁽⁴⁾.

وعرفها سعيد النورسي "بالقوانين الإلهية الجارية في العالم التي تبين تنظيم الأفعال الإلهية ونظامها وتنظم شؤون الكون وهي تجلّ كلي للأمر الإلهي والإرادة الإلهية"⁽⁵⁾.

(1) - حميد الدين الفراهي، القائد إلى عيون العقائد، الدائرة الحميدية ومكتبتها، الهند، ط1، 1395-1975م، ص 165.

(2) - للمزيد من التفصيل ارجع إلى: عادل بن بوزيد عيساوي، فقه السنن الالهية ودورها في بناء الحضارة، مرجع سابق، ص 142 وما بعدها، وراجع مقدمة الكتاب.

(3) - محمد عبده، الإسلام العلم والمدينة، كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة، (دط)، (د ت)، ص 84.

(4) - رشيد رضا، تفسير المنار، مرجع سابق، وأنظر أيضا ج4، ص 140.

(5) - بديع الزماني النورسي، صقيل الإسلام، ت حسام قاسم الصالح، شركة سورلز، مصر، ط3، 202، ص 463.

ومن التعريفات المعاصرة للسنن فإننا نقف على بعضها.

عرّفها الباحث "عبد الكريم زيدان" في كتابه السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد بأنها "الطريقة المتبعة في معاملة الله تعالى للبشر بناءً على سلوكهم وأفعالهم ومواقفهم من شرع الله وأنبيائه، وما يترتب عن ذلك من نتائج في الدنيا والآخرة"، كما أنه يطلق على السنن الإلهية لفظة القانون العام⁽¹⁾.

كما وقفنا على تعريف آخر يساند ويوافق التعريف الأول على أنّها قانون الله "فهي مجموعة القوانين التي سنّها الله في هذا الوجود وأخضع كل مخلوقاته لها على اختلاف أنواعها وتعدد أجناسها"⁽²⁾.

وجاء في تعريف آخر لها "هي مجموع القوانين التي يسير وفقها الوجود كله، وتتحرّك بمقتضاها الحياة وتحتكم في جزئياتها، فلا يخرج عنها مخلوق وما في الكون من ذرة أو حركة إلا وتجد لها قانون وسنة"⁽³⁾.

كما وقفنا على تعريف يساند ما أوردناه أنفاً على أنّها قانون إلهي "فهو القانون الضابط المسيطر والفعل النافذ الذي يجري باطراد وثبات وبعموم وشمول، الحاكم على سلوك البشر"⁽⁴⁾. ويوجد تعريف آخر يرى أنّها "المنهج الإلهي في تدبير الكون كله، وهي نواحيه تسير الحياة الإنسانية طبق لقضائه الأزلي الذي هو مقتضى حكمته وعدله"⁽⁵⁾.

من خلال ما أوردناه من بعض التعريفات الاصطلاحية "للسنن الإلهية" يمكن أن نستنتج بأن السنن الإلهية هي منهج الله وطريقته ونظامه المطرد في خلقه، الذي يحكم به في كونه بما فيه الإنسان وهو بمعنى القانون.

(1) -عبد الكريم زيدان، السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1993، ص 13.

(2) -أحمد كنعان، أزمنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق، مركز البحوث والمعلومات برئاسة المحاكم الشرعية والشؤون بالدولة، قطر، ط1، 1411هـ، ص 52. (بتصرف).

(3) -مُجد هيشور، سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الرسائل الجامعية، القاهرة، ط2، 1417هـ-1996م، ص 27. (بتصرف).

(4) -رمضان خميس زكي، مفهوم السنن الربانية، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط1، 1427هـ-2006، ص 31. (بتصرف).

(5) -شريف الخطيب، السنن الإلهية في الحياة الإنسانية، وأثر الإيمان بها في العقيدة والسلوك، مكتبة الرشيد للنشر والتوزيع، الرياض، ص ط1، 1425هـ، 2004م، ج1، ص5 (بتصرف).

والمتمثل في القرآن الكريم يجد بأن السنن الإلهية التي أدرجت في الآيات أخذت حيّزا كبيرا من الخطاب القرآني، كما أنّ السنة النبوية عنت به من ناحية التطبيق الفعلي لهذه السنن الإلهية؛ إذ أنّ النبي صلوات الله عليه هو القرآن الذي يمشي فوق الأرض من خلال أفعاله وأقواله، فلم يحتاج الأولون للتّظهير له، إنما اكتفوا بالعمل به، مقتدين بنهج النبوة والصّحابة الأوائل.

لم ينل درس السنن كعلم قائم في "فلسفة العلوم وتاريخها" عند المسلمين العناية والاهتمام بشكل كبير، ويبقى هذا العلم هو الأضعف بين حلقات العلوم الإسلامية كلّها، فقد قدّم العلماء المسلمين حركة علمية برعوا فيها في شتى العلوم، إلا أنّ موضوع السنن كعلم مستقل لا تجد له تنظيرا عند القدماء، إلّا ما هو مبثوث في كتب الثّرات ومشار إليه في مختلف العلوم التي بحثوا فيها، فلم يلقَ هذا العلم الاهتمام الكافي والتّوجيه، وتأخّر هذا العلم في الأمة الإسلامية نالها السّبات، ثم برزت محاولات إصلاحية تريد النهوض بالأمة، وقد عنت بهذا الجانب السنني مثل الشيخ مُحمّد عبده وتلميذه رشيد رضا، حيث عرفت كتبهم جانبا كبيرا من إبراز السنن الإلهية⁽¹⁾.

غير أنه لم تقدّم أي مجهودات أخرى من طرف الأمة وعلمائها، بقيام علم سنني كامل وفق نظرة علمية ممنهجة، له أسس وأركان ومبادئ وأهداف ويوضع له سلم ومناهج تربوية وبرامج علمية تدرس في الجامعات الإسلامية⁽²⁾.

ويبرز اللاوعي بكتاب الله وسنة نبيه بالفهم الذي يؤدّي إلى القيادة والريادة والأخذ بالمسلم إلى الصّفوف الأولى من الرّكب الحضاري؛ لأنّ القرآن الذي بثّ فيه علم السنن، هو نفسه القرآن الذي نقرأه ونحفظه ونرتله ولكن لا نفهم مراد الله به وما الغاية منه، لدى تأخّرت الأمة عن الركب الحضاري للأمم الأخرى، التي نهشت منها وقامت باستغلال خيراتها من كلّ جانب، وتركته مشلولة بالكامل وبغياب هذا العلم زادها انحطاطا بتركها لقوانين الله المبنوثة فيه. ومستقبل الأمة وحضارتها قائم على فهم جانب كبير من هذه السنن الإلهية التي أرشد إليها الله في كتابه العزيز وسنة خير البشر.

ومع مطلع العصر الحديث والمعاصر برزت محاولات عدة وحركات تنادي بضرورة طرق هذا

(1) - للمزيد من التفاصيل ينظر إلى عادل بن بوزيد عيساوي، فقه السنن الإلهية، ودورها في البناء الحضاري، مرجع سابق، ص 2،

3 / أنظر أيضا: رمضان خميس زكي، مفهوم السنن الربانية، ت مُحمّد عمارة، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط 1، 2006.

(2) - للمزيد من التفاصيل ينظر إلى عادل بن بوزيد، مرجع سابق، ص 3 .

الباب السنني، ودعت إلى التأصيل فيه، فنجد أن المكتبة الإسلامية بدأ يندرج تحتها عناوين في هذا المجال، وأطلق الباحثون العنان لأقلامهم في التأسيس والتدوين لهذا المجال، ونجد بعض الحركات الجدّية من أجل التأصيل لهذا العلم، غير أنها لم تزل في بدايتها ولم تنل المطلوب بعد.

كما نلاحظ أيضاً أنّ لفظة السنن قد تطوّر معناها الاصطلاحي من الطريقة والعادة وهي معاني تحملها لفظة السنن في اللغة العربية إلى أن أضيف لها صيغة القانون والمنهج، برغم من أنّ لفظة السنن توحى بهذا المعنى إلا أنّ هذا التسق من الطرح لم يكن مع الكتابات الأولى. وهذا ما نلمسه في التعريفات الاصطلاحية المعاصرة للفظ السنن، فالسنن الإلهية هي طريقته سبحانه وتعالى في معاملة خلقه.

بما أنّ هذه السنن نابعة من مصدر رباني، واحتوت خصائص أكسبتها صفة القانون الربانيّ فهي الطريقة الربانية والمنهج القوي الرشيد والدقيق الذي لا يحيد ولا يعزب عنه مثقال ذرة، وهذا ما يعطي لها صفة الديمومة والبقاء، كالقانون العلمي الذي يضبط تحته النظر، والتصور المنهجيّ القويم. وبهذا نجد أنّ طرح الدرس السنني بدأ يأخذ قالب وشكل العلم، إلا أنّه لم تتضافر الجهود لإبرازه إلى أرض الواقع الملموس الذي يُرجى منه التغيير.

وأصبح لفظ السنن الإلهية يوحى بنسق فلسفي متكامل "فهو الفلسفة القرآنية التصورية للكون والحياة، وهي مفاتيح لفهم الدقيق للحياة والوجود، وحركة التاريخ والحضارات" (1).

من خلال هذا التنظير يمكن استنتاج أنّ السنّة في اللغة العربية مبناه وقيامها على أنّها الطريقة والعادة المطردة والوجهة والمقصد من كلّ أمر.

وبهذه الألفاظ اللغوية يمكن أن يقوم المبنى الاصطلاح لكلي نقول بأنّ سنّة الله المراد بها هي أمره تعالى وقانونه الذي يُسيّر به خلقه، بدءاً من الكون إلى الإنسان، وقانونه تعالى مطرّد وثابت، يحكم في أصغر ذرة في الكون إلى أفعال الإنسان وأحواله، يُعتبر بها هذا الأخير وينظّم بها حياته، فيتقرّر عليها مصيره إذ اعتبر بها وأخذها ونهل منها؛ لأنّ في قانون الله وجهة ومقصد وغاية وأهداف هو واضعها وقانون الله شامل وكامل، وأبرز غاياته وأهدافه تحقيق العبودية لله وحده تحت نظام يضمن تحقيق المصالح للإنسان بجلب النفع ودفع الضّرر لتحقيق السعادة في الدنيا والآخرة.

(1) -رشيد كهوس، علم السنن الإلهية من الوعي النظري إلى التأسيس العلمي، منشورات مركز جمعية الماجد للثقافة والتراث، دبي، ط1، 1436هـ-2015م، ص 7 وما بعدها.

المطلب الثاني: السُّنَنُ في ضوء القرآن الكريم والسيرة النبوية:

أنزل الله تعالى كتابه العزيز نورا وهدى وتبيانا لكل شيء، فهو كتاب هداية وشرائع وعلم، ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: 89] قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: 18] قال تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق 1- 5]، فالقرآن بنوره يهدي إلى التي هي أقوم، وأرشد وأصلح للبشرية جمعاء، وبشرائعه يسيّر ويوجّه ويقود إلى ما ينفع الإنسانية قاطبة، وبالعلم الذي بثّ فيه يقود إلى التحضّر والازدهار والرفي والاستخلاف بما هو أصلح لحال الدنيا والآخرة، ومن العلم الذي بثّ في كتابه العزيز سننه الإلهية، قوانينه الربانية التي يسير عليها الكون ويتنظم فيها الخلق وهذه القوانين (أو السنن) كانت حاضرة في سيرة الحبيب المصطفى صلوات الله عليه، وفي فهم كبار صحابته وأعمالهم.

وستطرّق في هذا المطلب إلى كيفية عرض القرآن الكريم للفظّة السُّنَنُ، مستخلصين منها مفهوم يتضح به المعنى، ثم نرجع على حضور السُّنَنُ في السيرة النبويّة الشريفة، وتجسيد معناها في أرض الواقع.

أولاً: استقراء لفظّة السُّنَنُ في الآيات القرآنية:

وردت لفظّة السُّنَنُ في القرآن الكريم ستّة عشر مرة، إمّا بصيغة المفرد "سنّة" أو بصيغة الجمع "سنن"، سنحصي هذه الآيات من أجل أن نقف على معنى السُّنَنُ في القرآن الكريم، وماذا أراد الله أن يلفت ويوجّه إليه النّظر من خلال طرح لفظّة السُّنَنُ في سياق الآيات، وذلك بعرض هذه الآيات من أجل استنباط مدلول منها، والغرض من توظيف لفظ السنّة في تلك الآيات، وإلا فقد غنتنا كتب التفاسير في تبيان معنى هذه الآيات، بشرحها وتفسيرها.

السُّور والآيات التي وردت فيها لفظّة السنن هي:

سورة [آل عمران الآية 137]، وسورة [النساء الآية 26]، وسورة [الأنفال الآية 38]، وسورة [الحجر الآية 13]، وسورة [الإسراء الآية 77]، وسورة [الكهف الآية 55]، سورة [الأحزاب الآية 38] والآية [62]، وسورة [فاطر الآية 43]، وسورة [غافر الآية 85]، سورة [الفتح الآية 23]

هذه هي مجموع الآيات الذي ذكرت فيها لفظة السنن، سنحاول أن نقف عليها ، لتبيان ما جاء فيها من معانٍ، ونبني منها تصوّرا ونسقا فكريا يتضح منه خطاب الله تعالى من هذه المفردة ضمن سياق الآيات التي ورد فيها.

1/ أ- جاء ذكر سنة الأولين في قوله: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: 38] والملاحظ أن الله وجه الخطاب للكفار المنكرين لوجود الله وأنبيائه وكتبه، وإن هذا الإنكار إنما هو سابق في الأولين، وقد جاء في كتب التفسير أن الله خاطب كفار قريش الذين حاربوا النبي، فإن لم ينتهوا فستكون عاقبتهم كسابقهم من الكفار الذين مضوا من القرون الأولى⁽¹⁾.

وإذا أرجعنا الآية في سياقها في السورة، وربطها بقبلها من الآيات، لوجدنا الخطاب القرآني موجّه للمؤمنين والكافرين معا، فكان خطابه للمؤمنين بالزامهم بطاعة الله ورسوله، ونهاهم عن الإعراض والتولي عن أمر الله ورسوله وأمرهم بالاستجابة لله تعالى ورسوله، إذ دعوته فيها الحياة والنجاة على كل الأصعدة، وهذا ما جاء في قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: 20] وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: 21] وقوله أيضا: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: 24]⁽²⁾

وأما بالنسبة إلى الخطاب القرآن للكافرين في الآيات التي سبقت آية السنن فإننا نجد الله تعالى يبرز خطأهم، بصدّهم لدعوة الأنبياء، وإعراضهم عن التوحيد، وبين سعيهم في تحطيم دعوة الأنبياء، وأديتهم للمؤمنين، فأبرز الله أنّ المكر هو سبيل ودرب الكفر وسبيلهم الطعن في صدق النبوة وقضية التوحيد، وأنّ دأبهم التّكذيب والشكّ في ما أنزل الله على أنبيائه، وأنّ هؤلاء الكفار يحاربون دعوة الله ومن يقودها ويتبعها من أجل صدّهم عن الحق، وأنّ قضية الحق والباطل، والمؤمن والكافر والخبيث

(1) - محمد بن جرير الطبري، جامع القرآن في تأويل القرآن، ت أحمد محمود شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ-2000م، ج13، ص 536.

(2) - محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، (د ط)، 1984هـ، ج9، ص ص 311-316.

والطيب، إنما هي سنة من سنن الله من أجل أن يحقق الله الحق ويطل الكفر، ويبرز الطيب من الخبيث وهذا ما جاء في الآيات من 31، 32، 36، 37 من نفس السورة (الأنفال).

إنّ خطاب الله في كتابه العزيز موجّه للمؤمنين، وأسباب النجاة تمثّلت في الطاعة لله ورسوله والامتنال لأوامره، وأنّ سبيل النصر والتمكين يكمن في اتباع نهجه تعالى، وأنّ سبب الفشل والهزيمة في عصيان أوامر الله، والابتعاد عن الطاعة، وبما أن القرآن الكريم أراد به الله أن يكون معجزة خالدة إلى يوم الدين، فإنّ تعاليمه باقية إلى يوم الساعة، فكذلك سبب النصرة والنجاة في كلّ زمان ومكان وهو الالتزام والامتنال لأوامر الله التي بثت في كتاب الله وسنة نبيه، وأنّ دأب الكفر هو التشبُّط والمكر والمহারبة بكلّ الطّرق والسبيل للتشكيك والطعن في رسالة التّوحيد، والصدّ عن الحق، فهي من باب سنن الله في مواجهة الباطل بالحق وورده، وهذه السنة مطردة في نصر الحق وازهاق الباطل، وهي لا تتخلف، وقد مضت سنة الله في الأوّلين⁽¹⁾.

إنّ لفظة السنن جاءت لبيان عقاب الكافرين المحاربين لله تعالى وصدّهم لدعوته، وهي سنن الأوّلين الذين عاقبهم الله بسبب محاربته ومحاربة دعوته، إلا أنّ سياق الآية ضمن الآيات التي قبلها وبعدها دال على أنّ سنة الله في التّمكن والنصرة فوق الأرض هي لعباده المؤمنين الملتزمين بطاعة الله ورسوله، وأنّ سبيل إبراز الحق إنما يكون باتّباع نهجه وشرعه.

1/ ب- وجاء في سورة الحجر قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ١١

كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ١٢ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ١٣ ﴿[الحجر: 11-13]. دلّت الآية على الصّراع بين الحق والباطل، بين قضية التوحيد والكفر، وهو صراع قائم منذ الأوّلين، وقد مضت سنة الله بأنه ينصر عباده المؤمنين على عباده الكافرين إن التزموا بشرع الله وأوامره.

1/ ج- وهذا ما نجد تأييده في سورة الكهف التي وردت فيها لفظة السنن في قوله تعالى: ﴿وَمَا

مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ٥٥ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَمُجَدِّدِلِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا

(1) - سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط 17، 1412هـ، ج 3، ص 1508.

ءَايَتِي وَمَا أَنْذَرُواهُزُوا ﴿٥٦﴾ [الكهف: 55-56]

فالمأمل في سياق هذه الآيات التي أتت ما ذكرناه أنفاً، من صراع الحق مع الباطل وهو سنة الله التي أرادها أن تكون من أجل أن يمحص الطيب من الخبيث، وأن سنة مضت في الأولين الذين بارزوا الله بالعصيان والكفر وأنكروا دعوته وحاربوا رسله، وأن الله حكمته اقتضت أن ينصر عباده المؤمنين على الكافرين ولو بعد حين، وشرطه تعالى للنصرة هو في اتباع نهجه وأوامره.

1/د- وهذا الطرح نجده أيضاً في سورة فاطر التي ذكرت فيها لفظة السنن من هذه المجموعة التي احصيناها، فجاء فيها قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ أَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرُ السَّيِّئِ لَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجْدِلُ سُنَّتَ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجْدِلُ سُنَّتَ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [فاطر: 42-43]

بيّنت هذه الآيات حال الكفار الذين لم ولن يتبعوا الهدى ولن يتبعوا رسله، وأن شأنهم هو المكر والخداع من أجل طمس الحق، وأن سنة الله جرت في الأولين، التي لا تتبدل ولا تتغير، وأن كل من سار في الظلم والعناد والاستكبار على العباد، أن يحلّ به نقمته، وتسلب عنه نعمته، فليترقب هؤلاء ما فعل بأولئك" (1).

1/هـ- ومن ذلك أيضاً قوله تعالى في سورة الإسراء ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبِثُونَ خَلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [الإسراء: 76-77]، فالآية تتحدث عن الصراع بين الحق والباطل، وموقف هؤلاء المعاندين من الدعوة والداعية والرسالة والرسول، ورغبتهم أن يخرجوه من الأرض التي يدعو فيها إلى الله عز وجل، وموقف صاحب الدعوة والرسالة، وموقف الله واضح اتجاه هذه الحركة الظالمة، وسنته ماضية لا تتحول ولا تتبدل، فهو قانون مطرد (2).

(1) - السعدي، تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ت عبد الرحمن بن معلا اللويحي، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ-2000م، ص 691.

(2) - رمضان خيس زكي، مرجع سابق، ص 17.

1/ و- ونجد هذا القانون أو "السنة" المطردة التي لا تحابي أحدا، وإنما هي إرادته تعالى في إبراز الحق وإبطال الكفر، وأنه لا تبديل في سنته مهما كان قوة وشدة المعاندين والكافرين، قال تعالى:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءِاثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَافَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَاكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [غافر: 82-85].

فالملاحظ من سياق الآيات أن هذا الصراع كان قائما من قبل، ولم يغن هؤلاء المعاندين والكافرين والمبارزين بالعداوة لله وأنبيائه ودعوته قوتهم وشدتهم التي عرفوا بها فوق هذه الأرض، لأن قانون الله "سنته" اقتضت أن تكون الخلافة لمن أعلن التوحيد والإدعان للحق، وأن أخذ الله للباطل وللکفرة بعد تبيان الحق وإظهاره، إنما هو قائم سنته التي ارتضاها وجعلها وقانون يحكم به إلى أن يرفع الله ومن عليها.

1/ي- وهذا عينه الذي ذكر في سورة الفتح في سياق الآيات التي سبقت آية السنن من الآية 18 إلى الآية 23 قال تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجْدَلَ سُنَّةَ اللَّهِ بِدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [سورة الفتح: 23] فقد جعل الله عادته بنصر المؤمنين على الكافرين إذا كانت نية المؤمنين نصر دين الله " (1).

بناء على ما سبق نستخلص ما يلي:

- ذكر لفظة السنن في هذه الآيات جاء في سياق الخطاب القرآني؛ للتنبيه على الالتزام بطاعة الله ورسوله، واتباع سبيله ونهجه.

- لفظة السنن جاءت لتبين الصراع القائم بين الحق والباطل، وهو سنة الله فوق أرضه، وأن سبيل الكفر دائما المعارضة لكل ما فيه حق، خاصة طمسهم لمعالم التوحيد، ومحاولتهم إبطال دعوة الأنبياء.

- لفظة السنن جاءت بعد تبيان لقضية التوحيد التي أمر الله بها أن تكون هي القضية الأولى، والتي عليها دوران المحور في البقاء أو الأفول.

(1) - الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، مج 26، ص 182.

- ذكر لفظة السنن جاء لتبيان أنّ سنته الجارية في النصرة لأهل الحق والتمكين لهم ملازمة للطاعة والامتثال لأوامر الله وشرعه، وإعلان التوحيد له.
- جاءت لفظة السنن في هذه الآيات لتبين أنّ حكمته في سنته اقتضت نصرة عباده الموحدين القائمين على تعاليم دينه، وإضعاف شوكة الكفر وإبطال مكرهم وحيلهم.
- وبالجمع بين هذه الآيات التي ذكرناها سابقا نجد أنّ هذه السنة هي قانون الله الذي يحكم به عباده على وجه هذه الخليفة.
- لفظة السنة جاءت رديفة لتبيان الحق من الباطل، وأول الحقوق هو حق التوحيد لله وحده، وهذا الذي يترتب عنه أبواب كثيرة من الحقوق، كحق الحياة، وحق الرزق، وحق النصرة، وحق الكرامة...
- إذن لفظة السنن دلّت على معنى الحق العام الذي سنّه الله فوق أرضه والحاكم بين عباده، وأولها حقه تعالى في العبادة. ولو تطرقنا إلى بقية الآيات التي وردت فيها لفظة السنن من المجموعة التي أحصيناها لوجدنا ما يلي:

2/ أ- جاء في سورة النساء قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ فَنَيْتِكُمْ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ فَاَنْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاثُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَفِّحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنْ أَتَيْتَ بِفَحِشَةٍ فَعَلَيْنَ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾ [النساء: 25-27].

المتمم في خطاب الله هذه الآيات يجد أنّ لفظة السنن جاءت عقب تبيان ما هو حلال وما هو حرام، ما هو حسن وما هو قبيح، وجاءت الآية لتبين الهداية إلى أصول ما صلح به حال الأمم التي سبقتنا من كليات الشرائع ومقاصدها... فإنّ الشرائع والتكاليف وإن كانت مختلفة في نفسها إلا أنّها

متفقة في باب المصالح كقوله تعالى ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾ [الشورى: 13] ⁽¹⁾.

لفظة السنة هنا عائدة على شرائعه إذ من تمام نعمته تعالى على عباده تشريه لهم ما فيه استقامة حياتهم، وهذه سنة الله في خلقه وهي من الحق الذي أراده أن يظهر لعباده ⁽²⁾. ثم أخبر سبحانه عما يريد لعباده من خير وصلاح، وما يريد لهم الفاسقون من شرّ وفساد. ⁽³⁾

2/ ب- ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴾ [الأحزاب: 38]، والسنة في هذه الآية تعني الحكم النافذ والقدر المحكوم ⁽⁴⁾.

2/ ج- وقد وردت لفظة السنن كذلك في نفس السورة، وهي تعالج قضية المنافقين الذين يطعنون في الدين، ويشككون في تعاليمه كلها، قال تعالى ﴿ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ⁽⁵⁾ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا نَفْتِيلًا ⁽⁶⁾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ ⁽⁷⁾ [الأحزاب 60-62]. بين الله تعالى أنّ للدين والشرعية أعداء من الداخل، يحاربون الله ورسوله والمؤمنين من أجل زلزلتهم وتفريقهم، وأنّ حكمة الله وقانونه السنني ثابت بأن يظهر الحق ويبطل الباطل، فشريعته وتعاليم دينه الحنيف باقية بإرادته وحكمته وحده، وأنّ الله لا يتم على هؤلاء المنافقين سعيهم في الهدم، وإنما قضى بحكمته أن تجري عليهم ما جرى على من قبلهم الذين سعوا إلى نشر الفساد، وأنّ قانونه السنني ثابت لا يتغير ولا يتبدل وسار في كلّ زمان ومكان ⁽⁸⁾ وأنّ سنته تعالى وعاداته جارية مع

(1) - الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ج5، ص 18.

(2) - الطنطاوي، مرجع سابق، ج3، ص 122.

(3) - طنطاوي، مرجع سابق، ج3، ص 128.

(4) - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج6، ص 427.

(5) - طنطاوي، مرجع سابق، ج11، ص 249.

الأسباب المقتضية لمسبباتها" (1).

يمكننا أن نتوقف هنا لتأمل من جديد ورود لفظة السنن في هذه الآيات التي ذكرناها من سورة (النساء 26 والأحزاب 38-62) فنستنتج ما يلي:

- لفظة السنن في هذه الآيات جاءت في السياق القرآني بعد مجموعة من التشريعات التي وضعها الله لعباده؛ للسير عليها والالتزام بها، بحيث يبين لهم ما هو جائز وما هو حرام، وأظهر الأفعال الحسنة والأفعال القبيحة.

- دلت لفظة السنن في هذه المواضع على حكمته وإرادته البالغة في تقدير الأمور، ووضع الموازين خاصة فيما يتعلق بشرعه، وأن شرعه سنة من سننه سارية في جميع الأمم وإن اختلفت الشرائع، وهي منهاجه الذي يضبط تحته البشر من أجل إصلاح أحوالهم، وتناهم السعادة في الدنيا والآخرة.

- شرع الله هو القانون الذي يحكم به ويسير به عباده وإن اختلفت الأمم وتعددت الشرائع فيما بينها، وأن هذا الشرع هو سنة مطردة جارية في الجميع، والغرض من هذه السنة هو الصلاح، وإبراز الحق في كل الأزمنة والأمكنة، ففيه النجاة والفلاح.

- أبرزت لفظة السنة أن لهذا القانون والشرع معارضين ومحاربين يعلو صوتهم في كل زمان ومكان للشك والطعن في شرائعه تعالى، وهم عقبة يواجهها أصحاب الحق في أشكال متعددة وفي أزمنة وأمكنة مختلفة وقد اقتضت حكمته إزالة هذه العوائق والعقبات أمام الحق، وأن النصر والعلو لشرعه ولو بعد حين، وشروط زوال هذه العقبات مرهون بالالتزام والتمسك بشرعه.

3/- ولقد أمرنا الله في غير سورة بالسير في أرضه والاعتبار بالغير، من باب أن سننه التي ارتضاها أن تكون حاكمة في الموازين هي سارية باقية لا تبدل ولا تتغير، ولا تلين، ولا تحابي أحدا من خلقه لذا أمرنا بالتفقه فيها، والاعتبار بهذه السنن فقال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿[آل عمران: 137-138]، "ففي الآية دلالة على أهمية علم التاريخ؛ لأن فيه فائدة السير في الأرض، وهي معرفة

(1) - السعدي، مرجع سابق، ص 671.

أخبار الأولين، وأسباب صلاح الأمم وفسادها" (1).

والآية تحث على النظر في السنن، أي في قوانينه تعالى التي يحكم بها، وأن هذه السنن ظاهرة مبنوثة ومسطورة إما في كتابه المقروء أو في كتابه المنظور، فعلى المؤمن أن يهتدي بها، فهي بيان للناس وموعظة للمتقين" (2).

بعد استقراءنا لفظة السنن في مجموع الآيات التي أحصيناها تبين لنا ما يلي:

- وردت لفظة السنة في سياق الخطاب القرآني لتبرز قضية التوحيد التي بُني عليها الصراع منذ خلق البشرية.
- جاءت لفظة السنّة في الخطاب القرآني بعد ذكر شرائع الله التي أنزلها على عباده من أجل تبيان نهجه، وأن هذه الشرائع إنما هي جزء من سننه.
- جاءت لفظة السنن لتبرز الصراع القائم بين الحق والباطل، وأن سننّه تعالى تقتضي نصره الحق ولو بعد حين.
- وردت لفظة السنن للتذكير بالعداء الذي يكنّه أصحاب النفوس المريضة للإيمان والتوحيد، وأن سمومهم تبت من أجل إضعاف قوة الحق.
- لفظة السنّة وردت لتمحّص الطيّب عن الخبيث، وأنّ معيار النجاة والصلاح الإيمان ومعيار السقوط الرذيلة والفساد.
- حثّ الله في خطابه القرآني على النظر والتدبر في هذه السنن، بالسير في أرضه وما وقع في الأمم الغابرة، فهي كالدّرس على القانون الثابت، الذي لا يتحوّل ولا يزول ولا يتغيّر.
- يمكن القول إنّ سنّة الله هي عبارة عن قانونه تعالى الذي يحكم به في خلقه، سواء أكانت سنّة كونيّة خاصّة بنظام الكون وتركيبه، أو سنّة اجتماعيّة تحكم الأمم والأفراد والمجتمعات.
- "وقد يخبر الله تعالى عن سننه التي وضعها ليحكم بها سلوك البشر وأفعالهم، يغير لفظة السنن بتقرير

(1) - الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ج4، ص 96.

(2) - المرجع نفسه، ج4، ص 98.

نتيجة معيّنة بناءً عن وصف معين أو حالة معينة، أو بناءً على سبب أو شرط معين فيكون هذا الأخبار بهذه الصيغة إخباراً عن سنته" (1).

نجد السنة في القرآن الكريم تارة تتحدث عن سنن الأنبياء المرسلين وسرد قصصهم مع أممهم وتارة أخرى تتحدث عن شرع الله وأوامره ونواهيه، والتحليل والتحريم، وترمز في مواضع أخرى إلى سنة الله في نصر عباده المؤمنين على عباده الكافرين، ومرة تروى سبب هلاك الأمم، وتحدث في مواضع أخرى عن سنته تعالى في أهل طاعته من المؤمنين وإكرامهم، وسنته في الكافرين وعقابهم.

- يمكن أن نفهم من لفظة السنن في القرآن بالمعنى الآتي: إذا توقّرت معطيات معيّنة فإنّها تؤدي إلى نتائج حتمية مبنية على هذه المعطيات، وطرح المعطيات والنتائج هو باب القانون المضبوط الدقيق الذي يتدارس في المناهج العلمية. إذن السنة تفيد في معناها القانون.

ثانياً: حضور السنن في السيرة النبوية الشريفة:

تعدّ السيرة النبوية بما فيها من أحداث منهج تربويّ دقيق على درس السنن الربانية، فإذا كان القرآن الكريم يمثّل الجانب النظريّ التقعيدي لفقه السنن، فإنّ السيرة النبوية الشريفة تمثّل الجانب التطبيقيّ العمليّ لعلم السنن، فمنهج صلوات الله عليه في التعامل مع الواقع والظواهر بمختلف أنواعها، ومع الكتلة البشرية بجميع فروقها (غني، فقير، قوي، ضعيف، كبير، صغير، رجل، امرأة...) يجسّد فيه مبدأ الأخذ بالأسباب، وكشف السنن، والأخذ ببصيرة الناس إليها، والعمل على بناء مجتمع مسلم يتكامل فيه جميع عناصره.

ولو وقفنا نتمعن على المنهج النبوي، الذي كان فيه النبي ﷺ المنقذ والمطبّق للقوانين والسنن الإلهية من الناحية العملية لوجدنا أن النبي ﷺ عمل في هذا المنهج في جانبين: الجانب الأول: عمل فيه النبي ﷺ على بناء الشخصية المسلمة المؤمنة التي تقود إلى التغيير وهذا ما يطلقه عليه "بالسنن النفسية".

أمّا الجانب الثاني: يقوم على إرساء قواعد المجتمع الإسلامي وبناء كيانه الداخلي من أجل القيام الحضاري للأمة الإسلامية، وهذا ما يطلق عليه بالسنن الاجتماعية، أو "سنن العمران".

(1) - عبد الكريم زيدان، مرجع سابق، ص 16.

وفي كلا الجانبين نجد النبي ﷺ أن منهجه كان قائما على العناصر التالية:

- القوانين التأصيلية للسنة منبعها ومصدرها الوحي الإلهي المتمثل في الخطاب القرآني، فكل القوانين التي عمل بها هي قوانين ربانية التي جاءت لتبني حضارة إنسانية منطلقها التوحيد، وإقامة العدل والمساواة، وتحقيق المصالح الإنسانية للجميع.

- اعتمد النبي ﷺ على الأخذ بالأسباب والتوكل على رب الأسباب، فلم يترك النبي ﷺ في مراحل دعوته ولم يغفل يوما عن هذا الجانب المهم في التغيير.

- استعمل النبي ﷺ في منهجه سنة التدرج، ففي كل مرحلة من مراحل دعوته نجدها قد أخذت حيزا معتبرا من الزمن؛ من أجل أن ينطلق في المرحلة التي بعدها.

- المسرح المطبق عليه هذا المنهج هو الواقع الكوني المعيش، الذي كان فيه طرح النبي صلى الله عليه وسلم واقعي ملموس بعيد عن الخيال والأوهام، والتصورات الميتافيزيقية.

- ولو نظرنا إلى السنة المعمول بها في المنهج النبوي من ناحية الجانب الأول، الذي عمد فيه إلى بناء شخصيات الصحابة رضوان الله عليهم، فإننا نلمس ما يلي:

بدأ النبي ﷺ بالبناء العقديّ الإيمانيّ، وذلك بترسيخ العقيدة الصحيحة في النفوس، فهو أصل الأصول وقاعدة الدين؛ لأنه لا قيام للبشرية وصلاحها، إلا بالاعتقاد الصحيح الذي هو توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، والإيمان بالله وبرسوله واتباعه فيما جاء به ⁽¹⁾

وهذا هو منهج الأنبياء والرسل جميعا، بل هو المحور الذي عليه تدور كل الأفلاك وكل الوجود فبالتوحيد البداية وبه النهاية فقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 25]، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: 36]

والتوحيد الذي عمد على تأسيسه في المرحلة الأولى هو توحيد الربوبية وكل ما يتعلق بمقتضياته حيث أبطل المعتقدات التي كانت سائدة في الجاهلية عن الإله، وأرجعت النفوس إلى الفطرة السليمة

(1) - خالد القرشي، تربية النبي ﷺ لأصحابه رضوان الله عليهم، مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، السعودية، ط1، 1435هـ، ص31.

التي خلقت عليها البشرية جمعاء وهو التوحيد قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّ لَهُ لِيَخْلُقَ اللَّهُ ذَلِكَ أَلَيْسَ الْفَيْمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: 30]

فكان أول ما يبدأ في عرض دعوته ﷺ هو منطلق التوحيد كلمة لا إله إلا الله وسيرته ﷺ تبرز لنا هذا الأصل منذ الوهلة الأولى التي بدأ فيها طرح قضية الإيمان، فذكر في كتب السيرة في عرض هذا المنهج الإيماني العقائدي لما دعا أبا بكر إلى الإيمان قال رسول الله ﷺ "يا أبا بكر، إني رسول الله ونبيه بعثني لأبلغ رسالته، وأدعوك إلى الله بالحق، فو الله إنّه للحق، أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ولا تعبد غيره..." (1)، وما عرضه على علي بن أبي طالب وهو الصبي ذو العشر سنوات، فقال له "تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وتكفر باللات والعزى وتبرأ من الأنداد" (2).

وما يدل على أنّ قضية التوحيد كانت الشاغل الأول للنبي ما رواه ربيعة بن عباد، كان جاهلياً وأسلم فقال: رأيت رسول الله ﷺ بصر عيني بسوق ذي المجاز يقول يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا ويدخل في فجاجها والناس متقصفون عليه، فما رأيت أحداً يقول شيئاً، وهو لا يسكت يقول أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا، إلا أن وراءه رجل أحول، وضيء الوجه ذا غديرتين يقول إنه صابئ كاذب فقلت من هذا قالوا محمد بن عبد الله وهو يذكر النبوة، قلت من هذا الذي يكذب قالوا عمه أبو لهب (3).

وما يؤكد اهتمام النبي بهذا الجانب العقديّ الإيمانيّ "حديث جندب بن عبد الله قال كنا غلماناً حزاوذة مع رسول الله فتعلمنا الإيمان قبل القرآن ثم تعلمنا القرآن فازدنا به إيماناً" (4)، غلماناً حزاوذة بمعنى صبياناً تقارب البلوغ اشتدّ عودها، مما يدل على حرص النبي على غرس العقيدة في نفوس النشء وتربية الأجيال عليها.

(1) - ابن كثير، السيرة النبوية، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، دط، 1395هـ-1976م، ج1، ص 433.

(2) - المرجع نفسه، ج1، ص 428.

(3) - أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، ت عادل مرشد وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط1، 1421هـ-2001م، ج25، ص 404، رقم الحديث 16023

(4) - محمد بن عبد الكريم بن عبيد تخريج الأحاديث المرفوعة المسندة في كتاب التاريخ والكبير للبخاري، مكتبة الرشد، الرياض، ط1، 1420هـ-1998م، ص 912 رقم الحديث 507.

وكان النبي ﷺ في منهجه التربوي يعمل على ترسيخ العقيدة لكي تكون منبعاً للانطلاقة العملية، فالتوحيد وما يقتضيه من تصديق، وقول وعمل فهو الركيزة الأولى للانطلاق، فكان يعلم صحابته هذه العقيدة ويربيهم عليها⁽¹⁾.

وعمل النبي صلوات الله عليه في منهجه الذي اتخذه في بناء الشخصيات المسلمة، إلى البناء الأخلاقي الذي كان موازياً للبناء العقدي، منذ الوهلة الأولى التي نزل فيها القرآن الكريم، فقد اهتم النبي على تركية النفوس وتطهيرها، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس 10-9]⁽²⁾.

ولقد غرس النبي في صحابته الأخلاق، وأكد أنها من العبادة، وهي سبب للفوز والارتقاء في درجات النعيم، فقد كان يحثهم عليها ويوجههم إلى مواطن الخير ويثني عليها، ويبرز لهم الخطأ في الصفات القبيحة، ويعلل قبحها فقال ﷺ "ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن وإن الله يبيغض الفاحش البذيء"⁽³⁾.

وسئل رسول الله عن أكثر شيء يدخل الجنة، فقال "تقوى الله وحسن الخلق"⁽⁴⁾.

وإنّ عظم الأخلاق ما أشار إليها جعفر بن أبي طالب لما هاجر إلى الحبشة وسأله النجاشي عن حقيقة الدين فقال "أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الرحم، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا...، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده...، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، حسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات وأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئاً..."⁽⁵⁾.

(1) - محمد أمزون، مرجع سابق، ص 85.

(2) - خالد القرشي، مرجع سابق، ص 85.

(3) - الترمذي، الجامع الكبير، ت بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، دط، 1998م، ج3، ص 430، رقم الحديث

2002، باب ما جاء في حسن الخلق

(4) - الترمذي، الجامع الكبير، مرجع سابق، ج3، ص 431، رقم الحديث 2004، باب ما جاء في حسن الخلق.

(5) - عبد الملك بن هشام المعافري، السيرة النبوية، ت جمال ثابت ورفاقه، دار الحديث، القاهرة، دط، 2004، ج1، ص 235.

ومن الدّعائم الأخرى التي حرص النبي على غرسها في صحابته لبناء شخصيتهم وهو الحث على العلم، بل إنّ القرآن الكريم جاءت أوّل آياته تدل على هذه الحقيقة، وأهميّة ومكانة العلم في حياة الأشخاص والأفراد. فجعل النبي ﷺ مسلك العلم عبادة وطريقا يفتح به أبواب الجنة، فقال "من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله به طريقا من طرق الجنة، وإنّ الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض والحيتان في جوف الماء، وإنّ فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وأنّ العلماء ورثة الأنبياء وأن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظّ أوفر" (1).

إنّ العلم هو أمضى سلاح بعد الإيمان وهو السّراج المضيء للطريق ودليل العمل الصالح، والعلم ما قرّبنا إلى الله وبصرنا بمصيرنا، ورسخ أقدامنا في الشريعة، ودلّنا على واجباتنا ورسالتنا في هذه الحياة (2).

وما يلزم هذه الدّعامة العلمية في المنهج النبوي ربطها بالعمل، بل إنّ كل الدّعائم السابقة من الإيمان والأخلاق والعلم، فإن لم تتجسّد في أرض الواقع بعمل صالح نافع، ما كان جدوى من هذه الدّعائم كلّها، فالعقيدة محورها التصديق والعمل، وعلى هذا ربي النبي ﷺ صحابته، فقد كان الصحابة يتعلّمون القرآن عن النبي عشر آيات ولم يتجاوزوها حتى يتعلّموا ما فيها من العلم والعمل (3). وهذا بعض من منهج النبوي في العمل بالسّنن الإلهية الربانية في الجانب الأوّل، وهو بناء الشخصية الإسلامية المؤمنة العاملة، وهو ما اصطلح عليه بالسّنن النفسية، وهي التي نجدّها مبثوثة في ثنايا الآيات القرآنية تقوم على إصلاح الأفراد من الداخل لتكوين بنية قوية للنهوض بالمجتمعات إلى الرقي والكمال، وجاء منهج النبي ﷺ موافقا للطرح السنني القرآني.

ولو ألقينا نظرة على منهجه ﷺ في بناء المجتمع الإسلامي، أو ما يصطلح عليه بالسّنن الاجتماعية أو سنن البناء العمراني فإننا نجد:

إنّ السّنن الربانية مترابطة فيما بينها، فكل واحد منها يخدم الثاني، ولقد عمد النبي في الفترة

(1) -أبو داود سليمان، سننه، ت محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة المصرية صيدا، بيروت، (د ت)، (د ط)، ج3، ص 317، رقم الحديث 3641، باب الحث على طلب العلم.

(2) -رشيد كهوس، بناء الشخصية الإسلامية، مرجع سابق، ص 163.

(3) -ابن تيمية، الإيمان ت محمد ناصر الدين الألباني، المكتبة الإسلامية، عمان، الأردن، ط5، 1416هـ-1996م، ص 135.

الأولى من الدعوة "الفترة المكية" إلى بناء الشخصية الإسلامية، وهي الجانب الكبير من السنن الاجتماعية التي تعمل على بناء المجتمع الإسلامي، وقد قامت سنن الاجتماع العمراني على العنصر البشري، الذي أعطاه النبي صلوات الله عليه كل الاهتمام في تربية صحابته على مبدأ التوحيد والعبادة والعلم والعمل والأخلاق الطاهرة الزكية، وبهذا يكون قد هيأ الأرضية الصلبة لقيام المجتمع السليم، الذي سيحكم به وينطلق إلى العالمية، حتى بعد غياب القائد المنقذ لهذه القوانين كلها، ولكنه ترك صحابته على المحجة البيضاء ومنهج رباني منصوص عليه في الكتاب والسنة.

ومن أهم الدعائم التي أخذها في السنن الاجتماعية.

العمل على بث روح الجماعة وسط المجتمع الإسلامي، وكان هذا منذ البداية في المرحلة التأسيسية للدعوة، حيث كانت الجماعة المسلمة الأولى تجتمع في بيت الأرقم بن الأرقم لتلقى التربية الإيمانية في وسط الجماعة بصحبة النبي، ومن الأمثلة على هذه الروح الجماعية حين وصول الرسول إلى المدينة مهاجراً، فأول أمر عمد إليه هو المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وانصهرت بها كل العصبية الجاهلية وسقط معها فوارق النسب، واللون والوطن، فكانت من أقوى الركائز التي قام عليها المجتمع الإسلامي، وكان يحث على هذا الرباط الجماعي وعدم الخروج عليه، ومن الأحاديث الكثيرة التي جاءت في هذا الباب قوله: "تري المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعارفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضوا تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى" (1).

وقوله ﷺ "من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات، مات ميتة الجاهلية" (2).

وقوله "عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد، ومن أراد بحبوة الجنة فيلتزم الجماعة" (3).

كان النبي ﷺ يدعو لجعل المجتمع الإسلامي وحدة واحدة، وهو المبدأ الذي جاء به القرآن

(1) - البخاري، الجامع الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، ت محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط1، 1422هـ، ج8، ص10، رقم الحديث 6011، باب تراحم الناس واليهائم.

(2) - مسلم بن الحجاج، المسند الصحيح المختصر يقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ ت محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (دط)، (دت)، ج3، ص1476، رقم الحديث 1848 باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن.

(3) - الترمذي، الجامع الكبير، مرجع سابق، ج4، ص35، رقم الحديث 216، باب ما جاء في لزوم الجماعة

الكريم، ومع الروح الجماعية التي غرسها في نفوس الصحابة؛ إذ أعطي لكل فرد من الجماعة المسؤولية الكاملة كل حسب موقعه لخدمة هذه الروح الجماعية، فقال "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته فالإمام راع وهو مسؤول عن رعيته، والرجل في أهله راع وهو مسؤول عن رعيته والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسؤولة عن رعيته والخادم في مال سيده راع وهو مسؤول عن رعيته" (1).

فهذه دعامة أخرى لقيام المجتمع الإسلامي بمنظور الواجب، فإذا كان الشخص مسؤولاً عن الشيء الذي استرعى فيه بمفهوم الأداء الديني الإيماني، فإنه سيحرص على أداء المهمة التي أوكلت إليه كل حسب موقعه الذي وضع فيه، وبالتالي تنمي وتعزز روح العمل الفردية والجماعية في نفس الوقت، ولا ينتظر الشخص المسترعى من يحركه لأداء هذه الأمانة، فهي من باب أداء الواجب الذي يحث عليه الإسلام.

ومن أهم الركائز التي بنى عليها النبي المجتمع المسلم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: 110]، فلقد غرس النبي هذه الخصلة في المجتمع الإسلامي، بل هي الخصلة التي أتى بها جميع الأنبياء قبل رسولنا الكريم، ولما تركت من الأقوام لعنهما الله قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (٧٨) ﴿لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (٧٩) [المائدة 78-79].

وجاء في حديث النبي "والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يعم عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجيب لكم" (2).

هذه بعض الدعائم التي سردناها من سيرة النبي ﷺ والتي سار عليها في دعوته، وغيرها الكثير، مما يفيدنا في فهم السنن الإلهية من الجانب التطبيقي.

ونجد السيرة النبوية قد حوت الكثير من الدعائم والركائز لإرساء قواعد المجتمع الإسلامي الذي

(1) - البخاري، صحيحه، مرجع سابق، ج2، ص5، رقم الحديث 893، باب الجمعة في القرى والمدن.

(2) - الترمذي: الجامع الكبير، مرجع سابق، ج4، رقم الحديث 2169 باب ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

يقوم عليه البناء الحضاري للأمة، بداية من الأفراد إلى الجماعات، وتعدّ سيرته ﷺ منهجا فريدا غير به مجرى التاريخ كلّ، من جماعات متفرقة من العرب تنخر فيها كلّ الأمم التي سبقتها، ناهيك عن تناحرهم فيما بينهم على أبسط الأشياء وأتفهها، من جماعات لا تجيد القراءة ولا الكتابة، إلى أمة اقرأ التي يدين لها التاريخ بحضارة أشرق نورها في أقاصي الأرض.

وما كان منهجه عليه السلام إلّا تطبيق ما جاء في المنهج القرآني الرباني، الذي سنّ فيه الله ﷻ قوانين ثابتة لا تتغيّر ولا تتحوّل، فهي المرجع الأوّل الذي ينبثق منه كلّ تصوّر وكلّ حكم، وما هذه القوانين إلّا سننه تعالى التي ارتضى أن يحكم بها على وجه هذه الخليقة، وما قامت الحضارة الإسلامية إلّا بوعيتها الصّحيح لها، فالجماعات الأولى من المسلمين اتقنوا واستوعبوا هذا الدّرس السنّي الإلهي، رغم عدم التّأسيس والتّنظير في هذا العلم إلّا أنهم اتبعوا هدى الرسول في العمل بها.

وما حلّ بأمتنا في الزّمن غير البعيد وزماننا الذي نعيش فيه، من ذلّ وهوان وضعف وانكسار وتقاتل وتكالب الأمم عليها، يبعث على ضرورة استرجاع هذا الدّرس السنّي إلى أذهاننا، من أجل أن نفهم ونعي أنّ ضرورة الانطلاقة، وحتميتها مرهونة بهذا العلم السنّي، بدءا من التّنظير إلى التّطبيق وما وجد في كتاب الله وسنة رسوله، هو الخير الذي لن تضلّ معه الأمة، قال "إني قد خلفت فيكم شيئين لن تضلّوا بعدهما أبدا ما أخذتم بهما وعملت بهما كتاب الله وسنتي" (1)

المطلب الثالث: أوجه السنن الإلهية وخصائصها وأهميتها:

التأمل في نظام الكون البليغ من أصغر ذرة فيه إلى ارتفاع الأجرام السماوية، فترى تنوع الخلق من نيات وحيوان وإنسان وحتى جماد، فترى خلق الله وإبداعه وما يقع من ظواهر تتعاقب فيما بينها في انسجام تام، دون التخلف في هذا التعاقب، فترى الغروب بعد الشروق، والليل بعد النهار والمطر بعد السحاب... وغيرها، وإذا وقفت إلى جانب هذا المخلوق الذي طوى بداخله على العالم بأكمله، فترى فيه تمام الخلقة، من تعديل وتسوية واستقامة حركات وعقل وفكر...، ولو تأملت في التاريخ عن قيام الحضارات وأفولها فإنك تجد نظام قائم على الأسباب والمسببات، ولو تمعنت في أحكامه تعالى وشرائعه

(1) - أبو حفص عمر ابن شاهين، التّرجيب في فضائل الأعمال وتواب ذلك، ت مجّد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1424هـ-2004م، ص 152، رقم الحديث 528 باب فضل ما للعبد في حسن النية للخلق.

لوقفت على نظام متكامل مقاصدي غرضه جلب النفع ودفع الضرر، فمحال أن يكون هذا النظام جاء من باب الصدفة أو العشوائية بل هو قانون عام حاكم في الكون كله.

واقترضت حكمته أن يكون هذا القانون قائما على الأسباب والمسببات، وأوضح تعالى في كتابه أنه خلق الخلق وأعطى الأمر كي يستقرّ الكون في نظام عام دقيق وثابت، مستمرّ ودائم إلى حين قيام الساعة، وقانونه الذي أقامه لقيام هذه الخليفة "سننّه تعالى" التي يجري بها نظامه تعالى في خلقه، فقال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: 54]، ومن أمره تعالى قوانينه الربانية في مخلوقاته، التي يسير بها الكون بانسجام بديع، ولقد حثّ الله سبحانه وتعالى على النظر في هذه القوانين التي جعلها آيات دالة على وجوده فقال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: 53].

ولقد اختلفت النظريات التي تبحث في هذه القوانين كلّ حسب تخصّصه، فمنهم من تمعن في ملكوته المادي من أفلاك، محيطات، نبات، ومنهم من ألقى نظره إلى الإنسان في حيثيات خلقته والآخر عني بالتاريخ والحقبات التي مرت على هذه الأرض .

وسنحاول أن ندقّ هذا القانون العام من خلال تبيان وجوهه التي بثها سبحانه وتعالى، إمّا في كتابة المقروء أو المنظور، وأوّل ما نوجّه إليه النظر في هذا البحث أنّ علم السنن "قوانينه تعالى" لم يتمّ الفصل فيها بعد، إذ هي عبارة عن محاولات متفرقة تظهر بين الفينة والأخرى، فإننا لم نقف على دراسات موحّدة ومكثّفة تنظم هذا العلم وتأسّس له وتضبطه من كلّ جوانبه، ففي بيان أنواع السنن "وجوه" هذا القانون العام الذي يحكم به الله في خلقيته، فإننا وقفنا على دراسات تبين أنواعا لهذه السنن وإن اختلفت التقسيمات.

ومن أهمّ ما تبيّنه هذه الدّراسات أنّه يوجد قانون عام واحد، فلنقل "قانون سنني عام"، وهو الصّادر عن الخالق وحده، وأنّ لهذا القانون السنني وجوه متعدّدة تظهر وتستبان من تعدّد الخلق في حدّ ذاته، فتجد الدّراسات أثبتت أنه يوجد سنن كونية حاکمة في المادة، وأخرى تتعلق بالأفراد والمجتمعات، مع اختلاف هذه الدّراسات في تسمية هذه السنن والوجه.

وستتناول في هذا المطلب أنواع هذه السنن (وجوهها)، وخصائصها، وأهمّية دراستها.

وبما أننا أثبتنا في المطلب السابق أن السُّنَنَ هي قوانينه تعالى التي أجراها في خلقه ليحكم بها نظام العالم، فإننا نقر بأنَّ السُّنَنَ الإلهية واحدة بمعنى "قانون سنني عام"، له وجهان وجهه الأول يحكم به في عالم المادة، ويندرج تحته عدّة أنواع لا تحصى لتعدد الخلق، وأمّا الوجه الثاني فهي التي تتحكّم في الأمم والأفراد، وهي الأخرى تندرج تحتها أنواع كثيرة من السنن.

أولاً: أوجه القانون السنني (أنواع السنن):

1- الوجه الأوّل للقانون السنني (النوع الأوّل للسنن):

يقصد بهذا الوجه من السنن الجانب الماديّ من هذا الكون، فهو يعرف بالسنن الكونية أو الطّبيعية، أو سنن الآفاق، وتعني نواميسه تعالى في تسيير الكون وعمارته، وهو الذي تخضع له جميع الكائنات الحية في وجودها المادي، وجميع الحوادث المادية، ويخضع له كيان الإنسان المادي، وما يطرأ عليه مثل نموّه، وحركة أعضائه ومرضه وهرمه ولوازم بقائه حياً ونحو ذلك⁽¹⁾.

وهذا الوجه من السنن تندرج تحته كلّ السنن الطّبيعية التي أجراها الله في خلقه⁽²⁾.

"ووجود هذا الوجه من القانون السنني العام، هي من أكبر الأدلة على وجود الله الخالق العظيم لأنه لا يمكن للمادة وهي جامدة صماء لا تعقل، أن تضع هذا القانون الهائل الدقيق لهذه الموجودات، وإنما المعقول والمقبول أن يكون واضع هذا القانون هو خالق هذه الموجودات وهو الله جلّ جلاله⁽³⁾.

وهذه السنن الكونية "الطّبيعية" هي آثار أفعال الله في خلقه، وهي الوجه الأوّل، والجانب الذي تبرز فيه قدرة الله تعالى وعلمه، فمجال هذه السنن وسريانها هو عالم المادة، أي تقع ضمن عالم الآفاق قال تعالى: ﴿سَرِّهِمْ ءَايَتُنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: 53]، وهذا الوجه من القانون السنني العام لا يختلف في وجوده أهل العلم، بل يقرّون بهذا النظام الذي يتحكّم في المادة، والكون كله محل هذا الوجه من القانون السنني العام، فهو قانون ظاهر وبارز ومعلن للجميع، وهو محلّ النظر والتأمّل والمشاهدة لمن أراد أن يستدل

(1) - عبد الكريم زيدان، مرجع سابق، ص 7.

(2) - عادل بن بوزيد عيساوي، مرجع سابق، ص 261 / أنظر رشيد رضا، مجلة المنار، مرجع سابق، ع 1، ص ص 15-16.

(3) - عبد الكريم زيدان، مرجع سابق، ص 8.

على الوجه من السَّنَنِ الكونية الطبيعية⁽¹⁾.

وقد دل القرآن على هذا الوجه في العديد من الآيات مما لا يتسنى إحصائها جميعا ومن أمثلتها قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 164] وقوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (٤٠) [يس: 40-38]

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (١٤) [المؤمنون: 12-14]

وغيرها من الآيات التي تقرّر وحدانية الخالق، وتحثّ على النظر في هذا النوع من السَّنَنِ.

وهذا النوع من السَّنَنِ التي بثّها الله في هذا الكون متاحة للنظر والتّسخير والدّراسة من قبل الإنسان مسلما أو كافرا⁽²⁾.

والإنسان هو جزء من هذا النظام السَّنَنِي الكوني، يخضع للقوانين التي تتحكّم في المادة، كما يخضع لها غيره من المخلوقات، ومع ذلك هو السيّد على هذه المادة، بحيث جعله خليفة في الأرض، وأعطاه الله القدرة على استغلالها وتسخيرها، ولم يجعل ذلك لغيره من المخلوقات، وذلك لامتلاكه لآلات المعرفة بهذا الوجه من القانون التي أودعها فيه الخالق والمالك لهذا القانون، فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ

(1) - عبد الكريم زيدان، مرجع سابق، ص 9 وما بعدها.

(2) - عبد الكريم زيدان، مرجع سابق، ص 11.

نَشْكُرُوكَ ﴿٧٨﴾ [النحل: 78] ⁽¹⁾.

ومن تمام حكمته تعالى أنه جعل في نظامه السنني الكوني قدرة على التسخير من قبل هذا المخلوق الذي استرعاه في ملكه، بحيث أوجد في كل سنة من هذا القانون طريقة للتسخير ينتفع بها لتصبح مهمة الإنسان معرفة طرق عمل هذه السنن لاستغلالها وتسخيرها ⁽²⁾.

وجعل الله في هذا الكون نظاما يخدم الإنسان، ولا يمكن الاستفادة منه إلا بمعرفة مفاتيحه، وقد جعل الله مفتاحا تسخيريا في كل سنة من سننه، لذلك وجب على الإنسان معرفة المفتاح الصحيح لكل سنة ليتم معها التسخير. ⁽³⁾

وبالتالي تكون المادة المتفرقة في هذا الكون باختلافها من ناحية الشكل والصيغ والتراكيب مجالا للدراسة والبحث، ولقد أتيح للعقل البشري الغوص بلا حدود، ومع تنوع أشكال المادة تتنوع السنن فنتج عن هذا التنوع علوم مختلفة التي يمكن أن تدلل هذه القوانين، فهي الوجه الأول للقانون السنني العام الذي يتحكم به الله في خلقه.

- إذن، فالسنن الكونية، أو الطبيعية، أو سنن المادة أو سنن الآفاق كلها بمعنى واحد دالة على الوجه الأول من وجوه القانون السنني العام "فهي النواميس الحاكمة في الطبيعة وفي العالم المادي، وفي نظام الكون وتركيبه وحركاته ومجرياته، وتسمى بالآيات الكونية وآيات الآفاق وتسمى بعلوم العصر علوم الفلك والفضاء والأرض والبحار والأحياء.... وهذه السنن تخضع لها جميع الكائنات الحية في وجودها المادي، وجميع الحوادث المادية، كما يخضع لها كيان الإنسان المادي، وأكثر الناس تمعنا وبحثا وجديّة والتزاما بالعلم المنهجي الذي يفتح بابها، أكثر الناس استغلالا لها" ⁽⁴⁾.

2- الوجه الثاني للقانون السنني (النوع الثاني من السنن):

إذا كان الوجه الأول للقانون السنني الإلهي العام قد بثّ في الجانب المادي للكون، فإنّ الوجه

(1) - المرجع نفسه، ص 12

(2) - عادل بن بوزيد عيساوي، مرجع سابق، ص 267.

(3) - ماجد عرسان الكيلاني فلسفة التربية الإسلامية، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان، ط1، 1407هـ، 1987م، ص 115.

(4) - رشيد كهوس، السنن الإلهية الكونية والاجتماعية لطائف وبصائر، مجلة تدبر، هيئة الامة لتدبر القرآن، قطر، ع1، محرم 1438هـ-أكتوبر 2016، ص 173.

الثاني قد اختصّ في حركة الإنسان والجماعات والأمم، من حيث صدور الفعل البشري سواء أكانوا أفراداً أو جماعات، وما يحكم على هذه الأفعال من خيرية أو شرّ، وما يترتب عليها من عقاب وجزاء، ابتداء من علاقة الإنسان بنفسه، وعلاقته بربه وعلاقته بغير من بني جنسه، ثمّ علاقته بما يحيط به من عالمه الذي هو خليفة فيه. فهي "سنة الله تعالى المتعلقة بأفعال البشر وسلوكهم، فهي طريقته المتبعة في معاملته للبشر، وما يترتب عن ذلك من نتائج معينة في الدنيا والآخرة"⁽¹⁾، فالقرآن الكريم هو كتاب هداية إلى هذه السنن التي بها يكون نظام حياة الإنسان فرداً كان أو جماعة، "فالعرب الذي وجه إليهم القول أول مرة لم تكن حياتهم، ولم تكن معارفهم، ولم تكن تجاربهم قبل الإسلام لتسمح لهم بمثل هذه النظرة الشاملة، لولا هذا الإسلام وكتابه القرآن الذي أنشأهم به الله نشأة أخرى وخلف به أمة تقود الدنيا"⁽²⁾.

والمأمل في كتاب الله العزيز يجده قد حوى بين آياته قوانين ثابتة سارية مفعولها في كلّ زمان ومكان، وما بتاريخ البشرية إلا موقع لهذه القوانين التي سنّها الله ليحكم بها في خلقه ويسير بها أفعالهم وتعدّ "السنن الإلهية حقائق ثابتة تقدم لنا تصوّراً واضحاً شمولياً وكملياً وتفسيرا صحيحاً عن وجود الإنسان والحياة، فهي فقه التاريخ والعمران والاجتماع البشري وعلم النفس الإسلامي؛ لأنّها تبصّرنا بطباع النفوس، وعلل الحضارات، وهي عوامل تشكّل المجتمعات وصناعة التاريخ، كما تكشف لنا كليات الدين وغاياته الكبرى، وعن منهاج بناء الإنسان الصالح المصلح والأمة الشاهدة"⁽³⁾.

وهذا الوجه من "القانون السنني الإلهي العام" قد اختص بالإنسان في جميع جوانب حركاته داخلية وخارجية - ظاهرة باطنية - قياماً وأفولاً، صعوداً وهبوطاً، شرّاً خيراً، جزاء عقاباً دنياً وآخرة، أفراد وجماعات، وهذا الجانب هو الذي اصطلح عليه الكثير من المفكرين بالسنن الربانية أو السنن الإلهية للفرقة بينها وبين السنن الكونية الخاصة بالمادّة⁽⁴⁾.

كما أنّنا نجد تسميات أخرى لهذا الوجه من القانون السنني الإلهي المتعلّق بالإنسان وحركته، مثل

(1) -عبد الكريم زيدان، مرجع سابق، 13.

(2) -سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ج2، ص 449.

(3) -رشيد كهوس، السنن الإلهية علم من علوم الإسلام، مجلة الداعي، ع3، نوفمبر 2019، ص 13.

(4) -رمضان خميس زكي، مرجع سابق، ص 45.

السنن الاجتماعية، السنن التاريخية، السنن النفسية والسنن الشرعية⁽¹⁾.

ولقد عُني القرآن الكريم بهذا النوع من السنن، ووجه إليه النظر في غير سورة من سورته، بل إن لفظة السنن الواردة في الآيات جاءت كلّها دالة على هذا المعنى وهذا الوجه، الذي يدعو فيه الإنسان إلى التفقه في سير الأمم السابقة وبيان الاعتبار منها، فهي قوانين سارية حاکمة في أفعال البشر من جميع الجوانب وعليها الجزاء والعقاب والنهضة والنكوص، قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [آل عمران: 137]، "فالقرآن الكريم ليس كتاب منطق ولا فلسفة بمعناها المعروف إلا أنه سلك مع المخاطب لإقناعه وإرشاده، والأخذ بيده إلى طريق الله المستقيم"⁽²⁾، والسبيل لمعرفة سنة الله أي الوجه الثاني للقانون العام هو الرجوع إلى كتاب الله العظيم، وسنة نبيه الكريم، فما فيها هو القول الفصل، والحق المبين والقول الصادق، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: 122]⁽³⁾، فالسنن الإلهية من هذا الوجه اندرجت تحتها عدة أنواع من السنن، من بينها السنن التاريخية "وهي التواميس التي تسير حركة التاريخ وفق منعطفها، وعبر مسالكها التي ليس إلى الخروج عليها سبيل لأنها منبثقة من صميم التركيب البشري، ومعطياته المحورية الثابتة..."⁽⁴⁾.

فالسنة الاجتماعية التاريخية "هي قانون طبيعي يحكم عالم النهوض والانحيار الأُمّي الذي يظهر ويتجلّى في المعجزة والضرورة والعدل، ويتجلّى في كلّ جزء تحرك أو يتحرك فيه الإنسان، وظهورها شاهد على نوع هذا التحرك، وماهيته، وكيفيته، ومصداقيته"⁽⁵⁾.

ومن بين السنن الأخرى التي تجد الكثير يتحدّث عنها السنن الاجتماعية التي تندرج تحت هذا

(1) —أنظر: رشيد كهوس، السنن الإلهية الكونية والاجتماعية لطائف وبصائر، مجلة تدبر، ع1، 2016، ص172، /انظر أيضا: عادل

بن بوزيد عيساوي، فقه السنن الإلهية ودورها في البناء الحضاري، مرجع سابق، ص181، ص199.

(2) —رمضان خميس زكي، مرجع سابق، ص75.

(3) —عبد الكريم زيدان، مرجع سابق، ص13.

(4) —عماد الدين خليل، التفسير الإسلامي للتاريخ، بيروت، دار العلم للملايين، ط3، 1981م، ص108.

(5) —الركابي، السنن التاريخية في القرآن المجيد، دار النهضة الإسلامية، بيروت، ط1، 1996م، ص15.

النَّوع من السَّنَن الإلهية في وجهها الثاني من هذا "القانون السنني الإلهي العام" فسنن الله الاجتماعية "هي وقائع الله التي جرت عاداته بإنزالها بعباده على أعمالهم الاختيارية" ⁽¹⁾، فهذه السَّنَن الاجتماعية "هي القوانين المطردة الثابتة التي تشكّل إلى حدّ كبير ميكانيكية الحركة الاجتماعية" ⁽²⁾.

ومن السَّنَن الأخرى التي تندرج تحت القانون السنني الإلهي العام بوجهه الثاني السَّنَن النفسية "وهي تلك القوانين التي تتحكّم في حركة النفس الداخلية سلبا وإيجابا تحكّما يظهر في آثار النجدين" ⁽³⁾. وإن كانت هذه الأنواع من السَّنَن يندرج تحت الوجه الثاني من القانون الإلهي السنني، إلّا أنّها متكاملة فيما بينها، إذ لا يمكن فصلها عن بعضها، وكلّ واحدة من هذا النوع يجرّ بديل الأخرى، من أجل إعطاء تصوّرا متكاملا عن هذا القانون .

وأهمّ هذه الأنواع من الوجه السَّنَن النفسية، كما رأى المفكّر مالك بن نبي؛ إذ لا يمكن التحدّث عن السَّنَن الاجتماعية ولا التاريخية وحتى السَّنَن الكونية، إلّا إذا تفقّهنّا في السَّنَن النفسية التي تعمل على بناء شخصية هذا الفرد المتحرّك الفعّال فوق هذه الأرض من أجل التّسخير والتّعمير، والرّقي إلى مصافّ الحضارة التي تسمو بالإنسانية في أعلى كمالاتها ⁽⁴⁾.

وتجدد حقل الآي القرآني يزخر بهذه القوانين الإلهية، التي ترسم للإنسان تصوّرا ذا أبعاد رباعية، الله، النفس، الكون، المجتمع، بحيث يعطي لكلّ بعد منها حقّه، لا إفراط ولا تفريط، في وسطية تراعي طبيعية هذا المخلوق البشري، الذي يتمتّع بالملكات التي تُؤهّله لكسب ومعرفة هذا القانون الرباني بكلّ وجوهه، فينتفع بها دنيا وآخرة، ضمن فلسفة قرآنية لها غايات ومقاصد مسطرة، مضبوطة ثابتة لا تحابي نظاما ولا جماعات ولا تنصر فردا بعينه على غيره، إنّما جعلت هذه القوانين للإنسانية جمعاء، ينصر فيها الحق ويزهق الباطل، وبتعدّد الوجوه تعددت السَّنَن سنة الله في الهدى والضلال سنة الله في التقوى والإيمان سنة الله في الحق والباطل، سنّة الله في النصر، سنة الله في الأسباب والمسببات، سنة الله في

(1) —صديق عبد العظيم أبو الحسن، مفهوم سنن الله الاجتماعية في القرآن الكريم، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الكويت، ع31، مج12، ص56.

(2) —مُحمّد الغزالي، كيف تتعامل مع القرآن، نخضة مصر للطباعة، ط7، 2005، ص48.

(3) —عادل بن بوزيد عيساوي، مرجع سابق، ص181.

(4) —ارجع الى : مالك بن نبي، تأملات، دار الفكر المعاصرة، بيروت، ط1، 1979م، ص129.

الاختلاف سنّة الله في التمكين.... وغيرها وجب طرقها من أجل معرفة طريق الصّواب المؤدّي إلى صراطه المستقيم.

ويعدّ الفقه بالقانون السنني الإلهي "السنن الإلهية" بكلّ وجوهه وأنواعه فريضة على الأمة، التي تركت هذا العلم وفترت فيه فناها الخزي والخذلان، فهذا ما أرشدنا إليه ربّنا في "محكم آياته إلى أن الأمم ما سقطت من عرش عزّها، ولا بادت ومحي اسمها من لوح الوجود إلا بعد نكوبها عن تلك السنن التي سنّها الله على أساس الحكمة البالغة"⁽¹⁾.

ولقد حتّ الشيخ مُحمّد عبده في أقواله إلى وجوب تبصّر طائفة من المسلمين في هذا العلم والتفقه فيه، "فإرشاد الله إيانا إلى أن له في خلقه سننا، يوجب علينا أن نجعل هذه السنن علما من العلوم نستلهم ما فيها من الهداية والموعظة على أكمل وجه، فيجب على الأمة في مجموعها أن يكون فيها قوم يبينون لها سنن الله في خلقه، كما فعلوا في غير هذا العلم من العلوم والفنون التي أرشد إليها القرآن بالإجمال، وقد بيّنها العلماء بالتفصيل عملا بإرشاده، كالّتوحيد والأصول والفقه"⁽²⁾. ومنه "فالنظر في السنن الإلهية فريضة وضرورة، فهو فريضة للآيات الكريمة التي تحث على التّظر والسير والاعتبار بمن خلوا، والتفكير في آثار الداهيين فالسعيد من وعظ بغيره، والشقي من وعظ بنفسه"⁽³⁾.

فوجب هذا العلم على الأمة الإسلامية راجع لأهميّة السنن الإلهية من منظور قرآني ومنظور حضاري.

ثانيا: أهميّة دراسة السنن الإلهية وخصائصها:

1_أهميّة دراسة السنن الإلهية:

يقدم لنا القرآن الكريم نظرة تصوّرية كاملة عن السنن الإلهية التي تتحكّم في نظام الحياة التي أرشد إليها ربنا في كتابه العزيز لكي نهتدي إليها، فتكمن أهميّة السنن الإلهية من منظورين، من المنظور القرآني الذي حتّ على هذا العلم، ومن المنظور الحضاري الواقعي المشهود، فضرورة طرق هذا الباب السنني

(1) -رشيد كهوس، فقه السنن الإلهية واجب وفريضة، مجلة الفرقان، جمعية المحافظة على القرآن، الأردن، ع 159، سنة 16، 1436-2015، ص 8.

(2) -مُحمّد عمارة، الأعمال الكاملة لشيخ مُحمّد عبده، دار الشروق، بيروت، ط 1، 1414هـ-199م، ج 5، ص 95.

(3) -رمضان خميس زكي، مرجع سابق، ص 67.

لرجوع إلى متن الحضارة، والخروج من حيز التهميش، الذي تاهت فيه هذه الأمة، وتركت مكانتها في قلب الصفحات لترضي بحافتها وتقرع الطبول على الماضي المجيد، ولا يمكن العودة إلى قلب الحضارة والرفي إلا بالنهل من هذا العلم الذي بته الله في ثنايا آياته المقروءة وآياته المنظورة.

فلو نقف على أهمية دراسة السنن الإلهية من المنظور القرآن، لوجدنا الخطاب الرباني يضع بين أيدينا تصوّراً واضحاً ومتكاملاً، ومنهجاً ناجحاً في تبيان هذه السنن ودورها في عملية الارتقاء البشري ولو تمعنا في هذه السنن نجدها ذا أبعاد مقاصدية، وأهمية كبيرة؛ لأنّ واضعها محال أن يكون من باب العبث والعشوائية، بل نظامه فيه مقاصدي، ومن أهم مقاصد السنن الإلهية توحيد الله تعالى وعبادته قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْإِنْسَ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ ۝ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ۝﴾ [الذاريات 56-58]، فغاية السنن الإلهية الوصول إلى وحدانية الله وعبادته وإعلان الطاعة له وحده، فالناظر في سننه الكونية بنظامها وتناسقها وانسجامها المبتوث في هذا الخلق بجميع أنواعه وأشكاله فهو برهان دال وناطق على وحدانية الله (1).

فسنن الله في الآفاق حجة دامغة على من ينكر وحدانية هذا الخالق، فكلّ خلق في هذا الوجود إنّما دال عليها، ومع هذا لم يترك الخالق البشرية تتخبّط وتسير في العماء، فقد أرسل الرسل وأنزل الكتب وبَيّن بالمعجزات على وجوده ووحدانيته، وشرائعه سننه للبشرية لزيادة في الاهتداء إلى هذا الخالق وعبادته على الوجه الذي ارتضى، فعقيدة التوحيد هي المبدأ والمنطلق لهذه السنن بل قيامها عليها، فالتوحيد هو المحور الأساس والقضية الأولى التي أودعها الله في رسالاته، وحثّ عليها في تشريعاته، بل هي سبب لكلّ أمر ونهي، وهي أساس النجاة في الدنيا والآخرة.

ولعلّ المقصد الثاني من السنن الإلهية هو إثبات صدق النبوة قال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: 49]، فنزول القرآن بهذا النظام السنني في الآفاق والأنفس أكبر دليل على صدق هذه النبوة.

كما أنّ القانون السنني الإلهي جاء في نظام متكامل لإصلاح البشرية، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي

(1) —مُحَمَّدُ رَشِيدُ رِضَا، "حدوث العالم في نظر الإسلام والفلسفة"، مجلة المنار، غرة شعبان 1320هـ، مج5، ص 581.

بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾ [الجمعة: 2] "آياته المتلوة هي سور القرآن، المرشدة إلى سنته في الأكوان، والتزكية هي التربية بالعمل وحسن الأسوة والكتاب هو الكتابة التي تخرج العرب من أميتهم والحكمة هي العلوم النافعة الباعثة على الأعمال الصالحة، فجميع مقاصد القرآن وبيان السنة له تدور على هذه الأقطاب الثلاثة"⁽¹⁾، فالسنة الإلهية التي جاء بها القرآن الكريم موجّهة لسلوك الإنسان وعمله تنبّه على القبيح منه وتعذّله، وتثني على الحسن وتسمو به، فغاية السنة الإرشاد والإصلاح لسلوك الإنسان فوق هذه المعمورة؛ من أجل أن يؤدّي وظائفه التي أنيطت به، والخلافة من الوظائف التي أعلن عنها من قبل الرحمن، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30]، إن الخلافة في الأرض هي عمل هذا الكائن الإنساني، وهي تقتضي ألوانا من النشاط الحيوي في عمارة الأرض والتعرّف على قواها وطاقاتها، وذخائرها ومكوناتها وتحقيق إرادة الله في استخدامها وتنميتها وترقية الحياة فيها، كما تقتضي الخلافة القيام على شريعة الله في الأرض لتحقيق المنهج الإلهي الذي يتناسب مع الناموس الكوني العام ومن ثم يتجلّى أن معنى العبادة التي هي غاية الوجود الإنساني، أو هي وظيفة الإنسان الأولى، أوسع وأشمل من مجرد الشعائر، وأنّ وظيفة الخلافة داخلية في مدلول العبادة قطعاً. إنّ تحقيق عمارة الأرض وتحقيق للوظيفة الأولى التي خلق الجن والإنس لها، وكلّها تخضع للناموس العام الذي تمثّل في عبودية كلّ شيء لله دون سواه"⁽²⁾.

ومن ثم فإنّ المقصد من وراء السنة الاستخلافية في الأرض هو عمارة الأرض وقيام هذا المستخلف بوظيفته الحضارية النهضة التي أساسها العبوديّة ونشر تعاليم الله وشرائعه لقيادة الإنسانية إلى أعلى كمالاتها قال تعالى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: 61]، فخلافة الإنسان والاستعمار في الأرض بما ينفع الناس، وتحقيق التوحيد والعبودية للدين وحده، هو مقصد من مقاصد السنة الإلهية التي بثها الله في ثنايا آياته قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا

(1) -مُحَمَّدُ رَشِيدُ رِضَا، الوحي المحمدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1426هـ-2005م، ص 119.

(2) -رشيد كهوس، مقدمات في الفلسفة السننية، مجلة المدونة، مجمع الفقه الإسلامي، بالهند، ع5، س2، 1436هـ-2005، ص 167.

يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿[النور: 55] .

وتكمن أهمية السنن أيضا في إدراك غاية الله في خلق هذا الكون، وحكمته في تسييره وفق نظام محكم متكامل⁽¹⁾، وهذا ما يجعل الإنسان أكثر رقابة ومسؤولية على عمله، من خلال إدراكه لهذا النظام السنني القائم على الدقة والإتقان.

معرفة سنن الله جزء من معرفة الدين، او معرفة لجزء من الدين، وهذه المعرفة ضرورية، ومن الواجبات الدينية، التي تبصّرنا بكيفية السلوك الصحيح في الحياة، حتى لا تقع في الخطأ والغرور والأفاني الكاذبة، وبذلك ننجو ممّا حذرنا الله منه، ونظفر بما وعد الله به عباده المؤمنين المتقين، فالسنن الإلهية تبصر الإنسان بخالقه، وترسم له خطة سيره من البداية إلى النهاية، وتبرز له الأهداف والغايات، وتبيّن له المنافع والمصالح⁽²⁾.

واستخلاص العبر من القصص القرآنيّ ومصير الأمم السابقة، من أهمّ ما يميّز مسألة إدارة السنن الإلهية؛ لأنّ تعاقب الأمم على بعضها في النهوض والأفول مرده إلى هذه السنن الإلهية قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [آل عمران: 137].

وتكمن أهمية السنن الإلهية من المنظور الحضاري الواقعي المنشود والمشهود، فهي السبيل للخروج بالأمّة من مطباتها التي غاصت فيها، وذلك بالفهم الأمثل لفاعلية الإنسان فوق سطح المعمورة، ودوره في حركة التاريخ والظواهر الاجتماعية، وأنّه محور التّغيير السنني، وبيده تصحيح المسار الحضاري لهذه الأمّة، والرّقي إلى الصّدارة والرّيادة⁽³⁾.

كما ترجع أهمية السنن من هذا المنظور الحضاري في بناء شخصية المسلم الواعي، الذي يتعهّد كتاب الله بالقرآن والعناية والتدبّر والفهم، فيكون مستوعبا لجريان الأحداث من حوله، كما تبعث دراسة السنن الإلهية الطمأنينة والوضوح في نفوس أتباع هذا الدين، الذي يثبت لنا تاريخ البشرية وما حلّ بها من أحداث ومجريات تجعل الإنسان قادرا على أن يأخذ هذه الأحداث تجارب صالحة تفيده في

(1) -ذو الكفل بن الحاج مُجّد، السنن الإلهية حقيقتها وإدراكها في ضوء القرآن الكريم، مجلة معهد الإمام الشاطبي، ع7، 1430هـ، ص 16.

(2) -عبد الكريم زيدان، مرجع سابق، 16.

(3) -إبراهيم بن علي الوزير، على مشارف القرن الخامس عشر الهجري، دراسة للسنن الإلهية والمسلم المعاصر، دار الشروق، مصر-

لبنان، ط4، 1409هـ-1989م، ص 11

رسم مستقبله وتمنعه وتحميه من الوقوع فيما وقع فيه غيره من البشر في سالف الأيام⁽¹⁾.

إنّ فقه السنن الإلهية والتعامل معها بوعى وعلى بصيرة، من شأنه أن يخلص الأمة من أغلالها الذرائعية وقيودها الاتكالية، وآثار الفكر الإرجائي، وأن يسدّها على سكة الصّواب، ويبعث فيها روح الحيوية والانبعاث من جديد⁽²⁾.

فقه السنن الإلهية هو المعراج والسبيل الوحيد لخروج الأمة من ركودها وسباتها العميق، الذي تركت فيه مجالا للغير للعبث والفساد، فحان للأمة أن تنصّب نفسها على عرش الحضارة؛ لما تملكه من مقومات تؤهلها للقيادة في ظلّ هذه الفوضى والعبثية بالإنسانية، التي تؤدّي بها إلى الانتحار والموت المحتّم، ففي فهم القانون السنني الإلهي العام بوجهيه انطلاقة إلى مصافي الرقي والتحضّر، ففي هذا القانون الرّباني الدّستور والأهداف والمنهاج، ويبقى على محرّك التاريخ أن يشغل زرّ الانطلاقة السوية المستقيمة بمنظور متكامل بين وجوه هذا القانون، الذي سنّ في شرع الله في النصر، والتأييد، والتّمكن.

2- خصائص السنن الإلهية:

المتأمل في الكون وفي الموجودات التي نظمت فيه، فإنه يجد تناسقا وانسجاما وإبداعا وإتقانا فكل شيء فيه مردّه إلى قوانين ثابتة مطردة لا تتبدّل ولا تتحوّل، ممّا ينفي وجود العبثية والعشوائية والصدفة في هذه القوانين؛ لأنّ مستند هذه القوانين إلى خالقها الذي خلق وقدر بحكمة بالغة لا يتعارض فيها خلقه، ممّا يثبت وحدانيته وربانيته وقدرته على كلّ شيء، وقوانينه تعالى هي سننه المطردة التي نظم بها خلقه وبمقتضاها يدبر ملكه، فإنّ لها خصائص تثبت صدق هذا العلم، والذي مصدره الخالق عز وجلّ، فأول تلك الخصائص:

- الرّبانية: يقصد بالرّبانية أنّ هذا العلم السنني الإلهي مستمدّ من النور الإلهي، ممّا ينفي عنها كل التصورات الفلسفية البشرية ذات النظرة القاصرة، أو التوهّمات المبنية على الشكّ والخرافات والوثنية.⁽³⁾

(1) -أنظر عماد عبد الكريم خصاونه وخضر إبراهيم قرق، "السنن الإلهية في القرآن الكريم ودورها في استشراق المستقبل، مجلة المنارة للبحوث والدراسات، ع2، مج15، 2009، ص ص 214-215.

(2) -أنظر: رشيد كهوس، مقدمات في الفلسفة السننية، مرجع سابق، ص 171.

(3) - رشيد كهوس، السنن الإلهية وخصائصها، مرجع سابق، ص 6.

- الثبات: قال تعالى: ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: 77]، وقال جلّ علاه ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح: 23]، فخاصية الثبات في السنن ملاحظة في توازن الكون واستقراره واستمرارية الحياة فيه، ولو لم تكن هذه الخاصية لرأيت الكون تعمه الفوضى والعبثية، وهذا ما يتنافى مع الواقع المشهود الذي ترشد إليه كلّ العوالم المبتوثة فيه من صغيرها إلى كبيرها، وهي سارية في تشريعاته تعالى لخلقها⁽¹⁾.

-الاطراد: فهي مطردة لا تتخلف، ومما يدلّ على إطرادها في الكون قيام هذه السنن على قانون السببية (السبب والمسبب)، فكلّما ظهرت معطيات معيّنة جرت ورائها نتائج حتمية، وما يدلّ عليها في شرعه، قصصه تعالى في الأمم السابقة وما حلّ بهم لتعظ ونعتبر ونبتعد عن أفعالهم، ولولا خاصية الإطراد لما أمكن الاعتبار بها قال تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَأْأُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: 2]، وعليه فالمقصود بإطراد سنة الله تتابع حصولها، أو تكرار آثارها على الوثيرة نفسها كلّما توفرت شروطها، وانتقت الموانع التي تحول دون تحقيقها⁽²⁾.

وبالتالي، فخاصية الإطراد تحوّلنا في البحث في السنن بجميع أنواعها في كتابه المقروء والمنظور، من أجل الاستفادة منها وتذليلها في الحياة، فلولا هذه الصّفة لما تمكنا من البحث في القانون السنني، وما كان هناك جدوى من دراستها والنظر فيها.

-العموم: تعني خاصية العموم بأنّ قوانين السنن الإلهية عامّة وليست خاصّة، وأنّ أحكامها سارية في الجميع دون محاباة ولا تمييز، قال تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ، وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: 123]، "فإنّ الله ينصر الدّولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدّولة الظّالمة وإن كانت مؤمنة"⁽³⁾.

-الواقعية: والمقصود بالواقعية أنّ هذه السنن تلامس في قوانينها الواقع المشهود، وتعالج حقائق

(1) - رشيد كهوس، السنن الإلهية وخصائصها، مرجع سابق، ص 9 (بتصرف).

(2) - أحمد كنعان، أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق، مركز البحوث والمعلومات، قطر، ط1، 1411هـ، ص 76.

(3) - ابن تيمية، الفتاوى الكبرى، ت مجّد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1408هـ-1987م، مج28، ص 63.

موضوعية ذات وجود حقيقي، فهي ليست ضرباً من الخيال أو التصورات، وتمثّلات عقلية تطرحها الفلسفات.

- **الشمولية:** جاءت السنن الإلهية شاملة لكلّ قضايا الكون، ولجميع شؤون الحياة، وحركات الإنسان وتغطي جميع الأزمنة والأمكنة، لا حدود لنطاقها أو تقاعصها عن ميدان من الميادين، قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: 06] وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَ فَضْلِنَا تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: 12] ⁽¹⁾.

- **الوسطية والتوازن:** الوسطية من مميزات هذه الأمة، وشريعته التي جاء فيها الاعتدال والتوازن بين جميع الجوانب، فلا إفراط ولا تفريط، ولا غلو ولا ميعان، فالسنن الربانية جاءت تجمع بين المادة والروح فلا صراع لأحدهما على الآخر فهي توازن بين الجانبين، وتصنع منهجاً وسطياً يسير في خضمه الإنسان إلى برّ الأمان، فيعطي به كل ذي حقّ حقه دون إهمال أحد الجوانب على الآخر، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: 143] ⁽²⁾.

يمكننا في آخر هذا المطلب استنتاج أهمّ النتائج:

- الأصل في السنن الإلهية واحدة ولها وجهان، أو يمكن أن نقول إنّ هناك نوعين من السنن وهي عند جموع العلماء سنن كونية (الوجه الأوّل)، وسنن اجتماعية (تتحكّم في الأفراد والجماعات والأمم)، وهي (الوجه الثّاني) لهذا القانون السنني الإلهي العام.

- فالنوع الأوّل "السنن الكونية" فهي القوانين التي تتحكّم في المادة من نموّ وحركة، وتكاثر وموت وحياة ونبات وحيوان، وإنسان وجماد، وهذه السنن تدل على عظمة الخالق، وأهميتها ترجع في التحكّم فيها، من أجل تدليل الكون وتسخيرها لخدمة الإنسان ولا فرق بين المسلمين وغيرهم في الانتفاع بها، غير أنه من بذل سعيه في اكتشافها، واجتهد في طرق مفاتيحها العلمية كان معه التسخير الأمثل والانتفاع الأفضل.

(1) - للمزيد من التفصيل أنظر: رشيد كهوس، السنن الإلهية وخصائصها، مرجع سابق، 23، وما بعدها.

(2) - المرجع نفسه، ص 24، ص 29 وما بعدها.

- أمّا النوع الثّاني "السَّنن الإلهيّة" التي تتحكّم في الأفراد والجماعات والأمم، فهي التي تتعلّق بسير الإنسان ونهوضه، وقيام حضارته، والصّدارة والرّيادة، وهذه القوانين السَّننية التي يمكن أن يستغلّها الإنسان المستخلف لتسيير حركته في صفحات التاريخ لتدوين النّصر والتّمكن، وهذا النوع من السَّنن هي التي يطلق عليها العلماء بالسَّنن الإلهية أو الربانية، أو حتى تطلق عليها بالسَّنن التاريخية أو السَّنن البشرية، أو السَّنن التشريعية، أو الاجتماعية.

- غير أنّنا نرى بأن هذه السَّنن كلّها تعبير عن قانون إلهي عامّ، وله وجهان وجه إلى المادة والآخر إلى الأفعال المحركة للتاريخ التي تنتج وتصدر عن بني البشر؛ لأنّ كلّ من الوجهين هو خلق لله تعالى، فالأوّل لا اختيار له في الحركة والثّاني له الاختيار في الحركة، فالأوّل يخضع للثاني ولا قيام الثّاني إلاّ بالأوّل، بمعنى لا قيام لحركة الإنسان لولا هذه القوانين التي تتحكّم في المادة "السَّنن الكونية" ولولا الإنسان لما تمّ الانتفاع من هذه السَّنن الكونية المادية، أي أنه لولا السَّنن الإلهية في الأنفس والجماعات والأمم لبقيت هذه السَّنن معطّلة مجمّدة لا تسخير فيها، غير أن مفعولها جاري وبق مع غياب هذا الكائن المحرك، فالسَّنن الكونية هي مسرح للسَّنن الإلهية في البشر، كلّ منهما يتناغم مع الآخر لكي يعطى تصورا تكامليا لهذا القانون الإلهي العام، غير أنه لا يتمّ استغلال هذه القوانين إلا لمن كان له نظرة معمّقة في درس السَّنن الإلهية نظرا وعملا.

- وتميّز هذا القانون الإلهي السَّنني بجميع أنواعه بخصائص ميّزته عن القوانين التي أنتجتها الفلسفات والنظريات المبنية على الفرضيات، فالسَّنن الإلهيّة مصدرها ربانيّ مما يضيفي عليها مصداقية ويبعد عنها الشكّ والظنّ والأوهام، لأنّ خالق هذا الكون عالم بخلقه، وما يصلح لتنظيمه وتسييره وهذه الخاصيّة هي منبع للخصائص الأخرى التي احتواها السَّنن الإلهية، ومنها الثبات والإطراد والعموم، فلولا هذه الخاصيّات الثلاث ما فهمنا هذه القوانين الإلهية وتذليلها لصالح الإنسانية، كما أنّها اتّسمت بالوسطية والتّوازن والشّمول، والواقعية، ما أكسب هذه السَّنن الإلهية النظرة تصوّرية المتكاملة التي لامست بها جميع مكونات هذا الخلق.

- وقد جاء الدّستور القرآني في خطابه الجليل منبّها على أهميّة هذه السَّنن في الحياة البشرية التي بها استقامة الإنسان وصلاحه وفلاحه، فهذه السَّنن ذات أبعاد مقاصدية سطرت من قبل العليّ العليم ما أكسبها صفة الدّرس الإيمانيّ العقائديّ.

المبحث الثاني: أبعاد الفكر السنني عند الأمير عبد القادر:

عرف الأمير عبد القادر بأنه رجل قلم وسيف، رجل حكمة وسياسة، رجل علم وعمل، ولقد تطرّق الكثيرون إلى هذه الشّخصية بالدراسة والبحث، ولقد عنوا بشقه الجهادي والسياسي أكثر من جانبه العلمي لديه، والمتأمل في سيرة الأمر عبد القادر يجد لها شقين، شقّ جهادي عملي، وشقّ علمي نظري.

وسنحاول في هذا المبحث أن ندقّ درس السنن لديه، لما يحتويه هذا الدرس من أهميّة بالغة في الفكر الإسلامي، وذلك بإلقاء نظرة في الجانب العلمي لدى الأمير عبد القادر، وما فيه من مدلولات على السنن الإلهية، ثم نعرّج على شقه العمليّ، ونلاحظ استثمار هذا الدرس وحضوره في أعمال الأمير عبد القادر

محاولين الإجابة عن الأسئلة التالية:

- ما مدى حضور الدرس السنني في فكر الأمير عبد القادر؟
 - ما معنى السنن عنده؟ وما هي أنواعها؟
 - ما هي الأبعاد الواقعية لدرس السنن في فكر الأمير عبد القادر؟
- وهدفنا المنشود من هذه الدّراسة معرفة جانب من جوانب الفكر عند الأمير عبد القادر، وذلك من خلال طرح موضوع السنن عنده، ومعرفة حضورها لديه، وبما أن شخصيتنا لها طابع صوفي نريد معرفة حركة هذا الصّوفي ووعيه بالقانون السنني الإلهي، فما مدى واقعها في عمله؟

وقد عاجلنا هذا الموضوع من ثلاثة جوانب جاءت عناوينها في المطالب التالية:

المطلب الأوّل: تدارسنا فيه الوعي بالقانون السنني ومدلوله في فكر الأمير عبد القادر.

وأما المطلب الثاني: بينا من خلاله أنواع (وجوه) القانون السنني في فكر الأمير عبد القادر.

وأما المطلب الثالث: فحاولنا أن نبرز فيه "البعد الواقعي لحضور السنن لدى الأمير عبد القادر".

المطلب الأوّل: الوعي بالقانون السنني ومدلوله في فكر الأمير عبد القادر

سنتناول في هذا المطلب لفظة السنن عند الأمير عبد القادر الجزائري، وذلك بالتقصّي والتحري

عن هذه اللفظة في كتبه من أجل معرفة مدلولها، ومدى وعي الأمير بهذا القانون الإلهي السّنني، وحاولنا أن نفلّك رموز هذه اللفظة لديه، ومعرفة الألفاظ المستعملة في فكره للدلالة على القانون السّنني، مجيبين على الأسئلة التالية:

ما مدى حضور لفظة السّنن في كتابات الأمير عبد القادر؟

- ما الذي ترمي إليه مدلولات لفظة السّنن عند الأمير عبد القادر؟

- ماهي الألفاظ المستعملة من قبل الأمير للإشارة على لفظة السّنن؟

والغرض من هذا المطلب إبراز معنى ومفهوم لفظة السّنن عند الأمير عبد القادر، ومعرفة مدى وعيه بالقانون السّنني الإلهي.

أولاً: الألفاظ المستعملة للدلالة على السّنن ومدلولها في كتابات الأمير عبد القادر.

بعد تحريتنا عن كتب الأمير عبد القادر باحثين عن لفظة السّنن لديه وجدنا أنّ استخدامه لللفظة السّنن "السنة" محدود ذكرها لديه، وهذا راجع إلى نمط الكتابة لديه، والتي عرفت بالنمط الصوفي، كما أنّ الأمير عرف بالمجال الجهادي العمليّ وسط الميدان، فاستخدام لفظة السّنن كان عملياً أكثر منه نظيراً. غير أنّنا وقفنا في كتاباته على أنّه يستخدم لفظة الأسباب والمسببات للدلالة على القانون الإلهي السّنني، فجاء لفظنا "الأسباب والمسببات" تدل على السّنن وهي جد متداولة ومستعملة من قبل الأمير عبد القادر وفيما يلي تبيان ذلك:

استعمالات لفظة (الأسباب) للدلالة على السّنن في كتابات الأمير عبد القادر الجزائري:

نجد الأمير عبد القادر في كتبه إذا ذكر لفظة الأسباب فإنه يرمي بها إلى قانون الله الذي يحكم به خلقه، وهي سننه تعالى التي يسيّر بها نظام خلقه، فنجد الأمير عبد القادر في كتابه رسالة "المقراض الحاد" بعد ذكره لمجموعة من آيات الله في خلقه، وأنّ الإنسان له القدرة على معرفة أسرار هذا الخلق واستنباط الأحكام منها من خلال معرفة الأسباب فيقول "فالاستدلال على الأحداث بالأسباب كما

يستدل الطبيب على بعض الأمراض بالنبض، وهي معرفة سنة الله في خلقه" (1). فبحث الأمير في الأسباب والحوادث التي تقع للبشر في حياتهم هو بحث في سنة الله في خلقه.

كما أننا نلاحظ أنّ لفظة الأسباب أخذت عند الأمير الحيز الواسع للاستدلال بها في غير موضع، على أنها هي حكمة الله تعالى التي اقتضاها في هذه الحياة، ومن ذلك ما أشار به الأمير عند تفسيره لحديث رسول الله ﷺ الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه "حين قدم رسول الله ﷺ المدينة ووجد الصحابة يؤبرون النخل، قال ما تصنعون قالوا كنا نصنعه، قال لعلكم لو لم تفعلوا كان خيرا، فتركوه فنقصت الثمرة، فقال رسول الله ﷺ إنما أنا بشر، إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر" (2).

فيقول الأمير في تفسيره لهذا الحديث، بأنه من رأى من أهل العلم بأنّ النبيّ كان جاهلا بأن النخيل يصلحه التأبير، عادة أجراها الله تعالى فإنّه المخطئ، بل كان قصد النبيّ توجه صحابته إلى النظر إلى مفعّل الأسباب (مسببها) لكي يعلمهم التوكّل الصحيح بالله تعالى من خلال الأخذ بالأسباب وطرق باب مسبب الأسباب (3).

ويرى الأمير كيف له أن يكون جاهلا بهذا الأمر، وهو الذي نشأ في البلاد العربيّة، بل غرضه توجيه النظر إلى الخالق الذي وضع هذه الأسباب. وإنّ هذه العادة التي أجراها الله في خلقه هي "من أمور الدنيا ومسبباتها فهي من علوم القلم واللوح" (4). فمن المحال أن يكون النبيّ صلوات الله عليه قد أمرهم بترك الأسباب جزما، بل كان غرضه عليه السلام تعليمهم مقام التوكّل على الله تعالى، وهو الاعتماد على الله حال وجود الأسباب وحالة عدمها (5). وقد ربط "الله الحكمة بوجودها وما وجدنا شيئا من غير سبب، فالأسباب مقتضى الحكمة الإلهية" (6).

(1) - الأمير عبد القادر، رسالة المقرض الحاد، مرجع سابق، ص 89.

(2) - مسلم بن الحجاج، المسند الصحيح المختصر (صحيح مسلم) مرجع سابق، باب وجوب الامتثال شرعا من ذكر الرسول ﷺ من معاش الدنيا على سبيل الرأي، رقم الحديث 2362، ج 4، ص 1835.

(3) - الأمير عبد القادر، المواقف، مرجع سابق، ص 336.

(4) - المرجع نفسه، ج 2، ص 335.

(5) - الأمير عبد القادر، المواقف، مرجع سابق، ج 2، ص 736.

(6) - المرجع نفسه، ج 2، ص 736.

ثم نجد الأمير عبد القادر في مواضع أخرى يشيد بسيد الخلق النبي ﷺ لأخذه بالأسباب في كل حالاته التي كان عليها، ووجب على كل عارف أن يجعل النبي ﷺ قدوته في هذا الباب، وأن ترك الأسباب تعطيل لحكمة الله وسنته "فلا يقول يترك الأسباب إلا صاحب حال أو جاهل بالطريق وبالسنة، فتارك السبب مع التمكن منه مأزور بترك الحكمة وتعطيل صفة من صفاته تعالى، فمن نظر إلى باطن العارف وجده جبلا لا يتحرك ثابتا ليس له نظر إلى الأسباب ولا عبرة له بها، ومن نظر إلى ظاهره، رآه كالطائر من غصن إلى غصن، ومن شجرة إلى شجرة، فهذا سيد العارفين وإمام المتوكلين ﷺ جند الأجناد، وظاهر بين درعين وحفر الخندق، وادّخر قوت سنة، وتداوى واحتجم واكتوى وما ترك سببا إلا فعله" (1).

فالملاحظ هنا أن الأمير حين يطلق لفظة الأسباب يريد بها كل ما يتعلق بأمور الحياة وشؤونها وليس المقصود به طرق الأسباب للرزق فقط، إنما يرمي بها إلى كل متعلقات الحياة من خير ونجاة وفلاح وصلاح، "فالحكمة التي وضع لأجلها الله تعالى العقوبات والحدود التي شرّعها لنا في الدنيا لإصلاح ديننا ودينانا، وإبقاء عمارة الدار الدّنيا إلى أجلها الموعود" (2).

إنّ هذه الأسباب هي كالوسائط لوقوع حكمة الله تعالى في هذه الدنيا وإلا فهي زائلة بزوال الدنيا، فالله تعالى أجرى حكمته وسنته أن يفعل في هذه الحياة بهذه الأسباب، فيقول الأمير "فهو في الدنيا يملكه بوسائط وأسباب وحجب، وهو الفاعل المالك من ورائها؛ لأنّ الدنيا مبنية على الحكمة، وفي الآخرة ترفع تلك الحجب، وتحتك تلك الأستار، لأنّ الآخرة مبنية على إظهار القدرة، فيشهد كفعل للواحد القهار" (3).

ومما يزيدنا إثباتا أنّ الأمير حين يطلق لفظة الأسباب يقصد بها سنن الله في خلقه، حينما أراد أن يبرز بأن المعجزة التي تظهر على يد النبي أو الكرامة على يد الأولياء، فإنه يكون معها الأخذ بالأسباب ولو بحركة بسيطة فيقول الأمير: "فما ظهرت معجزة من نبي ولا كرامة من ولي ولا شيء من الأشياء إلا بحركة محسوسة أو معنوية، أقلّها حركة اللسان أو جمع همة، وذلك لإثبات الأسباب التي وضعها الله في

(1) - المرجع نفسه، ج 1، ص 364.

(2) - الأمير عبد القادر، المواقف، مرجع سابق، ج 1، ص 173.

(3) - المرجع نفسه، ج 1، ص 174.

العالم، ليعلم أن أمر الله لا يتخرم (...)، فيعرف العارف من ذلك نسب الأسماء الإلهية وما ارتبطت به من وجود الكائنات، ويعلم المحقق أن الحكمة فيما ظهر، وأن الأسباب لا ترفع أبداً، وكل من زعم أنه رفع سباباً بغير سبب فما عنده علم، لا بما رفع به، ولا بما وقع، فالقائل برفع الأسباب العادية التي أجراها الله في العالم، وإن كان مراده تجريد التوحيد وإطلاق الاقتدار الإلهي، فقد أساء الأدب، وما أعطى الحكمة الإلهية حقها فهو تعالى قادر على أن يخرج من الحجر ثمراً، ولكن بعد أن يجعل الحجر شجراً ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجْدِلَ سُنَّةَ اللَّهِ بَدِيلًا﴾ [الفتح: 23] ⁽¹⁾.

فيفهم من هذا أن الأسباب التي يقصدها الأمير، إنما هي القوانين التي أجراها الله في كل خلقه بدءاً من الكون إلى الإنسان، وأن هذه القوانين محال أن تزول أو تتغير ما دام في هذه الدار، وهذه القوانين التي هي أسبابه تعالى، فهي من مقتضى حكمته التي ارتضاها لتسير شؤون ملكه، وهذه القوانين أو الأسباب إنما هي سننه تعالى ونواميسه التي بها دوام واستمرارية الحياة "فترك الأسباب رأساً، تخريب للدار الدنيا، فإن مبنائها على الحكمة الإلهية" ⁽²⁾.

كما أننا نجد الأمير يذكر لفظة السنة ويرمي بها إلى أنها قانون خص به الله تعالى جميع خلقه من جماد نبات حيوان إنسان، وذلك فيما يتحدث عن الكون أو آيات الله تعالى في خلقه، أو حتى في حديثه عن الإنسان وما يمتلكه من قدرات، ومن ذلك حينما تحدث عن العقل وما يحتوي عليه من مراتب الإدراك، وبعد عرضه جملة من القضايا فإنه يقرر بأن كل هذا إنما هو "سنة الله في خلقه قانون خص به جميع مخلوقاته" ⁽³⁾.

ولو أردنا أن نخرج بفكرة واضحة من عند الأمير عبد القادر عن السنن الإلهية يمكن القول إن لفظة الأسباب تفيد معنى السنة الإلهية، التي هي حكمته تعالى الذي يحكم بها في كل خلقه، وأن هذه الدار إنما بنيت على هذه الحكمة، فالأسباب هي قوانينه التي بثها في خلقه كله.

وبالتالي فمدلول الأسباب عند الأمير مرده إلى سنن الله في خلقه بمفهومنا المتداول، وحتى استعمالات لفظة السنة جاءت مقرونة بذكر لفظة الأسباب عنده، والسنة عندما يذكرها يذكر معها بأنها قانونه وحكمته تعالى في خلقه، إذن فالأسباب تساوي السنن وهي بنفس المعنى عنده.

(1) - المرجع نفسه، ج2، ص 747.

(2) - المرجع نفسه، ج2، ص 738.

(3) - الأمير عبد القادر، المواقف، مرجع سابق، ص 80.

ثانيا: الأخذ بالأسباب (السَّنن) من باب الحكمة:

المتبوع لورود لفظة الأسباب عند الأمير عبد القادر، التي يرمز بها إلى السَّنن يجد أنها تشير إلى الحكمة الإلهية التي اقتضاها وارتضاها الله عزّ وجلّ في هذه الحياة، وأنّ الأخذ بها والعمل بموجبها عين الحكمة وأساس العلم بالله، وفيما يلي سنبيّن أن مقصود الأمير من هذه الأسباب هو الحكمة الإلهية.

يقول الأمير في كتابه المواقف "اعلم أنّ الأسباب كلّها حجب وأستار دون وجه الحق، وهو الفاعل من خلف أستارها، ما يظنّ العميان أنه أثر للأسباب وناشئ عنها، وسواء في ذلك الأسباب العادية أو العقلية أو الشرعية من الأوامر والنواهي، لأنّ معنى المأمورات افعل كذا، فيكون سبب دخولك الجنة ومعنى المنهيات لا تفعل كذا فيكون سبب دخولك النار، والشرائع كلّها من لدن آدم إلى مُحمّد عليهم السلام جميعا، إنّما جاءت باعتبار الأسباب العادية والشرعية، إذ هي مقتضى الحكمة" (1).

ولو تمعنا في هذا النص وقمنا بقراءة تحليليّة له، فإننا نفهم منه ما يلي:

-(اعلم أنّ الأسباب كلّها حجب وأستار) يعدّ الأمير بأنّ هذه الأسباب هي حجب على الخالق تعالى فمن اعتمد على الأسباب وحدها، فقد عطل القدرة الإلهية ولم يقف على المعنى الحقيقي لها، فيعمل بالأسباب ويؤخذ بها مع اليقين بأنّها ليس هي الفاعلة، بل مُسبّب هذه الأسباب.

- ومن وقف على السَّبب دون معرفة المسبّب فقد أعدّه الأمير من باب العمى، وعدم الوعي الكامل بمقتضى الحكمة التي جاءت من وراء هذه الأسباب، فإذا ما وقف عليها الإنسان دون التعمّق إلى مسبّبها، فإنّه ما عرف المعنى الحقيقي من ورائها، وما حقّق المعنى الحقيقي للتوكّل على الله وعبادته بالأخذ بهذه الأسباب، فالله هو الفاعل معها وبها ومن دونها -الأسباب- وإنما اقتضت الحكمة الإلهية العمل بهذه الأسباب في هذه الدنيا.

ويفهم من جملة (الأسباب العادية والعقلية والشرعية) أنّ الأمير عبد القادر قسّم هذه الأسباب إلى ثلاثة أنواع: النوع الأوّل أطلق عليه الأسباب العادية، وهي التي تكون مع خضم الحياة اليومية ونأخذ بها في كلّ حركاتنا من قيام قعود، نوم حركة أكل شرب سعي وغيرها التي تتحكّم في حركة حياتنا اليومية فوق هذه المعمورة، ولا يمكن تركها لأنّ قيام الحياة بها مثل استنشاق الهواء من أجل البقاء حيّا،

(1) - المرجع نفسه، ج 1، ص 198.

والأكل والشرب لتقوية الجسم، واستيعاب حركة الحياة... الخ.

أما النوع الثاني فقد أطلق عليه الأسباب العقلية، ويقصد به الأمير عبد القادر تلك الأسباب التي يعمل فيها العقل من أجل الوصول إلى مكونات وأسرار هذا الكون بما فيه من مخلوقات لتذليلها وتسخيرها، فهذا النوع من الأسباب لا يمكن الاستدلال عليها أو العمل بها، إلا إذا قام الإنسان بجهد عقلي عملي؛ من أجل الاستفادة منها، وهي التي تتحكم في نواميس الطبيعة بما فيها الخلق الإنساني كـ معرفة قوانين الفلك والحساب، ومعرفة قوانين الطب، ومعرفة أسرار البحار والمحيطات من العلوم العقلية التي تسهل على الإنسان حياته إذا ما أحسن اكتشافها واستغلالها بالطريقة الأنفع.

وأما الأسباب الشرعية فقد بين الأمير معناها في النص الذي أوردناه أنفاً (الشرعية من الأوامر والنواهي؛ لأن معنى المأمورات افعل كذا فيكون سبب لدخولك الجنة.... والشرائع كلها من لدن آدم إلى محمد...)، فالملقود عند الأمير بهذه الأسباب الشرعية، هي السنن التي بثها الله في كتبه وأنزلها على أنبيائه، لتبين طريق الصواب من الخطأ ومعرفة أسباب الفلاح والنجاة، ومعرفة الأسباب المؤدية إلى الهلاك والفساد، ومعرفة أسباب النصر والتمكن، وغيرها من السنن التي تتحكم في الأفراد والجماعات. ثم يقرر الأمير بأن هذه الأسباب كلها بما فيها العادية والعقلية والشرعية، إنما هي مقتضى حكمة الله في خلقه، وهي التي يسير بها الله خلقه على وجه هذه المعمورة، فلا قيام الحياة إلا بهذه الأسباب التي هي سنته تعالى التي بثها في خلقه وشرعه. فيفهم من نص الأمير أن الأسباب هي حكمته تعالى التي يعمل بها على وجه هذه الخليفة، ويقرر الأمر بأنها ثلاثة أنواع أسباب عادية، وأخرى عقلية وأخرى شرعية وكلها جاءت لتسيّر حياة الإنسان فوق المعمورة، ووجب على العارف أن لا يقف على هذه الأسباب بل يغوص معها إلى مسبب الأسباب أي واضعها، ويرى الأمير بأن الناس في هذا الباب ثلاثة أصناف:

- الصنف الأول: "مُتَسَبِّبٌ صَرَفٌ؛ نَظَرُهُ مَقْصُورٌ عَلَى السَّبَبِ فِي قُوَّتِهِ وَضَعْفُهُ فَهُوَ أَعْمَى." (1)

- الصنف الثاني: "مُتَوَكِّلٌ صَرَفٌ، مَعْرُضٌ عَنِ الْأَسْبَابِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَهُوَ صَاحِبُ حَالٍ لَا يَقْتَدِي بِهِ، وَلَا يَحْتَجُّ عَلَيْهِ." (2).

(1) - الأمير عبد القادر، المواقف، مرجع سابق، ج 1، ص 198.

(2) - المرجع نفسه، ج 1، ص 198.

- الصنف الثالث: "متسبب بظاهرة، متوكل بباطنه، يده في السبب، وقلبه متعلق بخالق السبب، ظاهر لظاهر، وباطن لباطن، وهذا هو الكامل الناظر بعينين"⁽¹⁾.

فالكامل عند الأمير هو الذي أخذ بهذه الأسباب ويعمل بها ويعلق قلبه بفاعلها، ومن قال يتركها وتجاهلها فقد أساء الأدب، وما عرف المعرفة الحقة التي توصل إلى الإيمان الصحيح، "فالأسباب وضعها وأثبتها الحكيم العليم بما يجريه ويشته سبحانه، فمن طلب رفع العوائد الجارية، والأسباب العادية فقد أساء الأدب والجهل، وكيف يدعي المعرفة بالله والوصلة به والصحة له، من يطلب رفع العوائد ومعروفه وصاحبه الحق تعالى هو الذي وضعها؟، ومن شرط الصحبة الموافقة، فمن طلب رفع ذلك فهو منازع وليس بواصل ولا صاحب بل هو إلى العناد أقرب، فالذي يثبت العادات والأسباب على وجه لا يناقض التوحيد هو العارف بالله، لأنه يشهد الحق تعالى فيها"⁽²⁾. فالعمل بالأسباب عند الأمير هو من باب الالتزام بأوامر الله واتباع حكمته، ونجده يلح عليها في غير موضع في كتابه المواقف وكثيرا ما يكررها، ومن ذلك قوله "فأثبت الأسباب يا أخي، حيث أثبتنا الله الحق تعالى امتثالا للأمر واتباعا للحكمة، ولا تعتمد عليها من حيث أنها أغيار للحق تعالى، وشاهد وجه الحق فيها، فلا بد من الأسباب وجودا والغيبة عنها شهودا"⁽³⁾. فالكامل العارف عند الأمير هو ذلك الذي يراعي هذه الأسباب، ويأخذ بها ويعمل معها وذلك لما وضع الله فيها من حكمته، وأن الكامل يرى في هذه الأسباب صنيع الله وأثره من خلالها، فهو يتوغل من ظاهرها إلى باطنها للوصول إلى اليقين بهذا الخالق الذي أبدع في خلقه، وما هذه الأسباب إلا أثر دال عليه، فإن هو عمل بها أدرك حكمته تعالى من ورائها، فالسنن التي بثها الله في خلقه، وأظهرها لعباده، والشرائع التي أنزلها على أنبيائه وقررها في كتبه أراد سبحانه أن يبرز من خلال حكمته العادلة التي نظم بها خلقه، ونظامه البالغ في تدبير ملكه.

ويقرر الأمير بأن هذه الأسباب هي مقتضى حكمته تعالى، فبوجودها تصلح الحياة ومن دونها تفسد الحياة، وبها عمارة الدارين، وفلاح الإنسان وصلاحه، وأن الأنبياء جميعا أمروا بالأخذ بها "فإنهم أرسلوا لعمارة الدارين، وترك الأسباب رأسا تخريب للدار الدنيا فإن مبنائها على الحكمة الإلهية، كما أن

(1) - المرجع نفسه، ج 1، ص 198.

(2) - المرجع نفسه، ج 1، ص 154.

(3) - الأمير عبد القادر، المواقف، مرجع سابق، ج 2، ص ص 673 _ 674.

الآخرة مبناها على القدرة المحضة، والرّسل عليهم الصّلاة والسّلام أعلم الخلق بالله تعالى وبحكمته في مخلوقاته، وبحقائق الأشياء التي لا غنى للحق عنها في معاشهم ومعادهم" (1).

ويرى الأمير بأنّ هذه الأسباب هي "سنة الله التي قد خلت في عبادته وحكمته" (2). وأنه ما وجد شيء من غير سبب، فالأسباب مقتضى الحكمة الإلهية وواضعها الله، فإن الله ربط الحكمة بوجودها (3). فقيام الحياة في هذه الدنيا عليها - الأسباب "السّنن الإلهية" - ، ولولا مراعاة حكمة الأسباب وملاحظتها ما أرسل رسول، ولا نزلت شريعة، ولا كان أمر ولا نهي من الله تعالى ورسله عليهم السلام (4). ومن ترك هذه الأسباب "السّنن" يوصف بالمريض الناقص؛ لأنّه معطل لحكمة الله، ويفوته من معرفة الله بقدر ما عطل هذه الأسباب "إذ الأسباب إنما وادعها الله حكمة منه في خلقه، لما علم من ضعف يقينهم، فلا يعطل حكمه الله عالم بالله" (5).

والعمل بالأسباب "السّنن" يفضي صاحبه إلى النجاة واليقين الصّحيح بالله، "فهى الطّريقة المثلى، طريقة الأنبياء والرسل وورثتهم، والمراد تصديقهم فيها وهبهم الحق تعالى بفضله ومنته من النبوة والولاية، وما يتبع ذلك من العلوم والمعارف التي جاءوا بها" (6). والمعارف التي جاءت بها الأنبياء هي لتعريف الناس بخالقهم وردّهم إلى فطرتهم التي مالوا عنها، وتبيان ما يصلح به معاشهم ومعادهم "فمقاصد الخلق مجموعة في انتظام الدّين والدّنيا ولا نظام للدّين إلا بانتظام الدنيا" (7) والدنيا مبنية على الحكمة (8)، وليس الخير في الدنيا إلى ما أمر به الشارع ولا شر فيها إلا ما نهى عنه. (9)

ويمكن أن نستنتج ممّا ذكرناه أنّ مراد الأمير عبد القادر ومقصده من ذكر لفظة الأسباب، إنّما هو

(1) - المرجع نفسه، ج2، ص 738.

(2) - المرجع نفسه، ج2، ص 737.

(3) - المرجع نفسه، ج2، ص 736.

(4) - المرجع نفسه، ج2، ص 737.

(5) - الأمير عبد القادر، ذكر العاقل وتنبيه الغافل، مرجع سابق، ج2، ص 737.

(6) - المرجع نفسه، ج2، ص 381.

(7) - المرجع نفسه، ص 24.

(8) - المرجع نفسه، ج1، ص 174.

(9) - المرجع نفسه، ج1، ص 382.

لتبيان حكمته تعالى التي بثّها في آياته المسطورة أو المنظورة، وبهذا تكون لفظة الأسباب لها معنى السَّنن الإلهية عنده. من خلال ما أثبتناه من حضور السَّنن في فكر الأمير عبد القادر ومدلولاتها سنحاول فيما يلي أن نستنبط مفهوم خاصّ بالأمير عبد القادر لهذه السَّنن.

ثالثا: مفهوم السَّنن لدى الأمير عبد القادر:

سنحاول أن نبني مفهوم للسَّنن عند الأمير عبد القادر من خلال ربط المصطلحات والألفاظ ومدلولاتها ببعضها البعض. نجد الأمير يطلق لفظة الأسباب على السَّنن، بل هي الأكثر استعمالا وهذا ما قمنا بتبيانه فيما سبق ومن ذلك: قول الأمير: "الاستدلال على الأحداث بالأسباب، كما يستدل الطبيب على بعض الأمراض بالنبض، وهي معرفة سنة الله في خلقه" ⁽¹⁾، وذهب الأمير بأنّ هذه الأسباب إنما هي العادة التي أجراها الله في خلقه، وهي من أمور الدنيا ومسبباتها ⁽²⁾.

ومن ذلك قول الأمير: "اتيان الأسباب التيوضعها الله في العالم، ليعلم أن أمر الله لا يخزم (...). وأنّ الأسباب لا ترفع أبدا..." ⁽³⁾

ولقد ذكر بأنّ "الأسباب كلّها حجب وأستار دون وجه الحق وهو الفاعل من خلف أستارها..." ⁽⁴⁾

ويذكر في موضع آخر بأنّ الأسباب هي سنة الله التي قد خلت في عبادته وحكمته ⁽⁵⁾، فالأسباب عند الأمير يقصد بها تلك السَّنن الماثورة في خلقه والتي يصنع الله تعالى من خلالها، فهي كالأثر الدال على صانعها، أو هي قانون ثابت يهتدى به ويستدلّ به على الخالق.

وأنّ هذا القانون إنما هو من مقتضى حكمته تعالى التي أوجدها في هذه الدار، فكثيرا ما نجد أن لفظة الأسباب عند الأمير يطلقها ويريد بها حكمته تعالى ومن ذلك: قول الأمير: "إنّ الله ربط الحكمة

(1) - الأمير عبد القادر، رسالة المقرض الحاد، مرجع سابق، ص 89.

(2) - الأمير عبد القادر، المواقف، مرجع سابق ج2، ص 335.

(3) - الأمير عبد القادر، المواقف، مرجع سابق، ج2، ص 747.

(4) - المرجع نفسه، ج1، ص 198.

(5) - المرجع نفسه، ج2، ص 737.

بوجودها، وما وجدنا شيئاً من غير سببه، فالأسباب مقتضى الحكمة الإلهية" (1).

ويرى الأمير بأنّ حكمته تعالى وسنته مرتبطة بهذه الأسباب التي أجراها في هذه الدّنيا "فهو في الدّنيا يملك بوسائل وأسباب وحجب، وهو الفاعل المالك من ورائها، لأنّ الدّنيا مبنية على الحكمة" (2) فهذه الأسباب أجراها الله بحكمة، فورائها مقاصد وأهداف، والأخذ بالأسباب عند الأمير يلزمه معرفة حكمة الله ومقصده وغايته فيها، لكي لا يقف عندها بل يغوص إلى أسرارها ويبحث في دقائقها ليصل إلى الحق والصّواب الذي به يهتدي إلى الصّراط المستقيم.

ثم نجد الأمير يقرّر بأنّ هذه الحكمة هي التي من أجلها وضع الله العقوبات والحدود، وشرّعها لنا في الدّنيا لإصلاح ديننا ودنيانا، وبها تكون عمارة دار الدّنيا (3).

وإذا ربطنا هذه الألفاظ والمصطلحات والأفكار الواردة عند الأمير يمكن أن نخرج بمعنى عام ومفهوم دالّ على السّنن عنده، فنجدّه يشير إلى السّنن بالأسباب، وأنّ هذه الأسباب هي حكمته تعالى، وحكمته جاءت لتنظيم حياة النّاس في الدّارين، وبها بعث أنبياءه وشرع شرائعه. فالسّنن عند الأمير هي حكمته تعالى التي بثّها في خلقه أو شرّعها في كتبه، وهي الأسباب التي أجراها الله عادة في هذه الدّنيا، وبها يكون صلاح الدّنيا وعمارة الأرض.

ولو قارنا هذا المفهوم الذي توصّلنا إليه عن السّنن لدى الأمير عبد القادر، وما توصّلنا إليه من ضبط مفهوم السّنن في المبحث الأوّل من هذا الفصل، لوجدنا أنّ المفهومين يصبّان في المعنى نفسه فكلا المفهومين يقران بأنّ السّنن هي أمر الله تعالى وحكمته التي أجراها في خلقه. وأنّ هذه السّنن مبنوثة في كتاب الله المنظور (الكون)، وهي ما يطلق عليها بالسّنن الكونيّة، غير أنّ الأمير يشير إليها مرّة بالسّنن العادية ومرّة بالسّنن العقلية، والأخرى نجدّها في كتابه المسطور (القرآن الكريم)، وهي التي تتحكّم في الأفراد والجماعات والأمم، وهي ما يطلق عليها بالسّنن الاجتماعية، أو السّنن البشرية، أو النفسية وغيرها، فكلّ واحد يصطلح عليها بحسب منظوره، ونجد الأمير يطلق عليها بالسّنن الشرعية. وأنّ هذه السّنن هي عادة أجراها الله في خلقه، فهي قانون ثابت لا يتغيّر ولا يتبدّل، وبها يكون صلاح

(1) - المرجع نفسه، ج2، ص 736.

(2) - الأمير عبد القادر، المواقف، مرجع سابق، ج1، ص 174.

(3) - المرجع نفسه، ج1، ص 173.

الفرد والمجتمع، وعليها تنظيم شؤون الدنيا.

وأما الشيء المفارق عند الأمير في مفهومه للسّنن أنّه يصطلح عليها ويطلق عليها لفظة الأسباب، والمتمعّن في كتابه المواقف يلاحظ أنّ هذا المصطلح وواضح وواسع الاستعمال عنده، ومراده منه إنّما هو الإشارة على هذه السّنن الإلهية التي بثّها الله في خلقه وشرائعه.

المطلب الثاني: وجوه القانون السّني في فكر الأمير عبد القادر:

توصّلنا في المبحث الأوّل من هذا الفصل إلى أنّ السّنن هي قانون إلهي عام يحكم به في خلقه وله وجهان، الوجه الأوّل يتحكّم به في المادة- الطّبيعية- بما فيها الإنسان، وهي نواميسه تعالى التي نظّم وسيّر بها الكون في دقّة وثبات، والوجه الثاني لهذه القانون الذي تحكّم به في حركة هذا الإنسان سواء أكان فرداً، أو مع جماعة، أو تحت إطار أمة، وهي سننه التي بثّها في شرائعه.

وتعرّفنا في هذا المبحث، في المطلب الأوّل منه مدلول ومقصود الأمير عبد القادر من السّنن التي يصطلح عليها بالأسباب، فهي حكمته التي يبيّنها في خلقه أو شرعها في كتبه، وهي الأسباب التي أجازها الله عادة في هذه الدنيا، وبها يكون صلاح الدنيا وعمارة الأرض.

سنتطرّق في هذا المطلب إلى وجوه القانون السّني لدى الأمير عبد القادر، وما هي وجهة نظره إلى كل نوع؟

مع العلم أنّ تناول درس السّنن في فكر الأمير عبد القادر له شقّين، شقّ عملي وشقّ نظري، والشقّ العملي عنده يسبق الجانب النظري، فالمتمأّمّل في هذه الشخصية - الأمير عبد القادر - وعمق حركتها في التاريخ ومنجزاتها فيه، يعرف مدى حضور درس السّنن في جانبه العملي، غير أنّنا سنحاول طرق الجانب النظري ليده ونرجئ الجانب العملي إلى المطلب الثالث محاولين الإجابة على السّؤال التالي:

ما مدى وعي الأمير عبد القادر بوجوه القانون السّني؟ وإلى كم نوع يقسّم الأمير هذه السّنن؟

والغرض من هذا المطلب معرفة اهتمام الأمير عبد القادر بأنواع (وجوه) القانون السّني، ومعرفة توازنه وتوفيقه بالأخذ بهذه الوجوه، دون الميل إلى نوع على حساب الآخر.

بالتمعّن في كتب الأمير عبد القادر الجزائري، فإنّنا نجد وجوه (أنواع) القانون السّني عنده تتفرّع

إلى نوعين رئيسين، الوجه الأوّل يطلق عليه الأسباب العقلية والثاني يطلق عليه الأسباب الشرعية، ونجد أيضا لفظة الأسباب العادية وهي التي يقرنها في كثير من المواضع بالأسباب العقلية، وفيما يلي تبيان ذلك .

يقول الأمير "اعلم أنّ الأسباب كلها حجب وأستار دون وجه الحق، وهو الفاعل من خلف أستارها ما يظن أنّه أثر الأسباب وناشئ عنها، سواء في ذلك الأسباب العادية أو العقلية أو الشرعية من الأوامر والنواهي (...)، والشرائع كلها من لدن آدم إلى مُحمّد إنما جاءت باعتبار الأسباب العادية والشرعية، إذ هي مقتضى الحكمة"⁽¹⁾ .

نلاحظ في قول الأمير هذا أنّه ذكر ثلاثة أسباب: العادية والعقلية والشرعية، وهو يقصد بها السنن الحاكمة في خلقه وفي مجريات الحياة بما فيها حركة الإنسان، ونلاحظ في آخر قوله ذكره سببين فقط، وهما الأسباب العادية والشرعية دون ذكر العقلية، وهذا راجع إلى أنّ الأمير يضم الأسباب العقلية إلى العادية في نفس المقام، وهي التي يكثر استعمالها عنده.

ومن ذلك نجد الأمير يذكر الأسباب العادية حينما يتناول حديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي "مرّ على قوم يؤبرون النخل فقال لهم لو لم تفعلوا لصلحت ..."، فنجد قول الأمير عبد القادر معلّقا ومفسّرا لهذا الحديث بقوله "فليس المراد من هذا أنّه عليه السلام يريد منهم ترك الأسباب العادية التي أجرى الحق تعالى عادته بها في مخلوقاته"⁽²⁾ .

وعادته تعالى هي طريقته التي أجراها في خلقه، وهي نواميسه وقوانينه التي وضعها في هذه المخلوقات منها ما هي بديهية لا تحتاج كثير التأمّل، وإتّما هي ظاهرة للعيان، كعرفة أنّ الماء سبب للحياة، وأنّ التزاوج سبب للتكاثر وغيرها، ومنها ما هو مخفي غير ظاهر للعيان وجب استخدام العقل من أجل إبرازها وتذليلها، ومن ذلك معرفة قانون الجاذبية، ومعرفة أنّ تركيبة الماء من ذرتين هيدروجين وذرة أكسجين، ومعرفة أنّ أصغر تركيبة يتكوّن منها؛ أي جسم تبدأ من الذرة التي تتكوّن من نواة وبروتونات تدور حولها الإلكترونات، وغيرها من المكنونات والأسرار التي أوردها الله في خلقه.

(1) - الأمير عبد القادر، المواقف، مرجع سابق، ج 1، ص 198.

(2) - الأمير عبد القادر، المواقف، مرجع سابق، ج 1، ص 154.

وبناءً على هذا فإنَّ الأمير عبد القادر حين يطرح قضية الأسباب (التي يرمز بها إلى السَّنن)، نجد تعبير الأسباب العادية ومرة الأسباب العقلية، فهي عنده نفس الشيء، غير أنَّ العادية التي جرت عادة الناس عليها وهي متداولة وملاحظة في حياتهم اليومية، أمَّا العقلية التي تأتي مع تكريس النظر والبحث والكشف عنها، غير أنَّه إذا أطلق العادية أراد معها العقلية، وهذا ما نفهمه من قوله "فالقائل برفع الأسباب العادية التي أجراها الحق تعالى في العالم (...)"، فقد أساء الأدب وما أعطى الحكمة الإلهية حقَّها⁽¹⁾. فالعالم وما يحتويه من كائنات ومخلوقات فقد بثَّ فيه الله قوانينه التي تتحكَّم بها فيه، ويسيرُ من خلالها وبالتالي فمقصود الأمير بالسَّنن العادية هو نفسه مقصوده بالسَّنن العقلية.

وبالتالي فوجود (أنواع) القانون السَّنني عند الأمير عبد القادر هي وجهان، الوجه الأوَّل يصطلح عليه بالأسباب العقلية ومرة الأسباب العادية، والوجه الثاني يصطلح عليه بالأسباب الشرعية، فالأوَّل هي النواميس والقوانين التي بثَّها في الكون من أسرار وخلق، والثاني ما أنزله الله من شرائع لينظم بها حركة الإنسان فوق هذه الأرض.

وفيما يلي سنبرز هذين الوجهين عند الأمير عبد القادر بالتفصيل:

أولاً: الوجه الأوَّل للقانون السَّنني عند الأمير عبد القادر: [السَّنن الكونية- الأسباب العقلية (العادية)-]

الناظر في كتب الأمير عبد القادر يجده يثبت هذا النوع من السَّنن التي يعبر عنها في كتابه المواقف بالأسباب العادية - العقلية-، وهذا ما تمَّ توضيحه سابقاً.

يرى الأمير عبد القادر في كتابه "ذكرى العاقل وتنبيه الغافل" أنَّ مقاصد الناس تقوم على انتظام الدين والدنيا ولا ينتظم الدين إلا بانتظام الدنيا، وأنَّ هذه الأخيرة لا تقوم إلا إذا كانت هناك أعمال منجزة من قبل الأدميين، "فمقاصد الخلق مجموعة في انتظام الدين والدنيا ولا نظام للدين إلا بانتظام الدنيا، وليس ينتظم أمر الدنيا إلا بأعمال الأدميين"⁽²⁾.

وهذا ما يجعلنا نفهم بأنَّ أمور الدنيا من معاش، رزق، مسكن.... يجب أن تقابل بحركة من قبل

(1) - الأمير عبد القادر، ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، مرجع سابق، ج2، ص 747.

(2) - الأمير عبد القادر، المواقف، مرجع سابق، ص ص 24-25.

هذا الإنسان فوق هذه الأرض للأخذ بها، وذلك بتذليل وتسخير ما يحيط بالإنسان من مخلوقات متنوعة ومختلفة، ولا يكون هذا التسخير إلا إذا عرف هذا الكائن أسرار ومكونات ما يحيط به من أبسط الأشياء إلى أعقدها، وذلك بالاجتهاد والنظر والعمل.

ف نجد الأمير عبد القادر يشيد بأهمية العقل وقدرته في المعرفة والاستدلال، ففي كتابه ذكرى العاقل وتنبيه الغافل خصّص فصلا في تعريف العقل وأهميته⁽¹⁾، بيّن فيه مراتب مدركات هذا العقل، وأنواع العلوم التي تبرز عنه، ومن تمّ قسّم قوّة العقل إلى قسمين، الأوّل سماه العقل النظري والثاني أطلق عليه العقل العملي وهذا الأخير الذي أبدعت فيه واعتنت به الدول الغربية حتى استخرجوا به الصنائع العجيبة والفوائد الجمّة، غير أنهم ينقصهم العقل النظري الذي يستدلّ به في معرفة الله والحكمة من خلقه، ولو كسبت هذه الدّول هذه القوة النظرية إلى جانب القوة العملية لحصل لهم الفضل على غيرهم، ولكانت لهم المكانة العليا.⁽²⁾

ويرى الأمير أنّ الله خصّ الإنسان بالعلم والمعرفة، ووهبه بنعمة العقل، لذلك وجب عليه الاجتهاد لمعرفة أسرار الله في خلقه، والانتفاع بها "فالله سبحانه خصّ الإنسان بالعلم ومعرفة حقائق الأشياء ووهبه العقل والإدراك، فمن استعمل هذه الأدوات التي وهبه الله إياها، واستجمع قواه في تحصيل العلوم، والعمل الصالح المفيد، فهو شبيه بالملائكة، ومن صرف همته وجمع قواه في اتّباع المتع الجسمانية، يأكل كما تأكل الأنعام (...) فهو منحطّ إلى مرتبة البهائم (...)"، واحتياجات الإنسان هي التي أنشأت الصناعات والمراكب للإبحار، واكتشاف علوم الهندسة لبناء المأوى والطّرق والسدود والجسور...."⁽³⁾.

ويرى الأمير أنّ هذه العلوم ليس الغرض منها منحصر في التمتع بها فقط، من خلال استغلالها والانتفاع بها في هذه الدنيا، "فالعاقل لا ينصرف كلياً إلى أمور الدنيا لأنه يعلم أنها مستقر زائل، ولكنه يأخذ نصيبه المشروع منها"⁽⁴⁾، بل الغرض عند الأمير يتعدّى الانتفاع المحض، ليصل بهذه العلوم والإدراكات عن المكونات التي نشرها الله في خلقه، بل لها أغراض انتفاعية أخرى أهمّ، وهي الوصول من خلالها إلى معرفة قدرة الله، التي توصل إلى الإيمان اليقيني بهذا الخالق، "وأما الإنسان العاقل فيغوص بعقله

(1) - الأمير عبد القادر، ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، مرجع سابق، أنظر فصل العقل من ص 29 إلى 51.

(2) - المرجع نفسه، ص 42.

(3) - الأمير عبد القادر، المواقف، مرجع سابق، ص 82.

(4) - المرجع نفسه، ص 83.

من المسببات إلى الأسباب، وإلى مسبب الأسباب، فيرى أنّ الشمس والقمر والكواكب مسخّرات بأمره سبحانه وتعالى، وهو من أمرنا بالتفكير والتدبّر والتعلّم جلّ جلاله" (1).

والدّارس لرسالة المقرّاض الحاد عنده - الأمير عبد القادر - يجد هذا المسلك والمنهج في إثبات الألوهية لله وحده من خلال مباحث النظر في السماوات والأرض والشمس والقمر والنبات، والإنسان.... منطلقاً من الأسباب والمسببات التي وضعت لنظام هذا الكون ليصل بها إلى عظمة قدرة الله تعالى ومن ذلك مقتطفات من كتابه:

"إذ نجد أنّ الكون كله خلق متكاملاً ويُسيّر بعضه بعضاً، فحرارة الشمس الضوئية مهمّاتها كثيرة فهي مثل الخلية تستطيع القيام بعمليات مذهلة داخل نظام هذا الكون، وحتى النبات تراه ينتج فيه السكر والمعادن مثل الحديد وغيره، وكل هذا لبناء جسم الإنسان والحيوان الذي سخّره الله لغذاء الإنسان، وما أذكره الآن ظاهرة بسيطة من ملايين الظواهر، وأمّا بواطن هذا الخلق فلا شك أنّها أروع وأعظم الظواهر وتحتاج إلى عقول مفكّرة، وأدوات وسلطان لكشف أسرارها التي دون شك هي فوق الخيال، تشهد كلّها على إبداع الخالق جلّ جلاله، فكلنا نشاهد أنه عندما تنتشر أشعة الشمس، وتصل إلى النبات يمتصّ منها النبات ما يحتاجه من شعاع ليكسب لونه الأخضر، والذي لا يأخذ نصيبه يظلّ مصفّراً، فهذا العمل وحده لا بدّ أنّه يحتاج إلى نظام، فهو أمر لا يمكن أن يحدث عشوائياً، ولا بدّ أن له مدبّراً ومنظماً لا تدركه الأبصار وليس كمثل شيء واحد أحد لا شريك له، فكلّ شيء في هذا الكون متوازن بمقدار وحسبان...." (2).

وهذا مقتطف صغير يتحدّث فيه الأمير عن هذه السنن الكونية، أو كما يسمّيها "الأسباب العقلية أو العادية"، وغيرها الكثير التي يناقش فيها الأمر ويبيّن إبداع الخالق في هذا الكون، ويستدلّ من خلالها على وحدانية الله تعالى، ونجد الأمير يحثّ العقول على دراسة هذا الباب من العلم (3)، والاستفادة منها والانتفاع بها سواء أكان الانتفاع مادي أو معنوي، مادي من خلال تسخيرها وتذليلها لصالح هذا الكائن البشري والمعنوي المتمثّل في الجانب الإيماني، وما تضيفه من يقين قلبي بهذا الخالق.

(1) - الأمير عبد القادر، ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، مرجع سابق، ص 90.

(2) - الأمير عبد القادر، المقرّاض الحاد، مرجع سابق، ص ص 92-93-94.

(3) - المرجع نفسه، ص 94، ص 96.

بالرَّغم من أن الأمير عبد القادر كان ذا مشرب صوفي، وهذا واضح وجلي من خلال كتابه المواقف، خاصّة ما يتعلّق بنظرية وحدة الوجود، التي يميل إليها الأمير في تفسير خلق هذا الكون، غير أنّه لا ينكر ولا يعطّل الأسباب التي ينظم الله من خلالها هذه المخلوقات، ويعدّ هذه الأسباب حجب وأستار يعمل من خلالها الله، فما تلك الأسباب إلا أثر دالّ على حكمته تعالى وقدرته، "فهو في الدنيا يملكه بوسائط وأسباب وحجب وهو الفاعل المالك من ورائها؛ لأنّ الدنيا مبنية على الحكمة، وفي الآخرة ترتفع تلك الحجب، وتهتك تلك الأستار"⁽¹⁾.

ويذهب الأمير إلى أنّ العالم كلّ من أصغر شيء فيه إلى أكبر مخلوقاته مرتبط بالأسباب، فيقول "فمن العرش إلى منتهى الشّرع كلّ عالم الأسباب، وقد بلغني أنّ بعض المسيحيين ذكروا أنّ المسلمين لا يعترفون بالأسباب، وأقول نعم لا نعترف بقوّتها المجردة وإنما بقوة مسبّب هذه الأسباب وهو الله سبحانه وتعالى، فقدرة الله غير منقطعة في أي حال من تأثير المؤثرات، وكلّ ما يصدر عنها لا يكون إلا بقدرة الله عز وجل، فيكون الأثر الصّادر؛ صادرا عن قدرة الله وإرادته، وهو مسبّب الأسباب"⁽²⁾. وهذا دالّ على أنّ الأمير يقرّ بهذه الأسباب (السَّنن)، ولكن يراها من جانب آخر وهو أكثر عمقا بأن يغوص معها إلى معرفة واضعها والمؤثّر بها، فجاءت نظريته من عمق الإيمان، وتجده يبحث على الأخذ بهذه الأسباب والاستدلال بها ومعرفة أسرار الله في خلقه، "فالاستدلال على الحوادث بالأسباب يضاهي استدلال الطّبيب بالنبض على المرض، وهو معرفة سنة الله في خلقه"⁽³⁾.

فالعارف عنده هو الذي يثبت هذه الأسباب العادية (السَّنن الكونية)، وأنّه يمكن تذليل هذه الأسباب ورفعها بأسباب أخرى، وهو ما نسمّيه القانون التّسخيري، الذي يدلّل فيه الإنسان الكون من خلال استخدام نواميسه، وتفتح هذه الأسرار بمفاتيح من نفس جنس هذه الأسرار وهذه المكنونات والمخلوقات⁽⁴⁾.

"ويعلم المحقّق أن الحكمة فيما ظهر، وأنّ الأسباب لا ترفع أبدا، وكلّ من زعم برفع الأسباب العادية

(1) — الأمير عبد القادر، المواقف، مرجع سابق، ج 1، ص 174.

(2) — الأمير عبد القادر، المقراض الحاد، مرجع سابق، ص 95.

(3) — الأمير عبد القادر، المواقف، مرجع سابق، ص 96.

(4) — للمزيد من التعمق ارجع إلى: بدران بن مسعود بن الحسن، الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري، مرجع سابق، ص 19 / وانظر أيضا: ماجد عرسان الكيلاني، فلسفة التربية الإسلامية، مرجع سابق، ص 126 وما بعدها.

التي أجراها الحق تعالى في العالم (...) فقد أساء الأدب وما أعطى الحكمة الإلهية حقها (...) قال تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجْدِلَ سُنَّةَ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح: 23] ⁽¹⁾، "ولذلك لا بدّ من الأسباب وجودا، والغيبة عنها شهودا" ⁽²⁾.

من خلال هذا الطّرح يمكننا القول إنّ الأسباب العادية (أو العقلية) عند الأمير عبد القادر، يرمز بها إلى وجه من وجوه القانون السنني الإلهي العام، وهي السنن الكونية التي تتحكّم في نظام الخلق وسيره في دقة وثبات، وهذه السنن عند الأمير لا يجب أن ترفع أو تهمل وتترك بل وجب إثباتها والعمل بمقتضاها، "فترك الأسباب رأسا تخريب للدار الدنيا فإنّ مبناها على الحكمة الإلهية" ⁽³⁾.

ثانيا: الوجه الثاني للقانون السنني عند الأمير عبد القادر: [السنن الاجتماعية، أو الحضارية، أو البشرية (الأسباب الشرعية)]

يعدّ هذا النوع من القانون السنني الذي يتحكّم به الله في حركة الإنسان والمجتمعات والأمم، هو الذي عُنيّت به كثير من الدراسات الإسلامية المعاصرة، وتهدف إلى إرسائه كعلم قائم بذاته، لأهميته البالغة في توجيه حركة هذا الإنسان فوق هذه المعمورة؛ من أجل الصّلاح والإصلاح والفلاح والنجاة في الدارين. ونجد هذا الوجه (النوع) من القانون السنني عند الأمير عبد القادر، وهو الذي يعبر عنه بمصطلح الأسباب الشرعية، وهو ما يوازي المصطلحات المعاصرة التي تختلف في تسمياتها لهذا النوع من القانون السنني، كل بحسب وجهة نظره فمنهم من يطلق عليها بالسنن الاجتماعية، أو السنن الحضارية، أو البشرية أو التاريخية...

يقول الأمير عبد القادر "اعلم أن الأسباب كلّها حجب وأستار دون وجه الحقّ، وهو الفاعل من خلف أستارها، وسواء في ذلك الأسباب العادية أو العقلية أو الشرعية من الأوامر، والنواهي؛ لأنّ معنى المأمورات افعل كذا فيكون سببا لدخولك الجنّة، ومعنى لا تفعل كذا فيكون سبب دخولك النّار، والشّرائع كلّها من لدن آدم إلى مُحمّد جاءت باعتبار الأسباب العادية والشرعية إذ هي مقتضى الحكمة" ⁽⁴⁾

(1) - الأمير عبد القادر، المواقف، مرجع سابق، ج2، ص 747.

(2) - المرجع نفسه، ج2، ص 674.

(3) - المرجع نفسه، ج2، ص 738.

(4) - الأمير عبد القادر، المواقف، مرجع سابق، ج1، ص 198.

فسر الأمير عبد القادر في قوله إنّ الأسباب الشرعية هي الأوامر والنواهي التي بثّت في شرع الله الذي أنزله على عباده في جميع رسالاته، فالعقل عنده وإن كانت له القدرة على الاكتشاف ونهل المعارف إلّا أنه قاصر، لا أن يدرك معنى الطّاعة لوحده إلّا بتوجيه من نور ربانيّ.

"اعلم أنّ العقل وإن خصّه الله تعالى بخصوصية الاطلاع على حقائق الأشياء والوصول إلى معرفته تعالى بالاستدلال بالعلم وأحواله، ولكنّه قاصر على معرفة الطّاعة والمعصية والحسن والسيّء، وإمّا أن يرجع إلى الملائمة والمنافرة للطّباع، كاستحسان الجميل والنفور من القبيح، وإمّا أن يرجع إلى صفات الكمال والنقص، كحسن العلم وقبح الجهل، وما ذكر من الأشياء الحسنة المقربة إلى الله تعالى التي يترتّب عنها المدح عاجلا والثواب آجلا، كالإيمان والطّاعة، والأشياء القبيحة المبعدة عن الله التي يترتّب عنها الذمّ عاجلا والعقاب آجلا كالكفر والمعصية، فلا يصل العقل إلى شيء من ذلك، ولا يعرفه إلّا بتعريف الله تعالى" (1).

فالإنسان لا يدرك بعقله كنه العبادة المحضة لله وحده إلّا بتعريف من الوحي الربانيّ، كما أنّ الإنسان مدنيّ في طبعه لا يألف العيش إلّا ضمن مجتمعات، فيحتاج معها إلى منظم ومسيّر يراعي كلّ هذه الاختلافات الحاصلة في التركيبة البشرية، ويضبط معها سير أفعال العبادة، ولقد حاولت الفلسفات من ذي قبل وضع حلول ونظم لتسير هذا الإنسان وضبط المجتمع، إلّا أنّها جاءت قاصرة لاعتمادها على العقل وحده.

فيرى الأمير أنّ "المجتمعات بحاجة إلى قوانين تضبط الأمور وتنظّم الحدود، وتقيم العدل وتنظّم الجيوش للحفاظ على حرّيات الأوطان، وهذه الأمور كلّها تحتاج إلى نظام متكامل ودستور عادل، وحلول لجميع المشاكل التي تعترض الإنسان على هذه الأرض، ورأينا من النّاس من يتصدّى لوضع نظريات وحلول لهذه المشكلات المعقّدة معتمدا على عقله، وما أشدّ غرور هؤلاء وجهلهم بالعلم الحقيقي" (2).

"فعقل الإنسان خلقه الله وله حدود معينة لا يستطيع تجاوزها، وإدراك حكم الله فيما يصنعه في مخلوقاته، فالفعل البشريّ مهما علت قدرته فهو أضعف من أن يدرك جميع أسرار الكون من الإحاطة بحكمة الخالق" (3)، مع هذا العجز من العقل الإنساني الذي لا يدرك معه أسرار النجاة والفلاح، ومعرفة ما

(1) - الأمير عبد القادر، المقراض الحاد، مرجع سابق، ص 107.

(2) - المرجع نفسه، ص 83.

(3) - المرجع نفسه، ص 85.

يقرب إلى الله وما يبعد عنه، فلا بدّ له من نور يهتدى به فيرى الأمير عبد القادر أنّ "الرّسول أو النّبيّ كالمُرشد في الغابة، الذي يعرف طرقها وأخطارها فيشاهد إنسانا في مكان خطر، فيقول له بدل مكانك وراءك سبع، فإن كان هذا الإنسان عاقلا مدركا مؤمنا بأنّ هذا المرشد مكلف من سلطة عليا، وأنه أعلى منه بخبايا الغابة سار حيث أمره المرشد ونجا، فالعقل لا يهتدى إلى الأفعال المنجية إلا بواسطة الرّسل، كما لا يهتدى إلى الأدوية المفيدة للصّحة إلا بواسطة الأطّباء"⁽¹⁾، "فالعقل لا يقدر على إدراك الحقائق دون خطأ إلا إذا طلعت عليه أنوار التّوفيق والهداية من الله تعالى"⁽²⁾، فالأنبياء جميعا جاؤوا من أجل تحقيق مصالح الناس الدّينية والدنيوية التي يكون بها صلاحهم وفلاحهم، فعلوم الأنبياء من حيث خطابهم للعامة دائرة على ما يصلح الناس في معاشهم ومعادهم"⁽³⁾.

فحكّمته تعالى من إنزال الكتب وإرسال الرسل وسنّ الشرائع إصلاح حال البشريّة، وتبيان لهم ما يقيم لهم دينهم، ودينهم بالطّرق الأصح والأُنفع، فيقول الأمير عبد القادر "والحكمة التي وضع لأجلها تعالى العقوبات والحدود التي شرّعها لنا في الدنيا لإصلاح ديننا ودنيانا وإبقاء لعمارة الدار الدنيا إلى أجلها الموعود"⁽⁴⁾.

"فالغاية القصوى من بعث الرسل دعوة الخلق إلى معرفة الحق وإرشادهم إلى ما فيه تنظيم معاشهم وحسن معادهم، فهم متفقون عليه وإن اختلفوا في الشّرائع، فالدين هو التوحيد والعبودية لله وحده والشرائع كلها متفق عليها"⁽⁵⁾.

والمقصود الأعظم من هذه الشّرائع كلّها هو تعريف العبد بخالقه، وعبادته والخضوع والإذعان له، فهذه السّنن التي بثّها الله في كتبه من لدن آدم إلى سيدنا محمّد جاءت من أجل هداية الناس وتعريفهم بفطرتهم السليمة، فاتفق الأنبياء جميعا في أصول الدّعوة وإن اختلفت الشّرائع فهي أنزلت بحسب الزّمان والمكان والأقوام، وكانت الشّريعة الخاتمة صالحة لكلّ زمان ومكان وإن اختلفت الأعراق، فهي التي ارتضاها الخالق أن تكون المعجزة الخالدة الباقية إلى أن تقوم الساعة، فما جاء فيها من علوم وأسرار وسنن سبيل

(1) - الأمير عبد القادر، ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، مرجع سابق، ص 108.

(2) - المرجع نفسه، ص 17.

(3) - المرجع نفسه، ص 74.

(4) - الأمير عبد القادر، المواقف، مرجع سابق، ج 1، ص 137.

(5) - الأمير عبد القادر، المقرض الحاد، مرجع سابق، ص 123.

لتحقيق النجاة والفلاح لكل البشرية⁽¹⁾.

ويرى الأمير بأن طوق الشريعة لا يفارق ولا يزول عن رقبة عارفا ولا كاملا ما دام في دار التكليف، وأن العمل والاستقامة على نهج الكتاب والسنة، هو الذي يضمن النجاة "فلا نور يرغب فيه الراغبون مثل الاستقامة على الكتاب والسنة؛ لأنه تعالى ضمن النجاة في العمل بهما، وما ضمنها في العمل بالكشف⁽²⁾."

الإنسان في هذه الدنيا كالمسافر، فهو بحاجة إلى زاد لكي ينتقل به من محطة إلى أخرى، فزاده في كلا المحطتين متعلق بالأمر الإلهي، وما سنّه في شرائعه التي تكون منها مؤونته وزاده الذي يؤهله للوصول إلى برّ الأمان.

فقال الأمير عبد القادر: "قيل لي في الواقعة: من استراح تعب، فقلت ومن تعب استراح، وذلك أن الحق تعالى خلق الإنسان وجعله ينتقل في المنازل والأطوار، ولا يستقر به قرار إلا في دار القرار، إما في الجنة أو في النار، وأعظم مواطن موطن الدنيا وموطن الآخرة، فموطن الدنيا موطن تكليف وتعب وضيق وعمل، وحجاب وحجر، فمن استراح في الدنيا بإعطاء نفسه مئانا واتباع مرادها وهواها، فلم يعط الموطن حقه، ولم يراقب حكمة الحكيم تعالى، ولا يذل له من نفسه ما استحقه، وتعب في الآخرة؛ لأنها موطن جزاء واجتناء ثمرات ما غرس في الدنيا من الأعمال، ومن تعب في الدنيا وأعطى الموطن حقه بالقيام بوظائف التكليف والعمل بما رسم المشرع، استراح في الآخرة، قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾^(٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ^(٨)﴾ [الزلزلة 7-8]، وليس الخير في الدنيا إلا ما أمر به الشرع ولا الشر فيها إلا ما نهى عنه"⁽³⁾.

"فالكمال والشرف في هذه الدار منوط بالقيام بوظائف العبودية، فإنه تعالى ما خلق الجن والإنس إلا ليعبدوه بعد معرفتهم، والرسول عليهم السلام فإنهم زيادة على ما كلفوا به في خاصتهم، هم مكلفون بأداء الرسالة وتبليغ الأمانة إلى أممهم، وإرشاد الناس إلى مصالح دينهم ودنياهم"⁽⁴⁾.

(1) - المرجع نفسه، مرجع سابق، أنظر إلى ص 111 وما بعدها.

(2) - الأمير عبد القادر، المواقف، مرجع سابق، ج 1، ص 128.

(3) - المرجع نفسه، ج 1، ص 382.

(4) - الأمير عبد القادر، المقرض الحاد، مرجع سابق، ج 1، ص 298.

من خلال ما بيّناه نجد أن درس السّنن في وجه الثّاني المتعلّق بتسيير حركة هذا الكائن البشري، وتبيان ماله وما عليه، وما وجب القيام حضارته وسط جماعته، قد طرح الأمير عبد القادر هذا النوع (الوجه) من السّنن التي يشير إليها بالأسباب الشرعية، ويرى الأمير بأنّ صلاح الدّين والدنيا قائم على حضور هذه السّنن (الأسباب الشرعيّة)، وأنّ عقل الإنسان قاصر عن إدراك كل الحقائق والأسرار إلّا إذا اهتدى بالنور الإلهي الذي فيه النجاة والفلاح، فلا بد من قانون ودستور ينظّم الأفراد والجماعات والأمم، وتكون نظرة هذا القانون شاملة لمصالح كلّ فرد من هذه الجماعات والأمم، مقيم على العدل والاتزان دون إفراط ولا تفريط في أي جانب من الجوانب الحياة، ولن يكون هذا إلّا تحت إطار الشّرع الإلهي، فقد حاولت الفلسفات من ذي قبل ولكن دون جدوى، وهذا ما أراد أن يوصله الأمير للآخر عن طريق كتابيه "المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام بالباطل والإلحاد"، وكتابه "ذكرى العاقل وتنبيه الغافل".

وفي آخر هذا المطلب يمكن أن نستخلص مايلي:

درس السّنن في فكر الأمير عبد القادر كان حاضرا بوجهيه، الأوّل الذي يتحكّم به في المادة (السّنن الكونية)، وهو الذي يصطلح عليه بالأسباب العادية، ومرة يطلق عليه الأسباب العقلية، وأما الوجه الثّاني فهو الذي يسيّر به حركة هذا الإنسان في هذه الدار، ويصطلح عليها الأمير بالأسباب الشرعية، وهي المتمثلة في أوامره تعالى ونواهيه التي بثّها في شرعه وأنزلها على أنبيائه.

والغرض من هذه الأسباب (العادية والشرعية) عند الأمير جاءت لتحقيق مقاصد العباد الدّينية والدنيوية، وبها تكون عمارة هذه الأرض وصلاح العباد وفلاحهم. ومن عطّل هذه الأسباب إنما أساء الأدب وما عرف قدر وحكمة الله تعالى، وما ناله بتركها إلى الشّقاء والخراب في الدنيا والخسارة في الآخرة.

المطلب الثالث: البعد الواقعي لحضور السّنن لدى الأمير عبد القادر:

لقيت شخصية الأمير عبد القادر وسيرته الاهتمام من قبل الكثير من الباحثين العرب والأجانب ويعود ذلك لصدى وحركة هذه الشّخصية، وما قامت به من إنجازات على الصعيد الواقعي، فسجّل الأمير اسمه في التاريخ بحروف من ذهب، سواء في الحضارة الجزائرية، أو الإسلامية العربية، وحتى العالمية.

وسنلقي الضّوء على هذه الإنجازات العملية للأمير عبد القادر، ولكن بمنظور مختلف، محاولين أن ننظر إلى البعد الواقعي لحضور درس السّنن لديه من خلال الإجابة على الأسئلة الآتية:

- كيف وظّف الأمير عبد القادر وجوه القانوني السُّنني الإلهي؟

- ما هي آثار وأبعاد الوعي بالقانون السُّنني عند الأمير عبد القادر؟

والغرض من هذا المطلب معرفة الجانب العملي التطبيقي لدرس السُّنن عند الأمير عبد القادر، ومعرفة أهمية الوعي بهذا القانون السُّنني، وما يمكن أن ينجز من خلاله.

أولاً: منهج الأمير عبد القادر في العمل بالقانون السُّنني الإلهي:

أول ما نبدأ به في معرفة البعد الواقعي للسُّنن عند الأمير عبد القادر هو الاطلاع على المنهج الذي كان يعمل به، وهو الذي استوحاه من المنهج النبوي الشريف وهذا ما يقرّه في كتابه المواقف، وهو أول من استفتح به كتابه بذكر الآية: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 21]، فيقول الأمير عنها "فهذه الآية مع قلة حروفها فيها من الاعجاز ما لا يعبر عنه بحقيقة ولا مجاز، فهي بحر زاخر، ما له أول ولا آخر، فكل ما ألفه المؤلفون من أحكام الدين والدنيا داخل تحت إشارتها بلا ثنيا"⁽¹⁾، وقد أبرز الأمير أبعاداً أربعة لهذه القدوة المتمثلة في شخص النبي صلى الله عليه وسلم، وجعلها هي وجهة لكل عارف وعالم وباحث، فهي اختصرت كلّ الجهات التي تحيط بالإنسان، وبها يعرف كل مقاصد هذا الكائن في هذه الحياة وفوق هذه المعمورة، فمنهج الأمير عبد القادر الذي كان يعمل به في حياته هو المنهج النبوي الشريف الذي يوافق فيه القول بالعمل، والروح الجوارح، والعقيدة الشريعة، فلم يكن يفصل الأمير بين هذه الأشياء عن بعضها إنّما كانت مترابطة عنده وفق نظرة متكاملة.

وفي ضوء هذا المنهج صقلت شخصية الأمير، وتشبعت بالأخلاق والقيم الإسلامية التي تستمدّ نورها من الوحي الرباني، ووفق هذا المنهج النبوي بنى الأمير قواعد وأسّس دولته، التي اعترف بها الأعداء، وحسبت لها الحسابات، وخطّطوا لإضعافها وإسقاطها، وجنّدوا لها الجيوش، وأعدّوا لها العدة.

وما منهج النبي ﷺ إلا تجسيد عملي للسُّنن الإلهية، التي تحتاج إلى فقه واقعي يعي ويستوعب هذا العلم السُّنني، فيبرزه إلى أرض الواقع فلم يحتج النبي عليه الصّلاة والسلام إلّا لتجنيد الصّحابة رضوان الله

(1) - الأمير عبد القادر، المواقف، مرجع سابق، ج 1، ص 102.

عليهم من خلال تبصيرهم بهذه القوانين التي ينظم بها الله خلقه، فبعد وعيهم بها كان العمل والانطلاق في لبّ التاريخ لتدوين الحضارة لهذه الأمة⁽¹⁾.

وكان الأمير عبد القادر من خلال التربية التي نشأ عليها، والعلوم التي انتهل منها، قد استوعب هذا المنهج النبوي، وفهم هذا الدرس السنّي، وعمل بوفقه، وعليه سبّز أهمّ السنن الربّانية المعمول بها في دولة الأمير عبد القادر الجزائري.

بالتأمل في سيرة الأمير عبد القادر الجهادية، وحركته التاريخية التي أراد من خلالها التأسيس لمشروع دولة جديدة بمنظور مخالف عما كان عليه الأمر السائد آنذاك، والظروف الصعبة المحيطة به، والأوضاع المتدهورة التي كانت تعيشها الجزائر في جميع المستويات السياسية والاجتماعية والاقتصادية... وأهمّ عائق لقيام هذه الدولة هي ظروف الحرب التي زجت بهذا الشاب العالم إلى الواجهة فعمل بكلّ جهده لتنظيم وتأسيس دولة، أخذ معاييرها من المنهج الرباني.

وأهمّ السنن الربانية - الأسس - التي قامت عليها دولة الأمير عبد القادر هي البيعة المشروعة، إقامة الدين (التوحيد)، العمل بالشورى، وتحقيق العدالة، والأخذ بواجب الجهاد.

ثانيا: الأسس التي عمل بها الأمير عبد القادر لقيام دولته (رؤية سنّية لهذه الأسس)

1- البيعة:

بعد دخول الفرنسيين إلى الجزائر، وأعمال الشغب والفوضى التي عمّت البلاد، سواء من العدو الذي انتهك الحرمات وسفك الدماء، أو من أعمال الشغب الصّادرة من الجهات الداخلية التي مارست النهب والسلب وقطع الطرق، وانتشر الرعب بين الأهالي وأصبح الوضع محتدما لغياب السلطة الرّادعة لكلّ الأطراف، فجاءت الحاجة الماسّة إلى قائد تحتمي تحته الرّعية.⁽²⁾ فأجمع أهل الرّأي والعقلاء على مبيعة محي الدين والد الأمير عبد القادر، إلّا أنه رفض عرضهم نظرا لكبر سنه وأشار عليهم بمبيعة ابنه عبد القادر⁽³⁾، فقبلوا هذا العرض، فشخصية عبد القادر وبما أشتهر به من رجولة، وشجاعة، وعلم وورزانة

(1) - ارجع إلى : رشيد كهوس: المنهج الحديث النبوي الشريف في الكشف من السنن الإلهية، مجلة المدونة، مجلة تصدر عن مجمع الفقه

الإسلامي بالهند، ع 15، السنة 4، ربيع الآخر 1439هـ، يناير 2018.

(2) - ناصر الدين سعيدوني، عصر الأمير عبد القادر، مرجع سابق، ص 205.

(3) - شارل هنري تشرشل، مرجع سابق، ص 56.

ورجاحة عقل فرضت عليهم القبول بها.

فلم يصل الأمير عبد القادر إلى الحكم عن طريق القوة كما كان متعارفا عليه، أو عن طريق التوارث التي كان سائدا آنذاك في نظام السلاطين، بل وصل عن طريق بيعة شاركت فيها كلّ القبائل التي كانت تمثل الرأي العام في ذلك الوقت ⁽¹⁾، فتولّى حكم هذه الدولة لم يكن طموحا أو رغبة شخصية من قبل الأمير، وإنما كان غرضه وهدفه وردع الاعتداءات الداخلية والخارجية التي أدّت إلى انتشار الفوضى في المجتمع الجزائري، وهذا ما عبّر عنه الأمير بقوله "إنني لم أتقدم لتولي مسؤولية الحكومة بمحض الطّموح والرغبة في السّطة والجاه، أو الحياة في ثروات الدنيا ولكن الله وحده يعلم أسرار القلوب، لأحارب في سبيل الله لأحقن دماء المسلمين ولأحمي أملاكهم، ولأمهد البلاد كما تقتضي ذلك الغيرة على الدين والوطنية" ⁽²⁾.

وبالتالي لم يسعّ الأمير عبد القادر إلى الإمارة والسّطة بل السّطة هي التي سعت إليه عندما بحثت الجزائر عن شخص يقودها، وهي تواجه خطر محو شخصيتها وكيانها فبحثوا عن الشخص الذي يستوعب الأمة في كيانها، ويجسّدها بأفعاله وأقواله، فالسّطة هي اختيار شعبي بإرادة حرة وإجماع وطني وليس كنزا يستأثر به أصحاب الشوكة ⁽³⁾.

فكانت هناك بيعة خاصّة وبيعة عامّة، البيعة الخاصّة تمّت مساء يوم 27 نوفمبر 1832 تحت شجرة الدرداء، أين اجتمع العلماء ووجهاء البلاد، واتّفقوا فيها على أن يسندوا الإمارة لعبد القادر بن محي الدين فبايعوه على السمع والطاعة ⁽⁴⁾، وتمّت البيعة العامة بمسجد الجامع بمعسكر بتاريخ 4 فيفري 1833 الذي عقد معه اجتماع عام حضرته جماهير غفيرة من أفراد الشعب وأعيانهم من أشرف وزعماء القبائل ⁽⁵⁾ الذين أجمعوا ورضوا ببيعة الأمير عبد القادر، وتنصيبه أميرا عليهم.

ونكتفي بهذا القدر من سرد الأحداث التي أدّت إلى بيعة الأمير، فلننا هنا بصدد سرد للأحداث

(1) – ارجع إلى مقال: إسماعيل زروخي، مساهمة الأمير عبد القادر في النهضة العربية، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة منتوري قسنطينة، ع2، مج11، سنة 2000-12-31، ص 92.

(2) – شارل هنري تشرشل، مرجع سابق، ص 156.

(3) – سعيدوني، عصر الأمير عبد القادر، مرجع سابق، ص 03 بتصرف.

(4) – كبير سليمة، الأمير عبد القادر ناصر الإسلام والوطن، المكتبة الخضراء، الجزائر دط، 2012، ص 12. /أنظر أيضا: سعيدوني، عصر الأمير عبد القادر، ص 200 /وانظر أيضا هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ص 56.

(5) – هنري تشرشل، مرجع سابق، ص 62.

والوقائع، فكتب التاريخ قد غنتنا وكفتنا في هذا الجانب، ولكننا نريد أن نبرز ظهور وعي الأمير عبد القادر بالقانون الإلهي السنني الذي جسده في أقواله وأفعاله.

فقد حملت نصوص البيعة⁽¹⁾ نفحات النبوة، وركائز ودعائم المجتمع المسلم المدني الذي نصّ عليه النبي في كلّ مبيعاته التي عقدها مع صحابته الكرام، والمفردات التي تناولها الأمير عبد القادر في نصّ بيعته التي استوحاها من مفردات نصوص بيعة النبي عليه الصّلاة والسّلام (سواء في بيعة العقبة⁽²⁾ أو في بيعة الرضوان)، ومن أهمّ البنود التي جاءت في نصوص بيعة الأمير عبد القادر تنصّب الإمام الشرعي، وإقامة دين الدولة، القرآن والسنة هما الدّستور الذي يستقى منه الأحكام، السّمع والطاعة، المجاهدة بالنفس والولد والمال، والامتثال للأوامر .

وحتى المكان الذي اختاره الأمير عبد القادر تحت شجرة الدرار وكيفية المبايعة وطريقتها، إنّما هو مستوح من المنهج النبوي، الذي أراد به الأمير عبد القادر إرجاع الأمة إلى عهد الصحابة واحتمائهم تحت لواء الإسلام والتّوحيد وإعلان الجهاد باسم الدين، وفي سبيل الله وصد العدو الذي يريد طمس هذه الهويّة.

فيطرح هذا سؤال: أين هي السنن الربانية هنا؟

نقول أنّ السنة الإلهية في البيعة متمثلة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَآ يَعْزِمُ أَخِرَ عَظِيمًا﴾ [الفتح: 10]، أي أن الذي ينصر الله ينصره، ومن يتبع نهجه وسبيله يؤيده.

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: 18]

وقد عرفت البيعة على أنّها عقد بين طرفين الإمام وأهل الحل والعقد من المسلمين، فيعطي المسلمون عهدا على السّمع والطاعة ويعطيهم الإمام عهدا على العمل بالكتاب والسنة⁽³⁾، ويرى ابن خلدون "أن

(1) - ارجع إلى شارل هنري تشرشل، مرجع سابق، ص ص 59-60 .

(2) - للاطلاع على بيعة النبي ارجع إلى سيرة ابن هشام، ج2، ص 73-97 وأنظر إلى الرحيق المختوم، ص ص 143-154 .

(3) - أحمد محمود آل محمود، البيعة في الإسلام، دار الرازي (دط)، (دت)، (دس)، ص 21.

البيعة هي العهد على الطاعة ⁽¹⁾، وعن مشروعية البيعة فقد ثبتت بنصوص من القرآن والسنة:

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَرِّبُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بَبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 11]

وكان سبب نزول هذه الآية هي بيعة العقبة (العقبة الكبرى) التي بلغ فيها عدد الأنصار نحو من سبعين رجلاً، حين اجتمعوا مع رسول الله عند العقبة فبايعوه على السمع والطاعة، والنفقة في العسر واليسر، وبايعوه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن يقولوا كلمة الحق، وأن ينصروه ويمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأزواجهم وأبناءهم ⁽²⁾.

والآية تخاطب المؤمنين في كل زمان ومكان بالرغم من نزولها في حدث معين إلا أنها "عامة في كل مجاهد في سبيل الله من أمة محمد إلى يوم القيامة" ⁽³⁾.

ولقد كان النبي عليه الصلاة والسلام حريصاً على عقد البيعة من قبل الأنصار وقبل الهجرة وهذا دلالة على أهميتها ومشروعيتها ⁽⁴⁾.

ولقد جاء في تفسير ابن عاشور في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: 10] "أي لا يبايعون إلا الله... وأن غاية البيعة وغرضها هو النصر لدين الله ورسوله" ⁽⁵⁾

فجاء بيان وجزء البيعة في نفس السورة في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: 18] "فقد نال المبايعين مكانة رفيعة برضوان الله عليهم، وهو أعظم خير في الدنيا والآخرة، والشهادة لهم بإخلاص النية وإنزال السكينة في قلوبهم ووعدهم بثواب وفتح قريب ومغانم

(1) -نقلاً عن: أحمد محمود آل محمود، البيعة في الإسلام، مرجع سابق، ص 21.

(2) -القرطبي، مرجع سابق، ج 3، ص 267.

(3) -القرطبي، مرجع سابق، ج 8، ص 267.

(4) -أحمد محمود أحمد محمود، مرجع سابق، ص 33.

(5) -الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ج 26، ص 157.

كثيرة" (1).

فالغرض من البيعة هو نصرة الدين وإعلان التوحيد ولمّ شمل المؤمنين فسيرة النبي ﷺ منهاج واقعي ملموس للسنة الربانية، فقد برزت من بيعته عليه السلام أهمّ معالم تحقيق النصر والتمكين للأمة الإسلامية وتمثلت في:

- إعلان الإخلاص لله وحده في جميع الأفعال والأقوال.
 - لمّ شمل المؤمنين تحت راية واحدة.
 - إعلاء سلطة القرآن والسنة فلا سلطة فوق حكم الله ورسوله.
 - نصرة الدين ولو على حساب النفس والولد والمال.
 - السمع والطاعة والامتثال لأوامر الله تعالى في السراء والضراء.
 - تحديد الإمام النافع الأصلح الذي يقود مصالح العباد بما ينفع دينهم ودنياهم.
 - تحديد العلاقة التي تربط بين الإمام والمأموم.
 - البيعة تعدّ بداية التنظيم الممنهج الذي يوضح الرؤية الصحيحة في الخلافة الراشدة.
- وهذا ما سار عليه الأمير عبد القادر الجزائري في نصّ بيعته التي وضّح فيها مسار وأسس قيام دولته، فكان خطابه فيها موجه للعرب والبربر على حدّ سواء، وينصّ على أنّ الإمارة الإسلامية قد آل أمرها إلى عبد القادر بن محي الدين، وبذلك صار متكفلاً بإقامة الحدود الشرعية لنفع العباد وعمران البلاد، ورفع راية الجهاد، ويدعوهم إلى تقديم الطاعة وأداء البيعة ونبد الخلاف" (2)، ومن هنا فقد كانت بيعة الأمير عبد القادر تقوم على أسس ربانية ومنهج نبوي، ومفادها تحقيق مصالح العباد الدينية والدنيوية.

ويمكننا أن نستنتج أنّ البيعة حكم من أحكام الله التي نصّ عليها في خطابه القرآني وأثبتت في سنة النبي عليه الصلاة والسلام، وعمل بها الصحابة والسلف الصالح، التي من خلالها يتمّ تنصيب الإمام الشرعي الذي يقود زمام أمور المسلمين، فهي سبب من الأسباب الشرعية التي بيّنها الله في كتابه، وسنة

(1) - المرجع نفسه، ج 26، ص 173 بتصرف

(2) - عبد الرحمن كريب، الأمير عبد القادر و مشروع الدولة الوطنية، مجلة كان التاريخية، علمية عالمية محكمة، ع 36، السنة 10، يونيو 2017، ص 65.

نبيّه صلى الله عليه وسلم التي من خلالها ترسم معالم الوحدة الإسلامية تحت لواء واحد، وقد جعلها الله سببا في بروز وحدة الأمة فهي سنته التي بها يكون التّمكن لهذه الأمة، وعندما تركت هذه السّنة تفرقت وضاعت وتشتّتت تحت رايات مختلفة، فضعف معها كيان الأمة كلّها.

وهذا ما أراد أن يصل إليه الأمير عبد القادر من خلال بيعته، وتعدّ هذه البيعة ذات قيمة تاريخية وميزة في السياسة الشرعية الجزائرية والإسلامية والتاريخ الإسلامي، أي على منهج السلف الصالح، وهي أيضا مبالغة صوفية روحية، حيث توجّه الشيوخ إلى محي الدين وبيعة سياسية... نظام الحكم، وبيعة مباركة صار بها الأمير أميرا اكتسب بها شرعية وجمع بها أغلب شرائح المجتمع⁽¹⁾.
ومن أهم الأسس التي جاءت بها البيعة إقامة دين التّوحيد.

2- إعلاء كلمة التّوحيد:

التّوحيد وإقامة الدين لله وحده هو القانون الأوّل، الذي من أجله خلق الله الخلق، وأنزل الكتب وبعث الرّسل، فهو المبدأ الأوّل والأخير الذي تقوم عليه الحياة في الدنيا والآخرة. ونجد الأمير عبد القادر بشخصيته وسيّره وحركاته التي تميّز بها في خضم مجريات الحياة، قد جسّد هذا المبدأ في كل نفس كان يحيا به، بل يعدّ التّوحيد هو المحرك الأوّل للأمير عبد القادر في كلّ ما كان ينجزه.

ولقد جاءت خطبة الأمير عبد القادر التي ألّفها يوم بيعته على رؤساء القبائل والعشائر والعلماء تنصّ على أن إقامة الدين الإسلامي هو المبدأ الذي تقوم عليه دولته في الإمارة، فقد جاء فيها " أرجو من الله التوفيق... في رفع راية الإسلام عالية في سماء بلادنا، فالإسلام هو الذي وحدّ قبائلنا بعد شتات وجعلها قوة لا تقهر، تدفعنا إلى ميادين المجد والشرف، وجعلنا إخوة يحبّ أحدا لأخيه ما يحب لنفسه (...)
سندافع عن الرّاية والرّسالة التي حملها لنا طارق بن زياد وموسى بن نصير...⁽²⁾.

القارئ بهذه الخطبة يرى جلّيا الأهمية التي أولاها الأمير عبد القادر للإسلام، فهو الأصل الذي أقام عليه دوله، وأنّ العزّة والقوّة في التمسك به، وأنّه هو سبب في اتّحاد القبائل الجزائرية من "عرب وبربر" وأن

(1) - ارجع إلى: أحمد عماري، أوراق تاريخية، دار الهدى، الجزائر، 2006، ص 27.

(2) - عليّ مُحمّد الصلابي، الأمير عبد القادر ربي ومجاهد إسلامي، (دط)، (دت)، (دب)، (دس)، ص 128.

كلّ المجد والشرف في الالتزام به، وهو القضية الأولى التي يحرك بها مشاعر السامعين، وتحت لوائها جند الجيوش وأعد ونظم قواعد دولته.

فالإسلام دين التوحيد، وهو الدين الذي ارتضاه الله للبشرية، وهو دين الأنبياء من آدم إلى محمد عليهم السلام، وهو أصل كل دعوة جاء بها الأنبياء، وهو الهدى والصراط المستقيم قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: 28]، فهدى الله هو الإسلام⁽¹⁾.

فالإسلام قضية جميع الأنبياء، فأخبر الله عن نوح عليه السلام قال تعالى: ﴿وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: 72]، وأخبر عن إبراهيم فقال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمُ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: 131]، وأخبر عن حواري المسيح: ﴿وَإِذْ أُوحِيَتْ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِرَسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَشَهِدْنَا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: 111]، وأخبر عن وصية يعقوب لأبنائه، قال تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: 133]، وكلّ الأنبياء جاءوا واشتركوا في هذه الدعوة قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: 19]

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: 85]

والدارس لسيرة رسول الله يجدها تصبّ كلها في الدعوة إلى "لا إله إلا الله محمد رسول الله"، فالدعوة إلى التوحيد شملت الجزء الأكبر من جهده ووقته عليه الصلاة والسلام⁽²⁾.

وقد اقتدى الأمير عبد القادر بهدى النبي صلى الله عليه وسلم في كلّ أعماله، فجاءت تنظيماته لدولته تصبّ في هذا المبدأ، والقانون الإلهي الذي أراده الله أن يكون حاكما على كلّ فعل يصدر من

(1) - عبد الكريم زيدان، مرجع سابق، ص 35.

(2) - مجموعة من المؤلفين، الموسوعة العقدية، موقع الدرر السنية doran.net، ج 1، ص 35.

الإنسان، فالتوحيد هو الأصل والمنطلق والوصول.

فجاء الأمير عبد القادر بتجربة جديدة في الحكم، جديدة على العصر الذي عاش فيه، وليست جديدة في التاريخ، فعندما اعتلى كرسي الإمامة كان أمامه نماذج من الحكام المسلمين، سلطان آل عثمان، وشاه إيران، وملك أفغانستان، وولاة من أمثال باي تونس وباشا مصر وإمام اليمن، وقد كان يمكنه أن يقلّد هؤلاء أو حتى يقلد الداوي حسين المخلوع، ولكن الأمير رفض أن يكون نموذجه أحد هؤلاء جميعا، واختار نموذجا جديدا يؤصل به الخلافة الراشدية، ويرجع به إلى حكم الإسلام في عهده الذهبي" (1).

فأراد الأمير عبد القادر أن يرجع أهله وعشيرته وقبائله وبلده ووطنه إلى الأصل الأول، وهو إعلاء كلمة التوحيد، فهذا ما جاء في مضمون رسالته إلى القبائل في ربوع الوطن "...فقد أجمعوا على مبايعتي وبايعوني على أن أكون أميرا عليهم، وعاهدوني على السمع والطاعة في السير والعسر وعلى بذل أنفسهم وأولادهم وأموالهم في إعلاء كلمة الله، وقد قبلت بيعتهم وطاعتهم (...)، واعلموا أنّ غايتي القصوى اتحاد الملة المحمدية، والقيام بالشعائر الأحمدية..." (2).

ولقد تجلّى مبدأ التوحيد عند الأمير في كلّ تنظيماته التي أعدها لقيام دولته، فقد أرسى قواعدها على أسس الدين الإسلامي الحنيف، وبيّن في خطبه أنّ منهجه الذي يسير عليه هو الإسلام شريعة محمد صلى الله عليه وسلم (3).

"فكان الأمير عبد القادر هو النموذج الحديث للفارس العالم المسلم الذي سلك ويعمل وفقا للشريعة الإسلامية التي تصلح لكلّ زمان ومكان، ولقد حقّق الأمير دستوره الذي دعا إليه في خطبة المبايع، فسارت دولته وفقا للكتاب والسنة" (4)، فالإسلام دين التوحيد، وكلّ ما في الوجود يدور حول هذه الحقيقة، فكلما كان الإنسان واعيا بهذه الفكرة تبين له الطريق، واتّضحت أمامه الأهداف والغايات

(1) — علي محمد الصلابي، الأمير عبد القادر قائد رباني ومجاهد إسلامي، مرجع سابق، ص 129.

(2) — علي محمد الصلابي، الأمير عبد القادر قائد رباني ومجاهد إسلامي، مرجع سابق، ص 128-129.

(3) — ارجع إلى مقال، قلايلية العربي، البعد الإنسان في شخصية الأمير عبد القادر من خلال كتاب حياة الأمير عبد القادر، مجلة

المعيار، تصدر عن المركز الجامعي تيسمسلت، ع2، ديسمبر 2010، ص 7، ص 12.

(4) — بركات محمد مراد، الأمير عبد القادر الجزائري المجاهد الصوفي، دار النشر الإلكتروني، (د)، (دت)، (دس)، ص 21.

فالتوحيد هو الحقيقة الكبرى في الكون، قال تعالى: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: 83] فكل شيء في الكون مفطور على هذه الحقيقة، فما بالك بهذا الكائن المكلف قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56]، فهذه الحقيقة جوهره وغاية وجوده، فالتوحيد هو قاعدة الوجود كله⁽¹⁾، فكلمة التوحيد هو أصل الدين وأساسه وكلمة الشهادة ومفتاح دار السعادة، ولأجلها خلقت الدنيا والآخرة والجنة والنار وهي دعوة جميع الأنبياء من لدن نوح عليه السلام حتى نبينا محمد وهي كلمة التقوى والعروة الوثقى⁽²⁾.

والمتدارس لسيرة الأمير عبد القادر الجزائري يرى هذه الحقيقة المتعلقة بالتوحيد، التي تجلّت في حياته كلها، ولقد شهد له أعداؤه قبل أصدقائه بهذه الحقيقة.⁽³⁾

3- الشورى وتحقيق العدالة:

بمجرد ما تولى الأمير عبد القادر زمام الإمارة أعلن عن مبادئه في الحكم، وأنه سيقم على سلطة العدالة الربانية المتمثلة في القرآن والسنة، وهذا ما يفهم من قول الأمير عبد القادر "إني لن أعمل بقانون غير قانون القرآن، ولن يكون مرشدي غير تعاليم القرآن، ولو أن أخي الشقيق قد أحل دمه بمخالفة القرآن لنفذت فيه الحكم، ولقد أكّد على ذلك بقوله "عليكم واجب الخضوع في كل الأعمال إلى نصوص كتاب الله وتعاليمه، والحكم بالعدل طبقا للسنة النبوية"⁽⁴⁾.

فقد أوجب الأمير على نفسه اتباع سياسة العدل، والمصلحة العامة التي أمر الله بها⁽⁵⁾، واتخذ من القرآن الكريم والسنة النبوية دستورا له في تطبيق هذه العدالة، ونصّ البيعة التي ألقاه الأمير عبد القادر، يعلن عن قطيعته لأساليب الحكم السابقة التي كانت قائمة على الاستبداد المالي والسياسي⁽⁶⁾.

(1) - محمد أمحزون، مرجع سابق، ص 32.

(2) - عبد الله بن فهد بن عبد الرحمن العرفج، دار التوحيد، الرياض، ط1، 1428هـ - 2008م، ص 59.

(3) - ارجع إلى برونو إيتين، الأمير عبد القادر الجزائري، ت: المهندس ميشيل الحوزي، دار الفارابي، لبنان، ط1، 1997، ص 15.

(4) - علي محمد الصلاحي، الأمير عبد القادر رباني، مرجع سابق، ص 130.

(5) - محمد الأمين بوحلوقة، قراءة في أسس الحكم الرشيد في دولة الأمير عبد القادر، مجلة الحقيقة، تصدر عن جامعة أحمد دراية، أدرار، ع37، ص 181.

(6) - عبد الرحمن كريب، مرجع سابق، ص 66.

ولكي يجسّد الأمير هذه العدالة الإلهية، أنشأ جهازا قضائيا يتّسم بالدقّة ويقوم على العدل وأعطى سلطة واضحة للقاضي الذي يمثل الشرعية⁽¹⁾، ولم يسمح الأمير عبد القادر إلّا بالأحكام المطابقة لشرعية الإسلامية الذي كان يعدّ نفسه منفذا لها⁽²⁾، وكانت السّلطة القضائية في دولة الأمير عبد القادر منفصلة عن السّلطة التنفيذية، بقدر ما كان من يمارسها منفذا للقانون، وليس ممثلا للأمير⁽³⁾.

ومن شدّة اهتمام الأمير بهذا الجهاز الحساس، فعين في كلّ عمالة، وفي كلّ دائرة قاضيا يتّصف ببعض المواصفات كالعلم الشرعي، وأن يكون فقيها نزيها مشهورا بالعفاف والقيام بأمور الدين، ومنح الأمير القاضي مرتّبا محترما لكي لا يقع في المؤثرات الخارجية وينصبّ نحو الطّمع⁽⁴⁾.

ولم يجعل الأمير للقضاء وزارة منفصلة لوحدها وإنما جعلها تابعة له، وهو الذي يشرف عليها بنفسه وذلك لشدّة اهتمامه وحرصه على القيام على العدالة الإلهية بين جميع أفراد المجتمع، وكان يسهر بنفسه على متابعة أحوال القضاة الذين كان يعينهم بنفسه⁽⁵⁾.

وقد عُرف عن الأمير عبد القادر أنّه كان يرسل مناديا في الأسواق والقبائل، أنّ من له أي شكوى من أي مسؤول معيّن في الدّولة "من خليفة أو آغا أو قائد أو شيخ"، فليرفعها إلى الديوان الأميري من غير واسطة، ويقوم الأمير بالنظر فيها⁽⁶⁾، كما عُرف عن الأمير اتّخاذه من خيمته غرفة استقبال يستمتع فيها إلى الشكاوي، ويدير القضاء⁽⁷⁾.

ولكي يكون الأمير عبد القادر عادلا في أحكامه وقراراته السياسية والقضايا الحاسمة التي تخصّ شؤون دولته اتّخذ وأنشأ "مجلس الشورى العالي"، ويتركّب من أحد عشر عضوا من كبار العلماء والأعيان

(1) - المرجع نفسه، ص 66.

(2) - علي مُجدّ الصلاحي، الأمير عبد القادر قائد رباني، مرجع سابق، ص 152.

(3) - المرجع نفسه، ص 151.

(4) - عبد القادر دوحة، التأسيس الدستوري لدولة الأمير عبد القادر، مجلة المواقف، تصدر عن جامعة معسكر، مج 9، ع 1، ص 316.

(5) - ارجع إلى: الصادق مزهود، تاريخ القضاء في الجزائر من العهد البربري إلى حرب التحرير الوطني، دار بهاء الدين، الجزائر، ط 2، 2012، ص 234.

(6) - سكوت كولونيل، مذكرات عن إقامته في زمالة الأمير عبد القادر (1841)، ت إسماعيل العربي، ش و ط ن ت، الجزائر 1981، 1981، ص 69.

(7) - أنظر: عبد القادر دوحة، التأسيس الدستوري، مرجع سابق، ص 314.

ويترأس هذا المجلس قاضي القضاة نيابة عن الأمير عبد القادر، وللمجلس سجل خاصّ تسجّل فيه القضايا، ثمّ تعرض عليه ويحضر الأمير الجلسات ويرأس المجلس بنفسه، وتصدر الأحكام باتّفاق كلّ أفراد المجلس على نوع الحكم⁽¹⁾.

وإذا استشكل على الأمير أمرا استشار العلماء المعروفين في علوم الشريعة من خارج البلاد، كعلماء جامعة القرويين بفاس، وعلماء الأزهر في بعض الأحيان⁽²⁾، بمهذين المبدأين سيّر الأمير عبد القادر دولته الفتية في زمن كان يموج فيه نظام الفساد موجان، "ولقد سمح هذا النظام الإداري والقضائي المحكم للأمير عبد القادر أن يكسب تأييد العامة ومساندة الخاصة، وأن يقرّر الأمن، ويضمن الهدوء في أرجاء دولته"⁽³⁾ فالعدل والشورى اللذان عمل بهما الأمير عبد القادر في تسيير دولته، هما من القوانين التي أرساها الله تعالى في كتابه العزيز، ونبّه أمته على الأخذ بهما وسيرة النبي في منهجه التطبيقية لهذه القوانين الربانية، تجسّد فيها هذان المبدأان اللذان عمل بهما في تنظيم قواعد الدولة الإسلامية.

فالشورى في الإسلام مبدأ حياة يسوس ويسود جوانبها الرحبة، فهي ليست نظاما سياسيا فقط بل منهج اجتماعي أساسي شرعي يقوم عليه نظام المجتمع المسلم⁽⁴⁾، قال تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَئِنْ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ قَطًّا غَلِظَ الْقَلْبُ لَا نَفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: 159]

"فالشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام، من لم يستشر أهل العلم والدين فعزله واجب، هذا ما لا خلاف فيه، وقد مدح الله المؤمنين بقوله: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: 38]، والشورى واجبة على الولاة للعلماء فيما لا يعلمون، وفيما أشكل عليهم من أمور الدين، و واجب الجيش فيما يتعلّق بالحرب، وواجب الكتاب والوزراء والعمال فيما يتعلّق بمصالح البلاد وعمارتها"⁽⁵⁾.

(1) - يحيى بوعزيز، مرجع سابق، ص 83.

(2) - علي محمد الصلابي، الأمير عبد القادر قائد رباني، مرجع سابق، ص 83.

(3) - سعيدي، عصر الأمير عبد القادر، مرجع سابق، ص 216.

(4) - برهان زريق، الشورى في الإسلام، وزارة الإعلام السوري، ط 1، 2016، ص 5.

(5) - القرطبي، مرجع سابق، ج 4، ص 249.

والشورى من أهم الصفات المميّزة للأمة الإسلامية⁽¹⁾، ومن أهميتها فقد سميت سورة كاملة في القرآن بهذه الصفة للمؤمنين وهي سورة الشورى، فقد جاء فيها أهم صفات وخصائص المسلمين، ممّا يوحي بأنّ وضع الشورى أعمق في حياة المسلمين من مجرد أن تكون نظاما سياسيا للدولة، فهو طابع أساسي للجماعة كلّها، يقوم عليه أمرها كجماعة ثم يتسرّب من الجماعة إلى الدولة، بوصفها إفرازا طبيعيا للجماعة⁽²⁾.

ولقد جاءت السنة النبوية الشريفة مليئة بالدروس التي تعلّم الصحابة أهمية الشورى، وقال ابن تيمية "إنّ الله أمر بها نبيه لتأليف قلوب أصحابه، وليقتدي به من بعده، وليستخرج منهم الرأى فيما لم ينزل فيه الوحي، من أمر الحروب والأمور الجزئية وغير ذلك"⁽³⁾.

فالشورى عبادة يتقرّب بها إلى الله، فهي حقّ لكلّ فرد من أبناء المسلمين، وواجبة على ولاة أمور المسلمين وهي شاملة لجميع قضايا المسلمين، وجعلها الله صفة مميّزة لهم ولم يصف بها الأمم السابقة، فهي نعمة ورحمة من الله على عباده⁽⁴⁾، والشورى جعلها الله لصالح العباد لما فيه خير، ومن الخير الذي ارتضاه الله لعباده إقامة العدل وسطهم، فالعدل هو الميزان الذي وضعه الله تعالى في الأرض، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: 35].

"فالعدل الذي أمر الله به يشمل العدل في حقّه وفي حقّ عباده، والعدل في ذلك أداء الحقوق كاملة بأن يؤدّي العبد ما أوجبه الله عليه من الحقوق المالية والبدنية المرتبطة في حقّه وحقّ عباده، ويعمل الخلق بالعدل التام، فيؤدّي كل وال ما عليه تحت ولايته سواء في ذلك ولاية الامامة الكبرى أو ولاية قضاء ونواب الخليفة ونواب القاضي، والعدل هو ما فرضه الله عليهم في كتابه وعلى لسان رسوله وأمرهم بسلوكه"⁽⁵⁾.

وأمر الناس تستقيم في الدنيا بالعدل، ولهذا قيل إنّ الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا

(1) - مجموعة من المؤلفين، الشورى في الإسلام، المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، مؤسسة آل البيت، عمان (دط)، 1989، ج1، ص 56.

(2) - المرجع نفسه، ج5، ص 3160.

(3) - مجموعة من المؤلفين، الشورى في الإسلام، مرجع سابق، ج2، ص 100.

(4) - المرجع نفسه، ج1، ص 81 بتصرف.

(5) - عبد الرحمن السعدي، تفسير الكرم الرحمن في تفسير كلام المنان، مرجع سابق، ج1، ص 447.

يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة، والدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام، فالعدل نظام كل شيء،⁽¹⁾ والعدل من الأسس والقيم التي جاءت بها جميع الشرائع السماوية، فأنزل الله به كتبه وأرسل به رسوله⁽²⁾، فالعدل أساس الملك وأمر تقضيه الحضارة والعمران والتقدم، وتشيد به كل العقول فهو أصل من أصول الحكم في الإسلام، ولا بد للمجتمع منه حتى يأخذ الضعيف حقه، ولا يبغي القوى على الضعيف، ويستتب الأمن والنظام، وأوجبت الشرائع السماوية على إقامة العدل⁽³⁾.

فأول مظهر لسياسة الدنيا والدين، الالتزام بالعدل في إدارة شؤون الناس، وعدم الإعراض عنه مطلقاً لأنه هو الأساس الذي لا قيام لدولة من دونه، ولا بقاء لأمة بفقده⁽⁴⁾.

وكان من سبب زوال الأمم السابقة وهلاكها تفشي الظلم فيها، قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَبْلِكَ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [الأنبياء: 11] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ [يونس: 13] وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ [الكهف: 59].

وهذا ما بينه النبي صلى الله عليه وسلم في حديث عائشة رضي الله عنها في شأن المرأة المخزومية التي سرقت، فأرادوا أن يتوسطوا لها لإسقاط الحكم من أحكام الله، فبين النبي بقوله "فإنما هلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد"⁽⁵⁾، فالعدل سنة من سنن الله تعالى وسبب في قيام الحضارة وازدهارها وبها يجارب الله الظلم والظالمين ويقطع دابرهم، وبالعدل تستقيم حياة الناس وتحقق مصالحهم الدينية والدنيوية، فالعدل والشورى من الأسس التي وضعها الله تعالى لقيام الحضارة، فهما سببان من الأسباب التي ترسي دعائم المجتمع، وتنظم الحياة فيه، وتستقيم بهما مصالح الناس.

ونجد الأمير عبد القادر في نظريته الاستشرافية للوضع الذي كانت تعيشه بلاده، وفي الظروف التي

(1) - ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج 28، ص 146.

(2) - علي محمد الصلاحي، الإيمان بالقرآن الكريم والكتب السماوية، المكتبة العصرية، ط 1، (دس)، ص 63.

(3) - وهبة بن مصطفى الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج دار الفكر المعاصر، دمشق، ط 2، 1418، ج 5، ص 124.

(4) - عبد الكريم زيدان، أصول الدعوة، مؤسسة الرسالة، (دب)، ط 2، 2001، 1421هـ، ص 233.

(5) - أخرجه البخاري في صحيحه، باب حديث الغار، رقم 3475، مرجع سابق، ج 4، ص 175.

أدت إلى إسقاط نظام حكم كامل "حكم الأتراك" في الجزائر، أدرك الأمير الأسس والأسباب التي تؤدي إلى قيام الحكم وسقوطه، فعمل بمنهجه الذي كان يهتدي فيه إلى القوانين الربانية سواء من القرآن الكريم، أو السيرة النبوية، أو من سيرة الخلفاء الراشدين، فعمل على تطبيق المنهاج الرباني الذي استدعى فيه السنن التي تقود إلى التمكن والتصر.

ولهذا كان أول مبدأ تسلح به الأمير عبد القادر في دولته هو العدل والمساواة، ولكي يحرص على قيامه أنشأ له جهازا قضائيا يتسم بالدقة ويقوم على العدل، فجميع السكان لهم الحق في التقاضي ويقدمون شكواهم للأمير حتى ضد الأغا، فكان يحرص الأمير بنفسه على سير العدل وفقا للشرعية الإسلامية والانتصار والانصاف لصاحب الحق⁽¹⁾.

واعتمد في حكمه على مبدأ الشورى، فقد كان يستفتي العلماء من حوله سواء في البلاد أو خارجها، واتخذ لهذا المبدأ مجلسا للشورى يتكون من أحد عشر عضوا من كبار العلماء في منطقته، وكان الأمير أشد حرصا على أن تكون الأحكام مستقاة من الكتاب والسنة⁽²⁾، وبهذين المبدأين جعل الأمير من دولته تتعدى وتفوق نظام الحكم الذي كان سائدا في عصره، الذي عرف بالظلم، والتسلط، والاستبداد.

4-الجهاد:

استجاب الأمير عبد القادر إلى الواجب الجهادي منذ الوهلة الأولى التي دخل فيها الاستعمار الفرنسي إلى الجزائر، فقد حارب في الصفوف التي نظمها والده محي الدين، وشارك في عدة معارك معها "معركة خنق النطاح الأولى والثانية ومعركة برج راس العين" وهذا قبل بيعته⁽³⁾، وأما بعد البيعة فقد صرح الأمير في نصوصها والخطب التي ألقاها على الحشود أن يلتزم بواجب الجهاد في الدفاع عن الوطن ورفع راية الإسلام، ونصرة الحق وإقامة العدل وسط الناس⁽⁴⁾، فكان الهدف الأساس للأمير عبد القادر إيقاظ الضمير الوطني، بجعل الجهاد في سبيل الله وسيلة والوحدة الوطنية هدفا، ولهذا فإن معنى الجهاد عنده لا يتوقف عن الدفاع المسلح عن القضية العادلة، بل له فلسفة وأبعاد كباقي العبادات الأخرى، وفي مفهوم

(1) - عبد الرحمن كريب، مرجع سابق، ص 62 (بتصرف).

(2) - المرجع نفسه، ص 62 (بتصرف).

(3) - ارجع إلى كتاب: محمد بن الأمير، مرجع سابق، ج 1، ص ص 91-95.

(4) - علي محمد الصلابي، الأمير عبد القادر قائد رباني، مرجع سابق، ص 126.

الديني عنده للجهاد، فقد اتضح عنده الربط بين جهاده وجهاد الصحابة والخلفاء في سبيل الدعوة الإسلامية⁽¹⁾، فالجهاد الذي أعلنه الأمير عبد القادر في نصوص بيعته، كان الهدف منه إعلاء راية الإسلام وتوحيد صفوف المسلمين الجزائريين للدفاع عن هذا الوطن من الغزاة والأعداء، وبناء وطن ودولة يسودها النظام والعدل ويحكم فيها بكتاب الله وسنة نبيه، فالجهاد نوعان جهاد يقصد به صلاح المسلمين وإصلاحهم في عقائدهم وأخلاقهم وآدابهم وجميع شؤونهم الدينية والدنيوية، وفي تربيتهم العلمية والعملية وهذا النوع هو أصل الجهاد وقوامه، وعليه يتأسس النوع الثاني، وهو جهاد يقصد به دفع المعتدين على الإسلام والمسلمين من الكفار والمنافقين والملحدين، وجميع أعداء الدين ومقاتلهم⁽²⁾.

فكلمة الجهاد إذا يُراد بها معنيين في الشرع، معنى عام ومعنى خاص، فقد عرف في معناه العام على أنه "الجهاد في حصول ما يحب الله من الإيمان والعمل الصالح، ودفع ما يبغضه الله من الكفر والفسوق"⁽³⁾ وعُرف أيضا "الجهاد هو الدعوة إلى الدين الحق"⁽⁴⁾، فالجهاد بمعناه العام هو شامل لجميع حركات الإنسان، فهو بذل الطاقة والجهد والوسع، وتحمل المشقة في مدافعة العدو، الذي يتبغي انحراف الإنسان عن طريق الله عز وجل، والوقوف بينه وبين هدى الله تعالى وبين أهداف الدعوة الإسلامية، ولا فرق في ذلك بين أشكال ذلك البذل، ولا بين أصناف أولئك الأعداء الذين يصدّون عن سبيل الله⁽⁵⁾.

ومنه، فمفهوم الجهاد "أن يكون كلّ فرد من أفراد الأمة المسلمة في بذل جهد مستمّد؛ ليحيي الإسلام وتقوى شوكة المسلمين، وتنشر الدعوة الإسلامية في العالمين، فكلّ الجهود التي يبذلها المسلم فردا أو جماعة لخدمة المجتمع من جانبه التربوي، أو الاقتصادي، أو الاجتماعي، أو الثقافي، أو السياسي، أو العمري، أو العلمي... فهو جهاد مشروع كصيانة دين المسلم في نفسه، وعرضه، وماله، وعقله..."⁽⁶⁾.

وحكم الجهاد في معناه العام هو فرض على كلّ مسلم؛ لأنّ المسلم لا يخلو في لحظة من لحظاته من

(1) - عبد الرحمن كريب، مرجع سابق، ص 63.

(2) - عبد الرحمن بن ناصر السعدي، جهاد الأعداء ووجوب التعاون بين المسلمين، دار ابن القيم، السعودية، (دط)، 1411هـ-1991م، ص 09.

(3) - محمد نعيم ياسين، حقيقة الجهاد في الإسلام، دار الأرقم (د ب)، ط 1، 1404هـ، 1984م، ص 35.

(4) - محمد نعيم ياسين، حقيقة الجهاد في الإسلام، ص 35.

(5) - المرجع نفسه، ص 33 (بتصرف).

(6) - رشيد كهوس، أبواب الجهاد في الفكر الإسلامي، مجلة الداعي الشهرية الصادر عن دار العلوم ديونيد، ذي الحجة 1431هـ، نوفمبر-ديسمبر 2010م، ع 12، السنة 34.

مجاهدة نفسه وشيطانه وأعدائه وهواه⁽¹⁾، قال تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: 78].

وجاء في تبيان معاني هذه الآية عند سيّد قطب: "وجاهدوا في الله حق جهاده"، وهو تعبير شامل جامع دقيق، يصور تكليفا ضخما، يحتاج إلى تلك التعبئة، وهذه الذخيرة وذلك الإعداد، والجهاد في سبيل الله يشمل جهاد الأعداء، وجهاد النفس، وجهاد الشر والفساد... كلّها سواء⁽²⁾، فالجهاد في سبيل الله هو بذل الوسع في حصول الغرض المطلوب، فالجهاد في الله حق جهاده، هو القيام التام بأمر الله ودعوة الخلق إلى سبيله بكل طريق موصل إلى ذلك من نصيحة، وتعليم، وقتال، وأدب، وزجر، ووعظ، وغيرها⁽³⁾، فالجهاد في معناه العامّ جزء من منهج تقوم عليه الحياة في الإسلام، الذي يجعل من حركة الإنسان فوق هذه المعمورة يبذل ويسعى به لتحقيق الغاية من وجوده في الحياة الدنيا وهو عبادة الله، فبذل كلّ الجهد في تحقيق هذه الغاية على جميع الأصعدة وفي كلّ النواحي، فتصبح حركة الإنسان في هذا المنهج جهاد في سبيل الله لتحقيق هذه الغاية.

والجهاد في معناه الخاصّ ينتمي وينضم تحت هذا المنهج الذي غايته الوصول بالبشرية إلى عبادة الله وحده، فهو في هذا المعنى يدلّ على "بذل الجهد من المسلمين في قتال الكفار المعاندين المحاربين والمرتدين والبلغاة، ونحوهم لإعلاء كلمة الله تعالى"⁽⁴⁾، وأما حكم الجهاد في معناه الخاصّ فهو على نوعين فرض عين وفرض كفاية.

يكون الجهاد فرض كفاية حين يكون الجهاد جهاد طلب؛ بمعنى تطلب الكفار في عقر دارهم وتدعوهم إلى الإسلام وقتلهم إذا لم يقبلوا الخضوع لحكم الإسلام فقال تعالى: ﴿فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ

(1) - مُحمَّد بن عبد العزيز الحضيبي، وقفات مع آيات الجهاد، دار الوطن للنشر، الكتب الإسلامية، ص 9.

(2) - سيّد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ج4، ص ص 2446-2447 يتصرف.

(3) - عبد الرحمن السعدي، مرجع سابق، ص 5416.

(4) - سعيد بن علي بن وهف القحطاني، الجهاد في سبيل الله، مؤسسة جريسي للتوزيع والإعلان، الرياض، ط6، 1431، ص 5.

أنظر أيضا: مُحمَّد الحضيبي، وقفات مع آيات الجهاد، مرجع سابق، ص 7

فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٥﴾ [التوبة: 55] وقال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة: 36] ⁽¹⁾

ويكون الجهاد فرض عين في معناه الخاص، في جهاد الدفاع، الذي يدافع فيه المسلمون على دينهم وأرواحهم وأعراضهم حين اعتداء الكفار على البلاد المسلمة، فوجب في حق كل قادر صدهم ودفع عدوانهم قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: 190]، وقال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: 75] ⁽²⁾.

فمن غايات الجهاد وأهدافه ردّ اعتداء المعتدين على المسلمين، قال تعالى: [البقرة: 190]، والجهاد وسيلة لإلغاء الفتنة بين الناس وإعلاء كلمة الله قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنَّ آتَهُمْ بِمَا يَكُونُ بَصِيرًا﴾ [الأنفال: 39]، وبالجهاد يرفع الظلم وتحمى الأنفس والأعراض والحرمة ⁽³⁾.

وأكبر غاية في منهج الجهاد متجسدة في قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: 110]، فالأمة الإسلامية جعلها الله حاملة للواء الحق والعدل، فهي الأمة الوحيدة التي تنبض بالتوحيد الذي هو أساس ومنبع كل الوجود، فعلى عاتق الأمة بذل الجهاد في سبيل هذه القضية ⁽⁴⁾ "التوحيد" مهتدية بالمنهج الرباني الذي تستقي نوره من الكتاب والسنة،

(1) - محمد الحضيبي، مرجع سابق، ص 9.

(2) - المرجع نفسه، ص 11.

(3) - سعيد القطحاني، الجهاد في سبيل الله، مرجع سابق، ص 32 وما بعدها.

(4) - أبو الأعلى المودودي، الجهاد في سبيل الله، منبر التوحيد والجهاد، (د م)، (دت)، (دط)، ص 10، وما بعدها.

فالجهد في الإسلام منطلقه من العقيدة، وهدف الإنسان الموحد لله إعلاء لكلمة التوحيد كل في ميدانه وعمله الذي يستطيع الجهاد فيه⁽¹⁾.

وبهذا المعنى يكون الجهاد شاملا لحركات الإنسان فوق سطح هذه المعمورة، وبالتالي فهو سنة الأنبياء جميعا، وتتجسد في حركاتهم لنشر الدعوة وإعلاء كلمة التوحيد، وسيرة حبيبنا المصطفى صلوات الله عليه تجسدت فيها أسمى معاني الجهاد في سبيل الله منذ الوهلة الأولى التي أعلن فيها عن بداية الدعوة للتوحيد فلم يذخر عليه الصلاة والسلام جهدا في سبيل إعلاء هذه القضية، وبناء الجيل الذي انطلق بالرؤية تحت ضوء هذا المنهج الرباني، الذي أشعلوا به نور الهداية في البقاع التي وطئوها، وأراد الأمير عبد القادر أن يتخذ من هذا المنهج الرباني دستورا له يهتدي به في بناء دولته.

فالجهد عنده كان على عدة أصعدة جهاد خارجي، دفاعي لرد شر وعدوان المستعمر الفرنسي الذي جاء لطمس معالم الدين ونهب خيرات هذا الشعب، فأعد له الأمير كل ما استطاع من قوة وحنكة، وأما جهاد الأمير الثاني فقد كان جهادا داخليا متجها نحو توحيد صفوف هذا الشعب المسلم، والقضاء على الفتن التي كانت تفتك بوحدة، والقضاء على الظلم، وإفشاء العدالة الإلهية من خلال تطبيق أحكام القرآن الكريم، وسنة النبي صلى الله عليه وسلم.

ولقد سعى الأمير جاهدا لبناء هذه الدولة من خلال إنشاء وزارات ومجالس وهياكل، وقام بالسهر على تنظيمها، وجند أبناء الوطن لخدمة المصالح الدينية والدنيوية التي تخدم الجميع دون استثناء ولا إقصاء لأي طرف في هذه الدولة، فغاية الأمير عبد القادر من جهاده الدفاع عن الدين والوطن معا، فكان عمله موجها إلى الخارج لمحاربة العدو، وفي نفس الوقت كان موجها إلى الداخل لبناء الوطن⁽²⁾، ولهذا فإن معنى الجهاد عنده لا يتوقف عن الدفاع المسلح عن قضية عادلة بل له فلسفته وأبعاده كباقي العبادات الأخرى⁽³⁾. فأراد أن يكون جهاده في سبيل الدعوة الإسلامية على منهج الخلفاء الراشدين، فكان الأمير يرى أن الدين هو العنصر الوحيد الذي يستطيع من خلاله العمل، وبعث روح المقاومة في صفوف الشعب

(1) - محمد نعيم ياسين، مرجع سابق، ص 85، وما بعدها.

(2) - إسماعيل زروخي، مرجع سابق، ص 94 (بتصرف).

(3) - عبد الرحمن كريب، مرجع سابق، ص 67 بتصرف.

الجزائري⁽¹⁾.

والدّارس لسيرة الأمير عبد القادر الجزائري، والواقف على منجزاته التاريخية، والمتأمل في مساعيه وأهدافه التي كان يطمح إلى إنجازها من خلال دولته التي شيّدها في ظرف زمنيّ قياسي لا يساوي في قيام الدّول العتيقة شيء، والتّأظر في ظروف تأسيسها والأوضاع المتدهورة التي كانت تحيط به من كلّ جانب استطاع بمنهجه الذي استوعب فيه السنن المؤدية إلى قيام الحضارات وسقوطها، أن يجاري الدّول العظيمة في ذلك الزّمن، فهذه المبادئ الأساسيّة التي قامت عليها دولة الأمير عبد القادر، وبالمفهوم السنني هي القوانين الرّبائيّة التي عمل بموجبها لإعلاء كلمة التّوحيد، وهي الأسباب الشّرعية أو (السنن الشرعية) التي استوعبها من المنهج النبوي الشريف، وغيرها الكثير التي كان يعمل بها والتي تضمّنها الخطاب القرآني في نصوص الكتاب والسنة.

5_ مبدأ التّسخير في دولة الأمير عبد القادر:

أمّا بالنّسبة إلى السنن الكونية في جانبيها الواقعي لدى الأمير عبد القادر فقد تجسّدت في مبدأ التّسخير الكونيّ لهذه الخيرات التي أنعم الله بها على عباده، فقد اهتمّ الأمير بالجمال الزّراعي والصّناعي والتجاري في دولته، فأسس هياكل لتنظيم هذه المجالات واستغلالها لصالح العام للبلاد، ففي المجال الزّراعي أولى له الأمير عبد القادر اهتماما خاصّا، كونه النّشاط الرّئيس الذي مارسه أغلب سكان البلاد، وذلك راجع لكون البلاد ذي طابع فلاحي بالدرجة الأولى، وأنّ الفلاح هو المنتج الأوّل فيها، فعمل على تيسير هذا النّشاط على الفلاح بإلغاء ضريبة الخراج، كما عمل على منح بعض المساحات للقضاة وشيوخ الزوايا بغية استغلالها، مما ساهم في زيادة الإنتاج⁽²⁾، ممّا جعل مخازن الإمارة تكفي مخزونها لسنتين، وإنتاج سهل غريس لعشر سنوات⁽³⁾.

ولقد عبّر بيجو عن ذلك "أن دولة الأمير سنة 1841 تملك خمسين ألف فنطار من القمح مما

(1) - المرجع نفسه، ص 67 بتصرف.

(2) - صالح فركوس، تاريخ الجزائر من ما قبل التاريخ إلى غاية الاستقلال، المراحل الكبرى، دار العلوم للنشر والتوزيع، الجزائر، (دت)، ص 198.

(3) - أديب حرب، التاريخ العسكري والإداري للأمير عبد القادر الجزائري 1808 - 1847، دار الرائد للكتاب، الجزائر، ط2، (دس).

يسمح لهم بالمقاومة طويلاً" (1).

فكانت محاصيل الحبوب (القمح والشعير) التي تمثل المادة الأولية للسكان، قد عرفت وفرة تغطي احتياجات السكان، بالإضافة إلى محاصيل الخضر والفواكه والبقوليات، ومن المحاصيل التي عُرِفَت وفرة في الإنتاج المتعلقة بعلف الحيوانات خاصة تلك التي توجّه إلى الخيول المعدة للمقاومة والجهاد، فكانت عوائد الزراعة ذات فائدة كبيرة على بيت المال، حيث كان يستهلك منها قسم، ويودع الباقي في المخازن (2) وعمل الأمير على بناء مستودعات للحفاظ على المنتج الزراعي، فبنى ما يسمّى بالمطامير تحت الأرض والتي يخزن فيها المنتج، ويبقى صالحاً لعدة سنوات (3).

وحرص الأمير عبد القادر على توفير البذور للمزارعين، وإرسال بعثات علمية إلى الخارج للاستفادة من التجارب الزراعية، ومن ذلك ما كلف به الأمير أحد تجار الجزائر بالسفر إلى مصر كي يجلب منها بذور القطن، ويستقدم منها الفلاحون لزراعة هذه النبتة في الجزائر (4)، وأمّا في المجال الصناعي، فقد أعطى الأمير الأولوية للصناعة الحربية من الأسلحة والمدافع والبارود وغيرها، ممّا يتطلبه الوضع العسكري آنذاك فاستخدام خبراء أجانب، وأنشأ مصانع للذخيرة الحربية التي أصبحت تنتج بكفاءة وإتقان ما يحتاجه الجيش من العتاد الحربي (5).

كما اهتم الأمير بالصناعة النسيجية وذلك لتجهيز الملابس للجيش والرعية، فأوجد مصانع للنسيج تنتج أنواع رفيعة المستوى وأقمشة شعبية (6)، كما اهتم أيضاً بالصناعة الغذائية كالمطاحن لطحن الدقيق والمعاصر المخصصة لزيت الزيتون (7)، فعرفت الصناعة نشاطاً ملحوظاً في دولة الأمير عبد القادر على خلاف ما كانت عليه في دولة الأتراك.

(1) — محفوظ قداش، جزائر الجزائريين، تر: مُجّد المغربي، المؤسسة الوطنية للاتصال والطبع، الجزائر (د ط)، 2008، ص 81.

(2) — إسماعيل العربي، المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1982م، ص 129.

(3) — مُجّد السعيد قاصري، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر (1830-1962)، دار الإرشاد للنشر والتوزيع، (دب)، (دط)، 2013، ص 150.

(4) — مُجّد السعيد قاصري، مرجع سابق، ص ص 150-151.

(5) — العسلي بسام، جهاد الشعب الجزائري، المقاومة الجزائرية للاستعمار الفرنسي، دار النفائس، لبنان، ط2، 1983، ص 42.

(6) — أديب حرب، مرجع سابق، ج2، ص 68.

(7) — مُجّد السعيد قاصري، مرجع سابق، ص 151.

وازدهرت التجارة في دولة الأمير عبد القادر بسبب انتشار الأمن في عهده، كما وضع الأمير محتسبا، وهو يشبه المفتش يعمل على التحكّم في الأسعار، ونوعية البضائع في الأسواق، ويراقب الأخلاق في التّعاملات التجارية⁽¹⁾، وعمل الأمير على سلك عملة نقدية خاصة بدولته، فأنشأ دار لسك العملة في مدينة تاقدمت، وقد حرص على أن تكون عملته محلية، متميّزة عن غيرها من النقود الأجنبية، ومختلفة عن النقود التي كانت تستعملها الجزائر خلال العهد العثماني⁽²⁾.

كما أعطى الأمير عبد القادر أهمية كبيرة للعلم، وجعله أحد الأركان الأساسية في بناء دولته، فلم تمنعه ظروف الحرب من إقامة المدارس وتعليم النشء⁽³⁾.

هذه بعض المصالح، وغيرها الكثير التي عمل فيها الأمير على تسخير كلّ ما يملكه من موارد طبيعية لخدمة المصالح العامّة لدولته، فقد عمل بكلّ جهده على استغلال كلّ الموارد التي أُتيحت لديه، سواء في المجال الزراعي، أو الصناعي، أو التجاري... فلم يدّخر جهدا في هذا الباب، فكانت له نظرة استشرافية للأوضاع التي كانت تحيط به، والإمكانيات التي تملكها البلاد، فحاول تسخير كلّ ما أُتيح له لبناء دولة قويّة، تجاري الدّول العظيمة في ذلك الزّمن، فلم تفتّر همّته عن تحقيق ما فيه راحة البلاد، فرتب سائر ما يلزم من الخلفاء عنه والولاة، ووطّد الرّاحة العامّة، وحوّل أحوال البلاد من العسر إلى اليسر، ومن الاضطراب إلى الاستقرار في مدة عشرين شهرا من بيعته، وهو أمر لم يكن مضمونا عند من يعرف أحوال البلاد في تلك الفترة⁽⁴⁾، وهذه الأعمال التي أنجزها الأمير نابعة عن فهمه للخطاب القرآني في قانونه السنّي بوجهيه الذي يسيّر به الله نظام خلقه، ففي الجانب المادي التّسخيري استوعب قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(١٣) وسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ [الجاثية: 12-13].

يقول سيّد قطب في تبيان معاني هذه الآيات إنّ هذا المخلوق الصّغير - الإنسان - يحظى برعاية الله

(1) - علي مُجّد الصّلاحي، الأمير عبد القادر قائد ربّاني، مرجع سابق، ص 156.

(2) - قاسي فريدة، الدولة في فكر الأمير عبد القادر 1832-1847 منشورات يونه للبحوث والدراسات، الجزائر، 2012، ث 260.

(3) - عميراي أحمد، تاريخ الجزائر الحديث، مرجع سابق، ص 142.

(4) - يحي بوعزيز، مرجع سابق، ص 78.

سبحانه بالقسط الوافر الذي يتيح له أن يسخر الخلائق الكونية الهائلة وينتفع بها على شتى الوجوه، وذلك بالاهتداء إلى طرف من سرّ الناموس الإلهي الذي يحكمها، وتسير وفقه ولا تعصاه، ولولا هذا الاهتداء إلى طرف السرّ ما استطاع الإنسان بقوة الهزيمة المحدودة أن ينتفع بشيء من قوى الكون الهائلة (...)، فلقد سخر الله لهذا الإنسان ما في السماوات وما في الأرض من قوى وطاقات ونعم وخيرات ما يصلح له ويدخل في دائرة خلافته⁽¹⁾.

والملاحظ لما أنجزه الأمير عبد القادر، وما حققه من تطوّرات اقتصادية وتجارية وصناعية في ذلك الزمن وبإمكانيات بسيطة، وفي ظروف صعبة جدًّا، يدرك مدى استوعاب شخصية الأمير عبد القادر للقانون التسخيري الإلهي الذي أودعه في خلقه، فلم يهمل الأمير هذا الجانب من السنن بل عمل عليه في بناء دولته الحديثة.

من خلال هذا الطرح الذي قدّمناه عن الأمير عبد القادر وأبعاد الواقعية للسنن عنده يمكن أن نستنتج ما يلي:

كان توظيف الأمير عبد القادر للسنن في الواقع الملموس، فقد أخذ بوجهي القانون الإلهي السنني سواء الذي يتحكّم به في المادة، أو الذي يتحكّم به في حركة الإنسان، فالوجه الأول عنده تجسّد في تذليل وتسخير موارد البلاد وخيراتها فيما يخدم مصالح شعبه الدنيوية والدنيوية، وأمّا الوجه الثاني فقد تمثّل عنده من خلال أخذه بالقوانين التي جاءت بها الشريعة الإسلامية في دستورها القرآن والسنة، وسعى إلى بناء دولته على الأسس والمبادئ الإسلامية.

ولقد ظهرت آثار البعد القانوني للسنن عند الأمير عبد القادر في كلّ المجالات عنده (السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية، والثقافية)، فعمل الأمير على جميع المستويات بمسار تكامليّ شامل، نابع عن فهم ووعي تامّ بالأسباب والمسببات التي تؤدّي إلى قيام الحضارات وأفولها، وما هذا الوعي إلّا نتاج الفهم العميق للخطاب القرآني، والمنهج النبويّ، وما فيهما من دروس عن السنن الإلهية المطردة التي لا تحابي أحد، ولقد استطاع الأمير بهذا الفهم للقانون السنني الذي جسّده على أرض الواقع أن يبني دولة في ظروف صعبة بل شبه مستحيلة، تحدّى بها الدّول العظمى، واعترف بها ألد أعدائه، في مدّة من الزمن لا تساوي شيئاً في

(1) - سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ج5، ص3226.

قياس ومعيار قيام الدول وسقوطها.

وما قدّمه الأمير عبد القادر من إنجازات في دولته، وحتى في شخصيته يثبت صدق ونجاعة هذا المنهج الرباني، الذي هداه إلى السبيل النافعة، والطرق الناجعة لحلول أزمت هذه الأمة. وما حصل من استسلام للأمير وسقوط دولته لا يرجع إلى فشل هذا المنهج وإنما حاصل في الإنسان الذي لم يتقيد وينتظم تحت هذا المنهج، ونقص ذلك ما حصل للأمير من خدلان ومؤامرات عليه من قبل بني جلدته وإخوانه الذين وضعوا أيديهم في أيدي العدو الفرنسي، والذي عمل على بثّ الفرقة بين صفوف المجتمع الجزائري وحاربوا الأمير بها، وما ذاك إلا للأطماع التي تستشرب بها بعض العناصر البشرية الهدامة التي تعمل على المصلحة الشخصية، وتلبية الأطماع الذاتية⁽¹⁾، وهذا ما يطلق عليه بالعوامل الهدامة لقيام الأمم والحضارات، فهي من باب القانون السني لسقوط الدول، ولقد ذكر الله سبحانه وتعالى في عزيز كتابه قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: 46]، فالاختلاف الذي يؤدي إلى الفرقة والتناحر وعدم لمّ شمل المسلمين سبب في ضعف كيان الدولة، مما يساعد على سقوطها، ولقد نهي الله عن الاختلاف المؤدى إلى الفشل وضياع القوة (...)، فإنّ ذلك يؤدي إلى ضعفكم، وإلى ذهاب دولتكم، وهون كلمتكم وظهور عدوكم عليكم⁽²⁾.

وهذا ما حصل مع الأمير عبد القادر بعد أن استمالت فرنسا بعض الطرق الصوفية وشيوخها وأخضعتها لسلطتها والعمل تحت لوائها، ما أضعف كيان الشعب ووحدته، فالاحتلال وإن كان عاملا خارجيا تتوافر له القوة والتنظيم والتصميم على الهدف، إلا أنه لم يكن ليحالفه النجاح والإطاحة بمشروع الأمير لولا الظروف الداخلية المساعدة التي تمثلت في تخاذل القوى المؤثرة في المجتمع، وتعاملها مع الأجنبي الدخيل⁽³⁾.

وفي آخر هذا المبحث نسنخلص أنّ أبعاد الفكر السني عند الأمير عبد القادر قد تجسّدت في الواقع الحركي التاريخي الذي كان يعيشه، بدءًا من خصال الأمير وأخلاقه وسمته، والتزاماته المشبعة بالقيم

(1) - ارجع إلى: يحيى بوعزيز، الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري، مرجع سابق، ص 222. / سعيدوني، عصر الأمير عبد القادر، ص 242.

(2) - طنطاوي، مرجع سابق، ج 6، ص 113.

(3) - سعيدوني، عصر الأمير عبد القادر، مرجع سابق، ص 242.

الإسلامية التي تجسدت في شخصه، وصولاً إلى تقلده منصب الإمارة الذي عمل فيه الأمير على بناء دولته وإنشاء وزارتها وهيكلها وتنظيم شؤونها الداخلية والخارجية، فوضع أسسها ومبادئها على الدستور الإلهي الذي استوعب منه القوانين السننية الإلهية لقيام الحضارة وسقوطها، وعمل بموجبه، وانتهج نهج الصحابة الكرام في إعلاء كلمة الدين، وتوحيد صفوف المسلمين الذين بدورهم استقوه من المنهج النبوي الشريف. فأراد الأمير إحياء هذا المنهج بتطبيقه على أرض الواقع، فبنى به دولة في ظرف زماني قياسي خاصة إذا ما نظرنا إلى الظروف التي قامت عليها يكاد أن يقال من المستحيل قيامها، ولكن قامت ودامت سبعة عشر عاماً، واعترف بها العدو وشمع بها في مختلف أقطار العالم، وما ذاك المنهج إلا وعي بالقوانين والسنن الإلهية التي تقود إلى التمكين والنصرة، وبنفس السنن والقوانين الإلهية سقط الأمير وسقطت دولته لا في شخصه ولكن في العناصر البشرية التي لم تفهم وتعي هذا المنهج الرباني، الذي لا يغير فيه الله حتى يغير الإنسان ما بداخله، ويفهم ويعي القوانين الإلهية.

الفصل الثالث:

منهج التغيير الإنساني عند الأمير عبد القادر الجزائري

تمهيد

المبحث الأول: أسس التغيير ومرتكزاته عند الأمير عبد القادر

المطلب الأول: مفهوم التغيير

المطلب الثاني: أسس التغيير

المطلب الثالث: مرتكزات التغيير

المبحث الثاني: مجالات التغيير الإنساني عند الأمير عبد القادر

المطلب الأول: التغيير المعرفي

المطلب الثاني: التغيير السلوكي (الأخلاقي)

المطلب الثالث: التغيير الوجودي (الاستخلافي)

تمهيد:

يعدّ الأمير المجدد الديني في القرن الثالث عشر في المغرب العربي ⁽¹⁾، فقد جاهد بالسيف والقلم بالعلم والعمل، ووضع برنامجه الإصلاحية الذي سبّر عليه دولته، وقاد به شعبه نحو التغيير من الأوضاع التي كان يعيشها في ذلك الزمن، فقد استطاع بتجربته التغييرية أن يبني دولة يضاهي بها أعتى الدول المتقدمة في زمانه، في مدّة من الزمن لا تساوي في مقياس الحضارات والأمم شيئاً، ورغم الظروف الصعبة التي كانت تعيشها الجزائر على غرار الدول الإسلامية في أنحاء المعمورة، فساهم الأمير بشكل كبير في إرساء قواعد الدولة الجزائرية الحديثة، فكانت إمارته أوّل خطوة نحو إرجاع سيادة هذا الشعب الذي عاش فترات متعاقبة من الاحتلال والغزو، الذي لم يستطيع معها إبراز مكانته الحقيقية.

وكانت تجربة الأمير عبد القادر نابعة من روح الدين الإسلامي، لذا استطاع من خلالها أن ينفث روح التغيير نحو الصّلاح والفلاح، فتطرّقنا في هذا الفصل لإبراز هذه التجربة التغييرية عند الأمير عبد القادر، وعلاقتها بالإنسان الكامل عنده.

المبحث الأوّل: التغيير وأسس ومرتكزاته عند الأمير عبد القادر.

لقد أثنا العديد من المؤرخين والكتاب العرب ومنهم الأجانب على شخصية الأمير عبد القادر الجزائريّ، وذلك راجع إلى صنيعه في حركة التاريخ؛ إذ برز في زمن شابه الانحطاط والتدهور في بلاد المسلمين، على غرار الغرب الذي عرف حركة تغييرية نهضوية شاملة في جميع المجالات، فجرت أطماع هذا العالم الغربيّ في انتهاك حرمة العالم الإسلاميّ، فراح يغزو بشراهة أراضي المسلمين مخلّفاً فيهم الدّل والمهانة.

وفي خضم هذا الزمن برزت عدّة شخصيات دعت الأمة الإسلامية إلى التغيير، ودخول حركة التاريخ بتفعيل دورها الحضاريّ الاستخلاقيّ، ومن بين هؤلاء الذين ناشدوا التغيير الأمير عبد القادر الجزائري، الذي مارس التغيير على أرض الواقع.

وسنسلّط في مبحثنا هذا الضوء على الأسس والمركزات التي غيّر من خلالها الأمير، وقبل الولوج إليها ضبطنا مفهوم التغيير من مصادره الأولى لكي يتّضح لنا الفهم والرّؤيا اتجاه التغيير.

وعلى هذا الأساس تفرّع مبحثنا إلى ثلاثة مطالب رئيسة، الأوّل منها تناول مفهوم التغيير

(1) _ محمد بركات، مرجع سابق، ص 20.

والثاني أسس التغيير عند الأمير عبد القادر، والثالث مرتكزات التغيير عنده.

المطلب الأول: مفهوم التغيير

كثر في عصرنا الحالي استعمال وتداول لفظة التغيير على الألسن والخطابات، سواء السياسية منها، أو الاقتصادية، وحتى الاجتماعية، والثقافية، دون الوقوف على معنى الكلمة ومفادها الحقيقي، إذا التغيير منهج دقيق وعميق، يتطلب الوعي به من كل جوانبه، ومن بين هذه الجوانب الفهم الصحيح لمنطوق هذه الكلمة "التغيير"، ولا يتم ذلك إلا إذا تناولنا هذه اللفظة في مصادرها الأساسية، وسنقدم في هذا المطلب مدلول كلمة التغيير في معجم اللغة العربية ثم نطرح اللفظة في ما جاء به الوحي في بيانها.

أولاً: التغيير في اللغة:

جاء في معجم مقياس اللغة: الغين، والياء، والراء أصلاً صحيحان، يدل أحدهما على صلاح واصلاح ومنفعه، والآخر على اختلاف شئين، فالمعنى الأول من الغيرة وهي (الميرة)⁽¹⁾، التي بها صالح العيال، وأما المعنى الثاني يأتي على اختلاف شئين، وهو من باب الاستثناء بغير، كقول هذا الشيء غير ذاك أي هو سواء وخلافه⁽²⁾.

كما جاء في معجم لسان العرب: تَغَيَّرَ الشَّيْءُ عَنْ حَالِهِ بِمَعْنَى تَحَوَّلَ، وَغَيَّرَهُ حَوْلُهُ وَبَدَّلَهُ كَأَنَّهُ جَعَلَهُ غَيْرَ مَا كَانَ عَلَيْهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ يَأْتِكُ اللَّهُ لَمْ يَكُ مُغَيَّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَتَى اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: 53].

وتغايرت الأشياء: اختلفت، والمغيَّر: الذي يُغَيَّرُ على البعير أدواته ليخفف عنه ويُريحه...، ويقال غَيَّرَ فلان عن بعيه إذ حطَّ عنه رحله وأصلح من شأنه، وغير الدهر أحواله المتغيِّرة وورد في حديث الاستسقاء "من يكفر بالله يلق الغير"⁽³⁾، أي تغيَّر الحال وانتقالها من الصَّلاح إلى الفساد⁽¹⁾.

(1) الميرة: من مير أي جلب الطعام (...). وقد مار عياله وأهله بميرهم ميراً إذ جلب لهم الطعام، أنظر لسان العرب، مرجع سابق، مادة (مَيَّرَ)، ج5، ص 188.

(2) ابن فارس، مرجع سابق، ج4، ص 403، 404.

(3) — ومن يكفر بالله يلق الغير هذه الجملة ليست بحديث إنما هي مقطع من أبيات شعر ألفاها رجل من بني كنانة في مدح رسول الله صل الله عليه وسلم حين دعا بنزول المطر فأجابه الله، أنظر: أبو قاسم الطبري، الدعاء للطبري، ت مصطفى عد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1413، باب الدعاء في الاستسقاء، ص 597.

والأرض مَغْيَرَة، ومَغْيُورَة أي مَسْقِيَة، يقال: اللهم غَرْنَا بِخَيْرٍ وغَارَ الْغَيْثُ الْأَرْضَ يَغْيِرُهَا أي سَقَاهَا، وغَارَنَا اللَّهُ بِخَيْرٍ كَقَوْلِهِ أَعْطَانِ خَيْرًا، وغَارَهُمُ اللَّهُ بِخَيْرٍ ومَطَرٌ يَغْيِرُهُمْ غَيْرًا وَغَيْرًا، أَصَابَهُمْ بِمَطَرٍ وَخَصَبٍ (2).

وقال الرَّاعِبُ الْأَصْفَهَانِي "والتَّغْيِيرُ يقال على وجهين: أحدهما لتغيير صورة الشَّيْءِ دون ذاته، يقال غَيَّرْتُ دَارِي إِذْ بَنَيْتُهَا بِنَاءً غَيْرَ الَّذِي كَانَ، والثَّانِي تَبْدِيلُهُ بِغَيْرِهِ نَحْوُ غَيَّرْتُ غُلَامِي وَدَابَّتِي إِذْ أَبْدَلْتُهُمَا بِغَيْرِهِمَا نَحْوُ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد: 11)

وورد في معجم "الفروق اللغوية" للعسكري: بَأَنَّ التَّبْدِيلَ هو التَّغْيِيرُ، يقال أَبْدَلْتُ الشَّيْءَ بِالشَّيْءِ إِذْ بَدَلْتُ عَيْنًا بَعَيْنًا، فَالتَّبْدِيلُ هو تَغْيِيرُ حَالٍ إِلَى حَالٍ آخَرَ (3). كما ورد عنده الفرق بين الإتيان بغيره وتبديل الشَّيْءِ: بَأَنَّ الإتيان بغيره لَا يَقْتَضِي رَفْعَهُ بَلْ يَجُوزُ بَقَاؤُهُ مَعَهُ، وَالتَّبْدِيلُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِرَفْعِهِ وَوَضْعِ آخَرٍ مَكَانَهُ، وَلَوْ كَانَ تَبْدِيلُهُ وَالْإِتيَانُ بِغَيْرٍ سَوَاءً لَمْ يَكُنْ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَنْتَ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: 15]، فَائِدَةٌ وَيُقَالُ بَدَّلَهُ إِذْ غَيَّرَهُ وَأَبْدَلَهُ جَاءَ بِدَلِّهِ (4).

بتمعننا في هذه النصوص التي أوردناها من كتب معاجم اللغة في تبيان لفظة التغيير يمكن استخلاص مايلي:

- التغيير يأتي على ثلاثة معانٍ: أَوَّلُهَا تَغْيِيرُ صُورَةِ الشَّيْءِ دُونَ ذَاتِهِ، وَهُوَ تَحْوِيلٌ فِي الصُّورَةِ مِنْ نَاحِيَةِ شَكْلِهَا لَا ذَاتِهَا، كَمَا يُقَالُ غَيَّرْتُ دَارِي إِذْ بَنَيْتُهَا بِنَاءً غَيْرَ الَّذِي كَانَ، وَهَذَا مَا يَنْطَبِقُ مَعَهُ الْإِتيَانُ بِالْغَيْرِ عَلَى شَكْلِ مُخَالَفٍ لِمَا كَانَ عَلَيْهِ فِي الْأَوَّلِ، وَلَكِنْ بَقَاءِ الْأَصْلِ.

- وَأَمَّا الْمَعْنَى الثَّانِي فَيَكُونُ بِتَبْدِيلِ الشَّيْءِ بِغَيْرِهِ وَهَذَا مَا يَفْهَمُ مِنْ قَوْلِهِمْ (غَيَّرْتُ غُلَامِي وَدَابَّتِي إِذْ أَبْدَلْتُهُمَا بِغَيْرِهِمَا)، وَهَذَا مَا يَنْطَبِقُ عَلَيْهِ أَبْدَلُهُ بِمَعْنَى أَتَى بِدَلِّهِ، أَيْ وَضَعَ شَيْءَ مَكَانَ شَيْءٍ آخَرَ (5).

(1) _ ابن منظور، مرجع سابق، ج5، ص 40.

(2) _ المرجع نفسه، ج5، ص 40.

(3) _ الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، مرجع سابق، ج2، ص 168.

(4) _ أبو هلال العسكري، مرجع سابق، ص 113.

(5) _ المرجع نفسه، ص 16.

- وأما المعنى الثالث فيأتي بمعنى الإصلاح، وهذا ما يفهم من قولهم غَيَّرَ فلان عن بَعِيرِهِ، إذ حَطَّ عنه رِحلَهُ وأصلح من شأنه، ونحو قولهم: (الغَيْرَةُ) هي المِيزَةُ (أي جلب الطعام والرزق) التي بها صلاح العيال، ويفهم الصَّلاح أيضا من قولهم (غَارَهُمُ اللهُ بِحَيْرٍ وَمَطَرٍ يَغَيِّرُهُمْ غَيْرًا) أي أصابهم بمطر وخصب وهذا ما يدلّ على الخير والصَّلاح، فبالمطر يصلح حال العباد، وبالمِيزَة يصلح حال العيال، ويصلح حال الدَّابَّة بالتَّخفيف عن أعبائها.

- وبالتالي فالتَّغيير في اللِّغة له ثلاثة أضرب:

- الأوَّل يأتي فيه التَّغيير بمعنى التَّبديل الجذري؛ أي تبديل شيء مكان شيء آخر، بقطع النظر عن الشَّيء المبدل من الصَّالح إلى الفاسد، أو العكس من الفاسد إلى الصَّالح.

- وأما الضَّرْب الثاني: فيأتي فيه التَّغيير بمعنى التَّحويل، وذلك بتحويل الشَّيء في صفاته دون المساس بذاته وأصله، بقطع النظر أيضا عن الشَّيء المحول إليه من صلاح إلى فساد أو العكس.

- وأما الضَّرْب الثالث الذي جاءت لفظة التَّغيير في اللِّغة العربيَّة، وهو بمعنى الإصلاح من حال الشَّيء، وهو الذي يكون فيه الانتقال من حال فاسدة إلى حال صالحة.

ثانيا: التَّغيير في القرآن والسَّنة:

عندما نريد أن ندرِّس لفظة التَّغيير في الكتاب والسَّنة، فإننا لا نستطيع أن نفصلها عن مفهومها العام الذي أراد به الله تعالى أن يكون التَّغيير سُنَّة من سننه، التي يُسَيِّر بها الإنسانيَّة، بل و يُسَيِّر بها الكون كله.

وبالتَّحرِّي عن لفظة التَّغيير في القرآن الكريم نجدها وردت في أربعة مواضع وجاء موضعها في السُّور التَّالية: وردت في سورة النَّساء الآية 119، و سورة الأنفال الآية 53، وسورة الرعد الآية 11، وسورة مُحمَّد الآية 15، ولكي نستشف مفهوم التَّغيير ومعناه في القرآن سنحاول أن نفسِّر هذه الآيات الواردة آنفا للخروج بمعنى لفظة التَّغيير، ومراد الله من ذكرها في كلِّ موضع.

لو نبدأ بسورة مُحمَّد الآية 15 التي قال فيها الله عزوجل ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنهَرٌ مِنْ

مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنهَرٌ مِنْ لَبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنهَرٌ مِنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ...﴾.

جاء في كتب التفسير بأن "أنهار من ماء غير أسن"؛ بمعنى ماء غير متغيّر الريح؛ لأنّه يقال عند العرب أسن، ماء هذه البئر بمعنى تغيّر ريح مائها فأنتنت "وأنهار من لبن لم يتغيّر عما خلقه عليه (1)، وهذا اللبن لا يتغيّر طعمه، لأنّه لم يخلب من حيوان فيتغيّر طعمه بخروجه من الضروع، ولكنه خلقه الله ابتداءً في الأنهار، فهو بهيئته لم يتغيّر عما خلقه عليه (2).

أول ما نستفيد من لفظة التغيير في هذا الموضع من الآية القرآنية الشريفة أنّ التغيير جاء بمعنى التحويل في صفات الشيء لا في أصله. وأمّا الشيء الثاني الذي نستفيد من هذه اللفظة (التغيير في هذا الموضع) بأنّ نعيم الجنة من ملذّات لا يوجد فيها فساد ولا يطرأ عليها حركة التغيير التي تحصل عندنا في الحياة الدنيا، لأنّ من سنة الله في خلقه تعالى جعل هذا الكون متحرّكاً، وهذه الحركة الدائمة يأتي معها التغيير، فالتغيير سنة إلهية عامّة في الكون وفي المخلوقات، كحركة تغيير الليل والنهار، وتغيير الأفلاك والنجوم، وحركة تغيير نموّ الحيوان والنبات وحتى الإنسان، وما يطرأ من حركة تغيير على الأرض فهو راجع إلى مبدأ التغيير الذي سنّه الله في خلقه، لأنّ هذا الكون البديع أنشأه الله وبثّ فيه روح الحركة الدائمة، وفق نواميس لا تخرج ولا تحيد عن قانونه العام الذي سنّه في خلقه، ومن الأمثلة التي تدلّ على أن التغيير سنّة من سنن الله في هذا الكون ما يحصل للأرض من تغيير بعد إنزال الغيث قال تعالى:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [فصلت: 39].

وقال تعالى: ﴿وَأَيُّهُمْ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا﴾ [يسن 33]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُزِيلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا فَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ، وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الشورى: 28].

من الآيات الدالة على سنة التغيير التي هي حركة دائمة في هذا النظام الكوني، آية تعاقب الليل والنهار والنور والظلام. قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكُرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: 62].

ومن الأمثلة الواضحة على حركة التغيير الدائمة التي هي سنة من سنن الله في نظامه الكوني

(1) - طنطاوي، مرجع سابق، ج13، ص230.

(2) - الطبري، مرجع سابق، ج22، ص167.

التغيير، الذي يطرأ على البشر في مراحل خلقهم. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً فِي قرارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا النَّفْثَةَ عِلْقَةً فَخَلَقْنَا الْعِلْقَةَ مَضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمَضْغَةَ عِظْلًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۝﴾ [سورة المؤمنون 12-14].

ولو عدنا إلى الآية التي ورد فيها لفظ التغيير في سورة محمد الآية 15 ﴿أَنهَرُ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنهَرُ مِنْ لَبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ۝﴾ يفهم منها بأن التغيير سمة من سمات هذه الحياة الدنيا، فإنه واقع حتى في أبسط الأشياء كالماء واللبن، على عكس الحياة الأخروية فإنها لا يقع عليها، ولا ينطبق عليها هذا المبدأ من التغيير.

وإذا ما وقفنا على لفظة التغيير التي وردت في سورة النساء الآية 119 قال تعالى: ﴿وَلَا ضَلَّاتَهُمْ وَلَا مَتِّعَتَهُمْ وَلَا أَمْرَتَهُمْ فَلْيُبَيِّنَنَّ مَا إِذَاكَ الْأَنْعَامِ وَلَا مَرَّتَهُمْ فَلْيُغَيِّرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ.... ۝﴾ فقد جاء في تفسير لفظة التغيير في هذا الموضع على ثلاثة وجوه⁽¹⁾:

فمنهم من فسّر "فليغيّر خلق الله" على ما يصنعه الإنسان من تغيير على البهائم من إخصائها ونحوه، والوجه الثاني التغيير الذي يقع على البدن من الوشم، ووشر الأسنان وغيره من باب الزينة، وأما الوجه الثالث فقد فسّروه على أنه تغيير في دين الله، استنادا إلى أن خلق الله دال على الفطرة، وهو الدين الذي جُبلت عليه الإنسانية جمعا.

ما نستشفه من لفظة التغيير في الآية أن لفظة التغيير جاءت بمعنى التحويل في صفات الشيء لا في ذاته، سواء أكان في الجانب الحسي الظاهري الذي يقع عن طريق (الوشم والوشر والإخصاء) أو في الجانب المعنوي الباطني الذي يقع في الفطرة الإنسانية التي لا تتبدل ولكن تتحوّل عن أصلها الذي خلقت عليه. وإذا ما وقفنا على لفظة التغيير التي وردت في كلّ من سورة الأنفال الآية 53، وسورة الرعد الآية 11.

(1) _ارجع إلى رشيد رضا، تفسير المنار، مرجع سابق، ج5، ص 349 وما بعدها/ وأنظر: الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج9، ص 216 وما بعدها/ وأنظر أيضا: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج2، ص 415.

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٥٣) [الأنفال: 53].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11].

جاء في كتب التفسير لهاتين الآيتين بأن الله سبحانه وتعالى يُعاقب عباده في هذه الدنيا بتبديل نعمته عليهم إلى نقمة جراء أحوالهم التي ساروا عليها من كفر وجحود ونكران، وهذا ما كان عليه حال الأمم السابقة كال فرعون والذين من قبلهم، كانوا في نعمة فغيرها الله عليهم بالنقمة، وأن ذلك جرى على سنة الله أنه لا يسلب نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ذلك بأنفسهم فتغيير النعمة إبدالها بضدها وهي النقمة وسوء الحال أي تبديل حالة حسنة بحالة سيئة⁽¹⁾.

جاءت لفظة التغيير في هذين الموضعين بمعنى التبديل الجذري، وذلك بتغيير النعمة وتبديلها إلى النقمة، ولكن هذا التبديل الحاصل في النعمة مشروط بسبب آخر وهو تغيير الإنسان من حاله، بمعنى أن الله لا يبدل من النعمة إلى النقمة، أو العكس من النقمة إلى النعمة، إلا إذا كان معه السبب المؤدي إلى ذلك، وهذا القانون سنة من سنن الله التي يُسير بها الأفراد والأمم.

فالآيتان واضحتان في أسلوبهما الخطابي الدال على أن التغيير يكون بمعنى التبديل الكلي الذي يقع في حال الأمم والشعوب من حالة النعمة إلى حالة النقمة أو العكس، فهو مرهون بحال وتغيير الإنسان لذاته ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾، فالتغيير الجذري بمعنى التبديل لا يكون إلا بيد الله تعالى وقدرته وهذا ما يفهم من نهاية الآية في سورة الرعد قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ [سورة الرعد: 11]، ولقد ارتضى الله تعالى أن تجري سنته في هذه الحياة وفق شروط ومنهج مضبوط لا يتغير قال تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَكِنْ تَحَدَّ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [سورة الأحزاب: 62]، وبالتالي لا يكون التغيير الذي هو بمعنى التبديل الكلي الذي يحصل في حال الأمم والشعوب إلا بشرط ما يقع من تغيير وتبديل في حالهم.

(1) _الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ج10، ص 45.

وهذا التغيير الكلي والجذري يكون بيدي الله تعالى لا يكون مباشرة ودفعة واحدة وبغطة، وإنما يقع بالتدرج سواء في حال النعمة، أو النعمة.

فإن الله ﷻ لا ينقم من قوم، ولا ينزل نعمته عليهم حتى يصلحوا أو يفسدوا، ومن تمام عدله تعالى أنه لا يبدل ولا يغير بقوم إلا بعد استوفاء الأسباب من بعث الرسل، وإنزال الكتب والتبشير والإنذار، وبيان المعجزات والدلائل والأمارات، فإن تمّ الصلاح كانت النعمة، وإن ثمّ العصيان والفساد فبدلت النعمة بالنقمة.

ويفهم من الآية بأن الله ﷻ أعطى للإنسان القدرة على التغيير من حالهم ﴿حَتَّىٰ يَغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾، فيمكن للإنسان أن يسعد بصنيع فعله أو يشقى، وفي هذا المقطع من الآية يندرج التغيير الذي يكون مفاده الإصلاح، وهو الذي يكون بيد البشرية، ويستطيع أن يغير الإنسان من خلاله. فالتغيير الذي أشارت إليه الآية إنما القصد منه الإصلاح من النفس الذي يقود إلى الصلاح العام، فالإنسان مطالب "بالتغيير النسبي" ⁽¹⁾، وهو الإصلاح، وليس مطالب بالتغيير الجذري بمعنى التبديل الكلي، الذي يكون بيد الله تعالى.

ومن هنا تبرز لنا علاقة سننية في الآيتين من سورة الأنفال الآية 53 والرعد الآية 11 التي مفادها أنّ التغيير يكون بمعنى التبديل الجذري، فهو واقع بيد الله عز وجل وهي سنته يجريها الله في الأفراد والأمم إذا ما تمّ لهم التغيير النسبي الذي يكون بمعنى الصلاح، وهو واقع بيد الإنسان وبالتالي، فمجال التغيير عند الإنسان هو الإصلاح والصلاح ما بالأنفس قال تعالى: ﴿قَالَ يَقَوْمُ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَكُم عَنْهُ إِن أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: 88].

وقال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 160].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ

(1) _ارجع إلى: المثني عبد الفتاح محمود، فقه التغيير وبناء الأمة الوسط، مرجع سابق، ص 42.

الصِّلَحُوت ﴿١٠٥﴾ [الأنبياء: 105]، وكم هي كثيرة هذه الآيات في القرآن الكريم التي تحثّ الإنسان على الإصلاح، فهو المجال الذي يستطيع فيه هذا المخلوق البشري التغيير.

فإذا أريد بالتغيير الانقياد والإذعان لمنهج الله وعبادته وطاعته والامتثال لأوامره، تم التغيير الإلهي للبشرية نحو النعمة والسعادة والنصرة والتّمكن والعلو والرفعة...، وإن كان يراد بالتغيير الصادر من الفعل البشري نحو الفساد والبعد عن الله ومنهجه، تم التغيير الإلهي للبشرية نحو النعمة والخسران والخذلان...

وإذا ما وقفنا على لفظة التغيير في السنة النبوية الشريفة فإنّه يتراءى على الذهن مباشرة حديث رسول الله ﷺ "من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان" (1).

دَلّ الحديث الشريف على درجات تغيير المنكر، والمنكر هو ضدّ المعروف، وهو كل ما تحكم العقول السليمة بقبّحه، أو يُقْبَحُهُ الشَّرْعُ أو يُجْرِمُهُ أو يُكْرَهُهُ (2)، أو هو ما نهى الله عنه ورسوله (3).

يحثّ النبيّ في هذا الحديث المسلمين على تغيير الفساد (المنكر)، الذي يطرأ على الفرد أو المجتمع بقدر الوسع والاستطاعة، مما يجعل الحديث يأخذ معنى الإصلاح والصّلاح للفرد والمجتمع والأمة، وهذا لكي يعمّ النفع العام (4). وجاء في حديث آخر عن النبي ﷺ "إنّ الناس إذا رأوا المنكر لا يغيّرونه، أو شك أن يعمهم الله بعقابه" (5).

دَلّ هذا الحديث على أنّ التغيير مسؤولية الجميع، وأنه إذا ما ترك هذا الأمر (تغيير المنكر) عمّ العقاب الإلهي الجميع دون استثناء، والتغيير يكون عن طريق النهي عن المنكر وانكاره على فاعله، ثم يؤتى بالبديل عنه عن طريق الإصلاح، ومن ثم فإن حركة التغيير التي يحثّ عليها النبيّ إنّما المقصود بها الإصلاح بقدر الوسع والمستطاع، ولم يدعو النبيّ ﷺ بالتغيير الجذري الذي هو خارج عن النطاق

(1) الإمام مسلم، المسند الصحيح المختصر، مرجع سابق، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، رقم الحديث 78، ج1، ص 69.

(2) مجموعة من المؤلفين، المعجم الوسيط، مرجع سابق، ج1، ص 952.

(3) مُجَدِّ العثيمين، شرح الأربعين النووية، دار الثريا للنشر، (دب)، (دت)، (دط)، ص 333.

(4) ارجع إلى: ابن دقيق العبد، شرح الأربعين النووية، مؤسسة الريان، (دب)، دط6، 1424-2003م، ص 111 وما بعدها.

(5) ابن ماجة، سننه، مرجع سابق، باب الأمر بالمعروف ونهْي عن المنكر، رقم الحديث، 4005، ج2، ص 1327.

الإنساني، وهو الحاصل بيد الله تعالى، بل إن التغيير بمعنى التبديل الكلي والجذري إنما هو حاصل وناتج عن سنته تعالى التي جعلها قانونا يحكم به على أفعال العباد، فإن نتج عنهم التغيير الإيجابي الذي هو بمعنى الإصلاح أي التغيير في حال الفساد (المنكر) الواقع على الأفراد والمجتمعات والأمم جزاهم الله بالتغيير الكلي بتبديل النعمة إلى النعمة والسعادة في الدارين.

وأما إذا تم التغيير الإنساني في أفعاله وأحواله وتصرفاته إلى المنكر الذي يفضي إلى الفساد، فإن الله يعاقب عليه بالتغيير الكلي بتبديل النعمة إلى النعمة والخسران في الدارين، وهذا هو حال الأمم السابقة.

ولقد أعطيت الأمة الإسلامية الأفضلية على الأمم السابقة إلا لحركة هذا التغيير الإيجابي بدفع المنكر و احقاق المعروف قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: 110]، فلا يتم نزع المنكر ولا طرق باب المعروف لولا حركة الإنسان التغييرية الإصلاحية نحو الأنفع والأصلح.

وإذا ما فقدت الأمة أو تخلت عن هذه الحركة التغييرية الإصلاحية، التي هي شعيرة من شعائر الإسلام، وخاصية من خصائص هذه الأمة (المتبعة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده بنص الحديث المذكور آنفا.

وبعد هذا الاستطراد الذي أوردناه في بيان لفظة التغيير في الكتاب والسنة يمكن تلخيصه في النقاط التالية:

- جاءت لفظة التغيير في القرآن الكريم على ثلاثة وجوه وهي توافق وجوه اللغة العربية.
- الوجه الأول: دلت لفظة التغيير في القرآن على التحويل في صفات الشيء لا في ذاته، ومن هذا التحويل يقع في حركة هذا الكون الدائبة والمستمرة، كحركة التحول التي تمس الإنسان في مراحل نموه فيتغير في شكله، وما يقع من حركة تغيير في الأرض بعد نزول المطر وما يقع من تغيير على النبات والحيوان وحتى الجماد وغيرها، وهذا ما يطلق عليه بالتواميس التي تحكم عالم المادة.
- وأما الوجه الثاني للتغيير الذي ذكر في القرآن الكريم يحمل معنى التبديل الجذري والكلي، وهو

الإتيان بشيء مكان آخر، فقد دلّ على تغيير النعمة وإبدالها بالنقمة أو العكس، ولا يقع هذا النوع من التغيير الجذري إلا بيد الله تعالى، وهو يجريه على شكل سنّة، وقانون يحكم به على الأفراد والجماعات والأمم، قياساً على حالهم، وهنا يبرز الوجه الثالث الذي يأتي فيه التغيير بمعنى الإصلاح، فقد جاء مقروناً بالتغيير الكلي الذي هو سنّة من سنن الله في الأفراد والأمم، فإن كانت حركة التغيير الصادرة من الإنسان مفادها الإصلاح كان معها التغيير الكلي إلى الخير، وإن كانت حركة التغيير الصادرة عن الإنسان مسارها إلى الفساد فإنّ قانون الله لا يجازي معه أحد فيجازي أصحابها على قدر جرمهم وفسادهم.

وأهمّ ملاحظة واستنتاج يمكن أن نخلص إليه عن قضية التغيير في الكتاب والسنة أنّ التغيير سنة من سنن الله أجراها في هذه الحياة، وهو يحكم بها عالم المادة وعالم البشرية في حركتها وسيرها.

فالتغيير الذي يكون في عالم المادة إنّما هو من النواميس التي بثّها الله في الكون كباقي النواميس التي تحكم عالم الكون، فالكون في حركة تغييرية دائمة، وهذه الحركة التغييرية تخدم باقي القوانين التي تُسيّر حركة الكون دون الخروج عن مقتضي حكمة الله في خلقه.

ولو أردنا أن نجسّد لهذه الحركة التغييرية للمادة بمثال لوقفنا على مثال حركة الأرض التي تدور فيها حول نفسها وتدور حول الشمس، فبدوران الأرض حول محورها في حركة مسار ثابت منذ أن خلقها الله تعالى (وهو قانون من قوانينه أودعه فيها)، وفي نفس الوقت فإن هذه الحركة تحمل معها حركة تغييرية، تتمثل وتنتج عن هذه الحركة الثابتة نحو مسارها المبرمج لها مما يصحب تغييراً على الأرض من تعاقب الليل والنهار، النور والظلام، فينتج عنها تغييرات أخرى على باقي المخلوقات، وكأبسط مثال ما يقع من تغيير في حركة نمو النباتات.

ولو افترضنا أنّ الأرض توقفت عن الدوران لخلل ما، ما الذي سيقع؟ وما التغيير الذي سيطرأ على باقي الكائنات على سطح الأرض؟ وما الفساد الذي سينجم عن هذا التوقّف؟، ومن هنا يمكن أن تقول إنّ حركة التغيير الحاصلة في المادة إنّما هي قانون ثابت أجراه الله في كونه، ولن يحيد هذا القانون عن عمله، ولن يخرج عن نطاق سنّته تعالى التي أجراها في خلقه.

وأما التغيير الذي يحكم عالم البشرية من حيث صدور الأفعال فهو كذلك سنّة وقانون يحكم من

خلاله الله عزّ وجلّ على أفعال الناس، فإن كانت حركة التغيير التي تصدر من الإنسان مفادها الإصلاح والانقياد إلى طاعة الله جاء التغيير الإلهي للبشرية نحو النفع والفلاح، والسعادة والتمكين والنصرة، وإن كان العكس فالعكس.

والتغيير في هذا المجال أعطى فيه الله الحرية والاختيار للبشرية، ولها الحق في اختيار أي اتجاه تغيير تريد، ولكن نتائج هذا التغيير هي مرتبطة بسنة الله تعالى التي جعلها قانونا حاكما على هذه الحركة التغييرية، وهذا مفاد قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11].

ثالثا: التغيير عند الأمير عبد القادر:

لتوضيح لفظة التغيير ومدلولها عند شخصيتنا المتناولة بالدراسة "الأمير عبد القادر" فإننا نقف على تباينها في النقاط التالية:

1- جاءت لفظة التغيير عند الأمير عبد القادر في كتابه المواقف في خضم شرح حديث رسول الله ﷺ "من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وهو أضعف الإيمان"⁽¹⁾، فقد بين الأمير من خلال شرحه بأن التغيير باليد يكون للسلطان، والتغيير باللسان يكون للعلماء، والتغيير بالقلب فهو لعامة المسلمين، وأن واجب العارف المؤمن بالله أن يغيّر المنكر وأن يُحسّن بقدر الاستطاعة، وأن هذا التغيير إنما هو من الأمور التي دعى إليها الشرع الحنيف⁽²⁾، وإذا ما تمعنا في شروح الأمير عبد القادر لمواقفه التي أدرجها في كتابه المشهور "المواقف" فإننا نلمس آرائه الصوفية حول وحدة الوجود، وبالرغم من ذلك فإننا نجده لا يلغي ولا ينفي أن يلتزم المرء بما شرعه الله وأن طوق الشريعة⁽³⁾، لا يخرج ولا يفارق رقبة هذا العارف بالله، ومن مجموع ما جاء في الشريعة الإسلامية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي يكون على مستواه الإصلاح قدر المستطاع.

2- كما أننا نستشف لفظة التغيير عند الأمير عبد القادر من خلال دعوته إلى إصلاح النفس

(1) _ الأمير عبد القادر، المواقف، مرجع سابق، ج 1، ص 310.

(2) _ المرجع نفسه، ج 1، ص 202.

(3) _ ارجع إلى: الأمير عبد القادر، المواقف، مرجع سابق، ج 1، ص 106، ص 128، 375.

الإنسانية وذلك بتبديل صفاتها البهيمية بصفاتها الإلهية⁽¹⁾، وهي دعوة صريحة إلى التغيير الذي يكون مفاده التحويل والإصلاح من النفس الإنسانية من خلال تركيتها وتطهيرها، فنجد يدعو إلى التغيير والتحويل الإيجابي الذي تسمو معه الإنسانية إلى الرقي للالتحاق بالكمال الإنساني، الذي هو ظاهر في خلقته، ولقد أعطى الله الإنسان القدرة على هذا التغيير، فالأمير لا يدعو إلى التغيير الجذري الذي يلغي جوانب هذه النفس بالكلية، فالإنسان معجون بهذه الطينة التي تكسبه الصفات الحيوانية والملائكية، وإنما يدعو إلى الإصلاح الذي تركوا به النفس وترتقي.

3- كما نلمس التغيير عند الأمير عبد القادر من خلال كتابه "المقراض الحاد"، الذي جاء فيه تبيان الحديث عن الدين الإسلامي ومكانته، وإبراز أهمية الرسل⁽²⁾، وحاجة الإنسانية إليهم، وأن غاية بعثهم هو الإرشاد والإصلاح، وتبيان مصالح الناس الدينية والدنيوية، وأن الرسالة الخاتمة جاءت لتكمل ما كان ناقصا في سابقاتها، وأن التشريعات جميعا جاءت من أجل الإصلاح من حال البشرية، والتغيير من مسارها الفاسد الذي وقعت فيه نتيجة انحرافها، والأخذ بيدها نحو الرقي الإنساني.

4- ونجد الأمير عبد القادر يتحدث عن التغيير الذي يقع في مشاهد الكون، ومجرى الحياة المادية التي بثها الله في خلقه، وأنه سنة من سننه تعالى التي أودعها في خلقه، وأن ما يقع في الكون من تغيرات⁽³⁾، إنما هو راجع إلى قوانينه تعالى التي أدرجها في عالم المادة لتكون مسيرة له وحكمة عليه، والتي يسير بها الله سبحانه وتعالى نظام كونه.

5- ولعل أهم ما نقف عليه بالنسبة إلى التغيير عند الأمير عبد القادر، وهو ذلك التغيير الواقعي الملموس الذي نقف عليه من خلال تتبع سيرته الذاتية، ومنجزاته التي حصدها من خلال ممارساته الحياتية، ولعل أهم محطة تغيير دوّنت له عبر التاريخ ألا وهي "مشروعه في بناء الدولة الحديثة للجزائر"، والذي لم يسبقه إليه غيره في زمانه الذي عُرف بحركات نهضوية إصلاحية في مختلف الأقطار العربية الإسلامية التي أرادت أن تغير من واقع شعوبها⁽⁴⁾.

(1) _ المرجع نفسه، ج 1، ص 135، ص 258.

(2) _ أرجع إلى: الأمير عبد القادر، رسالة المقراض الحاد، مرجع سابق، ص 108، ص 117، ص 123.

(3) _ المرجع نفسه، ص ص 80، 96، 98، وما بعدها.

(4) _ أرجع إلى مقال: اسماعيل زروخي، مساهمة الأمير عبد القادر في النهضة العربية الحديثة، مرجع سابق، ص 90، وما بعدها.

يعدّ "الأمير عبد القادر" من أولئك القلة الذين ساهموا بشكل عملي في التغيير من مجتمعاتهم التي كانوا فيها، فما حقّقه الأمير من تغيرات وإنجازات في جميع الأصعدة السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية...، إنّما هو مثال ونموذج يحتذى به في إمكانية التغيير لما هو أفضل لحال المجتمعات والأمم إذا ما توقّرت المعطيات اللازمة لذلك.

وفي الأخير يمكننا القول إنّ التغيير عند الأمير عبد القادر تجسّد في حياته، فالتغيير عنده منهج حياة يعمل على الإصلاح على قدر الوسع والاستطاعة، وأهم تغيير ينادي به الأمير عبد القادر هو التغيير الذي يكون على مستوى النفس، وذلك من خلال الرقي بها للوصول إلى الكمال الإنساني.

المطلب الثاني: أسس التغيير عند الأمير عبد القادر:

إنّ المتأمل في الفجوة والهوة بين العالم الإسلامي والعالم الغربي، يلاحظ مدى تخلف الأوّل وتدهور أوضاعه، ومدى تقدّم الثّاني وتطوّره وازدهاره وسيادته، ومن هذه الفجوة انطلقت الصّيحات التي تناشد التغيير والإصلاح للحاق بالركب والنمو، وتحقيق التطوّر والسيادة.

ولقد تعالت الحناجر وسالت الأفلام من أجل تحقيق التغيير المنشود، وبرزت العديد من الحركات الإصلاحية لتحقيق هذا المراد، ومازال هذا المطلب لم يتحقق... ولقد نادى العديد من المفكرين والكتاب بدءًا من ابن خلدون... وصولًا إلى عصرنا هذا بالتغيير، ولقد أدلى كل منهم برأيه حسب وجهته الخاصة، ونظرته إلى الأزمة التي حلّت بالعالم الإسلامي، ولقد وضعوا أسسا وقواعد لهذا التغيير ممّا جادت به فلسفاتهم.

وإذا ما عدنا إلى الجزائر الحبيبية وما عاشته من تغيرات طيلة حقبتها التاريخية، فإنّنا نتوقّف أمام التغيير الذي أحدثه الأمير عبد القادر بن محي الدين الذي صنّفه المؤرخون بأنّه مؤسس الدولة الحديثة في الجزائر، ورجل النهضة الأوّل الذي بثّ روح التغيير في هذا الشعب.

وإذا ما نظرنا إلى الإنجازات التي حقّقها الأمير عبد القادر طيلة فترة بيعته التي حكم فيها جزءا لا يستهان به من المناطق الجزائرية، ودامت فترة حكمه سبعة عشرة عامًا، وبالنظر إلى الظروف التي قامت عليها دولته، أقلّ ما يقال عنها أنّها لا تثمر بأي عملية تغييرية نحو الأفضل، فقد استطاع تحت هذه الظروف أن يفرض على الاحتلال الفرنسي قوانينه، ويملي عليه شروطه، وجعله يعترف بقوّته ونفوذه

دولته التي نظّم قوانينها، وجنّد جيوشها، وصنّع أسلحتها، وسبك عملتها، ورفع رايتها، فداع صيتها عند العدو قبل الصديق، وكتب حروف اسمه بماء من ذهب في تاريخ الجزائر، بل في العالم كله.

وهذا ما يدفعنا إلى أن نبحث عن الأسس التي قادت الأمير عبد القادر نحو التغيير، وإن كانت حركته هذه لم يتم لها التحقق كليا، وقد صنّفت تحت "حيرة التاريخ"، وذلك لعوامل يعلمها الجاهل قبل العالم، وهي التي تُصنّف من عوامل هدم الحضارات وسقوط الأمم، وهي من باب السنن الإلهية التي تتحكّم في سير تاريخ الأمم، فالتشتت وعدم الوحدة، والخيانة، وموالة العدو، من أهمّ العوامل لسقوط الدول العظمى، ناهيك عن دولة فتية تصارع من كلّ الجهات، فتغيير الأمير واقعي ملموس عملي، على غرار الحركات التغييرية التي كانت متزامنة معه في أنحاء القطر الإسلامي، فالأمير الذي سعى بكل جهده، وسخر كلّ طاقاته من أجل تحقيق الأفضل لشعبه ووطنه.

سنتناول في هذا المطلب الأسس التي أدخلت أميرنا في خضم هذه الحركة التغييرية، متجاوزين سرد الأحداث التاريخية والإنجازات لهذه الشخصية (وإن كان هذا السرد معينا في فهم حركته التغييرية)، وإنما نريد أن نعوص مع الشخصية التي استطاعت أن تغير وتفرض التغيير، وعلى هذا الأساس نطرح إشكالية هذا المطلب المتمثلة في السؤال التالي: ماهي الأسس التي امتلكتها شخصية الأمير عبد القادر واستطاع من خلالها التغيير وتحقيق الإنجازات؟

إنّ مقصدنا ومروانا بالأسس التغييرية هي تلك الدعائم الأولى التي تبعث وتدفع نحو التغيير، ويعمل الإنسان من خلالها على الإصلاح والتغيير قدر الإمكان سواء أكان فردا أو جماعة. ولاستخراج هذه الأسس التي قادت الأمير عبد القادر للتغيير وضعنا هذه الشخصية تحت المجهر وجعلناها كجزء ننتقل منه في بحثنا، لكي نستطيع أن نعيّ هذه الدعائم التي تعد كالحرك الأول للإنسان، باعتبار أنّ الأمير ليس شخصية خيالية أو وهمية حيكت عليها الأساطير، وإنما هو نموذج حيّ ومثال عن الإنسان الفعّال، الذي غيّر وأراد الإصلاح وانطلق فيه من المعطيات التي توفّرت أمامه، ولم يعجزه ظروف ذلك الزمن ولم تقلّل من عزمه، ولقد اعترف الجميع بفاعلية هذه الشخصية على أرض الواقع، والعدو منهم قبل الصديق، ولقد نال الأمير المكانة المرموقة في حياته وحتى بعد مماته لا لذاته، وإنما لما حوته هذه الذات من صفات، وما أنجزته من أفعال.

ولقد أجمع المؤرخون والكتاب الذين درسوا شخصية الأمير عبد القادر على أنه ذلك الرجل العبقري العالم المجاهد الزاهد الورع التقي⁽¹⁾، فانطلقا مما حازته هذه الشخصية من إعجاب وثناء وما قيل عنها من مواصفات وملكات بدت للظاهرين الذين عايشوا الأمير، وأخذوا عنه، أو سمعوا منه، أو حتى جاهدوا أو تعلموا عنه أو حتى أعداءه الذين جابههم، مما يجعلنا نستخلص الأسس التي كوّنت هذه الشخصية الفذة.

ومن المعلوم عند الجميع أنّ الأمير عبد القادر لم يطلب الإمارة ولم سعى لها⁽²⁾، بل هي التي سعت إليه، لما تمتّع به من مواصفات أهّلته لكي يُقترح اسمه للإمارة، ويوافقه عليه الأعيان والكبار في زمانه، ودانوا لسلطته رغم صغر سنة آنذاك، ولم يخيّب الأمير ظنّ الأهالي به، فقد أبلى حسنا في تسير شؤون إمارته.

وهذا ما يجعلنا نقف أمام نموذج حي توقّرت فيه الشروط لكي يستحق هذا المنصب، ويزج بنفسه ويقود شعبه نحو الإصلاح والتغيير، ولقد وُفق لحد ما في تحقيق مرماه رغم الصّعوبات التي واجهته، ولولا الظروف والعوامل التي أدّت إلى سقوطه لكان لإمارته الشّأن العظيم⁽³⁾.

وببحثنا المعمّق عن هذه الشخصية، استخلصنا ثلاثة أبعاد أساسية كوّنت أبعاد هذه الشخصية الفذة، والتي من خلالها انبعثت كلّ سلوكياتها، فالأساس الأوّل تمثّل في إيمان الأمير عبد القادر وتديّنه والأساس الثّاني تمحور حول قوّة العقل والعلم عند هذه الشخصية، وأما الأساس الثّالث فتجسّد في الأخلاق التي كان يتحلّى بها الأمير عبد القادر.

بالتعمّق في هذه الأسس نجدها كمرجعيّة عند الأمير عبد القادر، التي تحكّمت في حياته، كلّها سواء قبل إمارته أو بعدها. فالأساس الأوّل الدّين والإيمان، يكون مرجعيته للأفكار والتصور عنده، التي

(1) _ نجد هذه العبارات والألفاظ التي تمدح الأمير وتثني عليه في كلّ الكتب والمقالات، وتناولت ودرست شخصية الأمير عبد القادر أو موضوعا عنه، أنظر على سبيل المثال: يحيى بوعزيز، الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري، مرجع سابق / عبد الرزاق ابن سبع، الأمير عبد القادر وأدبه، مرجع سابق / نزار أباطة، الأمير عبد القادر العالم المجاهد، مرجع سابق / بركات مُجّد، الأمير عبد القادر المجاهد الصوفي، مرجع سابق / مُجّد على الطلاي، الأمير عبد القادر قائد رباني، مرجع سابق.

(2) _ في كيفية مبايعة الأمير ارجع إلى: على الصلاي، كفاح الشعب الجزائري ضدّ الاحتلال الفرنسي، مرجع سابق، ج1، ص 360 وما بعدها.

(3) _ مُجّد بركات، مرجع سابق، ص 18.

يبنى من خلالها فهمه لذاته، ولما يحيط به ومصيره. أمّا الأساس الثاني العقل والعلم، ويدعم ويكوّن مرجعيته المنهجية، التي يستقي وينير من خلالها طريقه ويربط بها تصوّره بواقعه، فيعمل ويتحرّك تحت ضوء خلفياتها. أمّا الأساس الثالث الأخلاق فهو يقوّي مرجعية السلوك التي تتحكّم في أفعال هذه الشخصية وتبنى هذه المرجعية على الأساس الأوّل.

وفيما يلي سنحاول أن نحلل هذه الأسس التي كانت الداعم الأوّل في تكوين مرجعيات الأمير عبد القادر في كلّ حركاته.

أوّلاً: الأساس أوّل "الإيمان":

الإيمان - الدين - هو الأساس الأوّل الذي تكوّنت من خلاله شخصية الأمير عبد القادر في جميع جوانبها، فقد صقل الدين الإسلامي معالم هذه الشخصية، فكان الإيمان هو المحرّك والموجّه لكلّ حركات أميرنا، وما هو ذا عدوه يصفه على لسان أحد قادته فيقول: "...وقبل أن أدخل معه في الحديث أخذت أتأمل وجهه وكسوته لحظة، إنه شاحب اللون وصورته قوية الشبه بالصورة التقليدية المعروفة للمسيح...، ومظهره العام يدل على التقوى والخشوع"⁽¹⁾، قد شبّهه عدوّه بصورة المسيح، وهذا حتى قبل أن يفتح معه باب الحديث، والنقاش والجدال، وهذا راجع إلى السمو والرقى الروحي الإيمانى لهذه الشخصية، حتى أنّها بدت في تعاليم وجهها وتصرفاتها، لما للإيمان من وسم وسمّة تبرز وتظهر على صاحبها، ولقد كان هذا القائد الفرنسي شديد الدقّة في وصفه للأمير، وتشبيهه بالمسيح، وربطها بالتقوى والخشوع.

لقد استطاع هذا القائد أن يستنتج ويفهم من خلال ملامح الوجه الجانب الروحي الباطني الإيمانى الذي كان عليه الأمير، لأنّ الإيمان الصادق والصّحيح يثمر وينير في سمت العبد، وهذا هو مفاد قوله تعالى: ﴿سَيَمَاهُمْ فِي وُجُوهِهم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ﴾ [الفتح: 29]، ولقد جاء في تفسير هذه الآية عند ابن كثير أنّ الإنسان إذا كانت سريره صحيحة مع الله أصلح الله تعالى ظاهره مع الناس، وأنّ السّمة في الوجه بمعنى الخشوع والتّواضع⁽²⁾.

(1) _ نقلا عن ابن السبع عبد الرزاق، الأمير عبد القادر وأدبه، مرجع سابق، ص 43.

(2) _ أنظر: ابن كثير، تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج 7، ص 361.

يا للعجب ألم يكن هذا القائد العدو صادقا في وصفه للأمير، وأصاب مرمى قوله تعالى من دون أن يقرأ كتاب الله، نعم إنّ الإيمان هو نفسه الذي في رسالة مُحمَّد ، ومثلها في رسالة الثوراة ورسالة الإنجيل وهذا ما استطاع القائد الفرنسي استنتاجه إلّا من المظهر الخارجي، مثل نموذجي حيّ من رسالة مُحمَّد تمثّلت فيه نور الإيمان، وهو نفس النور الإيماني الذي تمثّل به المسيح عيسى عليه السلام.

وكم هم الكثيرون الذين وصفوا الأمير على هذا النحو، وشدّتهم حياته الإيمانية الروحانية، فهذا هو عالم الاجتماع الديني الفرنسي "برونو إيثين" ⁽¹⁾، في كتابه الذي دوّن فيه جانب من حياة الأمير عبد القادر، يقول في مقدّمته أنّ حياة الأمير عبد القادر وإنجازاته وأعماله، تدعونا إلى تحليل هذه الشخصية أكثر من سرد الوقائع عنها، وهذا ما يدعونا إلى الكتابة والصياغة الجديدة لأعماله وفق نظرة تحليلية لهذه الشخصية التي حجبت حقيقتها الأسطورة الوطنية، بينما حياته الفعلية نوع من السرّ الروحي، حتى وهو يمارس في دوره في الحياة وتسير شؤون العاقبة، فقد وصفه بأنّه في صميم العالم وهو غائب عنه، ولقد خلصُ برونو إيثين، بأنّ الأمير عبد القادر يمثّل النموذج المثالي للبراعة الدينية الذي اصطلحه ماكس فيبر ⁽²⁾، والتي عني بها بأنّ الشخص يكون في عمق التجربة الاجتماعية وهو في الحقيقة خارج عنها ⁽³⁾.

لقد أوردنا شهادتين في حقّ الأمير عبد القادر صدرت من أفواه أعدائه الذين حاربوه، وأخذوا نار ثورته بكلّ السبيل والحيل، فالأوّل وصفه بالمسيح في ثوب التقوى والخشوع، والثاني جعله قابلا للنموذج الأمثل في البراعة الدينية، وما أصدق هذه الشهادات عندما تخرج من أفواه الأعداء.

نحن هنا لسنا بصدد سرد ما قيل عن الأمير عبد القادر، بل غرضنا أن نعرف الأساس الذي كان يملكه الرجل حتى برز منه هذا النور العملي، الذي حرّكه وتحرك في ظلّه، وتحكّم به في سلوكياته وأخلاقه وفي كلّ حياته، حتى جعل أعدائه يرون هذا النور باد في سمته وصفاته.

هذا النور البادئ على الأمير إنّما هو نور الإيمان نور الدين الإسلامي الذي التزم به طيلة حياته،

⁽¹⁾ _ برونو إيثين: عالم اجتماع وسياسة فرنسي عاش (ما بين 1937-2009م)، تقلد عدة مناصب هامة اهتم بعلم الاجتماع الديني،

نقلا من الوكيبيديا بتاريخ 2003/02/04 على الساعة 4:00 صباحا

⁽²⁾ _ ماكس فيبر، علم اجتماع ألماني، عاش بين (1864-1920)، لقد ساهم بشكل كبير في تطوّر علم الاجتماع الحديث، جوردن مارتشال، موسوعة علم الاجتماع، تر مُحمَّد الجوهري وآخرون، المجلس لأعلى للثقافة، ط1، 2000م، ج3، ص 1098م.

⁽³⁾ _ برونو إيثين، الأمير عبد القادر، مرجع سابق، ص 11.

هذا الدين الذي نهل تعاليمه منذ نعومة أظافره، وترعرع عليه في كنف أسرته التي اشتهرت بالعلم والورع والزهد، فوالده محي الدين صاحب زاوية ومدرسة القيطنة، وصاحب الطريقة القادرية الصوفية التي كانت من أكثر الطرق اتباعاً في زمانه، وعُرفت بشدّة التزامها بالكتاب والسنة.

وها هو أميرنا ينهل من والده وعلماء زمانه ليزيد معرفته بهذا الدين، فقد ختم كتاب الله وهو في الثانية عشرة من عمره⁽¹⁾، فقد تعلّم بأن الإيمان جوهره هذا الدين، وأنّ الإيمان لا يصح إلا إذا اجتمع فيه التصديق الجازم، والقول الصادق، والعمل الصالح، فقد نشأ وهو يرى في أسلافه وأجداده ووالده القدوة التي تمثّلت فيهم قوّة الإيمان مع صدق العمل. وأكدّ الأمير عبد القادر على أنه لا انفصال بين القول والعمل، وأنّ من صدق القول صلاح العمل، فكانت أعمال أميرنا نابعة من هذا الإيمان الصادق.

وبسبب التزامه بتعاليم الدين الإسلامي، وما برز منه من ورع وتقوى وعلم وشجاعة، بارزة للأعيان، انتخب من قبل الأعيان وكبار بلده بعد تنازل والده محي الدين عن الإمارة، وعيّن اسم عبد القادر لها⁽²⁾، فكان أميرهم برضاهم ومشورتهم وإجماعهم، فلم يختارها هو بل أجبر عليها لما له من ملكات أهله، ولم يرفضها الشاب لواجبه الذي يفرضه عليه دينه⁽³⁾.

وبعد اعتلائه كرسي الإمارة زاد تمسّكا بالدين والإيمان والورع والتّقوى، ممّا زاده تفانيا في العمل والصدق في المطلب، فكان تأسيسه لدولته كلّها قائم على إعلاء كلمة الله والحكم بدستور القرآن والسنة على نهج السلف الصالح⁽⁴⁾. وحتى بعد سقوط إمارته، ظلّ في منفاه صابرا متضرّعا لخالقه، في أسمى حلّة الإيمان، فلم يتسلّل اليأس إلى قلبه، بل اتّخذ من العلم جابراً لخطره، فدرس من حوله كتب الشريعة⁽⁵⁾، قائما بواجباته الدينية من نسك وعبادات⁽⁶⁾، مما ازداد نور الإيمان في قلبه، واتّخذ من القلم وسيلة

(1) ما يخصّ نشأة الأمير وأسرته وتعليمه، ارجع إلى الفصل التمهيدي من هذه الأطروحة.

(2) فيما يخصّ بيعه الأمير ارجع إلى: على الصلاحي، كفاح الشعب الجزائري ضدّ الاحتلال الفرنسي، مرجع سابق، ج1، ص 359 وما بعدها.

(3) يحي بوعزيز، مرجع سابق، ص 81.

(4) على الصلاحي، كفاح الشعب الجزائري، مرجع سابق، ج7، ص 365 بتصرف.

(5) المرجع نفسه، ج2، 523 وما بعدها.

(6) ارجع إلى مقال: قلايلية العربي، البعد الإنساني في شخصية الأمير عبد القادر، مرجع سابق، ص176.

للجهاد، فدوّن كتابه المقرض الحاد بقطع لسان الطّاعن في دين الإسلام بالباطل والإلحاد⁽¹⁾.

وبعد تحلّية سبيله تفرّغ في بلاد الشام للصّلاة والذكر والعلم والتأقّل، كالنحلة لا يرتع في زهرة واحدة، ينتقل بين المساجد والمدارس لإلقاء دروس العلم، وقد اشتهر عنه كثرة عمل الخير، وحبّه للصّلاح والإصلاح⁽²⁾.

فالمتمدارس لسيرة الأمير عبد القادر يجد حياته كلّها تتحرك بدافع إيماني، نابع من شدّة تديّنه وتمسّكه بتعاليم الدّين الإسلاميّ، ولقد تجسّدت وتفعّلت قوانين هذا الدّين في حركات الأمير وسكناته فبلور الإيمان وكوّن شخصيته وفق هذه المرجعية الدّينية.

تلك المرجعية التي بنى عليها الأمير أفكاره وتصوّراته حول ذاته وخالقه وما يحيط من حوله، فكانت كل حركاته سواء في مرحلة الصّبي والفتوة أو في مرحلة الامارة والجهاد وحتى بعد سقوط دولته ونفيه خارج البلاد، إنّما توافق معطيات هذه المرجعية الدّينية، وجوهر هذه المرجعية الدّينية هو الإيمان المحرّك الأوّل لكل أعمال الأمير عبد القادر، ومن هنا فالأساس الأوّل الذي مدّ الأمير بنور حركته التّغييرية تمثل في الدّين الإسلاميّ، بجوهره الأوّل الذي يقوم عليه الدّين ألا وهو الإيمان بالله.

وفي الحقيقة إنّ الدّين يشكل جانبين أساسين من جوانب الحياة لدى الإنسان، فهو يغذّي جانبه الأوّل التصوّري الاعتقادي الذي هو أساس الأفكار لديه، ولكلّ ما يحيط به وهذا الجانب بدوره يحرك الجانب العملي الحركي السلوكي لدى الإنسان.

وبالتالي فمنظومة الدّين بشقيها النظري والعملي فهي المحرّك الأوّل والدّافع الرّئيس خلف حركات الإنسان فوق هذه الأرض⁽³⁾. فالدّين هو المنهج والنظام الذي يبنى عليه الإنسان تصوّره، لذاته وللكون والحياة، وهو يحكم بين هذه العناصر، ويربط فيما بينها⁽⁴⁾.

لم تخلو أمة أو مجتمع إلّا وكان لهم غريزة دينية تجمعهم حول دين معيّن صحيح كان أم خاطئاً،

(1) _ ارجع إلى مقال: شيخي خديجة، المقاومة الثقافية في فكر الأمير عبد القادر الجزائري، مجلة الحكمة للدراسات التاريخية، ع4، 2020م، مج8.

(2) _ ارجع إلى: بن السبع عبد الرزاق، مرجع سابق، ص 56.

(3) _ عبد الله دراز، مرجع سابق، ص 32 وما بعدها.

(4) _ على أحمد مدكور، مناهج التربية أسسها وتطبيقاتها، دار الفكر العربي، ط، 2001م، ص 23.

سماويًا كان أو وضعيًا، وهذا الدين الذي يعمل المجتمع ويتحرك تحت ظله⁽¹⁾.

وبالتالي، فالدين هو العنصر الأساس والضروري يغذي القوى النظرية في الإنسان، وبه يجد العقل ما يشبع مطامحه العلى، وبه تنشعب النفس وتستقي قواها المختلفة وتتجدد حيويتها⁽²⁾، (نحن نتكلم هنا عن أي دين كان "سماويًا أو وضعيًا) فله تأثير على أتباعه إيجابًا أو سلبيًا، لأن الإنسان مقود بفكرة صحيحة أو فاسدة، فإذا صلحت عقيدته صلح فيه كل شيء، وإن فسدت فسد كل شيء⁽³⁾.

وإن الدين الذي سار به "أميرنا" ليس أي دين كان، إنه دين الله الذي ارتضاه لأهل البشرية جمعاء من لدن آدم إلى محمد خاتم الأنبياء قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [سورة آل عمران: 19]، فالدين الذي حرّك وجدان الأمير وفعل سلوكياته بالإيجاب، هو دين الإسلام على شريعة محمد الخاتمة للرسالات السماوية، فقد استوعب الأمير في شخصيته معنى الإيمان الصادق الذي عقد قلبه ووجدانه عليه، فتفاعلت حركاته منسجمة مع ما جاء في سماحة هذه الشريعة الوسطية الذي عمل الأمير بكلّ جهده لتكون هي الحاكمة الأولى في دستور إمارته.

فالدين الإسلامي يعطي المرء تصوّرًا شاملاً للألوهية والكون والإنسان والحياة، فهو الايطار المرجعي للإنسان المسلم وللحياة الإسلامية⁽⁴⁾. وفي الحقيقة إنّ الأمير عبد القادر قد فهم هذه المرجعية الدينية، فهما يستوجب العمل كما فهمها الصحابة⁽⁵⁾، رضوان الله عليهم زمن البعثة، فحرّكت فيهم الوجدان الذي قادهم إلى كلّ تغيير إيجابي.

لقد أخرج الله بالدين الإسلامي والرسالة المحمدية أمة كانت تتخبط في النعرات والشّتات، فكان أكبر همّ العرب تلبية الغرائز والملذّات، كانوا يناشدون الغزل والخمر والشهوات، فجاء الاسلام وحول هذا الشّتات إلى أمة، وهذه الغرائز إلى طاقات بشرية وقادة همّها حمل راية القيادة، وإعلاء كلمة التوحيد، فزاحمت هذه الأمة بنور كتابها أعتى الأمم في زمانها، وأسقطتها من عرش سيادتها، وقادت

(1) _عبد الله داز الدين، مرجع سابق، ص 82 وما بعدها.

(2) _المرجع نفسه، ص ص 96-97.

(3) _المرجع نفسه، ص 99.

(4) _على مذكور، مرجع سابق، ص 23.

(5) _ارجع إلى على صلابي، كفاح الشعب الجزائري، مرجع سابق، ج 1، ص 355 وما بعدها.

مكانها البشرية، فأخرجتها من الظلمات إلى النور.

وهذه النقلة النوعية التي عرفتها العرب لا لجنسهم ولا لغتهم ولا شجاعتهم، وإنما للنور الذي اهتدوا بهديه، نور الدين الإسلامي الذي إذا عرفه القلب أشعل محرك الجوارح، فاندفعت نحو العمل والإصلاح.

فقد سقى النبي هذه الجماعة الأولى التي كانت خير أمة أخرجت للناس من ينبوع الحياة، ذلك الشلال الدافق الذي لا يغرز ولا ينضب ماؤه، إنه ينبوع الإيمان، نعم الإيمان الصادق الذي ترجم في العقيدة الإسلامية؛ وهو جوهر الدين الإسلامي كله ⁽¹⁾، فالعقيدة هي القضية الأولى التي ليس وراءها شيء في حياة الإنسان إلا ويقوم عليها من المقتضيات والتفريعات ⁽²⁾، ولهذا أولها النبي اهتماما كبيرا فقد مكث في ترسيخها ثلاثة عشرة سنة في مكة، وهو يدعو إلى مقتضياتها وينفثها في روع صحابته، حتى أشربتها نفوسهم وأيقنتها قلوبهم ووعتها عقولهم، فتحرّكت جوارحهم بمفادها ⁽³⁾، فقد حرّك النبي صلى الله عليه وسلم، وفجّر طاقات الإنسان البشري المغمورة فيه، بهذا الدين المتمثل في جوهره الأساس الإيمان بالله بكل ما يحمل معنى الإيمان في كلياته وجزيئاته، فالإيمان هو القضية الأولى التي يتمحور حولها أي القرآن الكريم كلها، بل إنّ الإيمان هو القضية المصيرية بالنسبة إلى الإنسان والتي عليها تبنى سعادته أو شقاوته ⁽⁴⁾.

فالإيمان هو نقطة الفصل في التغيير الذي يحدثه الإنسان فوق هذه الأرض، فقد جاء في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: 53]، فقد جاء في بعض كتب التفسير في بيان هذه الآية أنّ الله لا ينزع نعمة من قوم ولا يعطي الخير إلا بسبب ما في أنفس الناس من الإيمان أو الكفر، فالإيمان موجب للنعمة والكفر موجب للنقمة والخسران ⁽⁵⁾، فقد أودع الله من باب السنن الإلهية قوانين تتحكّم في حركة الإنسان فوق هذه المعمورة، فمجال الحركة

(1) _سيد قطب، معالم في الطريق، دار الشروق، لقاهرة، ط6، 1979، ص ص 10-11.

(2) _المرجع نفسه، ص 21.

(3) _ارجع إلى خالد بن عبد الله القرشي، تربية النبي لأصحابه، مرجع سابق، ص 29 وما بعدها.

(4) _يوسف القرضاوي، الإيمان والحياة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط4، 1979م، ص 5.

(5) _الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ج10، ص 45.

والتغيير بيد هذا الكائن البشري، وذلك بسعيه نحو الخير والصّلاح.

إن التغيير الذي يودعه الإنسان بأعماله وتحركاته يكون جزاءه وفق المعادلة التي طرحها الله في كتابه قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11]، فثمرة هذه الحركة التغييرية وجزاءها مرهون بما هو في النفس البشرية من إيمان وكفر، فإن جاءت حركة الإنسان التغييرية تحت الكفر والعصيان والتمرد على القوانين الإلهية، كان عقبة هذا التغيير الخسران والفساد، حتى وإن طال بها الأمد فنهايتها ومصيرها النّقمة في الدنيا والآخرة، ولقد ضرب الله لنا في كتابه العديد من القصص القرآنيّ حول حركة الإنسان في هذا المضمار من قوم عاد وثمود وفرعون، الذين أحدثوا العجائب من الصّنع والتقدّم والتطوّر في زمانهم، فما كانت نهايتهم ونهاية تغييرهم؟

وبالمثل إن كانت حركة الإنسان التغييرية تحت الإيمان والالتزام والطاعة، كان عاقبة هذا التغيير الصّلاح والفلاح والنعمة، وإن تأخر ظهورها وبروزها، وهذا ما حدث مع نبي الرحمة محمد ﷺ، فقد أثمرت حركته التغييرية بمجتمع العرب إلى قيادة العالم بأسره.

وبالتالي فالإيمان هو الأساس والحرك الأول لأي عملية تغييرية تكون وفق السنن الإلهية الربانية التي تتحكّم في قوانين الكون بما فيها حركة الإنسان، فالمفتاح الذي يقود هذا الإنسان نحو التغيير بمنظور إسلامي، نحو السيادة والريادية، هو الإيمان الذي فجّر طاقات الإنسان نحو الصّلاح والخير⁽¹⁾.

نحن لا نتكلم عن أي إيمان، إنما عن الإيمان الذي يشعّ نوره في قلب المرء فيثمر معه عملا واقعا يتجسّد في أفعال المرء في كلّ جوانب حياته.

والم تأمل في آي القرآن الكريم التي تتحدث عن الإيمان تجد جلها مقرونة بالعمل الصّالح ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [سورة البقرة: 82].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [يونس: 9].

(1) يوسف القرضاوي، الإيمان والحياة، مرجع سابق، ص 12.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ۖ﴾ [الرعد: 29]

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [فصلت: 8]

وغيرها الكثير من الآيات التي تدعو إلى الإيمان وتقرنه بالعمل، فالإيمان في الإسلام ليس فكرة مجردة كما هي في الفلسفات، إنما الإيمان الصادق الذي يدعو إليه الإسلام يشع ويثمر عملا صالحا نافعا⁽¹⁾، والذي يكون عليه الجزاء والحسن في الدنيا والآخرة.

وحركة الإنسان التغييرية التي هي جزء من معادلة الله، جعلها سنة من سننه تعالى، يحكم بها على سير حركة هذا الكائن البشري فوق معمورته تعالى، مفادها أن الله لا يغير من أحوال الأقوام ولا يجازيهم إلا بما في صدورهم وما كسبت أيدهم من أعمال وإنجازات.

فطرف المعادلة الأول يتحدث عن ما بنفس الإنسان من إيمان، والذي بدوره يصدر من خلاله كل حركات الإنسان وسكناته، والطرف الثاني من المعادلة ما يقع من جزاء وعقاب، نعمة أو نقمة من عند الله إنما سببه ونتاجه الطرف الأول من المعادلة.

وإذا ما قمنا في آيات الله نجد الله تعالى يثني على أصحاب الإيمان الذين عملوا خيرا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ۖ﴾ [البينة: 07]، وتجده تعالى في كتابه العزيز يفرق بين الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وبين المفسدين الكافرين ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: 28]

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [غافر: 58]، وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [سورة الجاثية: 21].

ومن خلال ما ذكرناه يمكننا أن نستخلص ونستنتج، أن الإيمان هو الأساس الأول الذي يقوم عليه حركة الإنسان التغييرية نحو الصلاح والفلاح ونيل الأجر في الدنيا والآخر، ولقد أعلنها الله صراحة

(1) _المرجع نفسه، ص 22 وما بعدها.

في كتابه العزيز على أن الإيمان والعمل الصالح هو سبب الاستخلاف والتمكين في هذه الدنيا في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور: 55].

وبالتالي فالإيمان هو الأساس الأول للتغيير والتمكين والاستخلاف والسيادة....، ومن هنا يدخل الشك والطعن من الكثيرين بسؤالهم فما بال حال الدول الإسلامية اليوم أليست هي على دين الحق، ألا تملك الإيمان الذي تتحدثون عنه؟

فانجر الكثيرون وراء هذا الشك وقبلوا مقولة أن "الذين أفيون الشعوب"، فراحوا يبحثون عن الحلول للخروج من أزمتهم في مناهج وفلسفات أنتجت عقول أجنبية عن هذا الدين، عقول لم تعنى معنى الإسلام الحقيقي، والإيمان الصادق⁽¹⁾ الفعال، فجوابي على سؤالهم بسؤال فما هو حال إيمان المسلمين اليوم؟

إيمان الشعوب المسلمة اليوم، إيمان المقلد، إيمان الغافل، الإيمان المغيب عن التفعيل، فإيمان المسلمين اليوم لا يرتقي إلى مستوى التغيير المطلوب، وهذا التغيير المطلوب جاء بصيغة الأمر الجماعي ﴿حَتَّىٰ يَغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11]، فالإيمان المنشود من المسلمين هو إيمان الجماعة، أي أن يفعل إيمان كل فرد في نفسه لينتج عنه عمل صالح لشخصه ولمن حوله، وهذا نبينا محمد ﷺ لم تبرز حركته التغييرية إلى السيادة والحكم، إلا في قالب الجماعة حين انتقل وهاجر إلى المدينة أين كون جماعة المسلمين المؤمنين الأوائل، الذي شع من كل واحد منهم نور الإيمان فلتفوا حول بعضهم تاركين كل خلافتهم همهم نصر دين الله واعلاء كلمة التوحيد.

فَمَرَضُ المسلمين اليوم يكمن في طريقة إيمانهم، فإيمانهم مقلد أعمى أصم فهذا النوع من الإيمان لا ينتج عملا ولا يحرك ساكنا⁽²⁾.

(1) _ارجع إلى: يوسف العظم، الإيمان وأثره في نخضة الشعوب، تقديم سيد قطب، الدار السعودية للنشر والتوزيع، (دب)، (دت)، (دط)، ص 8 وما بعدها.

(2) _ارجع إلى: جودت سعيد، حتى يغيروا ما بأنفسهم، تقديم، مالك بن نبي، مؤسسة الأهرام، القاهرة، ط8، 1989م/ وأنظر: عمار جيدل، ماهية الانسان من خلال رسائل النور، مرجع سابق.

وإذا ما عدنا إلى شخصيتنا الأمير عبد القادر التي انطلقنا منه لكي نخرج منها الأسس التي قادته إلى التغيير، فعرّفنا أن الأساس الأول الذي تحرك الأمير من خلاله هو قوة إيمانه وشدة تدينه والتزامه.

فإيمان الأمير عبد القادر تبرز منه روح القوة والعمل، ولقد تلقى مبادئ هذا الدين والإيمان على يد أسرته في صباه، ولكنه زاد إيمانه بالنظر والبحث والتأمل بعيداً عن التقليد الأعمى، وإذا ما طلعنا كتب الأمير عبد القادر فإنها تظهر لك هذه الصبغة بارزة وواضحة جلية، وعلى سبيل المثال كتابه المقرّض الحاد الذي فصله على نهج الفلاسفة والمتكلمين فقد أراد من خلاله أن يثبت الألوهية لله تعالى تعالى وحده، وذلك بتمعين النظر في مخلوقات الله ودقة الخلق للوصول إلى الخالق الواحد⁽¹⁾، كما أنه أبرز فيه صدق النبوة وأراد اثباتها بالدليل والنظر وبين أهمية الأنبياء ونهجهم في تبيان الصحيح من الخاطئ للناس وبين أن طريقهم يقود إلى الفلاح⁽²⁾.

وبالتمعن في كتابه المواقف الذي فصله على نهج المتصوفة، الذي كان نتاج التجربة والنظر معا الذي ارتقى فيه الأمير إلى المكاشفة، ترى من خلاله رقى إيمان الأمير الذي ما عَادَ يرى في الوجود سوى الخالق، وأن سكناته وحركاته كلها تعود إلى الله الواحد المبدع في خلقه (بعيدا عن الحلول والاتحاد.... كما يقول هو، لأن الأمير لم ينفي في كتابه شيء من الدين، وإنما تجده يركز ويبحث على اتباع الشريعة بكتابها القرآن وسنة النبي ﷺ، وإن في الالتزام بهما طوق لنجاة في الدنيا والآخرة⁽³⁾، كما أننا نجد الأمير في كتابه لا يغيب الأسباب التي تتحكم في قوانين سير هذا الكون فمن الحكمة والكمال الأخذ بها ومن تمام الجهل تعطيلها⁽⁴⁾.

فإيمان الأمير عبد القادر ليس إيمان مقلد فقط، بل هو إيمان يقيني على بصيرة وبينة، وهذا هو الإيمان الذي يثمر في نفس صاحبه العمل، فكلما ارتقى الإنسان في إيمانه وازداد في نفسه اليقين بالله تعالى وبما عنده من الحق، جاءت معه نتيجة مثمرة في سلوك الإنسان وأفعاله.

ولكي يرقى الإنسان إلى هذه الدرجة من الإيمان اليقيني الصادق، فقد وهبه الله ملكات تأهله

(1) _ الأمير عبد القادر، رسالة المقرّض الحاد، مرجع سابق، ص 86 وما بعدها.

(2) _ الأمير عبد القادر، رسالة المقرّض الحاد، مرجع سابق، ص 107 وما بعدها.

(3) _ الأمير عبد القادر، المواقف، ج 1، ص 128.

(4) _ المرجع نفسه، ج 2، ص 197، / وانظر إلى: رسالة المقرّض حاد، مرجع سابق، ص 95.

للازدياء والعلو والسمو إلى هذه الدرجة من الإيمان، فقد اعطاه الله العقل الذي يستطيع من خلاله التفكير والتحليل وولوج باب العلم الذي يفتح للإنسان أفاق غير محدودة، وهذا هو الأساس الثاني الذي نفصله فيما يلي:

ثانيا: الأساس الثاني "قوة العقل والعلم":

عُرف الأمير عبد القادر بقوة العقل ورجاحته⁽¹⁾، وسعه المعرفية⁽²⁾ لديه التي تنوعت في مختلف العلوم، ولقد كان شغوفاً ومحباً لطلب العلم ناهلاً من الكتب والعلماء⁽³⁾، ولقد اعتنى في فترة توليه الإمارة بالجانب التعليمي الثقافي في دولته وأعطاه الأهمية الكبرى لمعرفته لما للعلم من دور في نهضة الشعوب وقوتها⁽⁴⁾.

وإذا ما طالعت كتب الأمير عبد القادر تجده يتحدث وبشكل واسع عن العقل والعلم مبرزاً دورهما في كمال الإنسان، وتسير حياته على أساسهما.

فها هو الأمير يُعرف العقل بأنه منبع للعلم والمعرفة، وجعل منه وسيلة لتحقيق الإنسان لسعادته في الدنيا والآخرة، وبهذا العقل نال الإنسان الأفضلية على سائر المخلوقات، فأخص ما اتصف به الإنسان هو العقل وبه نال الكمال الإنساني، فالله سبحانه وتعالى ميز الإنسان بالعقل والإدراك معا⁽⁵⁾.

وإذا ما تحدثنا عن العقل فبالضرورة تحدثنا نقرن معه المعرفة والعلم، لأن العقل من دون المعرفة والعلم لا يساوي شيء، فقد جعل الأمير العقل عند الحيوان غريزة وعند الإنسان إدراك وعلم⁽⁶⁾.

ولقد ذكر الأمير عبد القادر في كتابه المقرض الحاد بأن الله خص الإنسان بالعلم والمعرفة ووهبه العقل والإرادة، فإذا ما أحسن الإنسان استغلال هذه القدرات التي نفثت فيه، واجمع قواه في إظهار ما اختص به على الشكل الصحيح، وذلك بتحصيل العلوم والعمل النافع الصالح، فإن الإنسان يرتقي

(1) _مُجد بركات، مرجع سابق، ص 19.

(2) _يحي بوعزيز، الأمير عبد القادر، رائد الكفاح الجزائري، مرجع سابق، ص 193.

(3) _أنظر: مُجد بركات الأمير عبد القادر، المجاهد الصوفي، ص 10 وما بعدها.

(4) _مُجد بركات الأمير عبد القادر، المجاهد الصوفي، ص 20.

(5) _الأمير عبد القادر، المقرض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الاسلام بالباطل والإلحاد، مرجع سابق، ص 78.

(6) _المرجع نفسه، ص 80.

بذلك إلى درجة الملائكة، ومن صرف نفسه عن هذه القوى التي اختص بها واتبع غرائزه وملذاته وشهواته فإن الإنسان ينحط إلى مرتبة البهائم⁽¹⁾.

والعقل عند الأمير عبد القادر هو ذلك الذي أخذ بنفسه إلى درجة الكمال التي يستطيع الإنسان اللحاق بها، إذا ما اتصف وتخلق بالصورة التي خلق عليها، ولا كمال إلا إذا نال من المعرفة الحظ الوافر التي تأهله إلى هذه المرتبة⁽²⁾.

وإذا ما وصل الإنسان إلى المعرفة الحقة التي ينال بها الكمال، فقد هيا الإنسان لكي ينال درجة الخلافة التي من أجلها خلق، فالخلافة لا تكون إلا للعارف المتخلق⁽³⁾.

ولا معرفة ولا علم إلا بدرجة التعقل التي خلق بها الإنسان، وبالتالي على هذا الكائن أن يعمل هذه الملكة التي خلقها الله فيه، والتي من أجلها استحق الخلافة على هذه الأرض.

وكل إنسان في الحقيقة قابل لهذه الدرجة، وتبرز منه إذا ما استطاع اخراج هذه المكونات والملكات التي وهبها الله لهذا الكائن البشري، ولذلك فإن فعل التعقل عند الإنسان والذي محله العقل والفؤاد، فهو وسيلة⁽⁴⁾ لكي يصل به الإنسان إلى الإيمان الصادق، وذلك من خلال التأمل والتفكير والتدبر في هذه المخلوقات التي جعلها الله دلالة على قدرته⁽⁵⁾.

فالخلافة عند الأمير مشروطة بالتخلق والمعرفة والإيمان، فالتخلق هو التحقق والاتصاف بالصورة التي خلق عليها الإنسان (الظاهر والباطن)، ولا تخلق إلا بالمعرفة التي تتيح للإنسان معرفة ذاته وما يحيط به، وإذا ما تحققت له هذه المعرفة استطاع أن يدرك حقيقة خالقه التي هي أسمى المعارف⁽⁶⁾، وأجلها والتي من خلالها تكون حركة هذا الإنسان، وإذا ما وصل إلى هذه المرتبة من المعرفة استطاع الإنسان أن يتقين من صدق إيمانه الذي هو فطرته التي فطر عليها، فينتج عن هذا الإيمان ثمرة عمل صالح يقود به الإنسان حركته الخلافية نحو مرد الله، وهذا العمل إنما يحرك بالأساس الأول الإيمان، والإيمان يزداد يقينه

(1) _ المرجع نفسه، ص 82.

(2) _ الأمير عبد القادر، المواقف، مرجع سابق، ج 1، ص 123.

(3) _ المرجع نفسه، ج 1، ص 124.

(4) _ الأمير عبد القادر، ذكر العاقل، مرجع سابق، ص 14 وما بعدها.

(5) _ الأمير عبد القادر، المقرض الحاد، مرجع سابق، ص 80 وما بعدها.

(6) _ ارجع إلى الأمير عبد القادر، المواقف، مرجع سابق، ج 1، ص 120، ص 185، ص 204.

بفعل التعقل والعلم، فإعمال العقل وتحصيل العلوم هما الأساس الثاني الذي يقود من خلاهما الإنسان أفعاله فوق هذه الأرض.

وفي الحقيقة إن هذا الأساس الثاني (قوة العقل والعلم) الذي هو سبيل لتحقيق التغيير يملكه المؤمن والكافر على حد سواء، إلا أنه لا يبرز ولا يظهر إلا بتفعيله وذلك من خلال استغلال الملكات والمواهب التي أعطيت للإنسان والتي بها أستحق الخلافة.

ومع كل ما للعقل من قوة في الإدراك والتمييز، إلا أنه يبقى عاجزًا وقاصرًا عن إدراك كل الحقائق، وخاصة تلك التي تتعلق بالغيب والمجهول، فحد استعمال العقل فيما هو ظاهر بارز للعيان وفي هذا الكون الفسيح من كشف الأسرار وتدليل القوانين التي تساعد على الإعمار والخلافة، ولهذا فإن العقل محتاج إلى نور يستنير منه، لكي يكون فعله التعقلي وفهمه وعلمه على المراد الذي يوافق لما خلق له، وذلك النور هو نور الوحي الرباني الذي يزيد للعقل والعلم قوة تضيئ طريق الإنسان نحو الصلاح والفلاح⁽¹⁾.

وفي الحقيقة إن هذا الأساس الثاني _قوة العقل والعلم_ الذي استخرجناه واستنتجناه من شخصية الأمير عبد القادر ومن خلال مطالعنا لكتبه، فإنه ليس ابتكارًا جديدًا من قبل الأمير، بل هو تمثّلٌ منه لأوامر الله التي فهمها ووعاها من الخطاب القرآني الذي بث فيه الله كل ما يقود هذا الكائن البشري نحو التغيير إلى الأفضل.

إذ أن الله في كتابه يدعو إلى تحقيق هذا الأساس مند أول الآيات نزولا، وذلك بالدعوة إلى تحقيق العلم في قوله تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: 1-5].

وكم هي كثيرة تلك الآيات التي تدعو إلى إعمال العقل والتفكير والتأمل وتحت عليه في سور القرآن الكريم جلها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 242] وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: 2].

(1) _الأمير عبد القادر، رسالة المقرض الحاد، مرجع سابق، ص 85/ انظر: ذكرى العاقل، ص 53.

وجاء في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ﴾ [يونس 24] وقوله سبحانه وتعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّدَّبَرُواْ ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُواْ الْأَلْبَابِ﴾ [سورة ص 29] وقوله عز وجل: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءَاذَانٌ يَّسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: 46] وغيرها الكثير من الآيات التي لا يمكن حصرها في محل واحد، والتي مفادها إعمال العقل.

فالأمير عبد القادر فهم هذه الآيات وهذا الخطاب الذي يحث ويدعوا إلى إعمال العقل وتحصيل العلم والذي من خلاله يكون تحرك الإنسان، فقد حفظ الأمير كتاب الله في الثانية عشر وأخذ العلم من أفواه العلماء في زمانه، وكان شغوفاً لمطالعة الكتب ناهلاً منها العلم، فجاء جهاده مرهون بالعلم⁽¹⁾، فقد بدأ الأمير حياته كلها بالعلم وختم حياته به⁽²⁾.

ولقد حرك الإسلام بكتابه وهدى نبيه في هذه الأمة، المواهب والملكات التي أودعها الله في الإنسان، وأضاء لها الطريق فتحركوا بنوره إلى السيادة والريادة، فكانت الصفوة الأولى من الصحابة والتابعين خير خلفاء في الأرض بوعيتهم الصحيح، لهذه الأسس التي بثها الله في كتابه العزيز⁽³⁾.

فَعَلِمَ الأوائل بأن قوة العقل والعلم سبيل استخلاف الإنسان وعمارته على وجه هذه المعمورة فبتحقيقه سادوا وقادوا، ويترك الأجيال بعدهم له خابوا ودانوا وانقادوا.

فنحن هنا نتكلم عن قوة العقل والعلم الذي يوصل صاحبه إلى اليقين بالله، أي الذي يعزز ويقوي الأساس الأول الإيمان الذي هو المحرك والطاقة الكامنة التي فطر الله عليها الإنسان والتي إن حُرِّكت وفُجرت صنع معها الإنسان العجائب في خلافته والتي بها يحق له أن يُستخلف.

وهذا لا ينفي أن يُستعمل هذا الأساس (قوة العقل والعلم)، وكل القدرات التي أعطيت للإنسان في شتى العلوم الأخرى النافعة، التي تكشف وتذلل القوانين، بل هي من صميم وظائف الإنسان لتحقيق عمارته، وتجسد الأمير عبد القادر ينوه إلى هذه النقطة من خلال الحث على الأخذ بالعلوم العقلية والعلوم

(1) _ بن السبع عبد الرزاق ، مرجع سابق، ص 25 وما بعدها.

(2) _ الأمير عبد القادر، ذكرى العاقل، مرجع سابق، ص 8.

(3) _ ارجع إلى: مُجد قطب، منهج التربية الإسلامية، مرجع سابق، ج 2، ص 8.

الشرعية، وأنه لا تعارض بينهما وبهما يكون للإنسان القدرة على الخلافة الصحيحة التي تقود البشرية إلى الصلاح والفلاح⁽¹⁾.

والتأمل في حال البشرية اليوم، فإنه يعرف مدى أهمية هذا الأساس الثاني وخطورته، فإذا ما ألقينا نظرة إلى ما وصل إليه غيرنا من تفوق حضاري مادي راجع إلى اعمال هذا الأساس في تدليل القوانين والسنن لخدمة مصالحه، وإذا ما طالعنا إلى حال الأمة الإسلامية وما آلت إليه من تراجع وانحطاط في مجالها العلمي، فإننا ندرك الفارق الكبير بين الطرفين، وهذا راجع إلى غياب هذا الأساس (قوة العقل والعلم) عندنا أمة اقرأ، التي تخلت عن قراءتها التي سطرها لها ربها في دستوره القرآني، تلك القراءة التي تجمع بين العلم والإيمان، التي إذا ما فصل بينهما جاء علم الإنسان مبتورا أعرجًا، وهذا حال الحضارة الغربية اليوم، فهي مع كل ما تملكه من قوة العلم إلا أن قيادتها عمياء عرجاء، تتخبط في ظلام الشهوات والملذات، واسقطت الإنسان من عرش كرامته وانحدرت به إلى درك الحيوانية في أرذل صورها، وذلك لغياب المنهج النوراني الذي يقود هذا الأساس إلى هدفه ومرماه الصحيح، والذي من أجله وُهب الإنسان كل هذه الملكات.

وها هو أميرنا يسير على خطى أسلافنا الأوائل الذين استوعبوا خطاب الله الداعي إلى أعمال العقل وولوج باب العلم.

ولقد أحسن المسلمون الأوائل الفهم الصحيح في الجمع بين اعمال العقل والعلم وصحيح النقل لأنه لا تعارض بينهما، بل إن القراءة الصحيحة لآيات الله الكونية والقرآنية توصل إلى اليقين بالله الحق، فيزداد الإيمان الذي يعد المحرك الأول للإنسان الذي يقود العقل والعلم نحو الفلاح والصلاح.

وهاهم علماءنا الأجلاء قد بينوا لنا دور العقل وأهميته للإنسان، فقد فاضت مكتبتنا الإسلامية بالكتب التي سيل فيها الخير ومازال يسيل في تبيان هذه المكانة المرموقة للعقل والعلم، الذي يعد من أهم الدعائم في تمكين الأمة وقيادتها.

ومن بين أولئك العلماء الذين تأثر بهم الأمير عبد القادر في تبيان أهمية ومكانة العقل والعلم أبي حامد الغزالي، فإننا نرى بوضوح مدى اقتباس وتشابه أقوال الأمير في كتابه المقرض الحاد، وكتابة ذكرى

(1) _ الأمير عبد القادر، ذكرى العاقل، مرجع سابق، ص 55.

العاقل بأقوال أبي حامد الغزالي ومن بين ما قاله أبي حامد الغزالي في العقل: "العقل منبع للعلم ومطلعه وأساسه، فالعلم يجري في العقل مثل مجرى الثمرة من الشجرة، ومثل النور في الشمس، ومثل الرؤية في العين، فالعقل هو وسيلة السعادة في الدنيا والآخرة، فالبهيمة مع قصور تميزها إلا أنها تحتشم للعقل، فإن أقوى الحيوانات ضراوة وأعظمها بدنا تهاب الإنسان وتخشاه لشعورها باستعلاء الإنسان عليها لما خصه الله من قوة إدراك الحيل (1)".

ومما قيل عن العقل في ثرائنا الإسلامي مما نزيد به حجة على أن هذا الأساس (قوة العقل والعلم) له دور في قيادة التغيير الذي يتحرك به الإنسان فوق هذه المعمورة، قول المحاسبي في كتابه فهم القرآن ومعانيه، الذي أبرز في مقدمته مكانة العقل الذي يشع منه نور العلم فقال "إن الله جعل العقول معادن الحكمة ومقتبس للآراء، ومستنبط الفهم ومعقل للعمل ونور للأبصار، إليه يأوي كل محصل، وبالعقل يستدل على ما أخبر به الوحي من علم الغيب، وبه تقدر الأعمال قبل كونها، وتعرف به عواقبها قبل وجودها، وبالعقل تُصدر الجوارح الأفعال بأمره فتسارع إلى طاعتها، أو ينهها ويَجرها فتمسك الجوارح عن مكروهاها (2)".

"فلا استغناء للعبد عن التفكير والنظر ليكثر اعتباره، وليزيد في عمله ويعلو فضله ومن قل تفكيره قل اعتباره، ومن قل اعتبره، قل عمله، ومن قل عمله كثر جهله، وإن نقصه لم يجد طعم البرّ، ولا برد اليقين ولا روح الحكمة" (3).

ولقد أجمع العلماء على أن العقل مناط التكليف (4)، ولولاه لما كان هناك شرع ولا رسالات ولا بُعث أنبياء، لأن العقل لكل فضيلة أسّ، ولكل أدب ينبوع، وهو الذي جعله الله للدين أصلاً، وللدنيا عماداً، فأوجب الله التكليف بكماله، وجعل الدنيا مدبرة بأحكامه، والعاقل أقرب إلى ربه تعالى من جميع المجتهدين بغير عقل (5).

(1) _أبي حامد الغزالي، احياء علوم الدين، مرجع سابق، ج 1، 83 بتصرف.

(2) _الحارث بن أسد المحاسبي، فهم القرآن ومعانيه، ت رمضان خالد أحمد (دد)، (دب)، ط 1، 2015، ص 65-66.

(3) _مُجد عمارة، مقام العقل في الإسلام، نخضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ط 1، 2008م، ص 84.

(4) _العز بن عبد السلام، ملحة الاعتقاد، دار البشائر، بيروت، ط 1، 1414، ص 22.

(5) _القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ت ابراهيم، البردوني، ابراهيم أطفيش، دار الكتب لمصرية، القاهرة، (دط)، 1384-1964م، ج 5، ص 261.

ولقد أبرز شيخ الإسلام ابن تيمية مكانة العقل في الإسلام فقد ذهب بأن "العقل هو شرط في معرفة العلوم، وبه كمال وصلاح الأعمال، وبالعقل يكمل العلم والعمل، ولا يصل العقل إلى هذه المرتبة من الكمال إلا إذا اتصل بنور الإيمان والقرآن، لأن العقل في الحقيقة غريزة وقوة في النفس يستطيع من خلالها التمييز والإدراك، مثله مثل قوة البصر في العين، فمن خللها يمكن أن يرى الإنسان ما يحيط له، ولا كن تحجب هذه القوة من البصر في العين ويُعطل بفقدان النور الذي يضئ فينير ما حوله فتتجلى حقيقة الأشياء للعين، فكذلك العقل تتجلى له الحقيقة بنور الوحي وهديه (1).

ولقد ذهب شيخ الإسلام بأن العقل لا يمكن أن نطلق عليه تسمية العلم مجردًا عن العمل كما لا يمكن أن نصفه بالعمل الذي لم يقرن بالعلم، بل إنما يطلق مسمى العقل على العلم الذي يعمل به، وعلى العمل بمقتضى العلم ولهذا قال أصحاب السعير في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [سورة الملك: 10]، فالعقل المشروط في التكليف؛ لابد أن يكون عالما يميز بما الإنسان بين ما ينفعه وبين ما يضره (2)، ولقد أبرز بأن العقل عند العرب عرض، فهو علم أو عمل بالعلم، وغريزة تقتضي ذلك (3)، وفي الحقيقة إن العقل يجمع بين هذه جميعا، فهو قوة وغريزة به يمتلك العلم، ومن خلاله يصدر العمل (4).

وهذا الأساس العقل والعلم بنمو ويزداد إن استعمل وينقص إن أهمل (5)، ونماء هذا العقل يكون بكثرة الاستعمال وكثرة التجارب وحسن الفطنة (6)، وفرط الذكاء، فكلما كثر استعمال العقل بالتفكير والتأمل وخوض التجارب، زاد عقل الإنسان بسبب ازدياد علومه.

وكم هي كثيرة تلك الكتب التي إذا ما أبحرنا في بطونها وسافرنا بين طياتها، وسرنا على أسطرها، لوجدنا علماءنا قد فصلوا في قضية العقل والعلم إما تفصيل، وذلك راجع إلى كثرة النصوص من القرآن

(1) _ ابن تيمية، مجموع الفتاوى، مرجع سابق، ج3، ص 339.

(2) _ ابن تيمية، مجموع الفتاوى، مرجع سابق، ج9، ص ص 286-287.

(3) _ ابن تيمية، درء تعارض العقل مع النقل، ت محمد شاد سالم، (دد)، المملكة السعودية، (دط)، 1411هـ-1991م، ج10، ص 302.

(4) _ ابن تيمية، مجموع الفتاوى، مرجع سابق، ج9، ص 287.

(5) _ الماوردي، أدب الدنيا والدين، دار الحياة، (دب)، (دط)، ت 1986م، ص 20.

(6) _ المرجع نفسه، ص 20-21.

والسنة التي تدعو إلى إعمال العقل والحث على طلب العلم، مما لا تسعنا هذه الورقات من أن ندرج كل أقوال علمائنا على اختلاف أقوالهم وأراءهم في قضية العقل والعلم، وإنما غرضنا من هذه الأسطر في هذه الورقات إنما إبراز هذا الأساس الثاني (قوة العقل والعلم)، والذي له الدور الكبير في حركة الإنسان التغييرية، فمن دون هذا الأساس يعد الإنسان مشلول الحركة، أو ينحدر بإنسانيته إلى درك الحيوانية التي تعيش وتتحرك لإشباع غرائزها فقط.

فبشروق الدين الإسلامي على البشرية فقد أحيى في الإنسان هذا الأساس، ودعاه وحثه على أعماله وكسبه، فالعقيدة الإسلامية وهي جوهر الدين فقد جاءت مبنية على هذا الأساس.

ولقد استوعب الأمير عبد القادر هذا الأساس، فقد تميز عن أقرانه في زمانه بقوة العقل ورجاحته، كما عرف بشغفه وحبه الشديد لطلب العلم والمعرفة، ولقد جاءت حركاته مسيرة من قبل هذا الأساس، ولقد برز من الأمير هذا الأساس على شكل أعمال واقعية دونت في صحائف التاريخ، ولقد بين هو بدوره أهمية العقل ومكانته وفضل العلم وشرفه في حياه الإنسان والبشرية جمعاء، وهذا واضح لمن يطالع كتبه.

ثالثا: الأساس الثالث "الالتزام بالأخلاق":

تتميز شخصيتنا المدروسة (الأمير عبد القادر) على أنها ذو طابع سلوكي عرفاني متميز، وعلى مستوى رفيع وعالي من الأخلاق الإسلامية الحميدة، فقد كان بادياً على الأمير هذه الأخلاق في أفعاله وتصرفاته في كل جوانب الحياة التي تقلب فيها.

فقد عرف في صباه بالشجاعة وقوة العقل وجرارة العلم وشدة التزامه وصلاحه، فلم يتنازل عن أخلاقه التي تحلى بها بعد اعتلائه لكرسي الإمارة في دولته، فقد زاده ذلك التزاما وتقيداً بمبادئ الدين الإسلامي، فقد شهد منه ودون عنه التزامه وانضباطه اتجاه مسؤولياته نحو هذا المنصب الذي تولاه، فالجاء والنفوذ والسلطة من أكبر الفتن التي تصيب المرء، والتي يمتحن من خلالها في سلوكه وأخلاقه، فلم يزد هذا المنصب في الأمير إلا شدة في الالتزام بتعاليم الدين الإسلامي، وقد برز منه ذلك في سلوكه وأخلاقه، ولعل عبارته التي قال لزوجته بعد توليه الإمارة كافية لتصوير مدى ارتفاع مستوى السلوك الأخلاقي المتجسدة في أرض الواقع، فلقد أعطى لزوجته كل الحرية والاختيار في البقاء معه أم لا، وذلك

لما سيشغله عنها وعن حقوقها لما تولاه من منصب ومسؤوليات تحملها اتجاه شعبه⁽¹⁾.

وهذا ما تجسد فعلا في أرض الواقع، فإنك ترى هذا الرجل نموذجاً في الأخلاق التي تمثلت في كل حركاته وسكناته.

وإذا ما أردنا أن نضرب مثالا واحداً عن هذه الأخلاق والقيم التي عرف بها وعمل من خلالها في دولته، لاستوقفنا خلق العدل الذي عرفت به دولته، وخاصة في جانبها القضائي الذي يمثل أعلى سلطة في الدولة، والذي من خلاله يظهر مستوى رقي وتطور أي دولة في العالم، بل إنه الخلق الذي أمر به الله في كتابه قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: 90].

وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة المائدة: 8].

ولقد تجسد هذا الخلق في هدى النبي ﷺ في أقوله وأفعاله، ولقد بنى عليه الصلاة والسلام قواعد الدولة الإسلامية على أساسه، وها هو الأمير يهتدى بنور القرآن والسنة على خطى السلف الصالح، فإن الأمير جسد قيمة العدل والمساواة من أول يوم بايعه فيه أهله وعشيرته، فقد نص قوانين دولته على أساس المبادئ الإسلامية⁽²⁾.

وكان شديد الحرص على تطبيق العدل بين جميع أفراد المجتمع، فقد كان سلكه القضائي الذي نظمته وعين أعضائه تحت إشرافه وعنايته الفائقة لكي يضمن هذا المبدأ وهذه القيمة للناس جميعاً⁽³⁾، ومع كل هذا الحرص إلا أنه كان يبعث في الأسواق والأرياف والمدن منادياً ينادي من كانت له مظلمة

(1) _انظر: بن السبع عبد الرزاق، الأمير عبد القادر وأدبه، مرجع سابق، ص 23.

(2) _ارجع إلى: علي الصلابي، كفاح الشعب الجزائري، مرجع سابق، ج 1، ص 365، / مُجَدِّ بركات، الأمير عبد القادر المجاهد الصوفي، مرجع سابق، ص 21.

(3) _علي صلابي، كفاح الشعب الجزائري، مرجع سابق، ج 1، ص 82 وما بعدها.

أو شكوى فليتقدم بها إليه شخصياً⁽¹⁾، ولو لم تكن هذه الشخصية (الأمير عبد القادر) على هذا المستوى والقدر الرفيع من الأخلاق الإسلامية العالية، لما شاع منه مثل هذا الحكم وهذا التصرف الذي قليلا ما يلتزم به الملوك والسلاطين بعد توليهم الحكم فيعرفون ويؤسم حكمهم بالظلم والجور.

ولقد بانت أخلاقه وزينت أكثر من خوضه للمعارك ضد أعدائه، فقد انبهر به عدوه واعترف بنبله وقوته وشجاعته، خاصة فيما يتعلق بقضيه الأسرى الذين ما رأوا من الأمير إلاّ العطف والحلم على غرار ما كان يصدر منهم من أفعالهم الشنيعة ضد هذا الشعب الأعزل.

فقد كان يقوم خاطبا وواعظا لشيخه حائهم على الخصال الحميدة⁽²⁾، مذكّره بتعاليم الإسلام وما جاء فيها من عدم قتل الأعزل أو هتك الصوامع أو قتل النساء والأطفال والشيخوخ، اقتداء بالرعيل الأوّل من الصحابة الكرام.

وبسبب هذه الأخلاق التي إنسّمت وإنسّمت في شخصية الأمير عبد القادر خلال جهاده ضد العدو الفرنسي وما قدمه من نيل الأخلاق في حرب، أعدّه الكثيرين من الباحثين والمفكرين بأنه من المساهمين في ارساء القانون الدولي الإنساني⁽³⁾.

وهذه الأخلاق التي برزت من الأمير عبد القادر كانت لها الدور الكبير في تسير شؤون دولته، وبعث روح الدين الإسلامي وتحسينه في أرض الواقع، من خلال الالتزام بتعاليم الدين الإسلامي بأفعال ملموسة مطبقة لا يتنافى فيها الحال الظاهري مع الباطن⁽⁴⁾.

وفي الحقيقة إن هذه الأخلاق التي اشتهرت عن الأمير لم تكن إلا في زمن توليه الإمارة، بل لقد اشتهر بها حتى بعد سقوط دولته في سجنه ومنافاة وتغريبه خارج البلاد، فتجده في منفاه لم يتسخط ويثور رغم مرارة وحسرة الخذلان، إلاّ أنه زاده الأمير صبّرا وحلماً وتضرعاً، ولقد عرف عنه في بلاد الشام بالرجل الصالح المصلح الورع التقي الزاهد العابد، فقد كان يرتحل إليه ويحتكم به لحل مشاكلهم

(1) _مُجد الأمين بوحلوفة، مرجع سابق، ص 182.

(2) _قلايلية العربي، البعد الانساني في شخصية الأمير عبد القادر الجزائري من خلال كتاب حياة الأمير، مجلة المعيار، الصادرة عن جامعة تسمسليت، ع1، ديسمبر 2010، ص 168.

(3) _ارجع إلى: عبد القادر دوحة، إسهام الأمير عبد القادر الجزائري في القانون الدولي الإنساني، مجلة المواقف ب للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، ع5، ديسمبر 2010.

(4) _يحي بوعزيز، مرجع سابق، ص 133.

ونزاعاتهم وخلافاتهم⁽¹⁾، ولعل الفتنة التي أصابت دمشق 1860م⁽²⁾، أكبر دليل على أخلاق الأمير التي يسمو من خلاله كل القيم والأخلاق والتعاليم في الدين الإسلامي.

فالأمير مثل نموذجًا زاهرًا حيًا عن هذه الأخلاق التي حجت بين طيات الكتب والتي تعالت فيها الأقلام للتنظير لها، حتى فاض الخبر في ابرازها، وفي الحقيقة هذه الأخلاق، هي أخلاق القرآن الكريم، أخلاق النبي ﷺ الذي مدحه ربه في كتابه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4] فالأمير كان متأسّ مقتدٍ بهدي الرسول الأمين عليه الصلاة والسلام.

وبعد هذا السرد البسيط عن الالتزام الأخلاقي الذي عرفت به شخصية الأمير عبد القادر، وتجسّدت في مواقفه ومحطّات حياته التاريخية، واعترف له بها كل من رآه أو سمع به من صديق أو عدو.

وعلى غرار هذا الالتزام الأخلاقي الواقعي، فإنّ الأمير لم يهمل تبیان هذا الجانب الأخلاقي في كتبه بل إنّه يدعو إلى أحياء هذا الجانب من الدين، وذلك بتزكية النفس وجهادها لإبراز خصاها الحميدة، فقد خصّص في كتابه المقراض الحاد باباً كاملاً للحديث عن أهميّة الأخلاق في حياة المجتمعات وبَيّن دور الإسلام في بيان هذه الأخلاق⁽³⁾، وأمّا كتابه المواقف فقد جاء فيه بيان دور التجربة السلوكية في صفاء النفس وتركيتها، والتحاقها بالكمال الأخلاقي الذي يمكن الإنسان الوصول إليه⁽⁴⁾.

إنّ الأمير عبد القادر صاحب تجربة صوفية، مارس فيها تزكية النفس والعلو بها إلى مصافي الأخلاق، غير أنّ تصوّفه لم يكن فيه بعيداً منعزلاً عن الواقع الذي يعيشه، بل كان في لبّ الحياة الواقعية⁽⁵⁾، فقد جاءت حركاته وأفعاله من لبّ وعمق هذه التجربة التي مزجها بواقعية مثاليّة، تجسّدت فيها روح الإسلام المتمثلة في الأخلاق.

إنّ هذا الأساس المتمثّل في الالتزام بالأخلاقي الذي استنبطاه من شخصيتنا الأمير عبد القادر ليس وليد هذه الشّخصية أو المنحصر فيها؛ لأنّ عنوان الأخلاق هو محلّ دراسات الفلسفة والفكر منذ

(1) _ارجع إلى: حرشوش كريمة، الأمير عبد القادر في ربوع الشام وموقفه من الفتنة الطائفية، 1856م-1860م، مجلة عصور، ع1، مج19، جوان 2020م، ص 43.

(2) _المرجع نفسه، ص 44.

(3) _ الأمير عبد القادر، رسالة القراض الحاد، مرجع سابق، ص 129.

(4) _ الأمير عبد القادر، المواقف، مرجع سابق، ج1، ص 193، ص 238.

(5) _مُجد بركات، مرجع سابق، ص 5-6.

القديم، فقد شغل مبحث الأخلاق والقيم تفكير العلماء والفلاسفة عبر العصور، وإنّ التراث الإنسانيّ بزخمه المتنوّع في الآراء والمذاهب قد فصلوا في هذا الباب كلّ حسب ما جاد به اعتقاده ورأيه.

وليس غرضنا هنا إبراز الآراء والمباحث التي تناولها الفكر البشريّ إزاء هذه القضية (الأخلاق)، وإنما مقصدنا إبراز أهمية هذا الأساس المتمثّل في (الالتزام بالأخلاق)، ودوره في عملية التغيير.

تمثّل الأخلاق في كلّ أمة مادة بنائها، وهي الأساس في تقدّمها، وتعدّ رمز حضارتها، وهي ثمرة عقيدتها ومبادئها⁽¹⁾، فالأخلاق شرط في دوام الحياة الاجتماعية وتقدّم الحضارة⁽²⁾، ولقد جاء الإسلام بتعاليمه السّميحة مرسّخا هذا الجانب العملي السلوكي الأخلاقي في النّفس البشريّة، ودعا الإنسان إلى الالتزام الأخلاقي مبيناً دوره ومجّاله في التغيير، وإذا ما حاولنا تقريب الآيات القرآنية من بعضها البعض لو صلنا أنّ التغيير منوط بعملية الالتزام الأخلاقيّ، فقد جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [سورة الرعد: 11]، فقد بيّن الله أن التغيير مرهون بالنفس الإنسانيّة، ولقد دعى الله هذه النفس في محكم تنزيله إلى تركيتها وتطهيرها فقد قال عزو جل: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: 7-10]، فالإنسان بحكم خلقته التي خلق عليها (قبضة الطّين، ونفخة الرّوح)، فإنّه يعرج في حياته بين دركات الطّين وسموّ نفخة الرّوح، فله الاستعداد المزدوج بين الخير والشرّ، فهو قادر بما ميزه الله من ملكات أن يقدر على الخير والشرّ، كما أنّه قادر باختياره على توجيه نفسه إلى أحد السبيلين، مع مسؤولية كاملة اتّجاه هذا الاختيار، وقد أثني الله على من أفلح في اختياره بتركيّة هذه النفس، وقد ذمّ الله وخيب من يقودها إلى دنسها⁽³⁾.

وبسبب هذا الاختيار بين التركيّة والدّنس، تترتب على الإنسان بتعبية مصيره الذي جعله الله بين يديه ضمن إطار المشيئة الإلهيّة الكبرى، التي شاءت لهذا الإنسان أن يكون حرّاً في الاختيار، وأنّ التغيير الجذري والتبديل من حال الإنسان والأمم المتمثّل في شكل النّعم، أو النّقم، والصّلاح أو الفساد، البقاء

(1) _ كايّد قرعوش وآخرون، الأخلاق في الاسلام، دار المنهاج، الأردن، ط2، 2001م، ص 13.

(2) _ مقداد يالجن، علم الأخلاق الإسلامية، دار علم الكتب، الرياض، ط1، 1992م، ص

(3) _ انظر إلى: سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ج6، ص ص 3917-3918.

أو الزوال، السيادة أو التبعية...، إنما هو نتاج لتصرفات هذا الإنسان بنفسه⁽¹⁾.

ولقد بين الله فضله ومنته على هذه الأمة بأن بعث فيها رسولا يعلمهم ويذكرهم ويخرجهم مما كانوا عليه من ظلمات ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة آل عمران: 164] وقال عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة الجمعة: 2]، صحيح أن الخطاب موجه إلى الجماعة الأولى التي صحبت رسول الله وكان خاصا بهم، إلا أن لامتنان والفضل يعود على البشرية جمعاء، إذ أن النبي صلوات الله عليه أنار بهديه ورسالته الخاتمة الخالدة البشرية قاطبة ودون استثناء، والمتأمل للحال التي آلت إليه البشرية من انحلال وفساد وتخبطها في دركات المادة، يرى مدى جهلها وأميتها رغم سمو مكانة العلم فيها، وقوة وهيمنة التطورات التكنولوجية والعلمية في شتى مجالاتها، وكذا تمكن البشرية اليوم من فرض قوتها التسخيرية لخيرات هذا الكون، ومدى امتلاكها لوسائل الرفاهية، إلا أن البشرية اليوم تتخبط وتموج في أسفل السافلين من انحراف الفطرة وانحلال الأخلاق، حتى أصبح الإنسان يمثل الصورة الحيوانية في أبشع صورها.

وجاء في قوله تعالى: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ في الآيات التي أوردناها آنفا بمعنى: يطهرهم من رذائل الأخلاق ودنس النفوس وأفعال الجاهلية، ويخرجهم من الظلمات إلى النور⁽²⁾، والبشرية اليوم في أشد جهلها وظلماتها، فهي تحتاج إلى النور الذي ينقدها من تيهها وضياعها، كما أنقذ النبي هذه الأمة، والجماعة الأولى من الظلمات التي كانت تتخبط فيها، فالجانب الأخلاقي الذي عمل النبي صلى الله عليه وسلم في إبرازه وتطهيره وتركيبته في مجتمع الصحابة الأول، كان السبب الرئيس في بعث روح الإسلام على أرض الواقع؛ إذ أن الأخلاق تمثل الجانب الباطني للإنسان، ومن تعريفات الخلق هو صورة الإنسان الباطنة، وهي نفسه وأوصافها ومعانها المختصة بها، بمنزلة الخلق لصورته الظاهرة⁽³⁾.

(1) _المرجع نفسه، ج6، ص 3918.

(2) _انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج1، ص 464.

(3) _سعيد القحطاني، الأخلاق في الإسلام، (دد)، (دب)، ط1، 2015م، ج1، ص 5.

وقد اعتنى النبي ﷺ أيما اعتناء بهذا الجانب الأخلاقي، فقد ربي جيل الصحابة على أنّ الخلق جزء من الإيمان ولا ينفك عنه بل هو أساس بعثته ﷺ الذي قرره في قوله "إنما بعث لأتمم كرم الأخلاق"⁽¹⁾، ولقد جعل الخلق من أعلى درجات الإيمان في قوله "أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا"⁽²⁾، وجعل معيار التفاضل بين الناس أكثرهم وأحسنهم أخلاقا في قوله "إنّ من خياركم أحسنكم أخلاقا"⁽³⁾، وأبرز ﷺ على أن ما من شيء أعظم من القربات من حسن الخلق في قوله "ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيمة من حسن الخلق"⁽⁴⁾، بل إنّ النبي جعل الخير والبركات والصّلاح في حسن الخلق حين قال "البر حسن الخلق"⁽⁵⁾، فقد أخرج النبي بنور القرآن وما فيه من دعوة للامتثال بالأخلاق والالتزام بها، وما جاء في هديه بتربيته لصحابته على مبدأ الأخلاق، أمة قادت البشرية نحو الكمال الأخلاقي في أعلى صورة للإنسانية.

فأخيا الإسلام برسائله وهدى نبيه، هذه الرّوح وزكاها وقادها إلى فاعليتها، وأرجع البشرية إلى الفطرة السّوية من حبّ الخير وبدل العمل الصّالح، ولا يكون لها ذلك إلّا (بتزكية النفس) الالتزام بالأخلاق، الذي يعدّ أساسا في بناء الكيان الإنساني⁽⁶⁾، الذي يقوم عليه سلوك الإنساني في الحياة الواقعية، فالأخلاق أساس الفلاح ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّهَا﴾^(١) بل هي أساس للفلاح الفردي والجماعي، فهي عنصر فعّال في بناء المجتمعات الإنسانية سواء أكانت مسلمة أم لا، فبلاء الأمم السابقة لم يكن في ضعفها المادي أو في قلة إنجازاتها العلمية، بل إنّ سبب سقوطها وتلاشيها كان قائما على أساس أخلاقي إيماني⁽⁷⁾، فقد جاء في قوله تعالى: ﴿وَلِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾^(١١) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ

(1) _البیهقي، السنن الكبرى، ت محمد عبد القادر عطا، دار اکتب العلمیة، بیروت، ط3، 1424، 2003م، ج10، ص 323، باب مکارم الأخلاق، رقم الحديث، 20782.

(2) _أبو داود سليمان، سننه (سنن أبي داود) ت: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية صيدا، بیروت، (دط)، (دت)، ج4، ص 220، باب الدلیل على زیادة الإيمان ونقصانه رقم الحديث 4682.

(3) _البخاري، صحيحه، مرجع سابق، ج4، ص 189، باب صفة النبي، رقم الحديث 3559

(4) _ الترمذي، سننه، مرجع سابق، ج3، ص 430، باب ماجاء في حسن الخلق، رقم الحديث 2002.

(5) _مسلم، صحيحه، مرجع سابق، ج4، ص 1980، باب تفسير البر والاثم، رقم الحديث 2553.

(6) _خالد بن عبد الله القريشي، مرجع سابق، ص 85.

(7) _كايد قرعوش، مرجع سابق، ص 25.

خَيْرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ [الإسراء: 16-17]

وإن استمرارية الأمم وبقائها يتمثل في صلاحها، وصلاحها يكمن في التزامها الأخلاقي الذي يكون صورة حيّة عن الإيمان القلبي، الذي يترجم في قالب أفعال سلوكية واقعية من فعل الخير، والأمر بالمعروف والابتعاد عن الفساد والنهي عن المنكر، وهذا مفاد قوله تعالى في كتابه العزيز: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ (١١٦) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ [سورة هود 116-117].

وقد جاء في معاني هذه الآيات أن الله لا يهلك القرى إلا بسبب شركهم⁽¹⁾، وإنما راجع أيضا في تماديهم وظلمهم وفسادهم زيادة على شركهم وقد صدق قول الشاعر حين قال:

إنما الأمم والأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبوا أخلاقهم ذهبوا.

ويقول أحد المفكرين الغربيين،⁽²⁾ عن دور الأخلاق في سعادة البلدان ونعيمها، أن السعادة ليست بوفرة إيرادها ولا بقوة حصونها، ولا بجمال بنياتها، إنما سعدتها بعدد المهذبين من أبنائها، وبعدد الرجال ذوى التربية والخلق فيها".

فالأخلاق تحقّق للإنسانية تقدّمين، تقدّم حضاري، وتقدّم اجتماعي⁽³⁾.

فقد وعى الأمير عبد القدر هذا الأساس المتمثل في الالتزام الأخلاقي منذ نعومة أظافره، فقد أشرب تعاليم ومبادئ الدين الإسلامي في صباه، والذي كان له الدور الأساس في صقل هذا الجانب الأخلاقي لديه معتمداً ومستعيناً على ما في القرآن والسنة من أخلاق، فها هو الأمير يتحدث عن الأخلاق مبرزاً أهميتها في كتابه المقرض الحاد بقوله، وإن حسن الخلق هو الفعل المرضي الذي هو جامع لخير الدنيا والآخرة مستنداً على أحاديث النبي ﷺ مثل "البر حسن الخلق"، وأن هذه الأخلاق هي صفة التربية الإسلامية، وإذا ما تمعن المرء في الشريعة الإسلامية وجدها في القرآن والحديث وقد مسّت

(1) انظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج15، ص 530.

(2) نقلا عن: كايد قرعوش وآخرون، الأخلاق في الاسلام، مرجع سابق، ص 25.

(3) مقدار يالجن، مرجع سابق، ص 102.

هذه التربية الخلقية كلّ جوانب حياة الانسان، ونظمت حياته مع نفسه وخالقه وبني جنسه من قريب أو بعيد، وهي المتمثلة في جميع الأوامر والنواهي التي دوّنت فيها المجلّدات والأسفار شرحاً وتبياناً⁽¹⁾.

ولقد أدّت الأخلاق دوراً مهماً في تسير شؤون حياة الأمير وإمارته، بل هي عامل أساس من عوامل التغيير التي يمكن للإنسان العمل من خلالها لتحقيق الصّلاح والفلاح، فمن دونها لا يعدّ التغيير الناتج صالحاً وفالحاً، بل يحكم عليه بأنّه حركة سلوكيّة أدّت إلى تغيير معيّن وفق معطيات حاصلة فالتغيير الحقيقي يمكن أن تحقّقه الأمم وترتقي به، فهو التغيير الأخلاقي الذي ينتج عنه الفلاح.

المطلب الثالث: مرتكزات التغيير:

تعرفنا في المطلب الثاني من هذا الفصل على الأسس التي تقوم عليها الحركة التغييرية عند الأمير عبد القادر، غير أنّ هذه الأسس لا تفعل في الواقع إلا إذا توفّرت الركيزة الأولى التي تقود إلى التغيير المتمثلة في العنصر البشري قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11]، فالإنسان هو العنصر القائد إلى هذا التغيير، والمتأمل في فلسفة الأمير عبد القادر الوجودية يجد أنّ الإنسان مدار ومحور هذه الفلسفة، فهو العنصر الذي ربط بين (العالم العلوي والعلم السفلي)، (عالم المثل وعالم المادة)، (الله والعالم)، فالإنسان وحده هو الذي يستطيع أن يلج إلى كل من العالمين بما خصّه الله من مكنونات وخلق، وعليه يقوم كل فعل حضاريّ استخلافيّ، فالإنسان عند الأمير هو الركيزة الأولى التي يقوم عليها أي عمل تغييريّ كان، غير أنّ الإنسان وحده لا يمكن أن يرشد إلا الصّلاح والخير إلا عن طريق التوجيه الذي ينيره الوحي السماوي على هذا الكائن البشري، لذا فإنّ فهم الخطاب الإلهي هو الركيزة الثانية التي تقود وتُصلح من الفعل الإنسانيّ فوق هذه المعمورة.

وفي هذا المطلب سنسلط الضّوء على هاتين الركيزتين اللتين دعا إليهما الأمير عبد القادر في كتبه وجاءت حركاته وممارساته للحياة في الواقع من خلال فلسفته وفهمه لهما.

أولاً: الإنسان قائد التغيير:

تقوم فلسفة الأمير الإنسانية حول بلوغ رتبة الكمال؛ إذ أنّ الإنسان قد خلق باستعدادات تأهّله للالتحاق بالكمال، بل إن فلسفة الوجود عند الأمير عبد القادر قائمة حول هذا الإنسان الكامل الذي

(1) _ الأمير عبد القادر، المقراض الحاد، مرجع سابق، ص 131.

يربط بين العالم الوجودي، والعالم الغيبي الروحي، فالإنسان هو نسخة جامعة للاسم الظاهر والباطن، والإنسان الكامل عند الأمير هو الكون الجامع للحقائق الإلهية والكونية، فهو ينتمي إلى كل من العالم الروحي للخلقة الباطنية التي خلق عليها هذا الكائن، وينتمي إلى العالم المادي لتكوينه وخلقه الظاهرية التي جمعت كل ما في الكون⁽¹⁾.

وكل إنسان من حيث خلقته فهو قابل إلى بلوغ هذا الكمال، ولكن ليس الكل يستطيع الوصول إلى هذا الكمال، إلا إذا برزت استعدادات الإنسان وحقق شروط الكمال وأهم هذه الشروط هي المعرفة والتحقيق والتخلق بالأسماء والصفات، التي إذا ما وصل إليها الإنسان كان هو الخليفة الكامل القائد المستخلف على تسير شؤون مملكته التي كلفه الله بتعميرها⁽²⁾.

فقد تحرك الأمير عبد القادر على خلفية هذه الفلسفة، التي تجعل من الإنسان هو الركيزة الأولى والحرك الأولى في عملية التغيير.

فلا يحق عند الأمير عبد القادر أن يكون أي إنسان خليفة الله على هذا الكون، إلا إذا استوفي جميع الشروط التي توصله إلى رتبة الكمال، فالكامل هو الخليفة الحقيقي الذي يستحق أن يعتلى على عرش الخلافة.

فالإنسان عنده هو منطلق التغيير لأنه هو الكائن الوحيد الذي خص بقدرات جمعت فيه ولم تكن لأحد غيره من الخلق، كما له القدرة على التحقيق بالأسس التي تقود التغيير، وكلها مجبولة ومفطورة في الإنسان، وهي حقيقته التي هي إنسانيته، فالإنسان خلق وفطر على الإيمان وهو الأساس الأول لهذا التغيير، كما أنه خلق باستعدادات تأهل للوصول إليه، من ملكة العقل والقدرة على التعلم وهو الأساس الثاني الذي يدفع نحو التغيير، كما أن الإنسان جبل في خلقته على أن له القدرة على الاتصاف بالأخلاق الحميدة، وكل هذا مركز في إنسانية هذا الكائن البشري الذي عبر عنها الأمير بأنه خلق على الصورة التي هي إنسانيته وهي مجموع الأسماء الإلهية الظاهرة والباطنة⁽³⁾.

وهذه الصورة الإنسانية هي صورة آدم عليه السلام التي خلقه الله على صورته، وهي صورة كل

(1) _ تم التطرق إلى الكمالية الإنسانية عند الأمير عبد القادر في الفصل الأول من هذه الأطروحة.

(2) _ عن شروط الكمال الانساني عند الأمير عبد القادر، ارجع إلى الفصل الأول، مطلب وظائف الانسان الكامل من هذه الأطروحة.

(3) _ أنظر إلى: الأمير عبد القادر، المواقف، مرجع سابق، ج1، ص 123، ج2، ص 248.

كائن بشري، غير أنه ليس الكل يظهر على هذه الحقيقة الإنسانية رغم وجودها فيه بالقوة، وإنما تظهر هذه الإنسانية الحقيقية لمن سعى لإخراجها وإبرازها على حقيقتها، ويتحرك ويُحرك من خلالها⁽¹⁾.

ويفهم من فلسفة الأمير عبد القادر التي يدعو فيها إلى الكمال، أن الكمال راجع إلى الصورة الخلقية التي خلق عليها الإنسان، وهي التي أهلتها لكي يكون سبب في الانطلاقة نحو التغيير الذي يدخل ضمن مهام الخلافة، التي هي الوظيفة الأولى لهذا الكائن البشري، فلولا هذه الصورة ما نال الإنسان هذا الشرف، ولكن مثله مثل باقي الموجودات التي يسري عليها قانون التغيير الذي هو بمعنى التحويل عبر الزمان والمكان، من حركة النمو والتطور والفناء التي هي سنة من سنن الله التي يحكم بها في هذا الكون، ولكن حركة تغيير الإنسان إنما هي واقعة بإرادته، وهي خاضعة لسنن الربانية.

فحركة الإنسان نحو الكمال، هي حركة الإنسان نحو التغيير، فالكمال مركوز في الجميع، ولكن لا يبرز إلا للذي يسعى إليه من خلال الالتزام بصفات معينة.

وبالتالي فمدار الحركة التغييرية عند الأمير هو الإنسان نفسه، فمنه ينطلق التغيير وبه يصل إلى نفسه التي ترتقي لتلحق إلى أعلى صفاتها الإنسانية.

فإذا ما بلغ إلى هذه المرتبة-الكمالية- يكون قد دخل إلى باب الخلافة على هذا العالم الذي هو سيد فيه ومحرك له بأفعاله⁽²⁾.

فالإنسان في فلسفة الأمير هو ركيزة التغيير وقائده، وتكون الانطلاقة فيه من النفس، فبقدر ارتقاء هذه النفس وتغييرها من صفاتها البهيمية (الحيوانية) التي تميل بالإنسان نحو المادة وتنزله إلى دركات الشهوانية في اذل صورها، فيغير الإنسان من هذه الصفات التيهي جانب من خلقته، ليلتحق في هذا التغيير إلى الجانب الثاني من النفس وهي الصفات الملائكية التي تأهله لكي يقود الخلافة المطلوبة على الوجه الذي شرعت له⁽³⁾.

فالتغيير الذي يناشده الأمير عبد القادر هو تغيير الإنسان من نفسه، فإذا أدرك الإنسان هذه الحقيقة على الوجه الصحيح، فقد حقق الإنسان الصلاح والفلاح .

(1) _المرجع نفسه، ج1، ص 283، ج2، ص 551.

(2) _ارجع إلى الأمير عبد القادر، المواقف، مرجع سابق، ج1، ص 123/، ج2، ص 511

(3) _حول تغير صفات النفس، والتخلق بالصفات الإلهية ارجع إلى: الأمير، المواقف، ج1، ص 135.

وهذه فلسفة الأمير التي نجده قد نفثها في كتابه المواقف، وأبرز رأيه فيها ونظر وقعد لها، وهذه الفلسفة هي التي حركت الأمير عبد القادر في جوانب الحياة كلها، فإنك تجده يسمو ويرتقي في أفعاله وتصرفاته لكي يصل إلى هذه المرتبة-الكمالية-مقتد بذلك بسيد البشر مُحَمَّد ﷺ الذي يعده أكثر شخص تحققت فيه الكمالية الكبرى، فلا كمال بعد كماله⁽¹⁾.

ومن المعلوم أن هذه النظرة نحو الإنسان عند الأمير عبد القادر نابعة عن تصوفه، فالكثير من المتصوفة المسلمين نادوا إلى هذه الكمالية الإنسانية، غير أن الأمير عبد القادر مارس هذه النظرية في الواقع، وأراد أن يحاكي بها الحياة، ويكون بذلك قد أرجع التصوف إلى منبعه الأصلي وهو الممارسة.

فقد مارس الأمير التصوف نظريا وعمليا، وجعله أسلوب حياة يمتزج فيه العلم بالنظر، والنظرية بالتطبيق⁽²⁾.

وعلى ضوء هذه المرجعية تكونت شخصية الأمير عبد القادر التي شاد بذكرها الكثيرون وأثنوا على حضورها وأفعالها وخصالها، بل عده البعض بأنه النموذج المثالي للإنسان الفعال الذي اجتمعت فيه الكثير من الخصال المفتقدة في عصرنا الراهن، فقد اجتمع في الأمير توحيد الظاهر بالباطن، والعلم بالعمل، والفكر بالتطبيق، والمعتقد الحق بالسلوك القويم⁽³⁾.

والتأمل في الفلسفات المادية اليوم، التي تأصل للإنسان آراءه ومعتقداته وتحرك أفعاله التي يسير الانسان تحت تأثيرها لبناء حضارته التي ينشدها، ويبنى بهذه المادية صرحا يضع فيه معنى الإنسان الحقيقي، فهذه الحضارة ألغت من الإنسان كل جوانب الروح لديه، فطمست عواطفه وقيمه الإنسانية وجعلت منه إنساناً متجاوزاً لكل المفاهيم الإنسانية⁽⁴⁾.

حيث ركزت المادية على الجانب المادي في الحياة سواء للفرد أو المجتمع، وأسست لنموذج معرفي يبني قيم الصراع والتنافس والإشباع الكامل للغرائز ولو على حساب الآخرين، فالإنسان في هذه الفلسفة موجود لذاته ولمصلحته فقط⁽⁵⁾.

(1) _حول هذه الكمالية المحمدية ارجع إلى الفصل الأول المطلب الثالث من هذه المذكرة.

(2) _مُحَمَّد بركات، مرجع سابق، ص 5.

(3) _المرجع نفسه، ص 6.

(4) _ارجع إلى عبد الوهاب المسيري، الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، دار الفكر، بيروت، ط2، 2003م، ص 197.

(5) _زينب عبد السلام أبو الفضل، عناية القرآن بحقوق الإنسان، دار الحديث، القاهرة، ط1، 1429-2008م، ص 86.

وهذه الرؤيا أنتجت خلافاً في علاقة الإنسان بخالقه وبذاته وبالأخرين، فشوهت الفطرة وحولت الإنسان إلى رقم يلهث مبرمج السلوك والقدرات⁽¹⁾.

ونجد العالم الإسلامي اليوم يريد الدخول في معترك التغيير من زاوية هذه الفلسفات المادية فأخذ يقتبس من ماديتها ويكسدها من مخلفاتها، فما جنى من هذا التغيير إلا زيادة في الخذلان والضياع والشتات، لا يمكن الخروج من هذا الضياع والشتات والهزيمة والتبعية إلا إذا عاد الإنسان إلى قيمته الحقيقية، وأعاد النظر إلى ماهيته، التي يستطيع أن يستعيد من خلالها حركة التاريخ، وإذا ما استرجع هذه الحركة يكون قد استطاع أن يسترجع حركة الحضارة، وبإستعادها يكون قد استعاد الإنسان قيمته الحقيقية⁽²⁾.

فالإنسان هو محور العملية التغييرية وركيزتها الأولى، فإذا فعل الإنسان قدراته التي خلق عليها لدخل إلى متن الحضارة، ودون بأفعاله في حركة التاريخ، فالإنسان كان وسيظل أبداً هو المحور والعامل الأول في صراع البقاء، فالأمة لا تحمي وجودها ولا تحقق تقدمها إلا بالقدر ما تملك من رصيد ذخيرتها البشرية قيمة ونوعاً⁽³⁾.

والإنسان في التصور القرآني هو أهل للكمال، كما هو قابل للنقصان، وهو في كلا الحالتين مكلف، قابل للتوبة بعد الخطيئة، فالنظرة القرآنية للإنسان وازنت بين الغلاف الخارجي للكيان البشري والروح التي هي سر من أسرار الله، وهي ليست بمعزل عن الجسد بل تمارس وظائفها في الحياة، فترتقي بالإنسان عن الحيوان، وتجعل له في الحياة رسالة يعرف كنهها ويتفهم تبعاتها وينهض بمضمونها⁽⁴⁾.

وها هو نبينا محمدٌ صولات ربي وسلامه عليه باشر حركته التغييرية الإصلاحية في المجتمع العربي المشرك الجاهلي منذ أول وهلة أنزل فيها القرآن، فما أقام دولة ولا قعد لدستور ولا خط خطة نحو التمدن إلا بعدما كون عناصر وأفراد هذه الدولة، ولقد مكث النبي في تكوين هؤلاء الأشخاص مدة

(1) _ الصعيدي محمد الحكيم، البيئة في الفكر الإنساني والواقع الإيماني، الدار المصرية، القاهرة، (دط)، (دت)، ص 147.

(2) _ مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 67-68.

(3) _ عائشة عبد الرحمن، الشخصية الإسلامية، دراسة قرآنية، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1986م، ص 11.

(4) _ السعيد عاشور، الإنسان في القرآن الكريم، دار غزير، القاهرة، مصر، (دط)، 2002، ص 96.

ثلاثة عشر سنة، استطاع من خلالها أن يخرج جيلا حمل أعباء هذه الرسالة، فانطلقوا من بعده غازين وفاتحين ومعمرين ومستخلفين، فدونوا على صفحات التاريخ بعدما كانوا على هامش الصفحات وذيلها، فأصبحوا عنواناً للحضارة الإنسانية في أرقى سماتها، وما كان لهذا التغيير أن يتم لو لا بناء النبي لهؤلاء الشخصيات التي أدركت المعنى الحقيقي للإنسانية ودورها في الحياة، مقتدين ومهتدين بقدوتهم الأولى واسوتهم الحسنة التي كانت تمشي وتعيش بين ظهرائهم، التي تمثلت فيها أسمى وأرقى معاني الإنسانية.

وهذا ما استوعبه الأمير عبد القادر على ضوء مرجعيته الثقافية المشبعة بروح الدين الاسلامي، فهو يدعو إلى إعادة الإنسان إلى الصورة التي أعاد فيها النبي ﷺ صحابته بتفعيل إنسانيتهم التي انتجت تغيرا واقعيا ملموسا، ففلسفة الأمير الكمالية نحو الإنسان إنما مفادها تفعيل الإنسان لطاقاته الكامنة التي خلق بها لكي يقود حركته الإستخلافية على الشكل الذي أمره ربه.

وبهذا يكون الإنسان هو الركيزة الأولى لأي عملية تغييرية، غير أن الإنسان لا يستطيع أن يعرف ويقف على الأصلح والأنفع، إلا بتوجه خارجي يفوق قدراته وملكاته وهذا التوجيه يتمثل في الخطاب القرآني، وعليه فإن الركيزة الثانية عند الأمير عبد القادر قائمة على التجديد في فهم القرآن الكريم.

ثانيا: فهم القرآن والعمل به :

مثل القرآن الكريم القاعدة البيانية الأولى التي وضع عليها الأمير سياسته التي تحرك من خلالها في إمارته، بل هو القاعدة الأولى التي يدور عليها فكر الأمير عبد القادر الجزائري.

فقد أعلن الأمير في نص البيعة التي ألقاه على الأعيان الذين انتخبوه لكي يكون قائدهم أنه لن يتخذ قانونا غير القرآن الكريم لكي يُسير به دولته⁽¹⁾.

وهذا ما تم تنفيذه من قبله فقد كان الأمير نموذجاً للفارس العالم المسلم الذي يعمل وفق الشريعة الإسلامية، فحكم في دولته بمنهج أساسه القرآن والسنة⁽²⁾.

(1) _مُجد بركات، مرجع سابق، ص 15.

(2) _المرجع نفسه، ص 21.

كان الأمير عبد القادر أشد الناس تمسكا بالدين والعمل وفق مبادئه⁽¹⁾.

ولقد اتخذ الأمير عبد القادر من القرآن الكريم منهجاً للحياة، يخط من خلاله كل حركاته وسكناته.

يرى الأمير عبد القادر أن كل حركة خارج هذا الفهم القرآني فمردها إلى الخسران والفساد، إذ أن الإنسان مهما علت قيمة العقل فإنه يبقى قاصراً عن إدراك كل الحقائق التي تقوده إلى الصلاح والفلاح، فإن المجتمعات بحاجة إلى دستور عادل، ونظام متكامل يستطيع أن يحل مشاكل الناس⁽²⁾، وهذا الدستور والمنهج مبثوث في كتاب الله الذي ارتضاه أن يكون خاتم الكتب السماوية.

وهذه الرسالة المحمدية الخاتمة جاءت جامعة لجميع المعارف والعلوم ولقد خص الله بها هذه الأمة، فقد بين الله فيه جميع المصالح التي تبني عليها الدنيا والآخرة⁽³⁾.

فلا نور ولا استقامة إلا في ضوء هدى القرآن والسنة، فطوق الشريعة لا يزول ولا يفارق رقة عارف ولا مكاشف مهما وصل إليه من حقائق⁽⁴⁾.

فبالقرآن تتم معرفة أحكام الله ومخلوقته، والعارف لما يتلوه القرآن يستخرج منه العلوم والأسرار⁽⁵⁾.

فقد كان القرآن والحديث هو المنبع الأصلي للعلم عند الأمير عبد القادر، وإليه يرجع فكره الذي تنوعت روافده، غير أنه يحتكم إلى المنبع الأصلي رغم انفتاحه على جانب كبير من المذاهب الإسلامية سواءً العقلية منها أو الذوقية، ولقد دعا الأمير إلى التجديد في فهم الخطاب القرآني في أول موقف استفتح به كتابه الاشاري "المواقف" فهو يقرر بأنه لا يكمل فقه الرجل حتى يرى للقرآن وجوها كثيرة⁽⁶⁾.

وبالتالي فالتغيير الذي قاده الأمير أساسه التجديد في الفهم الديني وتجديد الوعي والاصلاح⁽⁷⁾.

(1) _ يحي بوعزيز، مرجع سابق، ص 79.

(2) _ الأمير عبد القادر، رسالة المقرض الحاد، مرجع سابق، ص 83.

(3) _ المرجع نفسه، ص 111.

(4) _ الأمير عبد القادر، المواقف، مرجع سابق، ج 1، ص 128.

(5) _ المرجع نفسه، ج 1، ص 150.

(6) _ محمد بركات، مرجع سابق، ص 29.

(7) _ المرجع نفسه، ص 58.

القائم على فهم القرآن الكريم والعمل بمضمونه، فالطريقة التي اختارها الأمير في التغيير لا تعتمد على التلقين والتقليد، إنما يدعو إلى الفهم الصحيح للقرآن⁽¹⁾، والعمل بمضمونه.

فالقرآن هو الموجه الأول الذي يدعم حركة الإنسان فوق هذه المعمورة، وبسط فيه للإنسان من الطرائق الصحيحة التي تقوده نحو السعادة والفلاح.

فمن ظن النجاة يكون خارج هذا المصدر فإنه قد حكم على نفسه بالفناء⁽²⁾، وإن كانت ثمرة حركته مرئية ملموسة، فهذه الثمرة مدتها معينة محدودة، فكل انطلاقة نحو التغيير خارجه، حُكم عليها بالفناء والانتحار، لأنه لا سند لها في الحقيقة يدعمها أو يبقى فتيلها مشتعلًا، ففي القرآن هداية لخير البشرية في كل زمان ومكان، وفي هدى السنة فهم يمكن صاحبها من استخراج مكنونات وأسرار هذا الكتاب العظيم، الذي إذا اهتدت هذه الأمة بنوره وامثلت لما جاء فيه وتقيدت بتعاليمه، وفعلت أحكامه في الواقع البشري لأنارت وشاعت حضارتها في الأرجاء قاطبة، كما فعل القرآن بالثلة الأولى التي كانت خير أمة أخرجت للناس.

المبحث الثاني: مجالات التغيير الإنساني عند الأمير عبد القادر

يعد التغيير هدفًا منشودًا من قبل أي حركة إنسانية كانت، تطمح إلى تبديل الأوضاع التي تعيشها، أو غايتها امتلاك منفعة ومصلحة تقدرها، فكل حركة تناشد التغيير فإنها تقدر مجالاته ومحطاته حسب الأولوية التي تؤدي إلى تحقيق أهدافها.

فمن الحركات من يرى ضرورة التغيير الاجتماعي، ومنهم من يرى ضرورة التغيير الاقتصادي ومنهم من يرى ضرورة التغيير المنهجي في التفكير والمعرفة... الخ، وعلى هذا فإن مجالات التغيير تحدد وفق الأهداف المسطرة لكل حركة.

وإذا ما رجعنا إلى شخصيتنا المتناولة بالدراسة الأمير عبد القادر، فإن هدف الأمير المسطر في حركاته، كان غايته بلوغ درجة الكمال الإنساني، وهذا ما يلمح في كتابه المواقف الذي فصل فيه جانبًا كبير عن الإنسان الكامل، والذي يطالع سيرة الأمير وما كتب عنه، فإنه يلاحظ بأن الأمير في حركاته

(1) _ الأمير عبد القادر، المواقف، مرجع سابق، ج 1، ص 101.

(2) _ المرجع نفسه، ج 1، ص 128.

وسكناته كان يسير وفق هذا الهدف المنشود في كل مراحل حياته التي عرج فيها.

ولقد عرفنا في المبحث الأول من هذا الفصل بأن مرتكزات التغيير عند الأمير محورها الأول هو الإنسان في حد ذاته، فإنه لا يمكن أن تثمر أي حركة تغييرية جدواها إلى إذا فُعل هذا الإنسان بالطاقات التي وهبه الله إياها، والتي من خلالها يسير نحو التغيير الذي يريده.

جاءت مجالات التغيير عند الأمير تتماشى مع هذا الكائن البشري، ومع الأسس التي سطرها الله في منهجه ودستوره القرآني، وقد ارتأينا في هذا المبحث أن نبز مجالات التغيير الإنساني لدى الأمير، وهدفنا في هذا المبحث أن نخلص إلى نتيجة تجمع بين الإنسان والسنن والتغيير عند الأمير، ومعرفة مدى أصالتها وتوافقها مع الشريعة الإسلامية، ومدى نجاعتها في أرض الواقع.

المطلب الأول: التغيير المعرفي:

إن مجال التغيير المعرفي عند عبد القادر مرتبط بالكمال الإنساني، إذا أنه لا يمكن للإنسان اللحاق بمرتبة الكمال إلا إذا كانت المعرفة والعلم وصف هذا الإنسان، وهي وظيفة من وظائف هذا الكائن البشري الذي خصه الله بخلقة تمكنه من الولوج إلى هذا المجال المعرفي، والمتتبع لسيرة الأمير عبد القادر الجزائري يجد بأنه سلك هذا المجال مند نعومة أظافره، فقد تربى ونشأ في بيت للعلم والمعرفة، وقام عوده واشتد وهو ينهل من المعرفة والعلم، فكانت حركاته توجه على أساس ما تعلم، فقد بدأ الأمير مسيرته بالعلم وختم حياته به.

وما أنجزه الأمير عبد القادر من تغيير في فترة توليه الإمارة على الشعب الجزائري مدة سبعة عشر عامًا، وفي زمن كانت فيه الجزائر وشعبها في أحلك الظروف، إنما حقق الأمير كل أعماله وانجزاته وفق العلم والمعرفة.

ولم تكن المعرفة عند الأمير وليدة فترة حكمه وإمارته، وإنما كانت المعرفة سارية معه في كل حركاته وسكناته قبل وبعد الإمارة.

ومن هنا نطرح اشكالية هذا المطلب: ما أهمية المعرفة في فكر الأمير عبد القادر؟

أولاً: أهمية العلم والمعرفة في فكر الأمير عبد القادر الجزائري وصلتها بالتغيير:

يُعَدُّ العلم عند الأمير عبد القادر خاصية الإنسان وشرفه، فبقدر ظهور هذه الخاصة في الإنسان بقدر ما يُعَدُّ معها كاملاً⁽¹⁾.

فالعلم عند الأمير فضيلة مطلقة وبه نال العلماء والحكماء الشرف⁽²⁾، فكلما برز من الإنسان هذه الخاصة، كلما ازداد معها الانسان قوة وكمالاً، ويُفَضِّلُ الناس بعضهم على بعض بسبب هذه الخاصة -العلم-، وما أقبح الإنسان إن تخلي عن هذه الخاصة وعزى نفسه وجردها بإهمال هذه الفضيلة⁽³⁾.

والعلم عند الأمير عبد القادر أمر من أوامر الله التي حث عليها في الشريعة الإسلامية فهو واجب يلزم الإنسان التقيد به، فالله عزو جل أمرنا بالتفكير والتدبر والتعلم⁽⁴⁾، وهذا الأمر الإلهي الداعي إلى التفكير والتعلم، إنما راجع إلى الاستعدادات⁽⁵⁾، التي خلق عليها النسان من أجل أن يتحمل هذه المعرفة، لذا تجدد الأمير عبد القادر يحث على الالتزام بهذا الأمر والواجب الإلهي، الذي أعطي للإنسان كل الملكات والاستعدادات لحمل هذه الوظيفة التي تأهله لكي يلتحق بالخلافة التي أعلن الله عليها عند خلقه للإنسان لأول مرة قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30].

فلا خلافة عند الأمير عبد القادر إلا إذا تقيد الإنسان بالوظيفة المعرفية فبقدر بروزها في الانسان بقدر ما التحقق إلى الكمال البشري⁽⁶⁾، الذي من خلاله يمكن أن يبرز الإنسان دوره الحقيقي في الخلافة على هذه المعمورة.

فالأمر الإلهي الداعي إلى العلم والمعرفة عند الأمير عبد القادر له وجهان، الوجه الأول من الأمر

(1) _ الأمير عبد القادر، ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، مرجع سابق، ص 19.

(2) _ المرجع نفسه، ص 23.

(3) _ الأمير عبد القادر، ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، مرجع سابق ص 20.

(4) _ الأمير عبد القادر، رسالة المقرض الحاد، مرجع سابق، ص 90.

(5) _ الاستعدادات هي الملكات التي يحوزها الإنسان من أجل التحصيل المعرفي وأهمها العقل، أنظر كتاب الأمير، ذكرى العاقل، مرجع سابق، ص 29 وما بعدها.

(6) _ ارجع إلى: الأمير عبد القادر، ذكرى العاقل، مرجع سابق، ص 19/ المواقف، مرجع سابق، ج 1، ص 123-124.

الإلهي إنما هو المتعلق بالخلق؛ الاستعداد الفطري الذي خلقه الله في الإنسان⁽¹⁾، وميزة بملكات وأدوات تأهله لكسب هذا المجال المعرفي العلمي، فالإنسان مجبُولٌ على المعرفة قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٣١﴾ [البقرة: 31]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ ﴿٩﴾ [السجدة: 09].

وأما الوجه الثاني من الأمر الإلهي الموجب والملزم للتعليم⁽²⁾، وهو ما أمر به الله في كتابه وحث عليه في سنة نبيه، قال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [سورة العلق: 1-5]، وقال عليه الصلاة والسلام: "طلب العلم فريضة على كل مسلم"⁽³⁾.

فالعلم عند الأمير عبد القادر واجب على صعيدين، فالصعيد الأول تستدعيه الخلقة الإنسانية التي خُلِقَ عليها لكي يرتقي بإنسانيته إلى الكمال البشري وذلك بمزاولة مهامه في الوظيفة المعرفية. والصعيد الثاني فهو من حيث الواجب الشرعي الذي تستدعيه النصوص الشرعية من الدعوة والحث على التعلم والتفقه والتدبر والتفكير....

ويرى الأمير بأنه بقدر استوعاب الإنسان لهذا الأمر الإلهي والتزام به يتفاوت الناس في أداء هذه الوظيفة المعرفية، وبما يفضل ويكمل الناس بعضهم على بعض⁽⁴⁾.

ومن هنا يمكن القول بأن الحركة المعرفية عند الأمير عبد القادر، هي حركة ضرورية يستدعيها كل من الواجب الخَلْقِي والواجب الشرعي، وبالتالي إلزامية خوض الإنسان وممارسته لوظيفته المعرفية أمر ضروري للحاق بالكمال البشري.

(1) _ الأمير عبد القادر، ذكر العاقل، مرجع سابق، ص 30 وما بعدها.

(2) _ ارجع إلى: الأمير عبد القادر، المقراض الحاد، مرجع سابق، ص 90، / ذكر العاقل، مرجع سابق، ص 40-41

(3) _ ابن ماجة، سننه، مرجع سابق، ج 1، ص 81، باب فضل العلم والحث على طلب العلم، رقم الحديث 224.

(4) _ الأمير عبد القادر، ذكرى العاقل، مرجع سابق، ص 20.

فكلما برز من الإنسان العلم والمعرفة زاده ذلك لحوقا بالرفقي الكمال، وكلما ابتعد وتخلي عن هذه الوظيفة سقط في درك الحيوانية وانعرج عن المسار الحقيقي للإنسانية، وبقدر سمو الانسان في هذه الوظيفة كان معه التغيير الايجابي للإنسان في نفسه وفيما يحيط به، وهذا هو عنوان الخلافة الراشدة، بكل ما تحمله كلمة الخلافة في معناها الخاص والعام⁽¹⁾.

فعلاقة التغيير الإنساني بالحركة المعرفية علاقة متلازمة طردية، فكلما زاد الإنسان في اكتسابه للعلم والمعرفة زاد معه وعى الإنسان بالحركة التغييرية نحو الأصلاح والأنفع.

إذ أن بالعلم يُبان للإنسان ويتجلى له حقيقة مقاصد الخلق، والتي يرى الأمير بأنها مجموعة في انتظام الدين والدنيا، ولا ينتظم الدين إلا بانتظام الدنيا⁽²⁾.

ولا يمكن للإنسان أن يدرك حقيقة هذه المقاصد، إلا إذا توغل الإنسان في المعرفة التي بها يكشف عن حقائق الأمور⁽³⁾.

فبهذه الوظيفة المعرفية التي يعدها الأمير عبد القادر خاصية في الإنسان التي من خلالها يتعرف على حقائق الأشياء، فيرتفع عن بصيرته حجاب الشك، ويتيقن من حقائق الأمور⁽⁴⁾.

وفي الحقيقة إن هذا المجال-التغيير المعرفي- مرتبط ارتباطا وثيق بالوظيفة المعرفية للإنسان الكامل عند الأمير عبد القادر، فالكمال عند الأمير لا ينال إلا بالاستعداد⁽⁵⁾ الذي يظهره الانسان للحاق به، ومن بين هذا الاستعداد هو ممارسة الإنسان لهذه الوظيفة المعرفية، فبقدر ظهورها فيه بقدر التحاقه إلى الكمال⁽⁶⁾، الذي به يحقق الوظيفة الأولى ألا وهي الخلافة⁽⁷⁾ على هذه الأرض، والخلافة هي حركة الإنسان التغييرية التي يثبها ويزرعها الإنسان من خلال تحركاته وسكناته في كل زمن ومكان، وتتحدد ملامح هذه الخلافة وترسم معالمها، وتُبان أهدافها، على ضوء هذا المجال والوظيفة المعرفية.

(1) _ارجع: إلى الفصل الأول من هذه الأطروحة فقد تم فيه التطرق إلى وظائف الإنسان الكامل بالتفصيل عند الأمير عبد القادر.

(2) _ الأمير عبد القادر، ذكرى العاقل، مرجع سابق، ص 24-25.

(3) _ المرجع نفسه، ص 20.

(4) _ المرجع نفسه، ص 20-21.

(5) _ ارجع إلى: الإنسان التام والكمال في الفصل الأول من هذه الأطروحة.

(6) _ ارجع إلى: ذكرى العاقل، مرجع سابق، ص 19 وما بعدها/ وأنظر أيضا: المواقف، مرجع سابق، ج 1، ص 123-124.

(7) _ الأمير عبد القادر، المواقف، مرجع سابق، ج 1، ص 123-124.

و نجد أميرنا عبد القادر بعد المطالعة لسيرته وتحليلها، أنه كان يتحرك في كل حياته ضمن هذه الوظيفة المعرفية التيارات من خلالها اللحاق إلى أرقى واسمى مصافي الكمال الإنساني، ولقد زاول هذه الوظيفة المعرفية ودخل هذا المجال التغيير المعرفي منذ صغره، فقد شب في بيت للعلم والمعرفة، واشتد عوده وهو ينهل من العلم وقاد إمارته، وحرك جيوشه، ونظم دولته وسير شعبه وفق هذه الوظيفة المعرفية⁽¹⁾، فلا مناص عند الأمير، إلا الخوض فيها، بل هي أمر وواجب محتوم مقدور؛ راجع لخلق الإنسان التي جبل عليها وفطر على المعرفة، وإلى الأمر الإلهي الشرعي الداعي إلى التعلم والنفقة.

فإذا ما تخلى الإنسان عن هذه الوظيفة المعرفية، وابتعد عن هذا المجال-التغيير المعرفي-؛ فقد تخلى الإنسان بتركه إياها عن إنسانيته التي من خصائصها العلم والمعرفة⁽²⁾، وبذلك يكون قد ابتعد عن الأمر الإلهي الشرعي الداعي والأمر بالعلم، وعصاه بتركه.

وإذا وقفنا هنيهة هنا، وأردنا التمعن والتدقيق في هذا المجال التغيير المعرفي عند الأمير عبد القادر، وهذه الوظيفة المعرفية التي أنيطت بالإنسان الكامل عنده، سنجد أن مجال المعرفة والعلم، من أهم المباحث التي تناولها العقل البشري منذ القدم وعبر التاريخ وهي أحد أقسام الفلسفة⁽³⁾، التي خاض خاض فيها المفكرون والفلاسفة على اختلاف أجناسهم وانتماءاتهم، لما للعلم والمعرفة من أهمية في حياة الإنسان، وما الأمير عبد القادر إلا أحد من بين هؤلاء الذين اهتموا بهذه القضية المعرفية واستوعبوا دورها في تسير وتوجيه الحياة الإنسانية.

وقضية العلم والمعرفة، قضية قديمة قدم الإنسان فوق هذه الأرض، وما زالت هذه القضية مجال للبحث والمدارسة من قبل المفكرين والباحثين وصولاً إلى عصرنا الحالي، وما نتج عن هذا البحث من فلسفة للعلوم، ونظرية المعرفة وتاريخ العلم...، وغيرها من المباحث والفلسفات التي برزت نتيجة لحركة الإنسان المعرفية.

وهذه الحركة التي زاولها الإنسان منذ القدم في هذا المجال المعرفي، تبين مدى اهتمام الشعوب والأمم بهذه القضية المعرفية التي إليها يعود تقدم وتطور المجتمعات وتخلفها، فباستيعاب هذا المجال المعرفي

(1) _ارجع إلى مقدمة كتاب الأمير ذكرى العاقل وتنبيه الغافل الذي حققه عمار طالي، ص 8.

(2) _الأمير عبد القادر، ذكرى العاقل، مرجع سابق، ص 20.

(3) _توفيق الطويل، أسس الفلسفة، مكتبة النهضة، القاهرة، ط3، دت، ص 69 وما بعدها.

والخوض فيه يكون قد دخل الإنسان في الحركة التغييرية، لأن هذا المجال المعرفي يحدد الرؤى والأهداف ويوضح المناهج والطرق التي يسلكها الأشخاص سواء أكانوا فرادا أو جماعات، وعليه تبني الحضارات وبه يقاس مدى تقدمها أو تخلفها.

وفي هذا المجال المعرفي يبني الإنسان تصورات ومعتقداته وأراءه ومبادئه التي بدورها تقود وتوجه حركة الإنسان فوق الأرض وعليه تحدد علاقته اتجاه كل ما يحيط به⁽¹⁾.

وإذا ما عدنا إلى الدين الإسلامي وبجئنا عن هذا المجال المعرفي، لوجدنا أن الخطاب القرآني دفع الإنسان وحثه وأمره على العلم والمعرفة منذ الوهلة الأولى لنزول الوحي، فالآيات الأولى التي نزلت على سيدنا محمد ﷺ جاءت تبين وتوضح القضية الأولى والمجال الأول الذي يقوم عليه كيان هذا الدين الإسلامي، وكيان هذه الأمة الإسلامية، وقيام هذا الإنسان في حياته، بل إن هذه الآيات الأولى حددت المفتاح الذي يُدخِلُ به إلى هذا الدين وويعرف به تفاصيل الحياة والكون، بل هو مفتاح الذي يفهم به هذه الدنيا والآخرة، إن هذا المفتاح هو العلم-المجال المعرفي- الذي تحدثت عنه الآيات الأولى نزولا من سورة العلق ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ^(١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ^(٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ^(٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ^(٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ^(٥)﴾⁽²⁾، و" إن هذه الآيات التي ابتدأ الله تعالى بها كتابة العظيم، هي أكبر دليل على احتفال الإسلام بالعلم بكل أنواعه⁽³⁾.

إن الله في هذه الآيات قد أنزل كلمة اقرأ قبل العقائد والإيمان⁽⁴⁾، وهذا ما يوحي إلى أهمية العلم في الدين الإسلامي بل إن العقائد فيه تقوم على أساسه⁽⁵⁾، لأنه دين ينبذ الخرافة والأساطير، ويأمر ويحث على العلم في غير موضع من مواضع سور القرآن الكريم التي لا يمكن حصرها جميعا في هذا المقام، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: 28]، قال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: 9]، وقال الله تعالى: ﴿يَتْلُوهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي

(1) _ارجع إلى عبد الله دراز، كتابة الدين الذي فصل في أحد مباحثه الدين وسائر العلوم مدى ارتباط المعرفة والعلم بالدين، ص 75.

(2) _ارجع إلى: راغب السرجاني، العلم وبناء الأمة، مؤسسة إقرأ، القاهرة، ط1، 2008م، ص 8.

(3) _ابراهيم القطان، تيسير التفاسير، (دط)، (دت)، (دب)، ج3، ص 441، بتصرف.

(4) _ارجع إلى: جودت سعيد، اقرأ وربك الأكرم، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط1، 1988م، ط2، 1993م، ص 13.

(5) _ راغب سرجاني، العلم وبناء الأمة، مرجع سابق، ص9.

الْمَجْلِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَاشْزُورُوا يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ [المجادلة: 11]، وقال عزو جل: ﴿فَنَعْلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ ﴿١١٤﴾ [طه: 114].

وقد استوعب أسلافنا الصالحون هذا الخطاب القرآني الموجه نحو هذا المجال المعرفي، فانطلقت من أحضان العرب الذي عرفوا قبل الإسلام بالجاهلية؛ أمة أقرأ التي حركت العقول والأفلام، ودونت سجل تاريخها الذهبي الأول بنهر من العلوم التي فاضت على البشرية بالخير والنفع.

فما انطلقت هذه الحركة التغييرية لهذه الأمة، لولا هذا المجال المعرفي، فأمرها ربها ونبيها ودستورها-القرآن- بالولوج إليه، فاعتلت على عرش السيادة في كل المجالات وعلى كل الأعراق، وتحقق لها ذلك من خلالها فهمها واستوعبها لأهمية هذا المجال المعرفي في حركة الإنسان والشعوب والأمم⁽¹⁾.

وها هو علماء الإسلام من مفكرين وباحثين وفلاسفة ومتكلمين أو متصوفة قدماء أو متأخرين على اختلاف ألسنتهم وألوانهم وبلدانهم واختلاف مذاهبهم وأراءهم، قد أجمعوا على أهمية العلم ودوره في قيادة هذه الأمة نحو الريادة والصلاح والفلاح.

وعندما تخلت هذه الأمة عن القراءة التي أمرها ربها بأخذها والالتزام بها، أصابها المرض والبلاء بقدر خروجها عن هذا الأمر والابتعاد عنه، ومازالت الأمة تتخبط وتتقهقر في الجمود والركود بتخليها عن هذا المجال التغيير المعرفي⁽²⁾.

بالعودة إلى شخصيتنا الأمير عبد القادر الذي دعا من خلال أعماله وكتاباتة إلى الدخول في هذا المجال التغيير المعرفي، الذي أدلى فيه بدلوه كسابقه من العلماء المسلمين، فقد عُرفت حركة الأمير التغييرية بإحياء لهذا المجال المعرفي، الذي اولاه أهمية كبرى في سياسته التي انتهجها خلال توليه فترة الإمارة على الشعب الجزائري.

وهنا يطراً علينا سؤال ما نوع العلوم والمعارف التي دعا إليها الأمير عبد القادر والتي من خلالها

(1) _ارجع إلى : راغب السرجاني، ماذا قدم المسلمون للعالم اسهامات المسلمين في الحضارة الاسلامية، مؤسسة اقرأ، القاهرة، ط1، 2009م، ج1، ج2.

(2) _ارجع إلى جودت سعيد، اقرأ وربك الأكرم، مرجع سابق، ص 7 وما بعدها.

قاد حركته التغييرية؟

وهذا ما سنحاول الاجابة عنه في العنصر الثاني من هذا المطلب.

ثانيا: أنواع العلوم والمعارف التي حث الأمير عبد القادر

اهتم الأمير عبد القادر بالعلم والمعرفة مند صباه، وقد برع في شتى العلوم، وجمع في جعبته بين العلوم العقلية والنقلية⁽¹⁾، وقد فصل في كتبه نظريته التي جمعت بين أنواع العلوم الشرعية والعقلية (الفكرية)، وقد بين مدى احتياج الأمة الاسلامية إلى الجمع بين هذه العلوم تحت ما يسمى بعدم تعارض العقل مع النقل.

فلقد قسم الأمير العلوم التي تحل في العقل إلى قسمين، الأولى منها سماها العلوم العقلية، والثانية سماها بالعلوم الشرعية، فأما القسم الأول العلوم العقلية فهي على نوعين: الأولى العلوم الضرورية (بدئية) وهذه العلوم يجد الإنسان نفسه عارف بها مثل (معرفة الإنسان أن الشخص الواحد لا يمكن أن يكون في مكانين مختلفين في آن واحد وغيرها من العلوم البديهية الفطرية التي جبل على معرفتها الانسان)، وأما النوع الثاني من هذه العلوم العقلية سماها بالعلوم الكسبية (المكتسبة) المستفادة من النظر والاستدلال والتعلم⁽²⁾.

وأما القسم الثاني من العلوم التي تحل في العقل عند الأمير عبد القادر، فهي العلوم الشرعية، وهي المأخوذة والمستفادة عن الأنبياء، ويحصل العلم بها من خلال مطالعة كتب الأنبياء⁽³⁾.

والأمير يدعو إلى الجمع بين هاذين القسمين من العلوم لكي تكمل معرفة المرء، فالذي يكتفي بالعلوم العقلية دون الشرعية فهو إنسان مغرور لا تضمن له السلامة، والذي يستغني عن العلوم العقلية ويأوي إلى التقليد الأعمى للعلوم الشرعية فهو جاهل لا يدرك المعنى الحقيقي لها، ولهذا فإن الأمير يقول: "إياكم أن تكونوا من أحد الفرقين، وكونوا جامعين بينه فإن العلوم العقلية كالأغذية والعلوم

(1) في الجانب المعرفي الثقافي عند الأمير ارجع إلى: يحي بوعزيز، مرجع سابق، ص 130 وما بعدها / ارجع أيضا إلى نزار أباطة: الأمير عبد القادر العالم المجاهد، مرجع سابق، ص 9 / محمد بركات، الأمير عبد القادر، المجاهد الصوفي، مرجع سابق، ص 10، وما بعدها.

(2) الأمير عبد القادر، ذكرى العاقل، مرجع سابق، ص 54.

(3) المرجع نفسه، ص 54.

الشرعية كالأدوية" (1).

وعلى هذا فإن نظرة الأمير إلى العلوم نظرة متكاملة، فالعلوم الشرعية لا تناقض العلوم العقلية، لأن الشرع لا يناقض العقل، كما أن العقل مهما علت طاقاته الإدراكية فإنه عاجز وقاصر على أن يدرك جميع أسرار الكون والإحاطة بحكمة الخالق، لذا فهو محتاج إلى من يرشده إلى هذه الحكمة من أجل أن يضمن السلامة والنجاة (2).

فلهذا نجد اقوال الأنبياء لا تخالف العقول ولكن فيها ما لا يستطيع العقل أن يهتدى إليه، فإذا اهتدى إليه عرفه (3).

فالنبوة التي يُستقي منها العلوم الشرعية، فهي عبارة عن طور تنفتح فيه عين أخرى من العلوم الزائدة عن طور العقل (4).

فعلم الأنبياء في خطابها العام دائرة حول ما يصلح الناس به في معاشهم ومعادهم، فما جاء الأنبياء من أجل أن يجادلوا الفلاسفة ولا ليُبتلوا علوم الطب وعلوم الهندسة والفلك...، إنما جاءوا باعتبار هذه العلوم على الوجه الذي لا يناقض فيه التوحيد، وإرجاع كل ما يحدث في العالم من خلق وحركة إنما هو راجع إلى قدرته وإرادته سبحانه وتعالى (5).

فكافة العلوم العقلية لا تناقض علوم الأنبياء (العلوم الشرعية)، فسواء أخطأت العلوم الكونية (العقلية-العملية) أو أصابت، المهم هو أن المقصود من البحث كونه من فعل الله (أي إدراك جانب من جوانب خلق الله الواسعة وتسخيرها)، ومن جاء يقول بأن هذه العلوم العقلية (الكونية) تناقض الدين والشرع، فقد جنى على الدين، وأضر بالشرع من حيث يريد نُصرته، فطريقته التي ناقض فيها بين الدين والعلم أضر للدين والشرعية أكثر من الذي يطعن في الدين ويشكك فيه (6).

(1) _ المرجع نفسه، ص 55.

(2) _ الأمير عبد القادر، المقراض الحاد، مرجع سابق، ص 85، ص 108، ص 109.

(3) _ الأمير عبد القادر، ذكرى العاقل، مرجع سابق، ص 60.

(4) _ المرجع نفسه، ص 61.

(5) _ الأمير عبد القادر، المقراض الحاد، مرجع سابق، ص 108-109.

(6) _ الأمير عبد القادر، ذكرى العاقل، مرجع سابق، ص 75.

هذه هي نظرة الأمير المتكاملة نحو العلوم والمعارف، وهي التي سار بها الأمير في تستير إمارته، بحيث استطاع في غضون عشرون شهرا⁽¹⁾، أن يبني دَوْلته ويُقعد لأُسُسها وهيكلها ضاها بها الدول المتقدمة التي داع صيتها في زمانه.

غير أننا نجد الأمير عبد القادر يثني في كتبه على العلم الذي يُعرف الإنسان على ربه، فأشرف العلوم النافعة عنده هي التي تقود الإنسان نحو ربه، وتعرفه على حكمة الله في أفعاله⁽²⁾.

ويرجع ثناء الأمير على هذا النوع من العلوم التي تقود الإنسان إلى معرفة خالقه، لأن المقصود الأعظم من خلق الإنسان هو معرفة ربّه وعبادته⁽³⁾، وهذه المعرفة عند الأمير يمكن أن تدرك عن طريق العقل الذي هو أشرف ما مُيّز به الإنسان عن غيره من المخلوقات، ويمكن أن يستدل على وجود الخالق من خلاله⁽⁴⁾، ولكن يبقى معها العقل عاجزاً عن ادرك كيفية الوصول إلى عبادة هذا الخالق، إلا عن طريق الوحي والأنبياء الذين ينشرون بعلومهم الجانب الذي يعجز عنه عقل الإنسان عن إدراكه⁽⁵⁾.

وبالتالي فالعلوم العقلية عند الأمير لها جانب يخدم الدين والعلوم الشرعية، وبها يمكن الاطلاع على أسرار هذا الخلق العظيم، ويهتدى بها الإنسان إلى خالقه، كما أن العلوم الشرعية تكمل وتوجه ما وصل إليه الإنسان في هذه العلوم، وبهما يمكن أن يحقق الإنسان دوره الحقيقي الذي حدده الله فوق هذه المعمورة وهو الإستخلاف والعمارة والعبادة.

وفي هذا الصدد قد مجد الأمير ما وصلت إليه فرنسا في زمانه، من امتلاكها للقوة العلمية التي اطلع عليها في مرحلة سجنه بفرنسا، وأثنى على ما وصلت إليه من علوم وتطورات في هذا المجال الفكر العلمي، ولقد ذهب بأنه بنقصها القوة العقلية النظرية التي يستطيع فيها المرء الاستدلال على الخالق والاهتداء بالعلوم الشرعية، التي تقود إلى الصلاح، ولو امتلكت فرنسا هذه الميزة إلى جانب القوة العلمية لحازت المرتبة التي لا تدرك فيذلك الزمن⁽⁶⁾.

(1) _ يحي بوعزيز، مرجع سابق، ص 81.

(2) _ الأمير عبد القادر، ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، مرجع سابق، ص 37.

(3) _ الأمير عبد القادر، ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، مرجع سابق، ص 39.

(4) _ المرجع نفسه، ص 37.

(5) _ الأمير عبد القادر، رسالة المقرض الحاد، ص 108 وما بعدها.

(6) _ الأمير عبد القادر، ذكرى العاقل، مرجع سابق، ص 42.

ولقد أبرز الأمير في كتابه ذكرى العاقل المعوقات التي تحول بين المعرفة الحقة الصحيحة، وكان أهم هذه المعوقات التي تحجب المرء عن الوصول إلى المعارف، وقوع الإنسان في التقليد الأعمى الذي لا يبنى على الأدلة والبراهين، وإنما بالإتباع المطلق للآباء والأجداد فيما يعتقدون ويستحسنون، ويرى الأمير بأن التقليد هو الحجاب الأعظم في حجب المعرفة الحقة عن الإنسان⁽¹⁾.

ويرى الأمير بأن الناس منقسمون على أساس المعرفة الحقة والتقليد إلى قسمين، قسم عالم مسعد لنفسه ولغيره، فهو الذي عرف الحق بالدليل لا بالتقليد، وأمر الناس ودعاهم إلى المعرفة بالدليل لا بأن يقلدوه، والقسم الثاني من الناس مهلك لنفسه ومهلك لغيره، وهو ذلك الذي قلد أجداده وآباءه، وترك النظر بعقله، ودعا الناس لتقليده، وهذا الصنف من الناس جعله الأمير كالأعمى لا يصلح أن يقود، وإن البهمة التي تقاد أفضل عند الأمير من مقلد ينقاد⁽²⁾.

- وكان مرمى الأمير ومقصده من هذه الدعوة بترك التقليد، إنما بحث أفراد المجتمع على الاجتهاد في تحصيل العلم وذلك باستوفاء معايير المعرفة والعلم وأهمها حضور العقل واعماله عن طريق النظر والاستدلال، وترك التعصب والخرفات والجمود الذي يقع فيه الكثير من طلاب العلم، ومن المعروف أن الأمير عبد القادر قد ولد و عاش في حقبة زمنية من التاريخ التي عرف فيها العالم الاسلامي بالانحطاط والتخلف وعرفت الحركة المعرفية بالتقليد في جميع جوانب الفكر والمعرفة لدى المسلمين.

فلقد استوعب الأمير الخطورة الكبيرة التي وقع فيها المجتمع الاسلامي في قضية التقليد خاصة في مجال المعرفة الدينية، فهو السبب الذي أرجع المسلمين إلى عصر الجاهلية من تفرقة، وانحطاط، وتدهور، لهذا نجده يدعو إلى "التجديد في الفهم الديني، والتجديد في الوعي والاصلاح، الذي يقوم على جوهر الدين وأصوله"⁽³⁾.

ولهذا نجد الأمير قد نبه على قضية مهمة في مجال التغيير المعرفي، ألا وهي عدم الفصل بين الجانب العملي والجانب العلمي المعرفي، فهما مرتبطان عند الأمير ارتباطا شديداً، بحيث جعل الإنسان الكامل لا يستوفي هذه المرتبة إلا إذا جمع بين المعرفة والسلوك، العلم والأخلاق، فمن دونهما لا يلحق

(1) _ المرجع نفسه، ص 13 وما بعدها.

(2) _ الأمير عبد القادر، ذكرى العاقل، مرجع سابق، ص 14.

(3) _ محمد بركات، الأمير عبد القادر الجزائري المجاهد الصوفي، مرجع سابق، ص 58.

المرء ولا يستحق أن يكون كاملاً خليفة لله فوق هذه الأرض⁽¹⁾، مستنداً في ذلك على أن الشريعة الإسلامية التي نزلت على سيدنا محمد ﷺ إنما جاءت جامعة للعلم والعمل، على غرار الشرائع الأخرى⁽²⁾.

وعلى هذا الأساس لم يكتفي الأمير عبد القادر بالعلوم العقلية والنقلية فقط بل وبلج إلى طريقة ثالثة للمعرفة زيادة على ما يملك، وهي المعرفة الذوقية الروحية، التي يخوضها الشخص عن طريق التجربة الصوفية، وهي طور آخر من المعرفة عند الأمير عبد القادر، برزت بشكل واضح في كتابه المواقف الذي دونه في أواخر حياته، بعد أن بدأ مسيرته في الحياة بالعلم ثم الجهاد بالسيف والإمارة، ثم الجهاد والعلم عن طريق السلوك.

وهذا النوع من المعرفة عند الأمير، إنما جاءت بعد الارتقاء بالنفس والعروج بها في سلم المقامات والأحوال، مما يُكشف للمرء في آخر المطاف عن الحقيقة.

ويدور هذا النوع من المعرفة عند الأمير حول المعرفة الحقبة بالله تعالى، فأفصل النعم هي نعمة العلم والمعرفة بالله⁽³⁾، وأفصل ما يمنحه الله لأوليائه هو العلم النافع⁽⁴⁾، فلا حياة ولا نور إلا في العلم بالله⁽⁵⁾، فلهذا فإن مدار المعرفة الكشفية الذوقية غرضها الوصول إلى الله والمعرفة عنه عن طريق المجاهدة والسلوك.

وبهذا يكون أميرنا عبد القادر قد دخل المجال المعرفي من كل جوانب مُلمّاً بأنواع العلوم الشرعية والعقلية والذوقية، في تجربة فريدة من نوعها سقلت هذه العلوم شخصية هذا البطل الجزائري الذي غير من خلال هذا المجال في حركة المجتمع الجزائري، في حقبة من الزمن كان يصارع فيها المجتمع الجزائري على عدة أصعدة أولها الأطماع الفرنسية ووحشية الاستعمار الذي انتهجها في حق هذا الشعب، وثانيها التدهور الذي خلفه الأتراك نتيجة سياستهم التي أتعبت المجتمع الجزائري، ثالثها التناحر والفرقة التي

(1) _ الأمير عبد القادر، المواقف، مرجع سابق، ج1، ص 123.

(2) _ الأمير عبد القادر، رسالة المقرض، مرجع سابق، ص 117.

(3) _ الأمير عبد القادر، المواقف، مرجع سابق، ج1، ص 204.

(4) _ المرجع نفسه، ج2، ص 284.

(5) _ المرجع نفسه، ج1، ص 120.

منقت أبناء الوطن الواحد، رابعها البدع والخرافات التي شاعت عن بعض الطرق الصوفية⁽¹⁾.

فقد استطاع الأمير أن يحارب كل هذا الفساد وعلى جميع المستويات من خلال هذا المجال المعرفي، الذي من خلاله بنى دولة سابق بها أعتى الدول في زمانه.

ولقد أجمع الكثير من المؤرخين والمفكرين على أنه لو طال الأمد بدولة الأمير لكان لها الشأن العظيم⁽²⁾، وهذا ما أنجزه الأمير في ظروف جد حالكة، كيف لو كنت الظروف سائحة وملائمة، فلهذا تعتبر تجربته نموذجًا يحتذى بها في المجال التغييري⁽³⁾.

لقد كان الأمير عبد القادر مدرّكًا بأن العلم والثقافة عنصر أساسي في بناء المجتمع، وأنه لا يمكن التغيير من دون هذا المجال المعرفي، الذي وجب أن يكون فيه التكامل بين أقسام العلوم، فكل قسم من أقسام العلوم يخدم الإنسان بطريقة ما.

وبهذا يكون أميرنا عبد القادر في نظريته اتجاه هذه العلوم؛ إنما هي نظرة أصيلة منبعها الفهم الحقيقي للشريعة الإسلامية، التي أمر الله فيها الإنسان بالعلم والمعرفة، ويكون بذلك قد اتبع نهج أسلافنا الأوائل السابقين الذين فهموا الخطاب القرآني، واستوعبوا معنى المعرفة الحقة التي دعا إليها الله، من دون قطيعة أو انفصال بين العلوم أو بين الجانب العملي والجانب العلمي، الذي ربي فيه النبي صلوات الله عليه الجليل الأوّل على السير وفق العلم والعمل⁽⁴⁾.

ثالثًا: حضور السنن في مجال التغيير المعرفي عند الأمير عبد القادر:

إذا أردنا أن نثبت حضور السنن في هذا المجال المعرفي عند الأمير عبد القادر فإننا نستند عليه بمايلي:

إن وعى الأمير عبد القادر بأهمية العلم ودوره في بناء المجتمع، بل في تكوين شخصية الإنسان والوصول به إلى درجة الرقي والكمال البشري، فهذا الوعي في حد ذاته إنما يعتبر من فقه السنن، إذ أن

(1) _ عن أوضاع المجتمع الجزائري ارجع إلى الفصل التمهيدي من هذه الرسالة.

(2) _ مُجد بركات، مرجع سابق، ص 18.

(3) _ ارجع إلى مقال: مُجد الأمين بوحلوفة، قراءة في أسس الحكم الراشد في دولة الأمير عبد القادر، مرجع سابق، ص 02.

(4) _ في مجال تربية النبي لصاحبه على العلم والعمل ارجع إلى: خالد بن عبد الله القرشي، تربية النبي ﷺ لصحابته، مرجع سابق، ص 117 وما بعدها/أنظر: أيضا إلى مُجد قطب، منهج التربية الإسلامية، مرجع سابق، ج1 و ج2.

حركة الإنسان الإصلاحية مرتبطة بمدى حضور هذا الجانب، فبالعلم والمعرفة يولج إلى علم السنن.

وفي الحقيقة إن العلم والسنن يتماشيان مع بعضهما البعض، إن لم نقل إنّ مباحث العلم هي نفسها السنن، سواء أكان الأمر مرتبط بالسنن الكونية التي تتحكم في المادة ونظام هذا الكون، إذ أنه كلما تمكن العلم من اكتشاف نظرية، أو توصل إلى فهم مسألة ما عن هذه المادة والكون، فهذه النظرية أو الاكتشاف أو الفهم إنما هو إدراك ووعي بجانب السنن، والأمر نفسه بالنسبة إلى السنن الاجتماعية أو السنن التاريخية التي تتحكم في سير الأمم والحضارات، فإذا تم فهمها واستوعابها واستحضارها في الفعل البشري، فهذا الوعي إنما هو فهم للسنن الإلهية التي وضعها الله قانونا حاكما على الأفعال البشرية⁽¹⁾.

وأما الأمر الثاني الذي ثبت به حضور السنن في هذا المجال المعرفي عند الأمير عبد القادر، هو تلك النظرة التكاملية نحو أقسام العلوم وأنواعها، بحيث أنه يثبت دور كل من العلوم العقلية والشرعية في حياة الإنسان وأنه لا غنى عن أي واحدة منهما، فالعلوم العقلية يتم بها الاكتشاف والتطور والازدهار، وبالعلوم الشرعية يتم القيادة والسيادة والتوجيه والإرشاد والإصلاح بها، والتي لخصها الأمير في قوله (فالعلوم العقلية أغذية والعلوم الشرعية أدوية)⁽²⁾، بالإضافة إلى ربط الأمير عبد القادر بين الجانب العلمي والعملية، فالمعرفة إذا لم تثمن بالسلوك وتطبق بالعمل، فقد باعدت فقه السنن الذي يحاكي الواقع الملموس.

أما الجانب الثالث الذي نبرز فيه فقه الأمير بالسنن في هذا المجال المعرفي وهي انجازاته التي حققها في هذا المجال المعرفي، فقد اهتم بالتعليم منذ أن تولى الإمارة، وكانت دولته تشع بالحركة العلمية، ولقد اهتم بالكتب والمخطوطات، كما أنه أكرم طالب العلم وخصص له منحة تصرف من الخزينة العمومية للدولة، كما أنه كانت له رغبة في إنشاء جامعة ومعاهد عليا لولا أن الحرب لم تسمح له من انجاز كل مخططاته⁽³⁾.

(1) _حول تداخل السنن والمباحث المعرفة: ارجع إلى مقال لسيف الدين عبد الفتاح، المنهجية الإسلامية مقدمات التفكير ومقومات المنهج، المعهد المصري للدراسات، ع21 ماي 2021م، ص 15 وما بعدها.

(2) _الأمير عبد القادر، ذكرى العاقل، مرجع سابق، ص 55.

(3) _فيما يتعلق بإنجازات الأمير عبد القادر في المجال المعرفي أنظر إلى: يحي بوعزيز الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري، ص 140/ وانظر أيضا: على الصلابي، كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال، ج1، ص 390/ راجع أيضا: مقال سامية أبو عمران، الأمير عبد القادر، رمز المقاومة الجزائرية، مرجع سابق.

وفي آخر هذا المطلب يمكن أن نجمل القول بأن الدافع الذي جعل الأمير عبد القادر يسير في هذا المجال المعرفي ويغيّر من خلاله، وهو الأمر الإلهي الذي قسمه الأمير على صعيدين، الأمر الإلهي المتعلق بالخلقة، والأمر الشرعي المتعلق بالنصوص الشرعية، فأما الأمر الخلقى فهي الاستعدادات والقدرات التي وهبها الله وقدرها للإنسان من أجل أن يخوض هذا المجال المعرفي، وأما الأمر الشرعي فهي النصوص الحاثّة على طلب العلم والتأمل والتفقه في آيات الله المنظورة والمسطورة، وبمجرد وعى الإنسان بهذا المجال والدخول فيه بالنظرة المتكاملة الجامعة بين العلوم التي يستوعب الإنسان من خلالها السنن الإلهية فيفعل دورها الحضاري، بسلوكه العلمي العملي، وبقدّر التزام الإنسان بهذا الأمر الإلهي الداعي إلى العلم والمعرفة، فتتجلي أمامه الحقائق ويدرك قواه وقدراته، ويزاول مهامه التي كلّف بها، وأعلى ما يمكن بلوغه عند الأمير عبد القادر هو الارتقاء للوصول إلى الكمال البشري، ولولا هذا المجال المعرفي ما حقّق له هذا الكمال.

المطلب الثاني: التغيير السلوكي (الأخلاقي):

عُرف الأمير عبد القادر الجزائري بشدّة التزامه وأخلاقه الحميدة الرفيعة النبيلة، فلا تنفك تقرّأ عنه كتابا أو مقالا كتب عنه إلّا وتجدها تُشيد بالجانب الأخلاقي لهذه الشخصية، التي برزت أخلاقها وظهرت علنا تحاكي بها جميع جوانب الحياة، فقد تقلّب الأمير عبد القادر في حياته على جوانب عدة منها الفرح والحزن، الإمارة والسجن، الفوز والخسارة، الصّحة والبلاء، الشّدّة والرخاء، إلّا أنّ شخصيته الفدّة التي تشبّعت بالروح الإسلامية، انبثقت منها أخلاقه فلم تفارقه لحظة في خضم هذه الحياة، فقد جسّد الأمير الأخلاق على أرض الواقع وحاكى بها الأحداث والتّوائب، وترجمها إلى سلوك عملي حياتي، فكان الأمير صاحب تجربة سلوكيّة من الطّراز الرّفيع، أرجع فيها التّصوّف إلى أصله الأوّل الممارسة التي لا تتنافى فيها التجربة الروحية مع الواقع المعيش، بل تجربته تحاكي التّفس والجوارح والواقع فلا تتعارض مع سنن الله التي بثّها في خلقه.

أوّلا: أهميّة الأخلاق عند الأمير عبد القادر الجزائري:

من المتعارف عليه أنّ الأمير عبد القادر صاحب قلم وسيف، وتجربة ونظر، وقول وفعل، وإيمان وأخلاق، فعندما تطالع كتبه ترى فيها الجانب النظريّ الذي تبلورت فيه أفكاره وآراؤه، وعندما تتدارس

سيرته ترى صدى أقواله وآراءه وعقيدته تتفاعل مع الواقع، فلم يكن عند الأمير انفصال بين العقيدة والأخلاق، بين الإيمان والعمل بل هما متمازجان كلٌّ منها يمثل صدى ووجه للطرف الآخر، فالعقيدة والإيمان قاعدة الأخلاق عنده، وسلوكه وعمله وأخلاقه مرآة للجانب الإيمانيّ العقديّ الذي كان يدين به، فكلٌّ من الجانبين يعكس ويصوّر الجانب الآخر، فالعقيدة هي إيمان بطني روحي، والأخلاق إيمان سلوكي عمليّ. فالأخلاق عند الأمير تعدّ ترجمة واقعية للإيمان والعقيدة على أرض الواقع.

ويبيّن الأمير عبد القادر أهميّة الأخلاق بأنها هي أصل الشرائع السماوية جميعها، فما من نبي إلا وحثّ على الأخلاق وأمر بها، فجاءت الشريعة المحمدية خاتمة وجامعة لكلّ ما في الشرائع السالفة، ولأهميّة الأخلاق فقد لخصّها النبي ﷺ في قوله "إنّما بعث لأتمم مكرم الأخلاق"⁽¹⁾، ويقول الأمير بأن هذه إشارة إلى الأنبياء قبله بأنهم بعثوا بمكارم الأخلاق، وما جاء به النبي إلا ليكمل ما كان عليه أسلافه وإخوانه من الأنبياء والرسل⁽²⁾.

وبهذا الفهم تكون الأخلاق عند الأمير عبد القادر هي أمر إلهي تابع لأصول الدين، فلا ينفك أن يكون هناك إيمان قائم في النفس دون أن يجسّد في الأخلاق، فالإيمان والأخلاق عند الأمير وجهان لعملة واحدة وهو الدين، فالإيمان هو الجانب المعنويّ الروحيّ الباطنيّ، والأخلاق إيمان عمليّ تجسّديّ في الأفعال والجوارح، والخلق عند الأمير هو "هيئة في النفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة وتيسر من غير حاجة إلى فكر وروية"⁽³⁾، فالأخلاق عنده ليست مجرد فعل أو القوة والقدرة على الخلق؛ لأنّ نسبة الفعل والقوة للأخلاق على الوجهين الضدين (الأخلاق الحميدة والدّميمة) على حدّ سواء، فكل إنسان خلق بالفطرة قادر على أن يصدر منه الطّرفين الأخلاق الحسنّة والأخلاق السيئة، كما أن الخلق ليس متعلّق بالمعرفة فقط؛ لأنّ المعرفة تتعلّق بالجميل والقبيح على حدّ سواء، بل إن الأخلاق عنده هيئة - حالة - تستعد فيها النفس ليصدر عنها الفعل الأخلاقيّ حسنا كان أم سيئا، فالخلق هو صورة مترجمة عن الباطن⁽⁴⁾.

(1) - تمّ تخرج هذا الحديث سابقا.

(2) - الأمير عبد القادر، رسالة المقرّاض الحاد، مرجع سابق، ص 129.

(3) - المرجع نفسه، ص 131.

(4) - المرجع نفسه، ص 132.

فيفهم من مرمى الأمير بأنّ الأخلاق لا تظهر إلا وفق الصّورة الباطنيّة للإنسان، فإن كان باطن المرء إيماناً وبقين بالله وتعاليمه، جاءت أخلاقه وفق حالته الداخليّة، وإن كان المرء كافراً أو أصاب إيمانه ريبة أو شك، فإنّ أخلاقه تأتي لترسم صورة حالته الداخليّة فتترجم على شكل أخلاق من انحراف وفساد، وظلم....

وعلى هذا الأساس جاء ديننا ليحثنا على الأخلاق، من باب الدعوة إلى الإيمان؛ لأنّ الإسلام لا يفصل بين الإيمان والعمل، والاعتقاد والأخلاق.

والمتفكّ في الشريعة الإسلاميّة يجد بأنّها دعت وأمرت وأبرزت أهميّة هذه الأخلاق في حياة الإنسان⁽¹⁾، فلقد فصلتها من جميع الجوانب، من ناحية علاقة الإنسان برّبّه، وعلاقة المرء ببني جنسه وعلاقته بما يحيط به.

ومن شدّة اعتناء الأمير عبد القادر بالجانب الأخلاقيّ، فإنّه كان يتقلّب به في محطّات الحياة كلّها قبل الإمارة، وفي قلب الجهاد والسياسة، وفي الحرب والسلم، وفي الشدّة والرخاء⁽²⁾.

فكان الأمير عبد القادر في سلوكه وأخلاقه يمثّل أخلاق الإسلام، فضرب بذلك نموذجاً للرسالة الخاتمة⁽³⁾، التي أحيا تعاليمها بالفعل الواقعي؛ لأنّ الإسلام لا يفصل بين الإيمان والعمل، فكلاهما من منبع واحدة وأمر إلهي داع إلى الإلتزام بهما، وفي الحقيقة إنّ الأخلاق عند الأمير عبد القادر باعثة على العمل الصّالح والخير، فالأخلاق عنده أساس من أسس التّغيير، وهذا ما تمّ توضيحه في المبحث الأوّل من هذا الفصل، فتعديل السلوك الإنساني، والارتقاء في سلم الأخلاق هو مجال من مجالات التّغيير عنده، ويكون على مستوى النفس للاتحاق بأعلى كمالات الأخلاق فيها.

ثانياً: التّعديل في السلوك من خلال تركيّة النفس عند الأمير عبد القادر:

مجال التّغيير السلوكي عند الأمير عبد القادر هو النفس الإنسانيّة، ويكون ذلك من خلال الدعوة إلى تركيتها وتطهيرها، وترويضها على الأفعال الحسنة. ويكون التّغيير في هذا المجال عن طريق المجاهدة والرياضة، "فالمجاهدة تكون بالأفعال الظاهرة، والرياضة بالأمور الباطنة، أي ارتياض النفس

(1) _ الأمير عبد القادر، رسالة المقراض الحاد، مرجع سابق، ص 131-132.

(2) _ ارجع إلى مقال: قلايبيّة العربي، البعد الإنساني في شخصية الأمير عبد القادر الجزائري من خلال كتاب حياة الأمير هنري تشرشل، مرجع سابق، ص 168، ص 169، ص 170، 178.

(3) _ المرجع نفسه، ص 176.

وتركها للصفات البهيمية المردولة شرعا وطبعاً" (1).

وهذا ما يطلق عليه عند الصوفية بالتخلية والتحلية، "التصفية والتزكية"، "فتصفى النفس حتى يزول شرها وجموحها إلى الصفات الذميمة والأخلاق اللثيمة" (2)، ثم يتم تزكية النفس عن طريق تحليلتها وتزنيها بمكارم الأخلاق ومحاسنها.

ولقد بين الأمير بأن السير في هذا المجال والتغيير فيه إنما يكون سيرا معنويا غير محسوس؛ لأن السالك فيه يقطع مجالات النفوس، التي هي في الحقيقة نفس واحدة وإنما تعددت باعتبار صفاتها وتباين مقتضياتها (إلى نفس أمارة، لوامة، ملهمة، مطمئنة...)، فالتسالك إنما يسلك مجالات معنوية، وقطع هذا الطريق إنما كناية عن تبديل صفاتها البهيمية بالصفات الإلهية (3).

والمقصود عند الأمير بهذا السير والتغيير، إنما هو أن يستطيع الإنسان من أن يمتلك نفسه ويضع فيها كل وصف في محله اللائق به، وأما تحوُّ الصفات بالكلية بمعنى زوالها فهذا محال ولا يمكن وقوعه (4)، إذ أن حقيقة الإنسان معجونة بهذه الصفات، ومن اعتقد بمحوها رأسا فقد أخطأ.

والمقصود بتصفية النفس إنما هو تذليلها وقمعها على الاسترسال، وقهرها حتى تكون تحت حكم الشرع والعقل، وإنَّ الشرع قد عين مصرف تُصرف فيه الصفات الذميمة، مثل الغضب فهو لا يكون إلا لله وفي الله، كما كان رسول الله ﷺ إذا غضب غضبا شديداً لا يكون إلا على محارم الله وحدوده، فإذا كان هذا تحرك المرء للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومثله الحسد فقد نهى عنه الشرع ولكن صرفه النبي في موضع آخر في قوله «لا حسد إلا في اثنتين، رجل أعطاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق، ورجل أتاها الله الحكمة فهو يعمل بها ويعلمها الناس» (5)، فالحسد مذموم ولكن صرفه النبي إلى موضع إذا تم في موضعه الصحيح، حرك الإنسان إلى فعل الخير وكسب الأجر (6)، وغيرها من الأخلاق التي يبين الشرع مصارفها ومواضعها. فتزكية النفس عند الأمير المقصد منها ضبط النفس وسلوكها

(1) _ الأمير عبد القادر، المواقف، مرجع سابق، ج 1، ص 238.

(2) _ الأمير عبد القادر، المواقف، مرجع سابق، ج 1، ص ص 238 _ 240.

(3) _ المرجع نفسه، ج 1، ص 135.

(4) _ المرجع نفسه، ج 1، ص ص 135 _ 238.

(5) _ البخاري، صحيحه، مرجع سابق، باب الاغتياب في العلم والحكمة، رقم الحديث 73، ج 1، ص 25.

(6) _ الأمير عبد القادر، المواقف، ج 1، ص 238.

وصفاتها بميزان الشرع⁽¹⁾.

وفي الحقيقة إنّ هذا المجال السلوكي والتغيير فيه هو انعكاس للتجربة الصوفية التي خاضها الأمير في خضم حياته، والتي نشأ وتربى عليها في أحضان أسرته وبيئته التي كانت مشبعة بالقيم الأخلاقية.

ومن المعلوم أنّ الصوفية برزت في زمن تعالت فيه الصيحات التي غالت في الجانب العقلي للإنسان، وهشت الجانب الروحي، وبرز فيه الاهتمام بالماديات وزخرف الحياة⁽²⁾، حتى أصبح الإيمان مغطى بقلب الفلسفة وعلم الكلام والجدل، ما أفقده معناه الحقيقي الذي يقر في القلب فيضيء معه عملاً مشرقاً في الجوارح والأعضاء، وهنا برزت الطائفة الصوفية الأولى، وعملت على سدّ الفراغ الذي وقع فيه الإنسان من الناحية الروحية⁽³⁾، التي دخلوا ميدانها من ناحية الممارسة والانشغال بتربية الفرد تربية روحية تعيدهم إلى عصر الصحابة، الذين أعلى فيهم النبي ﷺ هذا الجانب.

ولقد أعطى نبينا العظيم المربي الأول محمد ﷺ جانب تركية النفس أهمية بالغة في تربيته لصحابته واعتنى به عناية خاصة⁽⁴⁾، فمنهج التربية النبوية واضح فيه جانب تركية النفس، وذلك لتأثير هذا الجانب عن شخصية الإنسان تأثيراً قوياً، يجعل الإنسان مقبلاً على الخير أكثر، مندفعاً نحو الصلاح⁽⁵⁾.

وهذا ما أراد الأمير عبد القادر الوصول إليه من خلال تجربته الصوفية التي مارسها في الحياة، فتصوّف الأمير لا يرفض فيه العالم⁽⁶⁾، والواقع ويهرب منه، بل تجربته تُحاكي الواقع وتنسجم معه، وفي كلّ محطة من المحطات التي تقلّب فيها تجد الأمير يرتفع في أخلاقه، ويسمو كثيراً.

وهذا المجال - التغيير السلوكي الأخلاقي - عند الأمير عبد القادر، مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالرقي الكمال الإنساني، فالغاية والهدف منه تحقيق هذه المرتبة.

(1) _ المرجع نفسه، ج 1، ص 238.

(2) _ عرفان عبد الحميد فتاح، نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها، دار الجيل، بيروت، ط 1، 1413 - 1933م، ص 49 وما بعدها.

(3) _ المرجع نفسه، ص 52.

(4) _ خالد بن عبد الله القرشي، تربية النبي لأصحابه، مرجع سابق، ص 85.

(5) _ المرجع نفسه، ص 85.

(6) _ انظر إلى مقال: مقدم رشيد، الروحي والثقافي في فكر الأمير عبد القادر الجزائري، مرجع سابق، ص 3.

ثالثاً: التغيير السلوكي وعلاقته بالإنسان الكامل والسّنن الإلهية:

1_ التغيير السلوكي والكمال الإنساني:

إنّ التغيير السلوكي عند الأمير عبد القادر، هو حركة الإنسان في نفسه من أجل أن يصل إلى مرتبة الكمال التي هي في الحقيقة أصل النشأة والخلقة الإنسانية جمعاء⁽¹⁾، ولا تبرز هذه الكمالية إلا بالاستعدادات التي يحققها المرء على مستوى النفس.

إنّ هذه الحركة التغييرية عند الأمير عبد القادر تأخذ شكل الوظيفة التي أنيطت بالخلقة، إذ أنّ هذه الوظيفة السلوكية الأخلاقية⁽²⁾، مفادها التحقق والتخلق بالصفات الإلهية الشاملة مجموع الصورة الأدمية، التي خلق عليها بنو البشر.

فإن التحقق بهذه الوظيفة السلوكية توصل إلى الكمال، ومن دونها لا معنى للإنسان الكامل في الحقيقة، وبها يكون له الأحقية في أن يلج في الوظيفة الكبرى (الخلافة).

فلا خلافة عند الأمير إلا إذا سلك الإنسان هذا المجال-التغيير السلوكي-، الذي من خلاله يدرك الإنسان فيه حقيقة الخلقة التي هو عليها، فيستثمر قواها فيما يخدم صالحه وصالح من حوله.

فمجال التغيير السلوكي عند الأمير يبدأ بتزكية النفس، من خلال تطهيرها وتصفيتها من درن المادة التي هي جزء من خلقه الإنسان، ليصل فيه المرء إلى علو الجزء الثاني من الخلقة، وهو الجانب الروحي الذي إذا ارتقي في الإنسان حصلت له الكمالية.

لأن مفاد الكمال عند الأمير هو التحقق والتخلق بمجموع الصفات والأسماء الإلهية التي طبعت عليها الخلقة الإنسانية.

وبالتمعن في كتاب المواقف للأمير عبد القادر تجد أن هذا المجال السلوكي مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمجال المعرفي الذي يخوضه المرء من أجل أن يصل فيه هو كذلك إلى الكمالية، لأن الكمال عند الأمير مرتبط بهذين المجالين معاً، المعرفة والسلوك، فكلما تركى المرء صفت نفسه، وإذا ما حصل لها الصفاء قوت فيها المعرفة، فإذا ازدادت معرفة الإنسان إزداد معها التحقق والتخلق بالشكل الأمثل، وإذا ما تحقق هذا

(1) _ارجع إلى: الفصل الأول المبحث الثاني من هذه الأطروحة فقد تم التطرق فيه إلى حقيقة الكمال الإنساني عند الأمير.

(2) _ثم البحث عن وظائف الإنسان الكامل عند الأمير في هذه الأطروحة ارجع إلى الفصل الأول، المبحث الثاني.

حق أن يسمى هذا الكائن بالإنسان الكامل، وحُق له معها المهمة الأولى والوظيفة العظمى الخلافة⁽¹⁾.

وقمة الكمال عند الأمير عبد القادر لا يكون بالتنطع والرهابية في الدين، بل قوامه الالتزام بشرع الله⁽²⁾، ومزاولة ما كلف به والقيام بوظائف العبودية⁽³⁾، والأخذ بالأسباب وبهذا نجد الأمير ينبه ويركز بشكل كبير على أن طوق الشريعة لا يزول ولا يفارق رقبة سالك أو عارف بالله فإن قمة الإستقامة والنور في الالتزام بالكتاب والسنة⁽⁴⁾.

وعلى هذا الأساس جاءت حركة الأمير السلوكية الواقعية الملموسة الظاهرة للعيان توافق ما يؤمن به، فقد عرف بشدة التزامه وتقيدته بتعاليم الدين الإسلامي، التي أراد فيها أن يحاكي القدوة الأولى⁽⁵⁾، والأكمالية العظمى التي لا كمال مثلها المتمثل في شخص النبي، وهذا ما نبه عليه الأمير عبد القادر واسفتح⁽⁶⁾، به كتابه الموافق الذي بث فيه أسرار تجربته الصوفية.

الإنسان هو قطب الرحي عند الصوفية، لهذا نجدهم يهتمون بالإنسان روحيا قبل أن يكون جسداً، ولقد جاء القرآن بنصوصه بدعم هذا المجال التغييري في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّهَا﴾^(١) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا^(١٠) [الشمس: 9-10]، وهذا التغيير السلوكي جانب من جوانب الرسالة الحمديدية التي بعث بها النبي ﷺ لكي يخرج هذه الأمة إلى النور في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾^(٢) [سورة الجمعة: 2]، فهذه التزكية التي تدعوا إليها الآية "ترتفع بالإنسان وتصوراتها عن الحياة كلها وعن نفسه ونشأته إلى آفاق النور التي يتصل فيها بربه ويتعامل مع الملائكة الأعلى، ويحسب في شعوره وعمله حساب ذلك الملائكة العلوى الكريم"⁽⁷⁾.

(1) _ الأمير عبد القادر، المواقف، مرجع سابق، ج 1، ص 123 وما بعدها.

(2) _ المرجع نفسه، ج 1، ص 128، ج 1، ص 191.

(3) _ المرجع نفسه، ج 1، ص 298.

(4) _ الأمير عبد القادر، المواقف، ج 2، ص 932.

(5) _ المرجع نفسه، ج 2، ص 932.

(6) _ المرجع نفسه، ج 1، ص 101.

(7) _ سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ج 6، ص 3565.

وهذا هو الهدف الذي من أجله أنشأت الصوفية في عهدها الأول قبل بروز الشطحات فكانوا يردون الوصول إلى الملاء الأعلى بقلوبهم وسرائرهم، لتسّموا أخلاقهم وتعلوا همهم فيسيروا نحو العمل الصالح قلبًا وجوارحًا.

ولقد أحيا الأمير عبد القادر الجزائري يتجربته الصوفية هذا الجانب بعدما كثر فيه البدع والخرفات في زمانه⁽¹⁾، فجاءت ممارسته السلوكية الأخلاقية تركز الجانب الوجداني في الإنسان وترفع من همته إلى أعلى درجات اليقين الإيماني، الذي يشع نوره على الجوارح والأعضاء، ليحاكي بهذه الممارسة السلوكية الواقع والحياة في جميع تقلباتها⁽²⁾، ولقد شهد من عاش مع الأمير واختلط به من عدو أو صديق علو هذا الجانب وبروزه عنده بشكل يضيف عليه سمة الروح الإسلامية، التي بدت عليه في تعاملاته وأخلاقه. فيكون الكمال عند الأمير جامع بين النظرية والتجربة، بين التزكية والممارسة، موافق للإيمان والعمل.

2_ التغيير السلوكي الأخلاقي وعلاقته بالسنن الإلهية:

السنن الإلهية هي قانون الله العام الذي يحكم به في هذا الكون بما فيه الإنسان وحركته، فهو منهج الله ونظامه المطرد الذي بثه في جميع خلقه⁽³⁾.

والإنسان مخلوق من مخلوقات الله، بما حوته خلقته الظاهرية والباطنية (الجسم والروح)، فهو يخضع لنظام هذا القانون السني الإلهي بوجهيه، سواء المتعلق بالمادة من ناحية النمو والتكاثر، والحياة والموت، فالإنسان يخضع لما تخضع له المادة في الكون إلى هذه السنن الكونية، وهي الوجه الأول من أوجه القانون السني العام الإلهي⁽⁴⁾، وأما الجانب الباطني للإنسان والذي له علاقة في إصدار الفعل عنده، فهو كذلك يخضع إلى الوجه الثاني من القانون السني الإلهي العام، الذي يتحكم في حركة الإنسان سواء أكان فردًا أو جماعة.

ومن ثم فإن التغيير السلوكي له علاقة مباشرة بالسنن الإلهية التي تتحكم في سير الأفراد

(1) _ محمد بركات، مرجع سابق، ص 34.

(2) _ المرجع نفسه، ص 60.

(3) _ ارجع إلى: الفصل الثاني، المبحث الأول من هذه الأطروحة فقد تم التطرف فيه إلى تعريف السنن الإلهية.

(4) _ أنواع السنن أو وجوه القانون السني، ثم تبيانها في الفصل الثاني المبحث الأول من هذه الدراسة.

والجماعات، والأمم والحضارات، فهي تتحكم في هذا التغيير إيجاباً أو سلباً، صلاحاً أو فساداً، ولقد أشار إليها عزو جل في كتابه العزيز في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بَقِيَهُ حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11].

فالتغيير الذي بينه الله من نعمة أو نقمة إنما مرده إلى صنيع نفس الإنسان، فنفس الإنسان هي المحرك الأساسي لاندفاع الأفعال التي تصدر عن هذا الكائن المخلوق.

فالتزكية التي مفادها تطهير النفس من شهواتها وماديتها، والحاقها بالأخلاق السامية، إنما هو من باب مساورة ومواكبة السنن الإلهية التي وضعها الله من أجل أن تقود هذا الكائن إلى غايته وهدفه الذي كلف به.

ومما كلف به الإنسان العبادة والعمارة والاستخلاف، وكل واحدة من هذه الوظائف إنما تحتاج إلى سلوك يصدر عن الإنسان لكي يؤدي هذه الوظائف على أكمل وجه.

ومن ثم كان الإنسان بما حوته نفسه هو القضية الأولى في مجال التغيير، وهذا ما عرّف عنه مالك بن نبي في كتابه تأملات حين قال: "إن القضية ليست قضية أدوات وإمكانيات إن القضية في أنفسنا، ولهذا علينا أن ندرس الإنسان أولاً، لأنه إذا تحرك الإنسان تحرك المجتمع والتاريخ وإذا سكن سكن المجتمع والتاريخ"⁽¹⁾.

والنفس الإنسانية بما حوته من مكنونات هي طاقة كامنة⁽²⁾، تحرك المرء إلى الفعل بحسب ما وقر فيها.

ولهذا تعد تركية النفس وطهارتها من بين العوامل التي تحرك الطاقة الكامنة في هذا الكائن، فالتغيير السلوكي سبب في التغيير الواقعي، لأن النفس الإنسانية مرتبطة بسنن فإذا فُعلت بشكل الصحيح انطلق معها الإنسان إلى العمل الصالح النافع.

"فالسنن النفسية هي القاعدة الأرضية التي تنطلق منها الحياة، بل إنها أرضية كل السنن الأخرى،

(1) _مالك بن نبي، تأملت، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط1، 1979م، ص 129 بتصريف.

(2) _ارجع إلى: محمد قطب، منهج التربية الإسلامية، مرجع سابق، ج1، ص 42 وما بعدها.

فإذا لم نفقه هذه السنن النفسية، فلا حاجة إلى الحديث عن السنن الاجتماعية والتاريخية والطبيعة⁽¹⁾.

ولهذا جاء الإسلام بنظام شامل وكامل يبيّن شخصية هذا الكائن المخلوق؛ نظام يخاطب ويجمع فيه بين العقل والقلب والروح، يسمو فيه الإنسان إلى أعلى الدرجات، وذلك وفق سنن الله في التربية والتزكية⁽²⁾.

فمعرفة هذه السنن الإلهية النفسية التي تتحكم في قوى الإنسان سواء الإيجابية منها أو السلبية، سنن الهداية والرشاد، أو سنن الخسران والضلال، فمعرفة هذه السنن من باب جلب المصالح ودفع المفاسد الروحية والبدنية، فإذا ثمّ فقه هذه السنن ثمّ معها معرفة كيفية إصلاح القلوب⁽³⁾.

ومن هنا فإنّ التغيير السلوكي وجب أن يقوم على معرفة السنن الإلهية النفسية التي من خلالها يركي الإنسان نفسه وفق مراد الله وأمره.

والتغيير السلوكي مرتبط كل الارتباط بالتزكية والأخلاق، ولهذا فقد اعتنى النبي ﷺ بتزكية صحابته⁽⁴⁾، وتطهيرهم مما كانوا عليه في الجاهلية من ذمامة الأخلاق وسوءها، وبهذه الطهارة والتزكية استطاع أن يخرج منهم القادة الذين غيروا من مجرى التاريخ بعد تغييرهم ما بأنفسهم.

وعلى أساس هذا الطرح نجد أن الأمير عبد القادر بتجربته التي مارس فيه الأخلاق وصفاء النفس وطهارتها، فهو من باب الأخذ بالسنن الإلهية الحاكمة على النفس البشرية، وهو الذي كان يدرك أهمية الجانب السلوكي الأخلاقي في التغيير فقد كان يقوم خاطبا واعظا وداعيا في جنوده وأهله من أجل الالتزام بالأخلاق⁽⁵⁾، والإصلاح من النفس بقدر الإمكان.

إن هذا المجال التغيير السلوكي عند الأمير عبد القادر الجزائري، المستنتج والمستنبط من تجربته الصوفية التي خاضها ومارسها على أرض الواقع، والتي عاش بها حياته في جميع جوانبها، وهي التي بنت شخصيته الفريدة.

(1) _عادل عساوي، مرجع سابق، ص 183.

(2) _رشيد كهوس، بناء الشخصية الإسلامية من خلال السنة النبوية، مرجع سابق، ص 2.

(3) _عادل عساوي، مرجع سابق، ص 190.

(4) _خالد القرشي، مرجع سابق، ص 81.

(5) _ارجع إلى مقال: فلاية العربي، البعد الانساني في شخصية الأمير عبد القادر، مرجع سابق.

فتجليات التغيير في هذا المجال مرتبط ببناء الإنسان من الجانب الروحي عن طريق تهذيب النفس وتركيتها وترويضها، ليتحرّر الإنسان من درن المادة وشهواتها، ليصعد ويعلو إلى أعلى درجات الكمال، فيستشعر العالم الروحاني، والمرتبط من جانب الخلقة التي هي نفخة من روح وقبضة من تراب، من دون إلغاء هذه القبضة وإنما ضبطها، وامتلاكها، وصرفها نحو ما أمرت وشرعت له.

المطلب الثالث: التغيير الوجودي (الاستخلافي):

تقلّد الأمير عبد القادر زمام الحكم في بلده في زمن كانت تموج وتغوص فيه الجزائر في التشتت والفرقة، وسوء الأوضاع في كلّ الأصعدة، وأكثرها سوءا سقوط الجزائر تحت وطأة الاحتلال الفرنسي فبايعه أهله وشعبه على الإمارة والقيادة.

فتحرّك الأمير في التغيير الاستخلافي على مستوى بلده بما يمليه عليه الضمير والواجب الديني الذي من أجله قبل بالإمارة، فأنجز الأمير في فترة قصيرة من الحكم ماعجز الكثيرون من تحقيقه خلال قرون من الزمن، فقد استطاع الأمير لمّ الشمل، وتنظيم الصفوف، وتقوية الجيوش، وبناء الدولة والحصون والقلاع، وصكّ العملة، وصنع الأسلحة، ونظم شؤون القضاء والسياسة والاقتصاد والتعليم...، وهو ذلك الشاب خريج الزوايا الذي لم تكن له سبق تجربة ولادارية بالحكم والإمارة والسياسة، فقد أبلى الرجل بلاءً حسنا، وحنكة وعبقريّة لانظير لهما.

ويعود للأمير عبد القادر الفضل الكبير في تحريك عجلة التغيير في نفوس الشعب الجزائريّ الذين تلقفوا منه الشوكة التي بقيت في حلق المستعمر الفرنسي، حتى تحرّرت البلاد على يد الأشراف والأطهار من أبناء الجزائر. وسنتطرّق في هذا المطلب إلى هذه التجربة التغييرية، التي أطلقنا عليها المجال التغييريّ الوجوديّ الاستخلافيّ عند الأمير عبد القادر، وسنفكّ شفرات هذا التغيير عنده، ونبيّن مرمانا ومقصدا من تسميته بالتغيير الوجوديّ.

أولا: معنى ومقصد التغيير الوجوديّ عند الأمير عبد القادر الجزائريّ:

أول ما نقف عليه في تبيان المعنى والخلفيّة التي وقفت وراء تسمية هذا المجال بالتغيير الوجوديّ هو نظرة الأمير واعتقاده في الخلافة، ومدى ارتباطها بالكمال الإنسانيّ لديه.

إنّ الخلافة عند الأمير عبد القادر مرتبطة بخلق الانسان ووجوده فوق هذه الأرض، وهذا حين

أعلن الله تعالى للملائكة عن جعل خليفة لهذه الأرض في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30]

فالخلافة عند الأمير عبد القادر سبب في وجود هذا الكائن، فلم يعلن الله عن شيء للملائكة من خلق هذا الإنسان سوى دوره ووظيفته التي أنيطت بخلقه، فالخلافة سبب أولي لوجود الإنسان. وهذه الخلافة هي الأمانة التي أبت السماوات والأرض عن حملها في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: 72]، فقد فسّر الأمير عبد القادر في كتابة المواقف بأن الأمانة التي أشارت إليها الآية إنما المقصود منها الخلافة⁽¹⁾.

فالخلافة عند الأمير عبد القادر هي المقصد الأول والرئيس وراء وجود الإنسان على الأرض، إذا أنّ الله لم يذكر في بداية إعلانه عن خلق هذا الكائن شيء عن العبادة ومستلزماتها في الدين، وبالتالي فالخلافة هي العلة والمقصد الأول من وراء خلق الإنسان، فحركة الإنسان الاستخلافية في الأرض مرتبطة بمقصد خلقه، وكلّ من تخلف عن هذه الحركة الوجودية ولم يؤدّها فقد قصر في أداء واجبه اتّجاه هذا المقصد.

ثانيا: أبعاد الخلافة عند الأمير عبد القادر وعلاقتها بالكمال الإنساني:

الخلافة عند الأمير لا يرمى بها المعنى السياسي المتمثّل في نظام الحكم الذي عُرفت به الدولة الإسلامية بعد وفاة النبي ﷺ، وإنما الخلافة عند الأمير هي التحقق والاتّصاف بجميع الأسماء والصفات الإلهية⁽²⁾.

وهذه الأسماء والصفات الإلهية التي يتّصف بها الإنسان لكي يحقق الخلافة هي أصل في خلق الإنسان عند الأمير عبد القادر، فالإنسان (ظاهر وباطن)، ظاهره خلق، وباطنه حقّ، فهو الكائن الوحيد الذي خلق على الصّورة آدميّة التي جمعت كلّ هذه الأسماء والصفات الإلهيّة مع الفرق بين الخالق والمخلوق على حدّ تعبير الأمير عبد القادر، الذي يُبرئ نفسه في كتابه المواقف عن الحلول

(1) _ الأمير عبد القادر، المواقف، مرجع سابق، ج1، ص 427.

(2) _ المرجع نفسه، ج7، ص 472.

والاتحاد والامتزاج⁽¹⁾.

ويرى الأمير أنّ الخلافة أنيطت بهذا الكائن للاستعدادات التي خلق عليها؛ لأنّ الخلافة مسؤولية وتكليف للمسؤولية من غير استعداد هذا محال في حقّ العليم الحكيم⁽²⁾.

واقتضت الحكمة الإلهية (في رأي الأمير عبد القادر) أن تكون الخلافة في بني البشر لا غير، ذلك لأنّ الجنس الآدمي خلق على هيئة تؤهّله من أن يحمل المسؤولية، وهذه الخلقة هي إنطواء الإنسان على الصورة الالهية "الصورة الآدمية"⁽³⁾، التي هي مجموع الأسماء والصفات الإلهية، التي خلق الله بها العالم كلّ، وهو ما يطلق عليها الأمير بمرتبة الألوهية [مرتبة الأسماء والصفات]، فقد تفرقت في العالم كله علوية وسفلية، واجتمعت في الإنسان⁽⁴⁾، وبهذا الاجتماع نال شرف الخلافة.

ونلاحظ أنّ الأمير عبد القادر يفرّق بين مرتبة الذات العلية ومرتبة الألوهية، فمرتبة الذات لا تدرك ولا يمكن الحديث عنها إلا عن طريق مرتبة الألوهية، التي هي آثار الله الظاهرة في خلقه وهي أسماء وصفاته، فهذه الآثار تفرّقت في العالم، واجتمعت الآثار كلّها في هذا الكائن الإنسانيّ، الذي به كمل العالم⁽⁵⁾، فالإنسان عند الأمير هو الكون الجامع للحقائق الإلهية والكونية (الروح والجسد)، ولهذه النشأة والخلقة، اقتضت أن تكون الخلافة الوجودية⁽⁶⁾.

فحامل مسؤولية الأمانة عند الأمير عبد القادر المتمثلة في الخلافة، لا بدّ أن يكون الخليفة ملكاً صغيراً على هذا الكون، بمعنى ربّاً صغيراً⁽⁷⁾، فالإنسان ربّ وعبد، عبدٌ من ناحية أنه مخلوق مكلف، وربّ من ناحية أنه خليفة⁽⁸⁾، فالربّ الصغير الخليفة معناه القيام بمصالح وشؤون العبادة والعمارة⁽⁹⁾.

(1) _ارجع إلى: الفصل الأول من هذه الأطروحة فقد تم إبراز ماهية الإنسان عند الأمير عبد القادر، ومعنى الصورة الآدمية، ومجموع الصفات والأسماء.

(2) _ الأمير عبد القادر، المواقف، مرجع سابق، ص 427.

(3) _المرجع نفسه، ج 1، ص 495.

(4) _المرجع نفسه، ج 2، ص 513 وما بعدها.

(5) _المرجع نفسه، ج 2، ص 517.

(6) _المرجع نفسه، ج 1، ص 495.

(7) _الأمير عبد القادر، المواقف، مرجع سابق، ج 1، ص 427، والمقصود بالرب الصغير أي المسؤول عنه، كقولنا جاء رب الأسرة.

(8) _المرجع نفسه، ج 2، ص 516.

(9) _المرجع نفسه، ج 1، ص 296.

فوق هذه الأرض الذي هو مستخلف فيها، وذلك من ناحية التسخير والإعمار، بما اقتضاه شرع الله في تنزيله. ومما مقصود من كلمة الرب هنا بالنسبة للإنسان إلا كقولنا في اللغة العربية دخل رب الأسرة. وشرط الأمير عبد القادر لتحقيق هذه الوظيفة الوجودية الاستخلافية على أتم وجه، وجب أن يبلغ الإنسان مرتبة الكمال الإنساني، الذي هو الآخر منوط بالخلقة البشرية، التي تؤهل الإنسان لبلوغ هذا الكمال⁽¹⁾، فالكمال الإنساني والخلافة عند الأمير عبد القادر كليهما ذو بعد وجودي في أصل خلقه الإنسان، فالكمال هو خلقه حاز عليها الكائن البشري دون غيره من الخلق، والخلافة جاءت مقصدا لهذا الكمال، وهو أصل لا يتحقق إلا بالاستعداد للظهور بما حوته هذه الإنسانية من خلق ظاهري وباطني، فبقدر ظهور الكمال في الإنسان تتحقق له الخلافة على المعنى الحقيقي والمراد من قبل الله.

وحقيقة هذه الخلافة عند الأمير مسؤولية لبني البشر جميعا دون استثناء، ولكن ليس الكل عنده خليفة إلا لمن التحق برتبة الكمال، والكمال لا يظهر إلا للعارف المتحقق المتخلق بمقتضى الصورة الآدمية التي هي مجموع الأسماء والصفات الإلهية، مع فرق كامل عنده بين الخالق والمخلوق⁽²⁾.

وبالتالي هذه الوظيفة الوجودية عند الأمير لا تتحقق إلا إذا حقق الإنسان الوظيفة المعرفية والوظيفة السلوكية الأخلاقية، التي بهما يبرز كمال الإنسان، وبروزه يحق له أداء الوظيفة الخلافية على الشكل الأمثل والأصح، فمجال التغيير الوجودي عند الأمير عبد القادر حوى كل حركات هذا الإنسان فوق الأرض، والذي يتحرك فيه الإنسان للوصول إلى الكمال المنشود، ويدخل فيه دور الإنسان في تسخير مكنونات الأرض وخيراتها للتعمير، كما تدخل فيه حركة الإنسان لتحقيق العبادة التي تعدّ الهدف الأول من الخلافة، ويدخل تحت هذا المجال التغييري الوجودي تغيير الإنسان لإعلاء كلمة الحق وارساء شرع الله الذي أمره به خالقه عن طريق كتبه ورسله⁽³⁾.

فحركة التغيير في هذا المجال الوجودي الاستخلافي عند الأمير لها ثلاثة أبعاد، البعد الأول حركة الإنسان الوجودية التي تربط العبد بخالقه وهي التزام الإنسان بالعبادة والتقيد بشرع الله. والبعد الثاني

(1) _ المرجع نفسه، ج2، ص 569.

(2) _ المرجع نفسه، ج1، ص 133، ص 495.

(3) _ فيما يخص دور الإنسان وحركته في هذه الأرض ارجع إلى: الأمير عبد القادر، ذكر العاقل، مرجع سابق، ص 24 وما بعدها / حول حول مقصود العبادة، ارجع إلى ص 38-39 من نفس المرجع / وعن إعلاء كلمة الحق واتباع الشرع ارجع إلى رسالة المقرض الحاد فقد تحدث فيها الأمير عن دور الجهاد، ص 135 وما بعدها.

يتمثل في حركة الإنسان اتجاه هذا الكون المتمثلة في عملية تسخير وإعمار، والبعد الثالث يتمثل في حركة الإنسان اتجاه بنى جنسه الذين يعيشون معه على سطح هذه المعمورة، والمتمثل في تحقيق القيم والمعاني والمبادئ التي تحكم أفراد هذا الجنس فيم بينهم لتكوين إمارتهم وعلاقاتهم، من تعاون، ورحمة وإيحاء، وعدل، ومساواة....؛ من أجل تحقيق مصالح كل الإنسانية.

وهذه الأبعاد التغييرية في هذا المجال قد رمى إليها الأمير في أول موقف استفتح به كتابه المواقف الذي ناشد فيه أن يتخذ النبي ﷺ قدوة لكل إنسان في حركاته وسكناته⁽¹⁾، فهو الذي تمثلت فيه الأكمالية الكبرى، ولا تخرج حركة الإنسان فوق الأرض عن هذه الأبعاد الذي تمثلها وعاشها وحققها محمد ﷺ على أرض الواقع، فكان فيه قرآن يمشي فوق الأرض.

كانت هذه نظرة الأمير عبد القادر إلى الخلافة، التي تعدّ مجالا للتغيير الوجودي عنده، فمن خلالها تبرز حركات الإنسان المخلوق، فإن إترنت حركاته وظهرت استعداداته لخوض هذا المجال التغيري، والتزام بما هو عليه من وظائف المعرفة والسلوك وأداء واجب العبادة، جاء التغيير في هذا المجال يواكب المقصد والمرمى الحقيقي من معنى الخلافة عنده، واتّسمت حركته بالنجاح والفلاح.

فمعنى الخلافة عند الأمير لا يقتصر على المعنى الخاص بنظام الحكم والسياسة الذي عرفت به الدول الإسلامية بعد انقضاء عهد الرسول ﷺ، و ما جاء بعده من الخلافة الراشدة للصّحابة رضوان الله عنهم، وإلى آخر معاقل الدولة العثمانية، وإلغاء "كمال أتاتورك" لنظام الخلافة. فالخلافة عند الأمير لها معنى شامل يسع جميع حركات الإنسان وأبعاده، ونظرة الأمير عبد القادر إلى هذه الخلافة بهذا المعنى راجعة لنظرته الصّوفية اتجاه الانسان، فقد وافق الأمير في آراءه إلم رمى به الصّوفية نحو هذا الإنسان ودوره ووظائفه المنوطة به، خاصة آراء ابن عربي⁽²⁾، الذي تجدد الأمير في كثير من الأحيان إمّا مقتبسا منها، أو شارحا لها، أو مبسّطا ومدلّلا على مفهومها ومرادها.

وإذا بحثنا خارج نطاق الصّوفية والتصوّف عن حقيقة الخلافة فإننا سنقف على رأيين، الأول يرى بأنّ الخلافة هي نظام حكم جاء به الإسلام، يدعو فيه إلى اعلاء كلمة الحقّ وتوحيد صفوف المسلمين

(1) _ أبعاد التجربة الوجودية التغييرية عند الأمير مستنتجة من كتابه المواقف، الذي ذكر فيه في أول موقف استفتح به الكتاب أن على العارف والمريد والسالك وأي إنسان أن يجعل قدوته الأولى النبي ﷺ الذي يتبع سيرته التي لخصت حركات الإنسان في هذه الحياة من جميع جوانبها، ومن تقيد بما فقد بان له المنهج والطريق الصحيح، وحصل له التجاح والصّلاح، ارجع إلى المواقف، ج1، ص 101.

(2) _ حول نظرية الإنسان ووظائفه عند ابن عربي ارجع إلى: عبد الوهاب فرحات، نظرية الإنسان عند محي الدين بن عربي، رسالة دكتوراه، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 2004.

تحت راية واحدة، ويناشدون أصحاب هذا الرأي أن يعود المسلمون إلى هذا النظام الذي بسبه حميت معاقل المسلمين وقوت شوكتهم⁽¹⁾، أمّا الرأي الثاني يرى بأنّ الخلافة هي أيضا نظام حكم، ولكن لم يأتي به الإسلام بل جاءت به السياسة وألصقوا به صفة الدين، وأصحاب هذا الرأي يذّمون هذا النظام الخلافي ويرجعون إليه كل فتنة أصابت المسلمين، وهو الذي أضعف الإسلام والمسلمين⁽²⁾، وأمّا أصحاب الرأي الثالث فهم الذين يرون بأنّ كلمة الخلافة جاءت بمعنى عامّ وشامل لكلّ حركات الإنسان فهي لا تقتصر على الخلافة بمعناها السياسي، الذي يعد فيها نظام حكم للدولة الإسلامية، وأصحاب هذا الرأي يرون بأنّ الإنسان خلق مستخلف على الأرض مالكا لما فيها، فاعلا مؤثرا، فهو الكائن الأعلى في هذا الملك العريض والسيد الأوّل في هذا الميراث الواسع⁽³⁾.

والخلافة عند هؤلاء جزء من كينونة الانسان وخلقته وفطرته، ولا يستطيع أن يتملّص منها أو ينفكّ عنها⁽⁴⁾، فالخلافة في هذا الرّأي "ليست مجرد الملك والقهر والغلبة والحكم... إنّما هي كلّ ماسبق استخدمه في الإصلاح والتّعمير، وتحقيق المنهج الذي رسمه الله للبشرية...، إنّ الخلفة في الأرض هي القدرة على الإعمار والإصلاح"⁽⁵⁾.

مع مؤيّد ومعارض للخلافة سواء في معناها العام أو الخاص، ومع تعدّد الآراء والأفكار حولها تبقى حقيقة أعلن الله عنها في كتابه العزيز، وكلّ فهمها وأدلى بدلوها فيها من وجهة نظره الخاصّة ومذهبه الذي يدين به، ومن بينهم أميرنا عبد القادر الجزائري الذي تماشى مع الأفكار الصّوفية في باب الخلافة الإنسانيّة، وقد عُرف عنه أنّه صاحب نظرية وتجربة وممارسة واقعية، وربّما الذي يزيد الأمير عن غيره في الصّوفية أنّه ترجم تجربته ونظريته على أرض الواقع، فحقيقة هذا المجال التّغييري عند الأمير عبد القادر مرتبط بوجود الانسان وبُعده الاستخلافيّ، الذي هو جزء من خلقته التي أنيط به وبمفهوم الخلافة عنده، التي لها معنى يشمل كلّ مناحي الحياة الإنسانية المتجسّدة في القدوة الحسنة سيدنا مُحَمَّد صلى الله

(1) _ لتبيان هذا الرّأي عن الخلافة ارجع إلى: مُجّد رشيد رضا، الخلافة، مؤسسة الهنداوي للنشر، المملكة المتحدة، د. ط، 2015/مُجّد عمارة، إحياء الخلافة الاسلامية حقيقة أم خيال، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط1، 2005م.

(2) _ لتبيان وجهة النظر في خصوص هذا الرأي انظر: مُجّد سعيد العشماوي، الخلافة الإسلامية، سينا للنشر، القاهرة، ط2، 1992/انظر أيضا: محمود اسماعيل، الخلافة الاسلامية بين الفكر والتاريخ، مصر العربية للنشر، القاهرة، ط1، 2006م.

(3) _ سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ج1، ص 54 بتصرّف.

(4) _ فاروق أحمد الدسوقي: الخلافة الاسلامية حقيقتها وأصولها الاعتقادية وحتمية عودتها، (دد)، (دب)، ط1، 1418هـ-1998م، ص 25.

(5) _ سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ج4، 2529.

عليه وسلم.

المتأمل في سيرة الأمير عبد القادر كلّها قبل الإمارة وفي خضمها وبعدها، سيجده كان يتحرّك في ثلاثة اتجاهات أساسية.

الأول علاقة الأمير برّبه المتمثلة في إيمانه، وشدة التزامه بتعاليم الدين الإسلامي، ورفع راية الجهاد من أجل إعلاء كلمة الحق. والاتجاه الثاني لحركة الأمير التغييرية الوجودية تمثّلت في علاقة الإنسان بالكون المحيط به. أمّا الاتجاه الثالث فقد تمثّل في علاقة الأمير عبد القادر بمن يعيش معهم من بني جنسه، وقد كانت حياة الأمير عبد القادر تتقلب على هذه الجهات الثلاثة، إلّا أنّ الدافع والمحرّك الأوّل هو الجانب التعبدي الإيماني، وهو القائل في كتابه المواقف "الكمال والشرف في هذه الدار إنّما هو الدؤوب على القيام بوظائف العبوديّة"⁽¹⁾.

ونستطيع أن نخلص في آخر هذا المطلب إلى أنّ المجال التغيير الوجودي الاستخلافيّ عند الأمير يمكن الوقوف عليه من خلال سيرة الأمير عبد القادر كلّها عبر مراحلها الثلاثة، فهي التي كان يعيش فيها الأمير عبد القادر ويتقلّب ويتحرّك في جنباتها، ملتزماً بالنّهج الإسلامي الحنيف، فكلّ حركة وكل عمل وإنجاز دوّن عنه من باب التغيير الوجودي الاستخلافيّ.

وفي آخر هذا المبحث يتّضح لنا أن هذه المجالات الثلاثة عند الأمير عبد القادر هي نفسها حركة هذا الإنسان نحو بلوغ الكمال، فالمجال المعرفيّ عند الأمير لصيق بالوظيفة المعرفية لدى الإنسان الكامل، فلا يمكن أن يصل إلى هذه الرتبة دون الدخول في هذه الوظيفة ومزاولتها، ومجرّد الدخول فيها يكون الإنسان قد حرّك عجلة التغيير فيه، وهي استخراج المعارف والعلوم التي بها يكشف الإنسان حقيقته التي خلق عليها، وحقيقة كلّ كائن في هذا الكون.

أمّا المجال السلوكي الأخلاقيّ فهو كذلك ملازم للوظيفة السلوكية الأخلاقية التي يسلكها المرء من أجل أن يرتقي بصفاته التي تتقلّب بين (المادّة والروح)، وكلّما زكّي الإنسان نفسه وطهرها كلما برز له كماله على أكمل وجه، فالتغيير السلوكي هنا مرتبط بالترقي النفسي وتركيتها.

⁽¹⁾ _ الأمير عبد القادر، المواقف، مرجع سابق، ج 1، ص 298.

وأما التغيير الوجودي فهو الآخر مرهون بوظيفة الإنسان الأساسية والأصلية في خلقته وهي الخلافة، وتعني حركة هذا الكائن فوق الأرض بما شَرَّع له من أحكام وأوامر تسيّر وتنظّم له هذه الحركة الوجوديّة على أكمل وجه، وهي مرتبطة كلّ الارتباط بالمجال الأوّل والثاني فبهما يمكن أن تصلح هذه الحركة، وتتّجه نحو المقصد الأصلي من وجود الإنسان وهو العبادة والعمارة.

في ختام هذا الفصل نجمل القول في النتائج الآتية:

- إنّ الأمير عبد القادر مارس التغيير دون أن يضع له خططا وقواعد، وإنما التغيير عنده هو حركة هذا الإنسان التي يدبّ بها فوق الأرض، وجاءت لفظة التغيير في كتب الأمير عبد القادر مقرونة بالحديث الشريف "من رأى منكم منكرا فليغيره..." فالتغيير أمر من أوامر الشريعة الإسلامية، ومن واجب العارف أن يغير المنكر قدر الاستطاعة، فالتغيير عند الأمير يدلّ على الإصلاح قدر الوسع والاستطاعة، وهو واجب شرعيّ على كل مسلم. كما أنّ الأمير يدعو إلى التغيير من ناحية إصلاح النفس الإنسانية بتزكيتها وطهارتها من كلّ خبث، والأخذ بها إلى الرقي الإنساني.

- التغيير هو منهج الأنبياء عند الأمير عبد القادر، وهو حركتهم التي دعو فيها إلى إصلاح حال أممهم ومجتمعاتهم، وتبيان ما يصلح به دينهم ودنياهم وعاقبتهم، ويلمس التغيير عند الأمير عبد القادر في واقعه الذي كان يتحرّك فيه على جميع الجوانب والأصعدة، فهو لم يكثر الكلام عن التغيير، وإنما مارسه في الحياة وفق مبادئه والتزاماته وأخلاقه.

- إنّ التغيير عند الأمير عبد القادر هو منهج في ممارسة الحياة وفق الشريعة الإسلامية، ومن خلال نظره إلى الإنسان التي وضع لها سقف الكمال التي يمكن للإنسان اللحاق بها إن تمّ إدراك حقيقته التي هو عليها.

- التغيير عند الأمير هو الدّخول في ممارسة الوظائف المنوطة بالإنسان الكامل، وأولها الوظيفة المعرفية محرّكة الإنسان للتغيير المعرفي، الذي في خضمه يخرج الإنسان كلّ الميزات والملكات التي تميّزه عن غيره من المخلوقات، والتي يستطيع بها هذا الكائن أن يكشف الأسرار والمكنونات، ويدلّل بعلمه كلّ ما سخره الله في هذا الكون لصالحه.

والمعرفة عند الأمير وجب أن تحمل الوجهين/ الوجه الذي ينظر به في الآفاق والأنفس، والوجه

الذي يدرس به شرع الله ولا نجاه إلا في معرفته، فهو يدعو إلى النظرة التكاملية بين العلوم وعدم الانفصال فيما بينها، وأي تراخ في أحد الوجهين يفوت على الإنسان الخير الذي ينال به السعادة في الدنيا والآخرة.

وثاني وظائف الإنسان الكامل عند الأمير عبد القادر هي الوظيفة السلوكية الأخلاقية، التي يتحرك فيها الإنسان لكي يغير من سلوكه، وهذه الحركة التغييرية إنما هي لتحريك عوالم النفس الإنسانية المنطوية على (الظاهر والباطن) (الروح والجسد)، فيتحرك الإنسان ليزكي هذه النفس ويطهرها ليحي الجانب الخير والعلوي الذي به يرقى الإنسان إلى الملائكية، ويلوي بهذه التزكية الجانب السفلي الذي يدعو إلى الشهوات والماديات ويتحكم فيه ويمتلكه ويصرفه فيما شرع له دون أن يلغى الأمير هذه الحقيقة الكلية في الإنسان، بل إن الإنسان يتطهر لكي يرتقي إلى الأفضل والأحسن في النفس الإنسانية ويصبح معه الإنسان أكثر ضبطاً لشهواته وملذاته، فلا يترك نفسه إلى قبضة الطين التي تنزله إلى الحيوانية وإنما يملكها ويعدل من جموحها وسلوكها، وهذا هو مفاد التغيير السلوكي.

وثالث الوظائف عند الأمير عبد القادر الوظيفة الاستخلاقية، التي هي حقيقة أصل وجود الإنسان، وبها يدخل مجال التغيير الوجودي، الذي يعبر عن كل حركات هذا الكائن فوق هذه الأرض المستخلف فيها، وهذا المجال عند الأمير يحدد فيه حركة الإنسان وعلاقته في ثلاثة اتجاهات رئيسة، الجهة الأولى يرتبط فيها الإنسان بخالقه، وهي حركته المتجددة في مجال العبودية، والارتقاء الروحي الذي يخاطب فيه الملائكة الأعلى الذي هو جزء من خلقة الإنسان. والجهة الثانية لهذه الحركة الوجودية تربط هذا الكائن البشري بالعالم المادي (الكون)، الذي هو مأمور بتدليله وتسخير وإعمار. والجهة الثالثة لهذه الحركة الوجودية تربط الإنسان ببني جنسه الذي هو مطالب فيه بالأخوة، والرحمة، والعدل، والمساواة....

وأسس منهج الأمير عبد القادر قائمة على ثلاثة، أولها الأساس الإيمان الديني المحرك والدافع لأي حركة تغييرية كانت، والثاني استعدادات الإنسان التي خلقه الله عليها وبها نال الشرف والكمال والاستعلاء وهي قوة العقل والعلم التي بها يستنير الإنسان على معالم الطريق الصحيحة للتغيير، وثالث الأسس لحُصت في قوله ﷺ "إنما بعثت لأتمم مكارم الخلق"، فالأخلاق سبب في علو شأن الإنسان فالتخلي عنها أو تركها أو التنازل عنها سبب في الانحطاط إلى درك الحيوانية، وبالتالي تعدد الأخلاق سقف حركة الإنسان التغييرية، فإن بدرت منه الأخلاق وصف التغيير بالإيجاب، وإن غابت وصف بالسلب.

وقائد منهج التغيير عند الأمير هو هذا الكائن البشريّ، الذي نصّبه الله خليفة على ملكه، وجهّزه بكلّ الاستعدادات التي يدخل بها حركته التغييرية على وجه هذه الأرض من استخلاف وعمارة وعبادة، وهذه كلّها من أعمال الإنسان وهو مأمور بأدائها على أكمل وجه، لهذا فقد دلّ الله على المنهج الصحيح، فإذا التزم به تمّت حركته التغييرية على الوجه المطلوب وهو الالتزام بشرع الله الذي بيّنه الله في كتابه العزيز، وهو الركيزة الثانية في هذا التغيير المنشود.

وملخص القول إنّ التغيير عند الأمير عبد القادر يبدأ بالإنسان وينتهي عنده.

خاتمة

يعدّ الأمير عبد القادر من أهمّ الشخصيات التي حقّقت بصمة خالدة في تاريخ الجزائر الحديث إذ يعدّ مؤسس الدولة الحديثة للجزائر، وهو العالم المجاهد الصوّفي صاحب القلم والسيّف، صاحب النظرية والتجربة، ولقد حُجبت صورة الأمير عبد القادر الفكرية وراء سيرته الذاتيّة، التي سالت الأعلام في إبرازها، دون الولوج إلى جوانب الفكر لدى هذه الشخصية الفدّة، التي عُرفت بعمق تطلّعها ونظرها في العديد من مسائل الفكر، ومن بين القضايا التي طرحها الأمير فكرة الكمال الإنسانيّ التي أسّس لها في كتابه المواقف، وأبرز ماهيتها ووظائفها وشروط اللّحاق بمرتبة الكمال، والمتممّن في سيرة الأمير وجهاده الذي دافع فيه عن الدّين والشّعب والوطن سيجد فيها العديد من الدّروس والعبر التي تُكشف عند دراسة وتحليل تجرّبه التّغييرية التي أراد أن يُخرج بها الشّعب الجزائريّ من الأوضاع التي كان يعيش فيها، فبنى بهذه التّجربة التّغييرية دولة وإمارة اعترف بها العدوّ قبل الصّدّيق.

ونظرا لهذه المزايا حاولنا أن نبرز ونسلّط الصّوء على جانب من جوانب الفكر عند هذه الشخصية، فعالجنا موضوع "الإنسان وسنن التّغيير عند الأمير عبد القادر".

فكانت أهمّ التّائج المتوصّلة إليها في هذه الدّراسة كمايلي:

1/ برزت شخصية الأمير عبد القادر في مطلع القرن 19م، الذي عرفت فيه الجزائر حالة مزريّة في جميع المجالات خاصة السّياسية منها؛ إذ شهدت تعقّنا في الحكم، وحدّة الأزمات الداخلية والخارجية، أدّن إلى انهيار الجزائر تحت الاحتلال الفرنسيّ، فاختر الأمير عبد القادر من قبل الشّعب الجزائريّ لقيادة الجهاد ضدّ العدوّ، بعدما كان همّه الأوّل منصبّ حول العلم والمعرفة، وهذه المرحلة تمثّل المحطّة الأولى في سيرته الذاتية، ودخل في محطّته الثّانية من سيرته بحمله للواء الجهاد والإمارة التي أراد من خلالها بناء دولة أسّس قوانينها، وأطر هياكلها، وشيّد معالمها، ونظّم جيوشها، فسعى بكلّ قواه إلى إعلاء راية الإسلام والاستقلال، إلّا أنّه باء بالفشل فاستسلم للعدو، وذلك راجع لما لقيه من خذلان من كلّ الأطراف التي كانت تحيط به من حوله، بالإضافة إلى قوّة العناد الفرنسي الذي عُرفت به الدّول الغربية في ذلك الزّمن الذي انتعشت فيه الصّحوة العلميّة التكنولوجية، ففاقت بها على العالم الإسلاميّ، فرجع إلى سباته وجهله الذي عرفته العرب قبل الإسلام.

ودخل الأمير عبد القادر المحطّة الثّالثة من حياته بعد استسلامه وأسرّه ونفيه خارج البلاد، بحيث

تفرّغ في هذه المرحلة للعبادة والعلم والعمل التطوعيّ، ولقد عرف نوع آخر من الجهاد وهو الجهاد بالقلم وجهاد النفس وتركيتها، ولقد تنوّعت آثار الأمير بين الشّعْر والنّثر، وكان أبرزها كتابه المواقف الذي تبلورت فيه تجربته الصّوفية.

2/ تعدّ قضية الإنسان من بين أهمّ القضايا الشائكة التي تطرح على ساحة الفكر مند القدم وما تزال هذه القضية محلّ نظر لاختلاف المذاهب والاعتقادات والأراء، ولقد تطرّق الأمير إلى هذه القضية في كتابة المواقف، فحاولنا إبراز أهمّ معالم الإنسان عنده فجاءت نتائج الدّراسة كالتّالي:

عرف الأمير الإنسان على ثلاثة أضرب، عرفه بما له من ملكات الرّوح والعقل والنّفس، ومرّد الأضرب الثّلاثة إلى الأمر الإلهيّ، وكلّهم مسؤولون عن المدينة الإنسانية وتسييرها، وعُرف من خلال صورته التي جمعت بين الظّاهر والباطن، فظاهره خلق وباطنه حقّ، وبهذه الحلقة يدخل إلى الحضرة الكونية والحضرة الإلهيّة، كما عُرف أيضا بما أنيط به من وظائف كالمعرفة والخلافة التيهي أصل في خلقته وبها يقوم كيانه.

وحملت تعريفات الأمير للإنسان ثلاثة أبعاد أساسية، أوّلها البعد الوجوديّ الذي يستشفّ من خلال تعريف الأمير للإنسان بالصّورة الجامعة بين الظّاهر والباطن، فهو ذلك المخلوق الذي انطوى على نسبتين، نسبة تُؤهّله للعيش في هذا الكون، ونسبة تُؤهّله للتّواصل مع عالم الحق والارتقاء إلى العالم الروحاني، وأمّا البعد الثّاني المعرفي فيلمس من خلال تعريف الأمير للإنسان بما يمتلكه من ملكات، تُؤهّله لكسب المعرفة التي هي في الأصل مركوزة فيه، وتظهر بإرادة هذا الإنسان إذ ما سعى إلى إخراجها، وأمّا البعد الثّالث السّلوكي العمليّ يظهر من خلال تعريف الأمير للإنسان بوظيفته التي لخصّها في العبوديّة والخلافة.

3/ تطرّق الأمير عبد القادر للكماليّة الإنسانيّة في كتابة المواقف، فالكمال عنده أصل في خلقه الإنسان، ومرّدّه إلى الصّورة التي حُلّق عليها، فهو الكائن الجامع بين الحقيقتين _ الظاهر والباطن _، الرّوح والجسد، فهو برزخ بين طرفي العالم العلوي والعالم السفلي، وهذا الكمال موجود في الجميع، وفترّق الأمير بين من تظهر فيه الكمالية وبين من لا تظهر، فالجميع عنده كاملون، تامّون الحلقة وما من أحد تتخلّف فيه، غير أنّ ظهور الكمال الواقعي يكون بالاستعداد الذي يحقّقه الإنسان من

أجل البلوغ إلى هذه الدرجة، التي هي في الحقيقة أصله.

ولقد أُنيط بهذا الكمال عند الأمير عبد القادر ثلاثة وظائف رئيسة، تتمثل الأولى في الوظيفية المعرفية التي بها يتعرّف الإنسان على حقيقته وحقيقة الوجود وحقيقة الخالق، والوظيفة الثانية هي الوظيفة الأخلاقية السلوكية التي يتركّى فيها الإنسان لكي تصفو إنسانيته وتعلو قيمته، فترتقي روحه إلى الملائكية من ناحية الصّفاء والتّقاء والطّهارة، فإذا ما وصل الإنسان إلى هذه المرتبة كان لزاماً عليه أن يؤدّي الوظيفة الثالثة التي حدّدها الله من أول إعلان عن خلق هذا الكائن وهي الوظيفة الخلاقيّة، فلا كمال عند الأمير من دون العروج ومزاولة هذه الوظائف التي عمادها العبوديّة لله تعالى، وضرب الأمير لهذه الكمالية نموذجاً، تمثّل في شخص الرسول ﷺ "الحقيقة المحمدية"، وجعله قدوة لكل عارف وسالك يريد الوصول إلى الحقيقة.

4/ اشتهر الأمير بعبقريته الفدّة وحنكته في تسير دولته رغم صغر سنّه في ذلك الزمن، وجعل القرآن والسنة دستوره الذي بنى عليه دولته، فأردنا أن نعرف أبعاد الفكر السنّي عند الأمير، ومدى حضورها في الواقع.

فالسّنن عند الأمير عبد القادر تمثّل حكمة الله التي بثّها في خلقه أو شرّعها في كتبه، وهي الأسباب التي أجراها الله عادة في هذه الدّنيا، وغرض هذه السّنن عند الأمير تحقيق مقاصد العباد الدّينية والدنيوية، فبها تكون عمارة الأرض وصلاح العباد وفلاحهم، ومن عطل هذه السّنن عند الأمير فقد أساء الأدب وما عرف قدر وحكمة الله تعالى، وما ناله بتركها إلّا الشّقاء والخراب في الدّنيا والخسران في الآخرة.

وكان وعي الأمير عبد القادر بالقانون السنّي الإلهيّ واقعياً ملموساً، فقد أخذ بوجهي القانون الإلهيّ السنّي، سواء الذي يتحكّم في المادّة، أو الذي يتحكّم في حركة الإنسان، فالوجه الأوّل عنده تجسّد في تدليل وتسخير موارد البلاد وخيراتهما بما يخدم مصالح دولته وشعبه، وأمّا الوجه الثّاني فقد تمثّل عنده من خلال الأخذ بقوانين الشّريعة الإسلاميّة، وسعى إلى بناء دولة قائمة على مبادئ القرآن والسّنّة.

5/ يُعد الأمير عبد القادر صاحب نظرية وتجربة، فقد استطاع أن يجعل من الفكر ممارسة واقعية

وانطلق من المشكلات التي أحاطت به ليجد لها علاجاً، فقد خطّ طريقه نحو التّغيير بما كان له من رصيد معرفي وتجربة واقعية، فأردنا أن نزيل بعض اللثام عن منهجه التّغييري الذي سار عليه في حياته فتمخّضت نتائج الدّراسة كالآتي:

إن التّغيير عند الأمير عبد القادر جوهره الإصلاح والتّعديل والتّحسين، فهو من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بقدر الاستطاعة التي يكون فيها المرء، وقاد الأمير تغييره على أسس منبعها الدّين الإسلاميّ، وتمثل الأساس الأوّل في الإيمان الذي يعدّ القوّة المحرّكة نحو الفلاح والصّلاح، وتلخّص الأساس الثّاني عنده في قوّة العقل والعلم الذي يستخدم في كشف أسرار الكون والشرع وتدليلها لخدمة مصالح الإنسان الاستخلافيّة، وتمثل الأساس الثّالث في الالتزام الأخلاقيّ الذي يعدّ الجانب العمليّ للإنسان، ويعكس صورته الداخليّة، وبه يتمّ الإصلاح والنفع.

ويقوم التّغيير كلّ عند الأمير عبد القادر على ركيزتين، الركيزة الأولى تتمثّل في العنصر البشري هذا الكائن الذي أُعطي الملكات التي تُؤهلّه من أجل أن يخوض هذه الحركة التّغيريّة، غير أنه إذا لم يستند إلى الركيزة الثّانية الممثّلة في فهم القرآن وتفعيله لا جدوى من حركته التّغيريّة، وإن برز منها بعض الإيجابيات فهي مؤقتة غير دائمة، لعدم اعتمادها على المبادئ والأساسات، التي دعى إليها الله في كتابه؛ لأنّه أعلم بما يصلح لهذا الكائن وما تقوم عليه إنسانيته، وما يحقّق له سعادته.

وأما مجالات التّغيير التي تحرّك الأمير في خضمها فقد تلخّصت في ثلاثة مجالات كبرى، أوّلها التّغيير المعرفي، ويرمى إلى أهميّة العلم ودوره في الفعل الاستخلافيّ الإيماري، ويدعو فيه الأمير إلى الجمع بين العلوم العقلية والنقلية؛ لأنّ السنن الإلهيّة جاءت تربط بين هذه العلوم في نظرة متكاملة لا انفصال فيها، وثانيها التّغيير السلوكي فهو المجال الذي يدعو فيه الأمير لتحرير الإنسان من دَرَكَ المادّة وشهواته ليصعد به إلى العالم الرّوحي، الذي ترتقي فيه نفسه وتعلو إلى درجة الكماليّة التي يمكنه اللّحاق بها، من دون إلغاء أو إقصاء لطبيعة هذا الكائن البشريّة، وكلّما حقق الإنسان الرّقي في هذا المجال زاد معه نقاء المجتمع وتماسكه وصلاحه وسعادته.

وأما المجال الثّالث الوجودي الاستخلافي فهو المعبر عنه بحركة الإنسان فوق هذه المعمورة بما فيها المعرفة والسلوك، اللّذان يعدّان مجالين من مجالات التّغيير عنده؛ إذ لا يمكن الدّخول في المجال الوجودي

من دونهما، فالخلافة عند الأمير لا تقتصر على الإمارة والحكم وإنما تأخذ بعدها الخاصّ والعام، فالخاصّ متعلّق بالحكم والإمارة، وأمّا العام فهو الخلافة بمعنى أشمل وأعمق وأدقّ، وهو أن يكون الإنسان حاملاً لهذه الأمانة التي استرعاه الله عليها، بأن يكون ربّاً على هذا الكون بما أعطاه الله من صلاحيات لتحقيقها، فالإنسان ربّ من حيث أنه خليفة مسترع على هذا الكون، الذي حمّله الله أمانة تعميره بالمنهج الذي أنزله، وهو عبد من حيث أنه مخلوق من مخلوقات الله الذي وجب عليه اتباع شرعه ومبادئه.

كانت هذه أهم النتائج التي توصلنا إليها من خلال دراستنا، أمّا بالنسبة لأهمّ التوصيات التي ندعو إليها فتتمثّل في:

- الحثّ على تسليط الضّوء على المجال الفكريّ عند الأمير عبد القادر، فهو خصب ولم يتلقّ الاهتمام الكافي من قبل الباحثين، الذين بحثوا كثيراً في سيرته وجهاده وسياسته.
- العناية بالموضوعات التي تتناول قضية السنن الإلهيّة، لما لها من أهميّة في قيام الحضارة الإسلاميّة وبعثها من جديد.
- الدّعوة إلى العناية بالشّخصيات الإسلاميّة الجزائريّة، ففي فكرها كنوز عديدة يمكن الاستفادة منها.

الفهارس

أولاً: فهرس الآيات القرآنيّة

ثانياً: فهرس الأحاديث النبويّة

ثالثاً: قائمة المصادر والمراجع

رابعاً: فهرس الموضوعات

أولاً: فهرس الآيات القرآنية

الآية	الرقم	الصفحة
سورة البقرة		
﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي﴾	30	229،44،65
﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾	31	229
﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾	82	200
﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾	131	157
﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّوْا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾	160	185
﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ ...﴾	164	144
﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُم وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾	190	168
﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾	242	207
سورة آل عمران		
﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾	19	157،198
﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾	31	80
﴿وَلَهُ ۥ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾	83	159
﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾	85	157

110	110, 187 168	﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾
137	84, 87 102 117, 122	﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾
159	162	﴿ فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ ... ﴾
164	216	﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ ... ﴾
سورة النساء		
6	36	﴿ فَإِنْ ءَانَسْتُمْ مِنْهُمْ زُشْدًا ﴾
-25 27	100	﴿ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ... ﴾
75	168	﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقْلِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ ... ﴾
119	182	﴿ وَلَا ضُلَّانَهُمْ وَلَا أُمِّيَّتَهُمْ وَلَا مَرْتَهُمْ فَلْيُبَيِّكُنَّ ءَاذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا مَرْتَهُمْ فَلْيَغْيِرْبَ خَلْقَ اللَّهِ ... ﴾
122	117	﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ... ﴾
سورة المائدة		
8	213	﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ ... ﴾

110	-78 79	﴿لُعِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾...﴾
157	111	﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾
سورة الأعراف		
111	54	﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾
سورة الأنفال		
96	20	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾﴾
96	21	﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾
96	24	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَهِهُ نُحْشِرُونَ ﴿٢٤﴾﴾
95	38	﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَآ قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾
168	39	﴿وَقَنِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَكُمْ فِتْنَةٌ فَإِنْ أُنْتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾
174	46	﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾
178، 183 200	53	﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾
سورة التوبة		
178	05	﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ

		وَأَحْصُرُوهُمْ... ﴿١٥٤﴾
154	11	﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِآتٍ لَهُمْ الْجَنَّةُ يَقُولُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾
168	36	﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يَقَاتِلُوكُمْ كَافَّةً﴾
سورة يونس		
200	9	﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾
164	13	﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾
180	15	﴿أَنْتَ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾
207	24	﴿كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُفَكَّرُونَ﴾
157	72	﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾
سورة هود		
125	06	﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾
112	49	﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَذَابَ لِلْمُتَّقِينَ﴾
121	61	﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾
185	88	﴿قَالَ يَفْقَوْمَ أَبَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكُمْ إِلَى مَا أَنهَكُم عَنْهُ...﴾
218	-116 117	﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَهُودٍ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ...﴾
سورة يوسف		

207	2	﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾
سورة الرعد		
173، 183، 184، 198 200، 216	11	﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾
200	29	﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسَنُ مَقَابٍ ﴾
سورة الحجر		
97	-11 13	﴿ وَمَا يُنْفِخُهُمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ ... ﴾
سورة النحل		
105	36	﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾
122	78	﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾
94	89	﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾
212	90	﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾
سورة الإسراء		
125	12	﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ فَضَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴾
218	-16 17	﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ... ﴾
45	70	﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَرْدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ

		وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾
98	-76 77	﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبِثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ﴿٧٦﴾ ... ﴿
124	77	﴿ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾
سورة الكهف		
97	-55 56	﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴾ ﴿٥٥﴾ ... ﴿
164	59	﴿ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴾
سورة طه		
233	114	﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ، وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ ﴿١١٤﴾
37	115	﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ ﴾
سورة الأنبياء		
164	11	﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾
105	25	﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾
185	105	﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ ﴿١٠٥﴾
سورة الحجر		
207	46	﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ ﴿٤٦﴾

167	78	﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ...﴾
سورة المؤمنون		
114، 182	-12 14	﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٣﴾...﴾
سورة النور		
122، 129	55	﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ...﴾
سورة الفرقان		
182	62	﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾
سورة النمل		
81	81	﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾
سورة القصص		
80	56	﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾
45	88	﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۚ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾
سورة الروم		
105	30	﴿فَاقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾
سورة الشجرة		
229	09	﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِيَّيْهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾

سورة الأحزاب		
79،105	21	﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ ﴿١١﴾
100	38	﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾
100	-60 62	﴿لَئِنْ لَّمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ
184	62	﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾
84،44،65	72	﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ ﴿٧٢﴾
سورة فاطر		
97	-42 43	﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ ﴿٤٤﴾ ...
سورة يس		
182	33	﴿وَأَيُّهُمْ أَلُّ الْأَرْضِ أَلَمِيتُهُ أَحْيَيْتُهَا﴾
114	-38 40	﴿وَالشَّمْسُ تَحْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ ﴿٣٨﴾ ...
سورة الزمر		
233	9	﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾
سورة غافر		
202	58	﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٥٨﴾
98	-82 85	﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ

		﴿قَالِهِمْ كَانُوا أَكْثَرُ مِنْهُمْ وَأَشَدُّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي الْأَرْضِ...﴾
سورة فصلت		
200	8	﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾
182	39	﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ ۚ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ﴾
112	53	﴿سُئِرِيهِمْ ءَايَتُنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۖ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾
سورة الشورى		
100	13	﴿سَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ ءِِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ...﴾
182	28	﴿وَهُوَ الَّذِي يُزِلُّ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ ۚ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾
162	38	﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾
سورة الجاثية		
172	-12 13	﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ ۚ وَلِيُنْجُوا مِنْ فَضْلِهِ ۚ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾...﴾
202	21	﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١١﴾﴾
سورة الأحقاف		
94	18	﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾

سورة محمد		
182	15	﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ...﴾
سورة الفتح		
163، 86، 164	10	﴿إِنَّ الدِّينَ يُبَايِعُكَ إِنَّمَا يُبَايِعُكَ اللَّهُ﴾
164، 163	18	﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾
99، 124، 131	23	﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾
157	28	﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾
195	29	﴿سَيَمَاهُمْ فِي جُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ﴾
سورة الزلزلات		
120	56	﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾
159	-56 58	﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ...﴾
سورة الحديد		
165	35	﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾
سورة المجادلة		
233	11	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانْشُزُوا يَرَفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

سورة الحشر		
سورة الجمعة		
121، 216	2	﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (٢)
سورة الملك		
10	10	﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (١٠)
سورة القلم		
214	4	﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾
سورة الشمس		
216، 248	10-9	﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠) ﴾
سورة التين		
49	4	﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ (٤)
سورة البينة		
202	7	﴿ إِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴾ (٧)
سورة الزلزلة		
148	8-7	: ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) ﴾
سورة العلق		
94، 207 230، 233	5-1	﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) ﴾

ثانيا: فهرس الأحاديث النبوية.

الصفحة	طرف الحديث
217	أكمل المؤمنين إيماناً أحسنكم...
217	"إنّ من خياركم أحسنكم أخلاقاً"
217	"إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"
111	"إني قد خلفت فيكم شيئين..."
106	"أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية.... وحرماً ما حرم علينا و أحللنا ما أحل لنا"
218	"البر حسن الخلق"
106	تقوى الله وحسن الخلق
60	"خلق الله آدم على صورته"
106	"رأيت رسول الله بصر عيني بسوق ذي المجاز...."
230	"طلب العلم فريضة على كل مسلم"
107	"عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة..... فلتزم الجماعة"
106	"غلمانا حزاوذة مع رسول الله فتعلمنا الإيمان قبل القرآن"
164	"فإنما هلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فهم الشريف"
107	"كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته.... وهو مسؤول عن رعيته"
245	"لا حسد إلا في اثنتين،
170	"ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن.... من حسن الخلق"
109	"من خرج من الطاعة.... مات ميتة الجاهلية"
168	"من رأى منكم منكراً فليغيره"
107	"من سلك طريقاً يطلب فيه علماً.... أخذه بحظ وافر"

ثالثاً: قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم

- المصادر:

- كتب الأمير عبد القادر الجزائري:

1. ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، ت عمار طالي، دار القصة، الجزائر، ط1، 2005م.
2. رسالة المقرض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام بالباطل والإلحاد، ت الأميرة بديعة الحسنية (أخرجته المحققة ضمن كتاب فكر الأمير عبد القادر الجزائري حقائق وثائق)، دار الفكر، دمشق، (دط)، 2000.
3. المذكرات، ت مُجد الصغير باني، دار الأمة، الجزائر، دط، 1494.
4. المواقف في بعض إشارات القرآن على الأسرار والمعارف، ت عبد الباقي مفتاح، دار الهدى، الجزائر، ط1، 1426هـ-2005م / ط2، 2007م.

- المراجع:

5. إبراهيم بن علي الوزير: على مشارف القرن الخامس عشر الهجري، دراسة للسنن الإلهية والمسلم المعاصر، مصر-لبنان، ط4، 1409-1989م.
6. أجروت شارل رويير: تاريخ الجزائر (1830-1976)، تر عيسى عصفور، منشورات عويدات، بيروت، (دط)، 1983.
7. أحمد أبو حاقة، معجم النفائس الوسيط، دار النفائس، بيروت، ط2، 2011م.
8. أحمد بن علي الجصاص: أحكام القرآن، ت مُجد صادق القمحاوي، دار احياء التراث العربي، بيروت، (دط)، 1405هـ.
9. أحمد عميراي: - أوراق تاريخية، دار الهدى، الجزائر، 2006م.
- __تاريخ الجزائر الحديث، دار الهدى، الجزائر، ط2، 2009م.

10. أحمد كنعان: أزمنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق، ضمن كتاب الأمة، الصادر عن مركز البحوث والمعلومات برئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية في قطر، ط1، محرم 1411هـ.
11. أحمد محمود آل مُجَّد: البيعة في الإسلام، دار الرازي، (دط) ، (دت)، (دس).
12. أحمد محمود الجزار: الله والإنسان عند الأمير عبد القادر الجزائري، دار الوفاء، الإسكندرية، ط1، 2015م.
13. أديب حرب: التاريخ العسكري والإداري للأمير عبد القادر الجزائري، دار الرائد للكتاب، الجزائر، ط1، 1983، ط2، 2004م.
14. أبو إسحاق إبراهيم الشاطبي: الموافقات في أصول الشريعة، ت إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت، ط4، 1420هـ-1999م.
15. إسماعيل العربي: المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر الجزائري، ش و ن ت، الجزائر، ط2، 1982.
16. ألتز عزيز سامح: الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ت محمود علي عامر، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 1409هـ-1989م.
17. أميرة حلمي مطر، الفلسفة اليونانية تاريخها ومشكلاتها، دار قباء، القاهرة، (دط)، 1998م.
18. إياد الركابي: السّنين التاريخية في القرآن المجيد، دار النهضة الإسلامية، بيروت، ط1، 1996م.
19. بديع الزمان النورسي: سقيل الإسلام، ت إحسان قاسم الصالح، شركة سوزلر، مصر، ط3، 2002م.
20. برهان زريف: الشورى في الإسلام، وزارة الإعلام السوري، (دط)، 2016.
21. برونو إثيين: الأمير عبد القادر الجزائري، ت المهندس ميشل الخوري، دار العربي، لبنان، ط1، 1997.
22. بسام العسيلي: جهاد الشعب الجزائري المقاومة الجزائرية للاستعمار الفرنسي، دارالنفائس، لبنان، ط2، 1983.

23. بلبروات بن عتو: المدينة والريف بالجزائر أواخر العهد العثماني، (رسالة دكتوراه، منشورة 2007-2008م).
24. تقي الدين ابن تيمية: _مجموع الفتوى، ت عبد الرحمن بن مُحمَّد قاسم، مجمع الملك فهد للصباعة، (دط)، 1416هـ-1995م. نسخة ثانية: مجموع الفتوى، ت مُحمَّد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1408.
- _درء تعارض العقل مع النقل، ت مُحمَّد رشاد سالم، (دد)، المملكة السعودية، (دط)، ط 1411-1991م.
25. تقي الدين أبو الفتح مُحمَّد المعروف بابن دقيق العبد: شرح الأربعين النووية في الأحاديث الصحيحة النبوية، مؤسسة الريان، ط6، 1424-2003م.
26. توفيق الطويل: أسس الفلسفة، مكتبة القاهرة، مصر، ط3، (دت).
27. جرار جهامي، موسوعة المصطلحات الفلسفية عند العرب، مكتبة لبنان، بيروت، (دط)، 1998م.
28. أبو جعفر مُحمَّد الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ت عصام فارس الحريستاني، ياسر عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1415هـ-1994م، نسخة ثانية بتحقيق أحمد محمود شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1420-2000.
29. جمال قنان: العلاقات الفرنسية الجزائرية (1790-1830)، متحف المجاهد، الجزائر (دط)، (دت).
30. جودت سعيد: _اقرأ وربك الأكرم، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط1، 1988م، ط2، 1993.
- _حتى يغيروا ما بأنفسهم، ت مالك بن نبي، مؤسسة الأهرام، القاهرة، ط8، 1989م.
31. الحاج أحمد الشريف الزاهر: مذكرات، ت أحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، (دط)، 1972.
32. الحارث بن أسد المحاسبي: فهم القرآن ومعانيه، ت خالد رمضان أحمد، ط1، 1436-2015م.

33. أبي الحسن الأشعري، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، ت محمد محي الدين بد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، (دط)، 1411هـ-1990م.
34. أبو الحسن الماوردي: النكت والعيون، ت السيد بن عبد الحكيم، دار الكتب العلمية، بيروت، (دط)، (دت).
- أدب الدنيا والدين، دار مكتبة الحياة، (دب)، (دط)، 1986.
35. أبو الحسين أحمد بن فارس: مقياس اللغة، ت عبد السلام، محمد هارون، دار الفكر، (دب)، (دط)، 1979.
36. أبو حفص عمر بن شاهين: الترغيب في فضائل الأعمال وثواب ذلك، ت محمد حسن محمد سماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1424.
37. حميد الدين الفراهي: القائد على عيون العقائد، الدائرة الحميدية ومكتباتها، الهند، ط1، 1395هـ-1975.
38. حنا الفاخوري، خليل الجر، تاريخ الفلسفة العربية، دار الجيل، بيروت، لبنان، (دط)، (دت).
39. حنفي هلال: -أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، در الهدى للطباعة والنشر، الجزائر، ط3، 2008م.
- بنية الجيش العثماني، دار الهدى للطباعة، (دب)، ط1، 2007م.
40. خالد بن عبد الله بن مسلم القرشي، تربية النبي p لأصحابه رضوان الله عليهم، دار المناهج للنشر والتوزيع، السعودية، الرياض، ط1، 1435هـ.
41. أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني: سنن أبي داود، ت محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة المصرية، صيدا، بيروت، (دط)، (دت).
42. رابح تركي: التعليم القوي والشخصية الجزائرية، ش ون ت، الجزائر، ط2، 1981م.
43. الراغب الأصفهاني: -المفردات في غريب القرآن، ت محمد سيد كلائي، دار المعرفة، بيروت، (دط)، (دت).
- تفصيل النشاطين وتحصيل السعادتين، ت أسعد السمرائي، دار النفائس، بيروت، 1988م.

44. راغب السرجاني: ماذا قدم المسلمون للعالم اسهامات المسلمين في الحضارة الإسلامية، مؤسسة إقرأ، القاهرة، ط1، 2009م.
45. رشيد رضا: تفسير القرآن الحكيم (المشهور بتفسير المنار)، ت محمد رشيد بن علي بن شمس الدين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر (دط)، 1990م.
46. رشيد كهوس: علم السنن الإلهية من الوعي النظري إلى التأسيس العلمي، مركز جمعية ماجد للثقافة والثرات، دبي الإمارات، ط1، 1436هـ-2015م.
47. رمضان خميس زكي: مفهوم السنن الربانية، ت محمد عمارة، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط1، 2006.
48. زينب عبد السلام أبو الفضل: عناية القرآن بحقوق الإنسان، دار الحديث، القاهرة، ط1، 1429-2008م.
49. سعاد الحكيم: المعجم الصوفي، دندرة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1401هـ، 1981م.
50. سعيد بن علي القحطاني: الأخلاق في الإسلام في ضوء الكتاب والسنة وآثار الصحابة، مكتبة الملك فهد، الرياض، ط1، 1436هـ-2015م. _ الجهاد في سبيل الله، مؤسسة جريسي للتوزيع والإعلان، الرياض، ط6، 1431.
51. سعيد حوى: الإسلام، دار الكتاب العلمية، بيروت، ط2، 1389هـ-1869م.
52. السعيد عاشور: الإنسان في القرآن الكريم، دار عزين، القاهرة، مصر، (دط)، 2002م.
53. سكوت كولونيل: مذكرات عن إقامته في زمالة الأمير عبد لقادر (1841)، اسماعيل العربي، ش و ط ن ت، الجزائر، (دط)، 1981.
54. سليمة كبير: الأمير عبد القادر ناصر الإسلام والوطن، المكتبة الخضراء، الجزائر، (دط)، 2012.
55. سيد قطب: _ في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط17، 1412هـ.
- _ في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، ط15، 1408هـ-1988م.
56. شريف الشيخ صالح أحمد الخطيب: السنن الإلهية في الحياة الإنسانية وأثر الإيمان بها في العقيدة والسلوك، مكتبة الرشيد للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، 1425هـ-2004م.

57. الشريف مُحمَّد الهادي: تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الإستقلال، تع: مُحمَّد الشاوي ومُحمَّد عدينة، سراج النشر، تونس، ط2، 1985م
58. شمس الدين القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ت ابراهيم البردوني، ابراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، (دط)، 1384هـ-1964م.
59. شهاب الدين محمود الألوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم السبع المثاني، ت على عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1415.
60. الصادق مزهود، تاريخ القضاء في الجزائر من العهد البربري إلى حرب التحرير الوطني، دار بهاء الدين، الجزائر، ط2، 2012.
61. صالح عباد: الجزائر خلال الحكم التركي (1514-1830م)، دار هومة، الجزائر، 2007.
62. صالح فركوس: المختصر في تاريخ الجزائر من عهد الفنيقيين إلى الخروج الفرنسيين، دار العلوم، الجزائر، (دط)، (دت).
63. أبو طاهر مجد الدين الفيروز آبادي: بصائر ذوي التميز في لطائف الكتاب العزيز، ت مُحمَّد على النجار، (دد)، القاهرة، ط3، 1993م.
64. عائشة عبد الرحمن: _ القرآن وقضايا الإنسان، دار العلم للملايين، بيروت، ط5، 1982م. _الشخصية الإسلامية، دراسة قرآنية، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1986.
65. عادل بن بوزيد عيساوي: فقه السنن الإلهية ودورها في البناء الحضاري، دار الكتب الفطرية، الدوحة، ط2، 2012م.
66. عبد الرحمن الجيلاني: تاريخ الجزائر العام، دار الثقافة، بيروت، ط6، 1983م.
67. عبد الرحمن بدوي: الإنسان الكامل في الاسلام، وكالة المطبوعات، الكويت، (دط)، (دت).
68. عبد الرحمن بن ناصر السعدي: تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (المشهور بتفسير السعدي) ت عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ-2000م.
69. عبد الرحمن بن ناصر السعدي: جهاد الأعداء ووجوب التعاون بين المسلمين، دار ابن القيم، (دط)، 1411-1991م.

70. عبد الرزاق بن السبع: الأمير عبد القادر وأدابه، مؤسسة جائزة عبد العزيز البابطين للإبداع الشعري، منشور على الرابط: <https://wwwnoor-book.com/givi7f>
71. عبد الكريم الجيلاني: الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل، دار الكتب العربية الكبرى، مصر، (دط)، (دت).
72. عبد الكريم الخطيب، الله والإنسان، دار الفكر، (دب)، (دط)، (دت).
73. عبد الكريم زيدان: -السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1993م.
- _ أصول الدعوة، مؤسسة الرسالة، ط1، 2001م، 1421.
74. أبو عبد الله أحمد بن حنبل: مسند الإمام أحمد بن حنبل، ت شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1421-2001.
75. أبو عبد الله محمد ابن القيم الجوزية: الشفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، دار المعرفة، بيروت، (دط)، 1398هـ-1978م.
76. أبو عبد الله محمد القرطبي: جامع أحكام القرآن، ت أحمد البدروني وإبراهيم اطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط2، 1384-1964م.
77. أبو عبد الله محمد ابن ماجه: سنن ابن ماجه، ت محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، (دب)، (دت).
78. عبد الملك بن هشام: السيرة النبوية (المعروفة بسيرة ابن هشام)، ت جمال ثابت ورفاقه، دار الحديث، القاهرة، (دط)، 2004م.
79. عبد المنعم قاسمي حسني: دور الزوايا والطرق الدينية في محاربة الإحتلال الفرنسي في الجزائر، ديوان لمطبوعات الجامعية، دط، 2007م.
80. عبد الوهاب فرحات: نظرية الإنسان عند محي الدين بن عربي، رسالة دكتوراه، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم لاسلامية والانسانية، قسنطينة، 2004م.
81. عبد لله دراز: الدين بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، دار القلم، الكويت، (دط)، (دت).

82. عدى الهواري: الاستعمار الفرنسي في الجزائر، ت جوزيف عبد الله، دار الحداثة، بيروت، 1983.
83. عرفان عبد الحميد فتاح: نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها، دار الجيل، بيروت، ط1، 1413هـ-1993م.
84. على بن محمد الجرجاني، التعريفات، دار الكتب المصرية، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، (دط)، 1411هـ-1991م.
85. على محمد الصلابي: _ الأمير عبد القادر قائد رباني ومجاهد إسلامي، كتاب منشور على النت على الموقع: <https://maktbah.net>
- _ الإيمان بالقرآن الكريم والكتب السماوية، المكتبة العصرية، (دب)، ط1، (دت)، منشور على النت على الرابط: <https://www.noor-book.com/>
- _ كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال، دارالمعرفة، بيروت، لبنان، منشور على الرابط: <https://www.noor-book.com/7bdl>
86. عماد الدين خليل، التفسير الإسلامي للتاريخ، دار العلم للملايين، بيروت، ط3، 1981.
87. عمار بوحوش: التاريخ الساسي للجزائر من البداية إلى غاية الاستقلال، 1962م، دار البصائر، الجزائر، ط3، 2008م.
88. عمار جيدل: ماهية الإنسان من خلال رسائل النور، شركة نسر للطباعة والتوزيع، (دب)، ط1، 1422هـ-2001.
89. العنزي: مجاعات قسنطينة، ت رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، (دط)، 1974م.
90. أبو عيسى محمد الترمذي: الجامع الكبير، ت بشار عواد معروف، دار الغرب الاسلامي، بيروت، (دط)، (دت).
91. غسان سليم سالم، محاور الالتقاء ومحاور الافتراق بين المسيحية والاسلام، دار الطليعة، بيروت، ط1، 2003م.
92. فاروق أحمد الدسوقي: الخلافة الإسلامية حقيقتها وأصولها الاعتقادية وحتمية عودتها، (دب)، (دد)، ط1، 1418هـ-1998م.

93. أبو الفداء اسماعيل ابن كثير: السيرة النبوية من البداية إلى النهاية، ت مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، دط، 1976-1995.
- __ تفسير القرآن العظيم (المشهور بتفسير ابن كثير)، ت سامي بن محمد سلامة، دار طيبة، ط2، 1420-1999م.
94. فريدة قاسي: الدولة في فكر الأمير عبد القادر (1832هـ-1847م)، منشورات بونة للبحوث والدراسات الجزائرية، 2012م.
95. أبو الفضل محمد ابن منظور: لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، (دت)، (دط).
96. فؤاد صالح السيد: الأمير عبد القادر الجزائري متصوفاً وشاعراً، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، 1985م.
97. أبو قاسم سعد الله: __ تاريخ الجزائر الثقافي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، (دط)، 1981م.
- __ أفكار جامحة، ش م ون ك، الجزائر، (دط)، 1988م.
- __ محاضرات في تاريخ الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط3، 1982م.
98. أبو قاسم محمود الزمخشري: -أساس البلاغة، محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1998م. _ الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1407.
99. القاضي عبد الجبار، المغني في أبواب التوحيد، ت مصطفى السقا، المؤسسة المصرية العامة، (دط)، 1385هـ-1965م.
100. كابد قرعوش وآخرون: الأخلاق الإسلامية، دار الكتب، الرياض، ط1، 1992م.
101. لأكوست وآخرون: الجزائر بين الماضي والحاضر، ت رابح اسطنبولي، منصف عاشور، ديوان المطبوعات الجزائرية، (دط)، 1984م.
102. ماجد غرسان الكلاي: فلسفة التربية الإسلامية، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط1، 1407-1987م.
103. مالك بن نبي: -تأملات، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط1، 1979م.

- __ شروط النهضة، ت كمال مسقاوي وعبد الصبور شاهين، (دط)، 1985م.
104. مبارك الملي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، (دط)، 1964.
105. المثني عبد الفتاح محمود: فقه التغيير وبناء الأمة الوسط، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة، ط1، 1437هـ-2016.
106. مجموعة من المؤلفين: __ الموسوعة العقدية، موقع الدرر السنية على النت: dorar.net
- __ الشورى في الإسلام، المجمع الملكي للبحوث الحضارة الإسلامية، مؤسسة آل البيت، عمان، (دط)، 1989م.
- __ المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، مصر، ط4، 1425هـ-2004م.
107. محفوظ قداش: جزائر الجزائريين، تر محمد المغربي، المؤسسة الوطنية للاتصال والطبع، الجزائر، (دط)، 2008.
108. محمد أبي بكر الرازي: مختار الصحاح، دار المعاجم، مكتبة لبنان، (دط)، 1986.
109. محمد أبي حامد الغزالي: __ إحياء علوم الدين، دار قتيبة، دمشق، ط1، 1412هـ-1992م.
- __ المنقذ من الضلال، ت جميل صليبا، دار الأندلس، بيروت، (دط)، (دت).
- __ تحافت الفلاسفة، ت جيار جهامي، دار الفكر، بيروت لبنان، ط1، 1993م.
110. محمد الحكيم الصعيدي: البيئة في الفكر الانساني والواقع الإيماني، الدار المصرية، القاهرة، (دط)، (دت).
111. محمد السعيد قاصري: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر (1962هـ-1830م)، دار الإرشاد للنشر والتوزيع، (دب)، (دط)، 2013م.
112. حمد الطاهر بن عاشور: تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد (المشهور بتفسير التحرير والتنوير)، الدار التونسية، تونس، (دط)، 1984.
113. محمد هشور: سنن القرآن و دورها في قيام الحضارات وسقوطها، المعهد العالمي للفكر الإسلامي للرسائل الجامعية، القاهرة، ط3، 1417هـ-1996م.

114. أبو مُحمَّد العز بن عبد السلام: -ملحمة الاعتقاد، دار البشائر، بيروت، ط1، 1414.
_تفسير القرآن، ت عبد الله بن مُحمَّد ابراهيم الوهي، دار بن حزم، بيروت-لبنان-ط1، 1416.
115. مُحمَّد الغزالي: كيف تتعامل مع القرآن، دار نهضة مصر للطباعة، ط7، 2005م.
116. مُحمَّد المختار اسكندر: المدينة بين القديم والحديث، المطبعة الشعبية للجيس، دط، 2007م.
117. مُحمَّد أمحزون: منهج النبي ﷺ في الدعوة، دار السلام، مصر، ط5، 1431هـ-2010.
118. مُحمَّد بركات مراد: الأمير عبد القادر الجزائري المجاهد الصوفي، دار النشر الإلكتروني، كتاب منشور على النت على الرابط: <https://www.noor-book.com/hmiy1a>
119. مُحمَّد بن اسماعيل البخاري: الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله وسننه، وأيامه (المشهور بصحيح البخاري)، ت مُحمَّد زهير بن ناصر الناصر، دار الطرق النجاة، ط1، 1422هـ
120. مُحمَّد بن عبد العزيز الخضري: وقفات مع آيات جهاد، دار الوطن للنشر، الكتاب الإسلامية، كتاب منشور على النت: <https://www.noor-book.com/09dybq>
121. مُحمَّد بن عبد القادر الجزائري: تحفة الزائر، ت محمود حقي، منشورات مؤسسة الأمير عبد القادر، دط، 2007م.
122. مُحمَّد بن عبد الكريم بن عبيدة: تخريج الأحاديث المرفوعة المسندة في كتاب التاريخ الكبير للبخاري، مكتبة الرشد، الرياض، ط1، 1420هـ-1999م
123. مُحمَّد بن علي الشوكاني: إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، ت أحمد عزو عناية، دار الكتاب العربي، ط1، 1419هـ-1999م.
124. مُحمَّد رشيد رضا: -الخلافة، مؤسسة الهنداوي للنشر، المملكة المتحدة، (دط)، 2015.
_الوحي المحمدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1426-2005م.
125. مُحمَّد سعيد الطنطاوي: التفسير الوسيط للقرآن العظيم، دار النهضة المصرية للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1997م.
126. مُحمَّد سعيد العشماوي: الخلافة الإسلامية، سينا للنشر، القاهرة، ط2، 1922م
127. مُحمَّد سعيد رمضان البوطي، منهج الحضارة في القرآن، دار الفكر، دمشق، دار الفكر، دمشق، ط3، 1982.

128. مُحمَّد عبده، الإسلام العلم والمدينة، كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة، (دط)، (دت).
129. مُحمَّد عمارة: إحياء الخلافة الإسلامية حقيقة أم خيال، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط1، 2005م.
- مقام العقل في الإسلام، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ط1، 2008م.
130. مُحمَّد فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، دار الفكر، بيروت، ط1، 1401-1981.
131. مُحمَّد مرحبا، مع الفلسفة اليونانية، منشورات عويدات، بيروت، 1999.
132. مُحمَّد ناصر الدين الألباني: الحديث حجة بنفسه في العقائد والأحكام، مكتبة المعارف، الرياض، ط1، 2005م.
133. مُحمَّد نعيم ياسين: حقيقة الجهاد في الاسلام، دار الأرقم، (دب)، ط1، 1404هـ-1984م.
134. محمود إسماعيل: الخلافة الإسلامية بين الفكر والتاريخ، مصر العربية للنشر، القاهرة، ط1، 2006م.
135. محي الدين بن عربي، الفتوحات المكية، دار الفكر، (دب)، (دط)، (دت).
136. مرتضى الزبيدي: تاج العروس، ت مجموعة من المحققين، دار الهداية، مصر، (دط)، 1965.
137. مسلم بن الحجاج: المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله (المشهور بصحيح مسلم)، ت مُحمَّد فؤاد عبد الباقي، دار احياء التراث، بيروت، (دط)، (دت).
138. مصطفى طلاس: فارس الجزائر الأمير عبد القادر، طلاس للدراسة والنشر، دمشق، (دط)، (دت).
139. أبو المظفر منصور السمعاني: تفسير القرآن، ت ياسر بن ابراهيم- وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن الرياض، السعودية، ط1، 1418هـ-1997م.
140. مقداد ياجن: علم الأخلاق الإسلامية، دار علم الكتب، الرياض، ط1، 1413هـ-1992م، ط2، 1424هـ-2003م.

141. نصر الدين سعيدوني: تاريخ الجزائر العهد العثماني، البصائر الجديدة، الجزائر، دط، 2013م.
142. نصر حامد أبو زيد، فلسفة التأويل دراسة في تأويل القرآن عند محي الدين بن عربي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط4، 1988م.
143. أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ت محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة، القاهرة، (دط)، (دت).
144. هنري تشرشل: حياة الأمير عبد القادر الجزائري، ت أبو قاسم سعد الله، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (دط)، (دت).
145. وسيلة خلفي: نظرية الاستقرار الفقه الإسلامي، دار ابن حزم، بيروت، ط2015.
146. وليام شالر: مذكرات قنصل أمريكا في الجزائر (1816-1824)، تع إسماعيل العربي، شون ت، الجزائر، 1982.
147. وهبة الزحيلي: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط2، 1418.
148. يحي بوعزيز، الأمير عبد القادر رائد الكفاح المسلح، دار البصائر، الجزائر، (دط)، 2009م.
149. يوسف العظم: الإيمان وأثره في نهضة الشعوب، ت سيد قطب، الدار السعودية للنشر والتوزيع، (دط)، (دت)، (دب).
150. يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، دار القلم، بيروت، ط3، دت.

-المقالات والمجلات:

151. أحمد بن موفقي: الصراع الأوروبي الجزائري أواخر العهد العثماني، مجلة حقائق للدراسات النفسية والاجتماعية، ع10.
152. أرزقي شيوتام: دور الكراغلة في الجزائر أثناء الفترة العثمانية (1519-1830)، مجلة أفكار وأفاق، مج3، ع4، 2013.
153. اسماعيل زروخي: مساهمة الأمير عبد القادر في النهضة العربية، مجلة العلوم الانسانية، جامعة منتوري، قسنطينة، ع2، مج11، س 2000.

154. بكار العايش: الوضعية العامة للجزائر قبيل الاحتلال، مجلة حوليات التريخ والجغرافيا، الجزائر، مج1، ع2.
155. خديجة شيخي: المقاومة الثقافية في فكر الأمير عبد القادر، مجلة الحكمة للدراسات التاريخية، ع4، 2020م، مج8.
156. ذهبية بوشيبة: العلم والعلماء في الجزائر خلال العهد العثماني، مجلة الحوار المتوسطي، ع1، مج3.
157. رشيد رمضان سلوان: أوضاع الجزائر خلال الحكم العثماني (1518-1830)، مجلة الدراسات التاريخية والحضارية، مج5، ع16، 2013.
158. رشيد كهوس: _أبواب الجهاد في الفكر الاسلامي، مجلة الداعي الشهرية الصادرة عن دار العلوم ديويند، ذو الحجة 1431-نوفمبر-ديسمبر 2010م، ع12، السنة 34.
- _رشيد كهوس: منهج الحديث النبوي الشريف في الكشف عن السنن الإلهية، مجلة المدونة، تصدر عن مجمع الفقه الاسلامي بالهند، ع15، س4، ربيع الآخر، 1439-يناير 2018.
159. رشيد مريخي: ملامح من الحياة الثقافية في الجزائر، أواخر العهد العثماني، مجلة الحكمة للدراسات التاريخية، مج5، ع12، ديسمبر 2017.
160. سامية أبو عمران: الأمير عبد القادر رمز المقاومة الجزائرية، مجلة المصادر، ع11، السادس الأول 2005م.
161. سيف الدين عبد الفتاح: المنهجية الإسلامية مقدمات التفكير ومقومات المنهج، المعهد المصري للدراسات، ع21، ماي 2021.
162. عبد الرحمن كريب: الأمير عبد القادر ومشروع الدولة الوطنية، مجلة كان التاريخية علمية عالمية، محكمة، ع36، س10 يونيو، 2017.
163. عبد القادر دوحه: اسهامات الأمير عبد القادر في الاقانون الدولي، مجلة المواقف للبحوث والدراسات المجتمع والتاريخ، ع5، ديسمبر.
164. العربي الزبيري: مقاومة الجزائر للتكتل الأوروبي قبيل الاحتلال، مجلة الأصالة، ع12، 1983.

165. فاطمة قشي سيدهم: مكانة التصوف في الحياة الاجتماعية والسياسية في العهد العثماني في الجزائر، مجلة المغاربية للدراسات التاريخية والاجتماعية، ع1، الجزائر، 2009م.
166. فلابية العربي: البعد الإنساني في شخصية الأمير عبد القادر من خلال كتاب حياة الأمير عبد القادر، مجلة المعيار تصدر عن مركز الجامعي تسمسيلت، ع2، ديسمبر 2010.
167. كريمة حرشوش: الأمير عبد القادر في ربوع الشام وموقفه من الفتنة الطائفية (1856-1860)، مجلة عصور، مج19، ع1، جوان 2020.
168. مبارك شوارد: لمحة عن لأوضاع السياسية للجزائر في أواخر العهد العثماني، مجلة العلوم الإسلامية والحضارة، ع4، 2016.
169. محمد الأمين بوحلوفة: قراءة في أسس الحكم الرشيد في دولة الأمير عبد القادر الجزائري، مجلة الحقيقة، جامعة أحمد دراية، أدرار، ع37.
170. ناصر الدين سعيدوني: ثورة بن الأحرش بين التمرد المحلي والانتفاضة الشعبية، مجلة الثقافة الجزائرية، ع78، 1983.

فهرس الموضوعات

أ	مقدمة
	الفصل التمهيدي: ترجمة الأمير عبد القادر الجزائري
2	تمهيد
3	المبحث الأول: خصائص العصر الذي ولد فيه الأمير عبد القادر الجزائري
3	المطلب الأول: الحياة السياسية
3	أولاً: الوضع السياسي الداخلي
9	ثانياً: الوضع السياسي الخارجي
12	المطلب الثاني: الحياة الاجتماعية
12	أولاً: تركيبة المجتمع الجزائري في عهد الدايات
14	ثانياً: تعداد السكان وأوضاعهم الاجتماعية
16	المطلب الثالث: الحياة الثقافية
17	أولاً: مراكز التعليم في الجزائر
18	ثانياً: نوعية العلوم السائدة وأشهر العلماء في أواخر العصر العثماني بالجزائر
22	المبحث الثاني: حياة الأمير عبد القادر
23	المطلب الأول: نسب الأمير وتربيته
23	أولاً: اسمه ونسبه وكنيته، وأصل أسرته
24	ثانياً: تربية الأمير
24	المطلب الثاني: رحلات الأمير وجهاده
24	أولاً: رحلاته
26	ثانياً: جهاده، أسره، وفاته
28	المطلب الثالث: آثاره

28	أولاً: آثاره
29	ثانياً: التعريف بكتابه المواقف
	الفصل الأول: الإنسان في فكر الأمير عبد القادر الجزائري
34	تمهيد
35	المبحث الأول: مفهوم الإنسان عند الأمير عبد القادر
35	المطلب الأول: الاشتقاقات اللغوية للفظه الإنسان
35	أولاً: الأنس
36	ثانياً: النسيان
37	ثالثاً: النواس
38	المطلب الثاني: التعريفات الاصطلاحية للإنسان
40	أولاً: تعريف الإنسان في الفلسفة اليونانية
40	ثانياً: تعريف الإنسان في الفكر الإسلامي
443	ثالثاً: الإنسان في الكتب المقدسة
45	المطلب الثالث: تعريف الإنسان عند الأمير عبد القادر
46	أولاً: تعريف الأمير للإنسان بالروح والعقل والنفس
49	ثانياً: تعريف الأمير عبد القادر للإنسان بالجمع بين الظاهر و الباطن
50	ثالثاً: تعريف الأمير للإنسان بالوظيفة
54	المبحث الثاني: الكمال الإنساني في فكر الأمير عبد القادر الجزائري
54	المطلب الأول: حقيقة الإنسان الكامل عند الأمير عبد القادر
55	أولاً: معنى الكمال الإنساني في اللغة و الاصطلاح
56	ثانياً: الكمال الإنساني عند الأمير عبد القادر

65	المطلب الثاني: وظائف الإنسان الكامل عند الأمير عبد القادر
65	أولاً: الوظيفة الوجودية
68	ثانياً: الوظيفة المعرفية
71	ثالثاً: الوظيفة الأخلاقية السلوكية
74	المطلب الثالث: الحقيقة المحمدية عند الأمير عبد القادر
75	أولاً: الحقيقة المحمدية في المخیال الصوفي عند الأمير عبد القادر
78	ثانياً: الحقيقة المحمدية هي أكمل مظاهر الإنسان الكامل عند الأمير عبد القادر
الفصل الثاني: السّنن في فكر الأمير عبد القادر الجزائري	
84	تمهيد
85	المبحث الأول: مفهوم السّنن ووجوهها في القرآن الكريم
86	المطلب الأول: التعريفات اللغوية والاصطلاحية للسّنن
86	أولاً: الاشتقاق اللغوي ومدلوله للفظ السّنن
88	ثانياً: مفهوم السّنن في الاصطلاح
94	المطلب الثاني: السّنن في ضوء القرآن الكريم والسيرة النبوية
95	أولاً: استقرار لفظ السّنن في الآيات القرآنية
104	ثانياً: حضور السّنن في السيرة النبوة الشريفة
111	المطلب الثالث: أوجه السّنن الإلهية (أنواعها) وخصائصها وأهميتها
113	أولاً: أوجه السّنن
119	ثانياً: أهمية دراسة السّنن الإلهية وخصائصها
127	المبحث الثاني: أبعاد الفكر السنني عند الأمير عبد القادر
128	المطلب الأول: الوعي بالقانون السنني ومدلوله في فكر الأمير عبد القادر

128	أولاً: الألفاظ المستعملة للدلالة على السنن و مدلولها في كتابات الأمير عبد القادر
132	ثانياً: الأخذ بالأسباب (السنن) من باب الحكمة
136	ثالثاً: مفهوم السنن لدى الأمير عبد القادر
139	المطلب الثاني: وجوه القانون السني في فكر الأمير عبد القادر
141	أولاً: الوجه الأول للقانون السني عند الأمير عبد القادر
145	ثانياً: الوجه الثاني للقانون السني عند الأمير عبد القادر
149	المطلب الثالث: البعد الواقعي لحضور السنن لدى الأمير عبد القادر
150	أولاً: منهج الأمير عبد القادر في العمل بالقانون السني الإلهي
151	ثانياً: الأسس التي عمل بها الأمير عبد القادر لقيام دولته (رؤية سننية لهذه الأسس)
الفصل الثالث:	
منهج التغيير الإنساني عند الأمير عبد القادر الجزائري	
177	تمهيد
178	المبحث الأول: أسس التغيير ومرتكزاته عند الأمير عبد القادر
178	المطلب الأول: مفهوم التغيير
178	أولاً: التغيير في اللغة
181	ثانياً: التغيير في القرآن والسنة
189	ثالثاً: لفظة التغيير عند الأمير عبد القادر
191	المطلب الثاني: أسس التغيير عند الأمير عبد القادر
194	أولاً: الأساس الأول "الإيمان"
204	ثانياً: الأساس الثاني "قوة العقل و العلم"
212	ثالثاً: الأساس الثالث "الإلتزام الأخلاقي"
220	المطلب الثالث: مرتكزات التغيير

220	أولاً: الإنسان قائد التغيير
225	ثانياً: فهم القرآن والعمل به
227	المبحث الثاني: مجالات التغيير الإنساني عند الأمير عبد القادر
228	المطلب الأول: التغيير المعرفي
228	أولاً: أهمية العلم والمعرفة في فكر الأمير عبد القادر وصلتها بالتغيير
234	ثانياً: أنواع العلوم والمعارف التي حث عليها الأمير عبد القادر
240	ثالثاً: حضور السنن في مجال التغيير المعرفي عند الأمير عبد القادر
242	المطلب الثاني: التغيير السلوكي (الأخلاقي)
242	أولاً: أهمية الأخلاق عند الأمير عبد القادر الجزائري
244	ثانياً: التعديل في السلوك من خلال تركية النفس عند الأمير عبد القادر
247	ثالثاً: التغيير السلوكي وعلاقته بالإنسان الكامل و السنن الإلهية
252	المطلب الثالث: التغيير الوجودي (الإستخلافي)
253	أولاً: معنى و مقصد التغيير الوجودي عند الأمير عبد القادر
253	ثانياً: أبعاد الخلافة عند الأمير وعلاقتها بالكمال الإنساني
264	خاتمة
الفهارس	
270	أولاً: فهرس الآيات
281	ثانياً: فهرس الأحاديث
282	ثالثاً: قائمة المصادر والمراجع
297	فهرس الموضوعات
	الملخصات

الملحقَات

ملخص باللغة العربية:

يعدّ الأمير عبد القادر الجزائري من كبار الشخصيات المهمة التي مرّت على الجزائر، في العصر الحديث مطلع القرن 19م، إذ يعتبر مؤسس الدولة الحديثة للجزائر، فهو ذلك الرجل العالم المجاهد السياسي الصوّفي، فهو صاحب نظرية وتجربة، اختاره شعبه ليكون قائداً لهم، فبايعوه على الإمارة والجهاد، فدخل الأمير مضمار التّغيير بمنهج مبني على مبادئ الإسلام، فقد استوعب منهجه أبعاد الفكر السنّي، الذي جاء الإسلام ليبرز دورها — السنن — في قيام الحضارات وأفولها، فقد استطاع الأمير عبد القادر بعبقريته الفذة ومعرفته المتشعبة أن يحوّل الفكر إلى ممارسة، واجتهد لوضع الحلول والعلاج للمشكلات التي أحاطت به، فبنى دولة في مدة لا تساوي في مقياس الزمن والحضارات شيء، وفي ظروف أقلّ ما يقال عنها أنّها لا تثمر بأي عملية تغييرية.

وكان الأمير عبد القادر في خضم الحياة كلّها يعيش ويجسّد نظريته حول الكمالية الإنسانيّة، التي يستطيع المرء فيها أن يرتقى ويلتحق إلى أعلى مصافي الإنسانيّة، فجاءت هذه الدّراسة لكي تزيل بعض اللّثام حول فكر الأمير عبد القادر الجزائريّ، الذي حُجب وراء سيرته الذاتيّة، التي سالت فيها الأقلام دون أن تبرز الجانب الفكري الحقيقي لهذه الشّخصية الفذة، فعالجنا في هذه الأطروحة جانباً من جوانب الفكر لدى هذه الشّخصية، فتطرّقنا فيها إلى موضوع "الإنسان وسنن التّغيير في فكر الأمير عبد القادر الجزائري".

الكلمات المفتاحية: الأمير عبد القادر الجزائريّ، الكمالية الإنسانيّة، أبعاد الفكر السنّي، منهج

التّغيير.

Abstract

The Algerian Emir Abed El-Kader is considered one of the most important personalities that Algeria has known in the modern era at the beginning of the 19th century AD, as he is considered the founder of the modern state of Algeria, he is that man, the scholar, the fighter, the political, the sufi, as he is the owner of theory and experience, whom his people chose him to be their leader, so they pledged allegiance to him over the emirate and djihad, so Emir entered the field of change with an approach based on the principles of Islam.

His approach absorbed the dimensions of "sunni" thought = (the laws of Allah), which Islam came to highlight its role -sunans- in the rise and fall of civilizations, Emir Abed El-Kader, with his unparalleled geniality and diversified knowledge, was able to transform thought into practice, and he strived to develop solutions for the problems that surrounded him.

Emir Abed El-Kader was embodying his theory about human perfectionism in the midst of the whole life, in which one can ascend and join the highest ranks of humanity.

Accordingly, this study came to remove the ambiguity about the Algerian Emir Abed El-Kader's thought which was veiled behind his biography, about which a lot was written without highlighting the true intellectual side of this unequaled personality. Therefore, in this thesis, we dealt with an aspect of the thought of this personality, in which we touched on the theme of "**Human and the principles of Change in the Algerian Emir Abed El-Kader Thought**".

Keywords: The Algerian Emir Abed El-Kader, human perfectionism, dimensione of "sunni" thought, approach to change.

Résumé

L'émir algérien Abed El-Kader est considéré comme l'une des personnalités les plus importantes que l'Algérie ait connues à l'ère moderne au début du XIXe siècle après JC, car il est considéré comme le fondateur de l'État moderne de l'Algérie, il est cet homme, le savant, le combattant, le politique, le soufi, car il est le propriétaire de la théorie et de l'expérience, que son peuple l'a choisi pour être leur chef, alors ils lui ont prêté allégeance sur l'émirat et le djihad, alors Emir est entré dans le domaine de changer avec une approche basée sur les principes de l'Islam.

Son approche a absorbé les dimensions de la pensée ‘’sunnite’’ = (les lois de Dieu), dont l'islam est venu mettre en évidence son rôle -sunan- dans l'ascension et la chute des civilisations, l'émir Abed El-Kader, avec son génie inégalé et ses connaissances diversifiées, a su transformer la pensée en pratique, et il s'est efforcé de développer des solutions aux problèmes qui l'entouraient.

L'émir Abed El-Kader incarnait sa théorie sur le perfectionnisme humain au milieu de toute la vie, dans laquelle on peut monter et rejoindre les plus hauts rangs de l'humanité.

Ainsi, cette étude est venue lever l'ambiguïté sur la pensée de l'émir algérien Abed El-Kader qui se cachait derrière sa biographie, sur laquelle on a beaucoup écrit sans mettre en évidence le véritable côté intellectuel de cette personnalité sans égal. C'est pourquoi, dans cette thèse, nous avons traité un aspect de la pensée de cette personnalité, dans lequel nous avons abordé le thème de **"L'homme et les principes de changement dans la pensée de l'émir algérien Abed El-Kader"**.

Mots-clés : L'émir algérien Abed El-Kader, perfectionnisme humain, dimensions de la pensée ‘’sunnite’’, approche du changement.

Democratic Popular Republic of Algeria
Ministry of Higher Education and Scientific Research
Amir Abd-el-Kader University of Islamic Sciences

Constantine

Faculty of Usūl al-Dīn



Department of Aqida and
Comparative Religions
Ordinal Number.....
Identification Number

Human and the principles of Change in the Algerian Emir Abed El-Kader Thought

Thesis submitted for academic doctoral L.M.D degree in:
Specialty: Akida

Elaborated by the student :

Zaidi Amira

Supervised by the Professor:

Lahlahe Alzuhra

The discussion jury members

Name and First Name	Function	Scientific Rang	Original University
	Chairman		
Pr. Lahlahe Alzuhra	Supervisor and Reporter	Professor	Amir Abdelkader University
	Membre		
	Membre		
	Membre		

University year: 1443 -1444h / 2022-2023